حرب بلا نهاية!!

وظائف خفية للحرب على الإرهاب

ديفيد كين

نقله إلى العربية
معين الإمام

العبيكان
obeikan


منتدى سور الأزبكية



حرب بلا نهاية؟

وظائف خفية للحرب على الإرهاب

ديفيد كين

نقله إلى العربية

معين الإمام



Original Title:

Endless War?

Hidden Functions of the 'War on Terror'

by: David Keen

ISBN 0 - 7453 24177

ISBN 0 - 40 - 54 - 9960 -978

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 / 2937581، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

الطبعة العربية الأولى **1429هـ ـ 2008م**

Ⓒ مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كين، ديفيد

حرب بلا نهاية. / ديفيد كين؛ معين الإمام. - الرياض 1429هـ

487 ص؛ 16.5× 24 سم

ردمك: 0- 40 - 54 - 9960 - 978

١ ـ الإرهاب - العالم

أ. الإمام، معين (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 909.83 1429 /478

رقم الإيداع: 478/ 1429

ردمك: 0- 04 - 54 - 9960 - 978

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595


بسم الله الرحمن الرحيم



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

شكر وتقدير

أود أن أشكر على وجه الخصوص سو ريدغريف، ودروسيلا دالي، وستيفاني ديفيز، إضافة إلى تيدي بريت، وتيم ألن، ودينيس رودجرز (في كلية لندن للاقتصاد). كما أشكر جيمس بوتزل خصوصا على المساعدة في تمويل البحث من خلال «مركز أبحاث الأزمات الدولية» في معهد دراسات التنمية في كلية لندن للاقتصاد. وأود أيضا أن أتقدم بجزيل الشكر إلى كليف هول، ومارك دوفيلد، إدوارد بليك، وفريدا بير، وزو ماريج، وثي مينه نغو، وإديكي إديباجو، وماتس بيردال، والراحلة دومنيك جاكين ـ بيردال، على ما قدموه من وقائع وأحداث ثمينة ومداخلات ومناقشات فكرية مهمة.

في دار نشر «بلوتو»، أعبر عن جزيل الشكر لديبجاني روي، وروبرت ويب، وجولي ستول، وميلاني باتريك، ولاسيما آن بيتش، إضافة إلى ليز أورم على تصميم الغلاف. والشكر كل الشكر أيضا إلى كريس كار (في «كوران بوبليشينغ»)، وستيوارت مكلارن على الإعداد الدقيق للمخطوط، وسوزان كوران على الفهرس. وإلى جو ريدل على صورة الغلاف.

أتوجه بعظيم الشكر والامتنان إلى أصدقائي كلهم، ووالدتي، وعمتي آن، وأفضل شقيقة في العالم. وأدين بأعظم فضل إلى زوجتي العزيزة فيفيان على حبها المتواصل، وطيبتها وتشجيعها المستمرين، وعلى نصائحها الحصيفة وإيمانها الذي لا يتزعزع بي طيلة مراحل هذا المشروع.

أود أن أهدي هذا الكتاب إلى الراحلة دومينيك جاكين ـ بيردال. فرحيلها في عام 2006 شكل خسارة فادحة للعلم والمعرفة ولجميع الذين أسعدهم الحظ بمعرفتها.

1
مقدمة

أهداف الكتاب وحجته

أفرزت الأساليب التكتيكية الراهنة المستخدمة في «الحرب على الإرهاب» نتائج عكسية متوقعة، وشملت استخدام الحملات العسكرية لمحاربة الإرهاب: خصوصا في الهجوم على أفغانستان، ثم العراق، وفي عمليات القمع العنيفة والسافرة ضد المقاومة واللجوء إلى طريقة العقاب الجماعي داخل العراق. استخدم التعذيب في العراق وأفغانستان وكوبا وفي عدد آخر من البلدان، واتخذت الحكومة البريطانية خطوة راديكالية حين أجازت لدبلوماسييها استخدام المعلومات المستخلصة بواسطة التعذيب (طالما تم ذلك في بلد آخر غير بريطانيا)[1] أما القانون الدولي ـ وحتى مفهوم حكم القانون برمته ـ فقد جرى تجاهله على نحو متزايد. في الفصل الثاني، سنعرض التأثيرات السلبية والمعاكسة لمثل هذه الإستراتيجيات.

خلال الحرب الباردة (وقبلها أيضا)، تبدى إطار عسكري قائم على أساس إمكانية الرد (بأسلوب حكيم) على التهديدات الآتية من الدول الأخرى عبر شن الحرب أو التهديد بشن الحرب عليها. لكن هذا الإطار، الذي ظل دوما خطرا ومكلفا، أصبح الآن عتيقا عفا عليه الزمن. وذلك بسبب الأخطار التي تمثلها شبكات الإرهاب الدولية المراوغة واللامركزية في معظم الأحيان، وانتشار الأسلحة المدمرة في شتى أرجاء العالم، ونمط العنف الذي تؤججه باستمرار مشاعر الإذلال والغضب المنتشرة على نطاق واسع، لا سيما بين المسلمين. أوجدت هذه المشاعر (في الحالات المتطرفة) رغبة واستعدادا لقتل الأبرياء وقتل النفس في آن معا. أما مشكلة انتشار

الأسلحة، فقد تعمقت وتفاقمت حين حول الانتحاريون حتى الوسائل اللاحربية، مثل الطائرات وناطحات السحاب، إلى أدوات للقتل.

في هذه الظروف، تصبح محاولة تطبيق النموذج العسكري القديم على مشكلة الإرهاب أشبه بمحاولة «دق» الماء بمطرقة، أو قتل فيروس برصاصة. وجرى التشبث ـ بشكل كارثي ـ بفكرة العدو المركزي ومفهوم التركيز على الدولة، وكلاهما كان أكثر معقولية خلال الحرب الباردة[2] إذ إن مهاجمة الدول لم يعد لها أي مبرر أو فائدة الآن، علاوة على النتائج العكسية التي تفرزها. في حين أن الأهمية المتزايدة للديناميات العابرة أو شبه العابرة للحدود الوطنية (كما يلاحظ كارل كونيتا) تعني في دلالتها أن من المستحيل حصر مشاعر السخط والاستياء ضمن «الصندوق الأسود» للدولة الوطنية[3]. كما أن أي مقاربة عسكرية لمشكلة الإرهاب، لا بد أن تبدد الموارد وتشتت الانتباه عن المقاربات الأخرى الواعدة والأكثر نجاعة للتصدي للإرهاب، إضافة إلى نتائجها العكسية المباشرة.

ولأن الإرهاب يؤججه الغضب، والشبكات الإرهابية لامركزية، لن تنجح محاولة استئصال الإرهاب والقضاء على الإرهابيين بالقوة المادية، وينبغي أن يكون هذا الدرس قد اتضح من الحروب الأهلية[4] فاليوم نحن بحاجة ـ أكثر من أي وقت مضى ـ لفهم السبب الذي يدفع أشخاصا لا ينتمون إلى دولة معينة إلى المشاركة في العنف، وكيف تؤدي العمليات الجائرة والتعسفية لمكافحة الإرهاب أو محاربة التمرد إلى صب الزيت على نار العنف.

بالرغم من أن الأعمال العسكرية والأساليب التعسفية قد ثبتت نتائجها العكسية، وهذا أمر أصبح واضحا بالنسبة لمعظم المراقبين، بمن فيهم مسؤولو الدبلوماسية والاستخبارات، إلا أن الدول المعنية مازالت متشبثة بها (بحماسة متجددة، بل بشراسة ضارية في كثير من الأحيان). لماذا؟ إن الاكتفاء بمجرد إدانة

الأساليب التكتيكية أو الإشارة إلى أنها تفرز نتائج عكسية لا يعطي إجابة شافية هنا: وفي الحقيقة، فهو يعمق ويصعب اللغز. فمعظم البيانات والتصريحات حول «الحرب على الإرهاب» تركز بؤرة الاهتمام، إما على تبرير الأعمال المرتكبة مؤخرا (مقاربة حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا و«المحافظين الجدد»)، أو اعتبار الانتهاكات التعسفية والعمليات الجائرة «أخطاء» أو «إخفاقات» (المنظور الليبرالي عموما)، أو إدانة مسلك التحالف الذي تتزعمه الولايات المتحدة، باعتباره غير أخلاقي ويعطي عكس النتائج المرغوبة (المنظور اليساري عادة). لكن محاولة تفسير السبب وراء تبني هذه الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية والتشبث بها مهمة صعبة نوعا ما، وقد تساعد على تحديها في نهاية المطاف. ونظرا لأن مقاربة الولايات المتحدة وحلفائها لم تكن مؤسسة على الحقائق والأدلة، بل على الاعتقاد والقوة، فقد أظهرت بعض المناعة والحصانة ضد التحديات التجريبية التقليدية؛ ولذلك من المهم على نحو خاص استكشاف منطقها الداخلي والمعتقدات (المضللة) التي تدعمها وتسندها.

يصبح ذلك كله أكثر إلحاحا: لأن جورج بوش (الابن) أكد مرارا على أن «الحرب على الإرهاب» واسعة المدى ومستمرة في آن. إذ أعلن أمام طلاب كلية «ويست بوينت» العسكرية (حزيران/ يونيو 2002) أن الولايات المتحدة يجب أن تكون مستعدة لنقل «الحرب على الإرهاب» إلى حوالي ستين بلدا إذا أرادت إبقاء أسلحة الدمار الشامل بعيدة عن أيدي الإرهابيين[5]. شكلت إيران هدفا خاصا للكلام العدواني، ووصفها بوش في شباط/فبراير 2005 بأنها «الدولة الرئيسة التي ترعى الإرهاب في العالم»[6]. ومن جانبه، رد توني بلير (في تشرين الأول/ أكتوبر 2005) على دعوة الرئيس الإيراني الشائنة لـ«محو إسرائيل من على الخريطة» بالقول: «إذا استمروا بهذا النهج، فسوف يسألنا الناس: متى ستفعلون شيئا إزاء إيران؟ هل تتخيلون دولة كهذه تتبنى موقفا كهذا تمتلك أسلحة نووية؟»[7].

يبحث الفصل الثالث عن التفسيرات السياسية والاقتصادية للأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية التي تستخدم حاليا. ويشير إلى أن «الحرب [العالمية] على الإرهاب» عبارة عن نظام يغل منافع مهمة، حيث لا يتمثل الهدف بالضرورة في الفوز. وإذا كانت «الحرب على الإرهاب» بلا نهاية بمعنى أنها حرب دائمة، فلا تبدو بلا نهاية، بمعنى أنها تفتقد أي هدف أو غرض أو غاية. والاشتباه بأن «الحرب على الإرهاب» قد تكون لها وظائف خفية يشتد ويتكثف نتيجة تلاحق «الحروب» المختلفة التي أعلنت الولايات المتحدة مشاركتها فيها منذ الحرب العالمية الثانية. ومع أن النقاش ينطلق هنا من تحليل تشومسكي وغيره، إلا أنه يعتمد على تحليلي السابق للحرب الأهلية باعتبارها «نظاما»: حيث شاعت الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية على الصعيدين العسكري والسياسي، وحيث لم يكن الهدف (خلافا للاعتقاد الشائع) إحراز نصر عسكري بالضرورة. لقد أظهرت تشكيلة متنوعة من الحروب الأهلية الطبيعة ذات النتائج العكسية على الصعيد العسكري (والوظائف السياسية والاقتصادية والنفسية الخفية) لمكافحة الإرهاب بطريقة عشوائية.

تستكشف الفصول 4-9 الوظائف النفسية للعمليات ذات النتائج العكسية المتوقعة في «الحرب على الإرهاب»، والعوامل النفسية التي صاغت التعريف المتغير ـ والعشوائي غالبا ـ لـ«العدو». ويشير الكتاب إلى أن البحث عن حلول سحرية ومُرضية ومريحة نفسيا قد تداخل مع النماذج (الباراديمات) العسكرية العتيقة بطرائق تحدث أضرارا جسيمة. مرة أخرى نقول: إن القصد ليس تقصي السبب الأصلي وراء تبني مثل هذه السلوكيات ذات النتائج العكسية والتعريفات غير المفيدة للعدو وحسب، بل السبب الدافع للتشبث بها. ويعاين الكتاب «جاذبية» هذه الأساليب التكتيكية المحكوم عليها بالفشل، لا بالنسبة للزعماء والقادة فقط، بل بالنسبة لشرائح كبيرة من الناخبين أيضا. كما يشدد على التنافر بين الحلول المُرضية نفسيا (استئصال «الأشرار») والحلول الناجعة فعلا في معالجة المشكلة.

يتمثل جزء من الهدف في تجاوز إدانة الولايات المتحدة وحلفائها وتسليط الضوء على أنماط التفكير الداعمة للحرب على الإرهاب. ونظرا لأن هذه الأنماط تجسد حماقات خطرة، فإن من المهم تفحص أصولها، وتقصي افتراضاتها وجاذبيتها، وكيف صيغت لتبدو معقولة. هنا، يعتمد التحليل على رؤى ميشيل فوكو، خصوصا مناقشته لمسألة كيف قد تبدو الممارسات (بالنسبة للكثيرين) واضحة ولا غبار عليها ولا تقبل الاعتراض، مع أنها تجسد افتراضات ربما تبدو في مرحلة لاحقة من التاريخ على قدر كبير من التهور والطيش (أو يتجلى تهورها الآن إذا سلطنا الضوء على مجموعة مهمشة سابقا من الأصوات أو خرجنا من «الدائرة الساحرة» لراسمي السياسة)[8] كما يستند التحليل إلى عدد من الكتاب الآخرين الذين لا تناقش آراؤهم عادة في سياق «الحرب على الإرهاب»، بمن فيهم العالم النفساني جيمس غيليغان، والفيلسوفة هانا إرندت، وعالمة الاجتماع سوزان فالودي، والمؤرخان كيث توماس وأومر بارتوف.

تؤكد الفصول 4–7 أن «الحرب على الإرهاب» وفرت إحساسا بالأمان واليقين «هزم» مرارا وتكرارا شعورا أكثر عقلانية وواقعية حول ما هو مرجح لتعزيز نوع دائم من الأمان المادي. هنالك انبعاث لما أسميه التفكير السحري، وهو تفكير يجترح أجوبة معقولة ظاهريا (لكن زائفة فعليا) لمشكلة المعاناة الراهنة ولمشروع تخفيف المعاناة في المستقبل. التفكير السحري يُختزل في الأمل بقدرتنا على إجبار العالم: ليكون كما نشتهي ونرغب باستخدام قوة الإرادة أو الأفعال التي تفتقد الصلة المنطقية بالمشكلة التي نسعى إلى حلها. يتمثل جزء من هذا التفكير فيما يعرف بمقاربة كبش الفداء ـ أي نوع من الحملة الشعواء (مماثلة لمطاردة الساحرات في الماضي) للعثور على شخص، أي شخص، يمكن أن نوجه إليه اللوم. مقاربة كبش الفداء يمكن أن تشكل طريقة للتعامل مع الصدمة والذهول والارتباك[9]: لكنها لا توفر سوى حل مؤقت لمشكلة تحديد وتعريف (وتدمير) العدو، وهنالك على الدوام

أخطار تكرار العملية. فالهجوم على العراق تبع الهجوم على أفغانستان، وحتى بعد الكارثة في العراق مازالت هناك رغبة لدى بعض أوساط الإدارة الأمريكية بمهاجمة إيران وكوريا الشمالية على وجه الخصوص. تكررت مقاربة كبش الفداء لا في البلدان الغربية فقط، بل داخل البلدان التي استهدفتها عمليات «مكافحة الإرهاب»: ففي حين أن استهداف العراق وفر ضحية يمكن تحديدها والوصول إليها، إلا أن احتلاله عنى أن «العدو» أصبح مرة أخرى أكثر مراوغة: ويبدو أن ذلك قد شجع استهداف مزيد من الأعداء الذين يمكن الوصول إليهم، بمن فيهم الأسرى والسجناء.

من الممكن جعل الأنظمة الغريبة والشاذة (بما فيها الحملات الشعواء لمطاردة الساحرات) تبدو معقولة، ومنطقية، ويتعذر تجنبها وإنكارها ـ على الأقل مدة من الزمن. بكلمات أخرى، يمكن جعل السحر المشعوذ يبدو معقولا وعقلانيا، ومساعدا على تفسير كيف يمكن حشد السكان وتعبئتهم بهذه السهولة لتأييد مشروع يفرز هذا القدر من النتائج العكسية، فيما يتعلق بالهدف المعلن المتمثل في إلحاق الهزيمة بالإرهاب. ويعود السبب في ذلك إلى أن المنشقين معرضون لخطر وسمهم بـ«الأعداء»، من ناحية، ومن ناحية أخرى: لأننا كثيرا ما نعتبر العقاب دليلا يثبت الذنب («الاعتقاد بعدالة العالم»)، ومن ناحية ثالثة إلى إمكانية جعل الأعداء يشبهون الصورة المرسومة سلفا (والمشوهة) لهم. أما فكرة هانا إرندت حول «الفعل كدعاية» فقد استخدمت (في الفصل السابع) لتفسير كيف أصبحت الأفعال الجائرة والممارسات التعسفية تكتسب ـ خصوصا بالنسبة للعديد من مؤيدي الرئيس بوش في الولايات المتحدة ـ صفة الشرعية والحتمية.

يتمثل جزء من الوظيفة النفسية للأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية في أنها ساعدت على درء مشاعر الخزي والعار والعجز. قمنا بتحليل ذلك في الفصلين

(8-9) فدرء خطر العار والخزي يشمل العثور على آخرين يؤيدونك ويؤكدون أوهامك ويعيدون الثقة إليك ويقدمون الحجة على أن سلوكك (مهما كان متهورا ولا أخلاقيا كما يبدو لمعظم العالم) هو في الحقيقة مسلك عقلاني وأخلاقي برغم كل شيء. فإذا (ومتى) رفض هؤلاء توكيد أوهامك وامتنعوا عن الموافقة على تعريفك للأعداء، فمن المرجح أن يصبحوا هم أيضا جزءا من فئة «الأعداء» المتوسعة باستمرار. لقد حظي مشروع العقاب المتسلسل الخطير الذي تبنته الولايات المتحدة بدعم مطرد من بريطانيا، إضافة إلى تأييد «متقطع» من كل من يُكره على الإذعان بالمديح أو الرشوة أو التملق أو المداهنة. فتهور هذا المسعى الذي لا تبدو له نهاية محتملة ـ ويقع ما بين التفكير السحري لبوش والحملات الشعواء لبلير ـ هو بالضبط ما يوجد ضرورة الموافقة المنسقة بالترهيب أو الترغيب. كما شمل درء الشعور بالعار والعجز محاولة لمحاربة عناصر الضعف والتلوث الظاهرة ـ في السياسة الخارجية للولايات المتحدة وفي السياسات الهادفة إلى «الإحياء الأخلاقي» داخلها. ومن الجدير بالذكر أن لهذه الاستجابة سوابق تاريخية مهمة.

يناقش الفصل العاشر عددا من الخطابات والمجادلات التي يبدو أنها زودت الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية المتوقعة بالقوت والقوة. ويقترح فوكو في كتابه «أنا، بيير ريفيير» أن الجريمة لا يمكن النظر فيها بشكل مفيد بمعزل عن النصوص، بما فيها النصوص الدينية، التي تغمر مرتكبها ومجتمعه. ويميل كتاب مثل نعوم تشومسكي، وجون بيلجر إلى تصوير الخطاب والجدل كستارة دخانية تخفي السلطة. ويرون تغطية وسائل الإعلام المشوهة لـ«الحرب على الإرهاب» كتعبير مباشر عن مصالح دعاة الحروب في الولايات المتحدة، يعكس بقوة دعاية الحكومة الأمريكية على وجه الخصوص. كما قدم شيلدون رامبتون وجون ستوبر تحليلا مهما في هذا السياق. لكن ذلك كله ليس سوى جزء من القصة. فقد تطرق ديفيد ميللر ـ في مقدمة الكتاب الذي حرره «قل لي أكاذيب» ـ إلى سبب مهم يدعو للتشديد على

الأكاذيب في عنوان الكتاب: «أفراد النخبة يصدقون أكاذيبهم ويبدو أنهم غير قادرين على التحرر من إسار الافتراضات التشغيلية للنظام.. فهم يصدقون أن العالم الذي يظهر من خلال المنظور المشوه لمصالحهم الذاتية هو العالم الحقيقي[10]». النقطة المهمة ليست الغوص في التفاصيل، بل محاولة تفحص طبيعة هذه «الافتراضات التشغيلية» ومن أين أتت. ومثلما لاحظ فوكو، قد يسقط المسؤولون ـ بمعنى من المعاني ـ في فخ البلاغة الخطابية المهيمنة، بما فيها بلاغتهم الخطابية هم. وفي حين أن التأويلات الخاطئة كثيرا ما تخدم الذات، إلا أنها تنبع أيضا من ثقافة معينة وتراث خاص، يساعدان على التشبث بها في وجه الأدلة المتراكمة التي تثبت فشلها. ومن المفارقة أن الاعتقاد بهذه «الافتراضات التشغيلية» يتعزز على ما يبدو بالدليل البرهاني على إخفاقها، ليظهر سؤال مهم: ما هو نوع الدليل الضروري لإقناع بوش وبلير بأنهما على خطأ؟

سؤال النوايا والمقاصد صعب الإجابة[11]. هل تنبأ (أو رغب) أحد بالتأثيرات المعاكسة لـ«الحرب على الإرهاب»؟ يصعب إعطاء إجابة محددة وشافية. لكن أود الاعتماد على فوكو مرة أخرى والإشارة إلى أن القادة الرئيسيين في «الحرب على الإرهاب» قد سقطوا في شرك منظومات اللغة والفكر التي هي في الوقت ذاته جزء من الثقافة المشتركة ومن صناعتهم هم (نظرا لأنهم يحيطون أنفسهم بأصحاب آراء مشابهة)[12] الأمر الذي يساعد على تفسير كيف يبدو اللاعقلاني عقلانيا. وفي هذه الأثناء، ساعدت المنافع العملية السياسية والاقتصادية الناتجة عن الحرب الدائمة على التأكد من أن التحديات المنبثقة من داخل الدول المهيمنة وحلفائها المحليين لا تكفي لهز أركان «الحقائق» المريحة والخاطئة التي دعمت وساندت المقاربة الراهنة ذات النتائج العكسية. وبالرغم من أن بوش وبلير والحلفاء المقربين الآخرين لا يريدون حقا أن تفشل «الحرب على الإرهاب»، إلا أن هناك على ما يبدو أولويات أخرى تحرز قصب السبق وتساعد على إبهام وعيهم وإدراكهم لما ينجح وما

يخفق. والجدير بالملاحظة أنه حتى مع توضح التأثيرات المعاكسة (المتوقعة)، إلا أنهم ما يزالون متشبثين بها. إذ أصبحت الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية جزءا من النظام المختل وظيفيا الذي لا يغل بعض المنافع المعينة فقط بل يمتلك منطقا داخليا (خاطئا) أيضا.

ما يحظى بأهمية كاشفة أن الفكرة القائلة: إن الأعمال الشريرة تقع مسؤوليتها على عاتق حفنة من «الأشرار» قد استرشدت بهديها الأساليب التكتيكية المستخدمة في «الحرب على الإرهاب» والاستجابة الأمريكية الرسمية للانتهاكات والفضائح التي تكشفت (مثل تلك التي حصلت في «أبو غريب»)، والتي اعتبرت نتيجة لبعض «التفاحات الرديئة». أما استخدام التعذيب في بلدان أخرى (ثالثة) مثل الأردن والمغرب ومصر وغيرها[13]، فقد ساعد أيضا في الحفاظ على فكرة أن مسؤولية الشرور والسيئات تقع على عاتقهم «هم» لا «نحن». إن إنكار المسؤولية هذا هو جزء من نزعة عنيدة للمبالغة في لامركزانية العنف عندما يتعلق بـ«الجانب» الذي ننتمي إليه. وبالإضافة إلى ذلك، هنالك العادة الثابتة التي تقلل من شأن لامركزانية العنف لدى «الأعداء» (الإرهابيين). وبالتالي، يُزعم بأن الانتهاكات التي ترتكب في نظام «مكافحة الإرهاب» (إذ جرى الاعتراف بها أصلا) تعكس «انقطاعا» في سلسلة الرتب والقيادة، في حين يجري التأكيد على أن انتهاكات العدو تعكس أمرا مفروضا من القيادة. يتجاهل ذلك كله (بأسلوب أنيق!) المسؤوليات التي تقع على عاتق الغرب إضافة إلى انتشار الغضب الذي يغذي ويهدي الإرهاب (ودور البلدان الغربية في تأجيج أواره). وعلى نحو لا يختلف كثيرا، جرى تصوير الانتهاكات التي تحدث في البلدان الصديقة للغرب خلال الحرب الباردة (إذ جرى الاعتراف بها أصلا) بوصفها انحرافات أو نتيجة لتخلخل سلسلة القيادة. أما المثال التقليدي فهو اعتبار المجاعة التي حلت بالسودان (الذي كان يدعمه الغرب آنذاك) نتيجة «للعداوات الإثنية القديمة»[14] وفي الوقت ذاته، اعتبرت الانتهاكات التي ارتكبت في البلدان المدعومة

من الشيوعية بمثابة دليل يظهر جوهر الإيديولوجيا الشيوعية الجائرة والمفروضة فرضا. وبالطبع قام الاتحاد السوفييتي أيضا بهذه اللعبة بالمقابل.

شمل جزء من عملي حول الصراعات والنزاعات الأهلية دراسة مستفيضة للمعونات الإنسانية: في السودان وسيراليون على سبيل المثال[15]. فحين تتعرقل العمليات الإنسانية (مثلا: في حالة عدم إيتاء المعونات)، يخفى ذلك تحت قناع «الأخطاء» أو «الإخفاقات» عادة. لكن هذه «الإخفاقات» كانت في الحالة النمطية نتيجة لسلسلة من المصالح التي تؤثر في توزيع المعونات على المستويات كافة، وبسبب سلسلة من المجادلات والخطابات (مثلا: فكرة أن المعونة تؤدي إلى «الاتكالية» لدى المتلقين)، الأمر الذي ساعد على التشبث بالسياسات ذات النتائج العكسية وإضفاء الشرعية عليها. ومثلما يقول إدوارد كلاي وبرنارد شافر (المتأثران بفوكو) حول المشاريع التنموية عديمة الفعالية:

السؤال المهم ليس لماذا «تفشل» السياسة العمومية. فهي لا تفشل لزوما أو كلية على الدوام. الصيغة تعبر عن تعيين واقعي غريب. والسياسة العمومية هي برغم كل شيء ما تفعله. والنقطة المهمة هي تفسير ما هو، ثم معرفة هل يمكن لهذا التفسير بحد ذاته أن يصبح أداة للتغيير والتحسين.

يقترح الفصل العاشر أيضا أن «الحرب على الإرهاب» تجذب الكثيرين للأسباب نفسها التي تجعل النزعة الاستهلاكية جذابة بالنسبة لهم. فقد جرى الترويج لـ«الحرب على الإرهاب» و«بيعها» بالتقنيات الدعائية المجربة والموثوقة. وعلى شاكلة النزعة الاستهلاكية، فهي تتغذى على فشلها: ومن المهم أن الفشل يديم الطلب، وهو عنصر ضروري للتجديد المستمر، للأوهام الاستهلاكية أو الأوهام الكامنة وراء «الحرب على الإرهاب». وفي هذه الحالة الأخيرة، فإن الطلب الأساس الذي يحافظ عليه الفشل هو طلب الأمان والأمن. وكل ما هو مطلوب لاستدامة هذا النظام

المخادع الذي يفرز نتائج عكسية، مثلما هي الحال مع وعود الإعلانات الدعائية الكاذبة، أن ننسى بسرعة أن الحل الذي قدم لنا مؤخرا وجرى إقناعنا به (مهاجمة أفغانستان، ومهاجمة العراق) لم يستطع تلبية حاجتنا للأمن بأسلوب سحري. هنا، تواطأت غالبية وسائل الإعلام في مساعدتنا على النسيان. أما القصد من هذا الكتاب، فهو المساعدة على التذكر.

2

صب الزيت على النار
الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية المتوقعة في «الحرب على الإرهاب»

نموذجان للإرهاب

كان الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن) ونائب الرئيس ديك تشيني واضحين كل الوضوح، حين كررا الإعلان بأن على أمريكا وأصدقائها «شن الحرب على الإرهاب»، و«مطاردة الإرهابيين» وتدميرهم. وفي خطاب حالة الاتحاد (كانون الثاني/ يناير 2002، دعا الرئيس بوش الدول كافة «لاستئصال شأفة الطفيليات الإرهابية التي تهدد هذه البلدان علاوة على بلدنا». وبعد تفجيرات الرياض (أيار/ مايو 2003)، نصح تشيني الحاضرين في لقاء عقد في واشنطن «بالاعتراف بحقيقة أن السبيل الوحيد للتعامل مع هذا التهديد الداهم هو تدميره في نهاية المطاف. إذ لا يمكن لمعاهدة حل هذه المشكلة، ولا اتفاقية سلام، ولا سياسة احتواء.. [فعلينا] أن نعثر على الإرهابيين [1]» الفكرة هي وجوب استئصال الشر (ماديا). وعلى حد تعبير بوش، فإن «مسؤوليتنا أمام التاريخ واضحة لا لبس فيها: الرد على هذه الهجمات وتخليص العالم من الشر [2]». وأضاف في مناسبة أخرى: «سيكون هذا صراعا هائلا ومهما بين الخير والشر. لكن الخير سينتصر ويسود[3]» ووجدت دراسة بحثية أجراها بيتر سينغر (نشرت عام 2004) أن بوش أشار إلى الشر في 319 خطابا مختلفا، واستخدم الكلمة عادة كاسم، وقوة في العالم، بدلا من أن تكون مجرد نعت يصف بعض الأفعال المعينة[4].

المقاربة التي تقودها الولايات المتحدة للتعامل مع الإرهاب تعتمد على افتراض أن الإرهابيين عبارة عن مجموعة متميزة من الأفراد الأشرار الذين يمكن عزلهم وإبادتهم. ودعمت المقاربة غالبا (مثلما هي الحال في إشارة بوش إلى الطفيليات) بلغة ازدرائية تحقيرية لابد أن تشعل ضوءا تحذيريا في ذهن أي دارس للفاشية[5] فمقاربة «تدمير الأشرار» اتخذت شكلا ملموسا ومتعينا على طاولة الرئيس بوش في المكتب البيضاوي (في البيت الأبيض)، حيث استحثته أحداث الحادي عشر من سبتمبر على الاحتفاظ بملف يضم قائمة باثنين وعشرين إرهابيا مطلوبا، «سجل نقاطه الشخصي في الحرب» على حد تعبير الصحفي بوب ودوارد الذي كشف فضيحة «ووترغيت[6]» فقد اعتاد أن يضع إشارة (×) على صور أولئك الذين «لم يقبض عليهم بعد[7]» يظهر الموقع الإلكتروني لوزارة الخارجية الأمريكية أسامة ابن لادن، «أخطر الإرهابيين المطلوبين»، مع وصف مفيد له: الوزن حوالي 72 كغ، نحيل الجسم، أسمر البشرة، أعسر، يمشي بمساعدة عكاز، يعتقد أنه في أفغانستان. وهنالك مكافأة قدرها 25 مليون دولار لمن يدلي بأي معلومات تؤدي إلى القبض عليه أو إدانته. ويضيف الموقع محذرا: «يجب الانتباه إلى أنه مسلح وخطر»). في إسرائيل أيضا هنالك صالة لصور المارقين من الإرهابيين المطلوبين، والنموذج الذي يتبناه بوش ينسجم تماما مع ذلك الذي يتبعه المتشددون الإسرائيليون، من أمثال رئيس الوزراء (السابق) أرييل شارون، الذي يتعاطف معه المحافظون الجدد كثيراً.

فكرة أن بمقدورك عزل واستئصال شأفة «الأشرار» بشكل فعال ومؤثر، انتقدها بأسلوبه البليغ الروائي الروسي المنشق ألكسندر سولجنتسين خلال الحرب الباردة، بعد أن عانى ما عاناه من اضطهاد وقمع النظام السوفييتي الشيوعي الذي كان له مشروعه الخاص في عزل واستئصال الشر:

> لو أن الأمر بمثل هذه البساطة! لو كان ثمة أشرار في مكان ما يرتكبون أفعالهم الشريرة والغادرة في الخفاء، ولا يتطلب الأمر سوى فصلهم عنا وتدميرهم. لكن الخط الفاصل بين الخير والشر يخترق قلب كل إنسان[9].

وفي حين استقبل سولجنتسين بالهتاف والتهليل في الغرب عندما كانت الشيوعية هي العدو، فإن حكمته معرضة الآن لخطر النسيان. وبالرغم من أن نموذج إدارة بوش لمحاربة الإرهاب قد سيطر وساد وتحكم، إلا أن هناك نموذجا بديلا (وأكثر دقة) يضع التفكير الإرهابي على الطرف الأقصى لمتوالية متسلسلة. ووفقا لهذا النموذج البديل، لا يعتبر الإرهابيون جماعة متميزة أو معزولة أو محددة بشكل كلي، بل جماعة يمكن أن يتزايد (أو يتقلص) عدد أعضائها على الدوام ـ اعتمادا (بشكل حاسم) على طريقة التعامل مع تهديد الإرهاب. في هذه المقاربة، يتمثل المفتاح في إضعاف الدعم المقدم للإرهابيين والتعامل مع النسق الذي يعتنق عبره بعض المتعاطفين مع الأهداف أو المظالم الإرهابية مبدأ العنف أو يساعدون على تسهيل ممارسته.

من المفارقة أن بعض أنماط التفكير الليبرالي و«الصوابية السياسية» قد تغذي المعقولية (السطحية) للنموذج الذي يصور الإرهابيين كجماعة محددة ومتميزة المعالم. وعلى الأقل، بسبب الحاجة إلى محاولة حماية الحقوق الإنسانية للمسلمين في الغرب (التي تتعرض لخطر متزايد)، يجد العديد من الليبراليين أن من الضروري التأكيد مرارا على أن الإرهابيين عبارة عن أقلية ضئيلة ترفض آراءها بشدة غالبيةُ المسلمين. وفي حين أن طريقة الكلام هذه تعتبر دقيقة وبناءة من نواح عديدة فيما يتعلق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أنها تنزع إلى تشتيت الانتباه عن مشاعر السخط والحنق المنتشرة على أوسع نطاق بين المسلمين على «الحرب على الإرهاب». وتشير استطلاعات الرأي إلى أن عددا كبيرا من المسلمين في بريطانيا مثلا يعتبرون الآن «الحرب على الإرهاب» حربا على الإسلام[10] ووجد استطلاع لآراء المسلمين في بريطانيا (أجري في آذار/ مارس 2004) أن 13% منهم يعتقدون أن «مزيدا من الهجمات التي قد تشنها ـ القاعدة ـ أو منظمات مشابهة على الولايات المتحدة ستكون مبررة[11]».

وحتى إذا ركزنا بؤرة الاهتمام على شبكة "القاعدة" ذاتها، لا يمكن تقليص حجم المشكلة وحصرها في بضعة أفراد. فانفراط عقد المنظمات الأكثر تراتبية، مثل «الدرب المضيء» في بيرو، ربما عتم على الصورة وشجع على التفاؤل المزيف. وفي المناظرة مع جون كيري (20/ 9/ 2004)، لاحظ بوش أن 75%من قادة ـ القاعدة ـ المعروفين قد اعتقلوا وأحضروا إلى العدالة[12]». لكن عدد أعضاء «القاعدة» قدر في أيار/ مايو 2003 بأكثر من ثمانية عشر ألفا ينتشرون في تسعين بلدا[13] ومن المستحيل قتلهم أو اعتقالهم جميعا، وحتى في هذه الحالة، فإن العملية ستكون غير دقيقة وسيحل محلهم آخرون كما هو متوقع. ووفقا لتقرير أعده المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية «إذا تم قتل الأتباع أو اعتقالهم، فإن موتهم المشهود دفاعا عن الإسلام» سيدفع غيرهم لأخذ مكانهم[14] وحالة سيد قطب، الذي يعتبر الأب المؤسس للأصولية الإسلامية، تظهر آلية عمل ذلك: فقد كان كاتبا مغمورا نسبيا قبل أن تحكم عليه السلطات المصرية بالإعدام[15]. أما الاثنية، كما يحاجج عالم الانثروبولوجيا البريطاني ديفيد تورتون بأسلوبه البليغ، فربما تكون نتيجة للصراع مثلما هي سبب له. وهذا يصدق على الهوية الاثنية المتطرفة لـ«الجهاديين».

إذا تعذر القضاء على «القاعدة» (ماديا)، فإن من المستحيل القضاء على المقاومة العراقية (التي تضع إدارة بوش أفرادها ضمن فئة «الإرهابيين» غالبا). إذ بلغ عدد مقاتلي المقاومة العراقية الذين قتلوا أو اعتقلوا خلال الفترة الممتدة بين أيار/ مايو 2003 وآب/ أغسطس 2004 حوالي 24 ألف شخص، وذلك وفقا لتقديرات معهد بروكينز (الذي يتخذ من واشنطن مقرا له)[16] لكن عدد مقاتلي المقاومة العراقية قفز فعلا من 5 آلاف في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003 إلى 20ألفا في أيلول/ سبتمبر 2004، حسبما ذكر البنتاغون. وأبلغ نائب قائد قوات التحالف في العراق، الجنرال اندرو غراهام، مجلة «تايم» في أوائل شهر أيلول/ سبتمبر 2004، أن العدد الحقيقي يتراوح باعتقاده بين 40-50 ألف شخص.

المهم أن النموذج البديل لمحاربة الإرهاب ينسجم مع التفكير الأحدث عهدا حول نزع سلاح الفصائل العسكرية التقليدية: لقد تعلمنا أنه حتى لو نزعنا سلاح مجموعة معينة، فإن ذلك لن يكون كافيا لتحقيق السلام إذا استمرت الظروف التي تحول المدنيين إلى مقاتلين، خصوصا منذ أن تلقى العنف غير المركز التشجيع نتيجة انتشار الأسلحة والفرص المتاحة لاستغلال السوق العالمية[17] لقد استفادت «القاعدة» نفسها من شبكات تجارة الماس، خصوصا في غرب أفريقيا، ونقلت تركيزها من شرق إلى غرب أفريقيا وذلك بعد تكثيف الإجراءات الأمنية في أعقاب تفجير السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام 1998 [18] هنالك قدر مهم من المبادرات المحلية ـ وجمع الأموال على الصعيد المحلي ـ دخل في بنية التنظيم. أما استهداف القيادة، فقد عزز بطرائق عديدة هذه اللامركزية[19].

العنف في سبيل عالم أكثر أمانا؟

أقنعونا بالحرب على العراق باعتبارها جزءا من «الحرب على الإرهاب». وكان من المفترض بهذه الحرب أن تجعل العالم أكثر أمانا في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر. فقد كان العراق يدعم الإرهاب، كما شكلت «أسلحة الدمار الشامل» التي يملكها صدام حسين تهديدا داهما: فإما أن تنشر وتستخدم بشكل مباشر أو تسلم إلى الإرهابيين. أما نشر الديمقراطية فسوف يشجع بحد ذاته على الأمن ــ فلو اكتفينا بالمنطق وحده لعرفنا أن الحرب بين البلدان الديمقراطية تظل أقل احتمالا. لكن هذا التفكير المنطقي يعاني من عيوب خطيرة وأخطاء شنيعة، والتحقيق المفصل الذي أجراه جيمس فالوس (2004)وجد أن المختصين بالأمن القومي الأمريكي اعتبروا استجابة إدارة بوش لأحداث الحادي عشر من سبتمبر بمثابة كارثة[20] إذ تبرز فيها ثمانية عيوب وأخطاء.

أولا، ليس ثمة أي دليل دامغ يثبت وجود صلة بين صدام و«القاعدة» (ناهيك عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر). وفي الحقيقة، يبدو أن «القاعدة» عارضت

بشدة نظام صدام، حيث أدان أسامة ابن لادن صدام حسين باعتباره «كافرا». وحاولت إدارة بوش جهدها إثبات وجود صلة بين «القاعدة» وصدام لكنها فشلت[21]. واعترف رئيس الوزراء البريطاني توني بلير، في معرض رده على أسئلة أعضاء في البرلمان (21/ 1/ 2003)، بعدم العثور على دليل يثبت وجود صلات تربط بين «القاعدة» وصدام ـ وهو أمر كررته على مسامعه مرارا وكالات الاستخبارات البريطانية[22]. كما اعترف بوش أيضا في نهاية المطاف: «لم يكن لدينا دليل يثبت تورط صدام في أحداث الحادي عشر من سبتمبر[23]».

الشرخ الرئيس الثاني في مشروع جعل العالم أكثر أمانا من خلال مهاجمة العراق هو عدم العثور على أسلحة دمار شامل، بالرغم من التحقيقات التي أجرتها الكوادر المختصة الأمريكية والبريطانية داخل العراق المحتل. أما القضاء على التهديد المزعوم الذي تشكله هذه الأسلحة فكان الذريعة الرئيسة التي قدمت لتبرير الحرب. لكن يبدو الآن واضحا أن نظام التفتيش عن الأسلحة كان يعمل بصورة مرضية. ومثلما لاحظ هانز بليكس، كبير مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة عام 2004 «نجحت سياسة الاحتواء المنخفضة التكلفة نسبيا، التي تعرضت لكثير من الذم والطعن، ولم يكن ثمة حاجة لمكافحة انتشار الأسلحة بسياسة مرتفعة التكلفة [أي الحرب][24]».

لاحظ تقرير صدر في تموز/ يوليو 2003 عن لجنة الشؤون الخارجية البريطانية أن الوثائق التي تزعم أن العراق كان يسعى للحصول على اليورانيوم من النيجر قد تبين أنها مزورة ومزيفة. وتقرير الحكومة البريطانية (أيلول/ سبتمبر 2002) الذي أكد الحاجة الملحة لنزع أسلحة صدام حسين، يعتبر الآن مشينا وكاذبا ومزورا ويطلق عليه استنكارا اسم «ملف الاحتيال». ويتابع تقرير لجنة الشؤون الخارجية قائلا:

زعم الملف أيضا أن الجيش العراقي سيكون قادرا على نشر رؤوس حربية تحتوي أسلحة بيولوجية وكيماوية بخلال 45 دقيقة من تلقي الأمر بذلك. ومن المعروف أن الزعم مرتكز على مصدر واحد وأنه لا يوجد دليل يثبته[25].

وعلى حد تعبير مستشار سابق في الحكومة العمالية «لم تجر أي محاولة لتفسير حقيقة أن ادعاء الخمس وأربعين دقيقة السيئ السمعة أشار إلى الذخيرة الميدانية فقط، وأتى من مصدر واحد بدون بينة تثبته. ولو جرت مثل هذه المحاولة لما أعلنت صحيفة ـ صن ـ على صدر صفحتها الأولى (أيلول/سبتمبر 2003) ـ البريطانيون على بعد 45 دقيقة من الهلاك[26].

المشكلة الثالثة في الهجوم على العراق (ربما تكون الأهم ولسوف نناقشها بالتفصيل لاحقا) هي أن الهجوم ذاته قد أثبت نتائجه العكسية تماما وذلك فيما يتعلق بمحاربة الإرهاب. فخلال عمليات السلب والنهب التي شجع عليها الاحتلال، فقدت كمية تقدر بثلاثمائة وثمانين طنا من المواد شديدة الانفجار ذات الصلة بالأسلحة النووية من مصنع يقع إلى الجنوب من بغداد، وحذرت وكالة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة من أن الإرهابيين ربما يحصلون حاليا على «أعظم كنز من المتفجرات في التاريخ[27]». والأهم أن الهجوم عمق وفاقم مشاعر الغضب التي تشجع الإرهاب بين الإسلاميين المتشددين على وجه الخصوص. كما أدى إلى تفجر مقاومة كبرى داخل العراق. وفي حين أن غالبية المقاومين هم من العراقيين، إلا أن العراق أصبح أيضا قطبا جاذبا ونوعا من القضية المثيرة لاهتمام هؤلاء المتشددين والمقاتلين في أماكن أخرى: تماما كما كانت أفغانستان خلال سنوات الجهاد ضد قوات الاحتلال السوفييتي. أما البيانات والتصريحات الأمريكية حول الحق في العمل العسكري أحادي الجانب و«الدفاع الوقائي عن النفس» فقد أذكت نيران

الغضب والخوف. ولاحظت مجلة «تايم» أن المقابلات التي أجرتها مع الزعماء الدينيين والعلماء المسلمين والمحللين الحكوميين والمواطنين العاديين في عشرات من بلدان العالم «كشفت أن حماسة أولئك المتشبثين بالصيغ الراديكالية للإسلام قد زادت واشتدت منذ الحادي عشر من سبتمبر[28]». وحتى لجنة الشؤون الخارجية البريطانية لاحظت (في تموز/ يوليو 2003) أن الحرب على العراق ربما أعاقت جهود محاربة ابن لادن و«القاعدة»، وعززت وضاعفت جاذبية التنظيم بالنسبة للمسلمين[29] لقد ساعدت الحرب على العراق شبكة «القاعدة» في مجالات الدعاية والتجنيد والتبرعات المالية، إضافة إلى تحول العراق إلى معسكر تدريبي لها[30]، وزودتها بخبرة ميدانية مفيدة في تكتيكات حرب المدن على وجه الخصوص[31] وحين تستخدم الولايات المتحدة قوة نارية هائلة خلال عمليات محاربة التمرد في العراق، فإن العديد من آثارها التدميرية تصور على أشرطة فيديو وتستخدم لاحقا في الدعاية لصالح التمرد [32] توبي دودج، المتخصص في الشؤون العراقية، علق قائلا إن حرب العراق كان لها تأثير أكبر في المسلمين البريطانيين مقارنة بالشيشان وفلسطين، حيث لم يكن الجنود البريطانيون والأمريكيون مشاركين بشكل مباشر في قتل المسلمين[33]صحيح أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر سبقت غزو العراق، إلا أنها استهدفت الولايات المتحدة لا بريطانيا.

يؤكد هوغ روبرتس، المتخصص في شؤون مصر والجزائر، على عدم وجود ما هو «طبيعي» أو طويل الأمد فيما يتعلق بالمشاعر المعادية لأمريكا (رغم تشديد تشومسكي على استمرار الانتهاكات الأمريكية الجائرة والطويلة الأمد). لكن الغضب على الحكومات المحلية تفاعل على نحو مطرد مع الغضب على الولايات المتحدة ليصنع توليفة كامنة وخطرة[34] فقد زاد الهجوم على العراق عام 2003 من حدة المشاعر المعادية لأمريكا في باكستان والسعودية وفلسطين والجزائر وغيرها ـ مثلما فعلت حرب الخليج عام 1991. وفي أعقاب الهجوم على العراق عام 2003، شهدنا ـ

في عالم يفترض أن يغدو أكثر أمانا بعد إسقاط صدام ـ تفجيرات مرتبطة بالإسلاميين المتشددين تحدث في إسبانيا والسعودية وباكستان والمغرب وروسيا والشيشان وتركيا وإندونيسيا وبريطانيا وغيرها[35]. وحرص بلير على إنكار أي صلة بين تفجيرات لندن (تموز/ يوليو 2005) وحرب العراق، لكن معظم البريطانيين خالفوه الرأي. وكان ديفيد بلنكت، وزير داخلية توني بلير آنذاك، هو الذي دافع عن قانون مكافحة الإرهاب (في كانون الأول/ ديسمبر 2001) اعتمادا على أن هناك «مستوى عاليا من الخطر يأتي من تحالفنا العسكري مع الولايات المتحدة»[36]. وذكر مسؤولو الاستخبارات في الولايات المتحدة وبريطانيا في أوائل عام 2005 أن تهديدا داهما يأتي من مجموعات من الشبان المسلمين الذين تحولوا إلى الراديكالية وليس لديهم سوى صلة واهية (أو ليس لهم صلة على الإطلاق) مع «القاعدة». في بريطانيا، ذكر كبار مسؤولي الاستخبارات وضباط الشرطة في أوائل عام 2005 أن عدة هجمات إرهابية مخططة قد أحبطت هناك[37]. وفي السابع من تموز/ يوليو 2005، حدثت أربعة انفجارات عنيفة في قطارات الأنفاق وحافلة للركاب في لندن، إضافة إلى العثور على أربع قنابل أخرى لم تنفجر بعد أسبوعين. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 2005، قال بوش: إن عشرة من الهجمات التي خططت لها «القاعدة» على الأقل قد أحبطت منذ الحادي عشر من سبتمبر، ثلاثة منها في الولايات المتحدة[38].

الخطأ الرابع في الوعد المقدم بجعل العالم أكثر أمانا (وهو في الوقت ذاته خطأ واضح لكن لم يلحظه أحد) أن الهجوم على العراق واحتلاله لاحقا شكلا مصدرا للإرهاب[39]. إذ لا معنى لاستخدام الإرهاب للقضاء على الإرهاب. ووجدت إحدى الدراسات التي استقت معلوماتها من تقارير وسائل الإعلام أن حوالي 7350 مدنيا قتلوا خلال مرحلة «القتال الرئيس» التي سبقت الأول من أيار/ مايو [40] 2003كما قتل العديد غيرهم في أعمال السلب والنهب، وبسبب وجودهم في مرمى

النيران المتقاطعة، ونتيجة رد قوات التحالف على مصادر النيران، إضافة إلى تدهور أوضاع البنية التحتية الصحية. ووجدت دراسة مفصلة نشرت في مجلة «لانسيت» (تشرين الأول/ أكتوبر 2004) أننا نعتقد، اعتمادا على تقديراتنا المتحفظة، أن عدد الوفيات بين العراقيين بلغ حوالي مائة ألف أو أكثر بسبب ومنذ غزو العراق عام 2003. معظم الضحايا قتلوا، وغالبية القتلى سقطوا بسبب الغارات الجوية التي شنتها قوات التحالف[41] ومثلما ذكر أحد أصحاب مواقع الإنترنت العراقية (نيسان/ أبريل 2004): «آمل أن يشعر أحد بأمان أكبر، لأننا بالتأكيد لا نشعر به مطلقا[42]» أتى جزء من ذلك الخطر من أكبر حملة مستدامة من التفجيرات الانتحارية في التاريخ. فعلى وجه العموم، بلغ معدل المدنيين العراقيين ورجال الشرطة الذين قتلوا في المدة الممتدة بين آب/ أغسطس 2004 وأيار/ مايو 2005 أكثر من 800 في الشهر، مع ارتفاع معدلات الوفيات منذ انتخابات كانون الثاني/ يناير 2005 [43].

الخلل الخامس في فكرة أن الهجوم على العراق سيجعل العالم أكثر أمنا يتمثل في كونه عرض العديد من الأجانب في البلد للعنف والموت. وهذا يشمل بالطبع جنود التحالف. فحتى الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 2005، قتل 2198 من جنود التحالف في العراق، إضافة إلى أكثر من 15200جريح أمريكي أصيبوا في المعارك[44] وفي التاسع عشر من آب/ أغسطس 2003، قتل 23 شخصا على الأقل في تفجير فندق القناة الذي تستخدمه الأمم المتحدة في بغداد. وغادرت غالبية وكالات الغوث العاصمة العراقية.

تتمثل المشكلة السادسة في أن الهجوم، بدلا من أن يحد من انتشار الأسلحة النووية، شجع على ما يبدو انتشارها. وحقيقة أن الولايات المتحدة كانت تتحدث، فعلا، عن «الضربة النووية الأولى» ضد الأهداف الإرهابية، تفاقم من شدة الخوف المسيطر. ويبدو أن التحالف الأطلسي الأمريكي/ البريطاني مستعد لمهاجمة أولئك

الذين لا يشكلون خطرا داهما وفوريا وحدهم، وأوجدت هذه السياسة دافعا عكسيا للتسلح بصورة سريعة (وسرية) من أجل الخروج من هذه الفئة المعرضة للخطر. ومثلما هي الحال في الحروب الأهلية، شكل التشديد على مهاجمة الأشخاص العزل دافعا رئيسا ـ في الممارسة العملية ـ للحصول على السلاح[45]. ويقول المسؤولون الأمريكيون وخبراء الطاقة الذرية: إن بمقدور إيران امتلاك قنبلة نووية بحلول عام 2006. ويبدو أنها منذ الآن قد اكتسبت التقانة اللازمة لتخصيب اليورانيوم[46]. ولاحظ جون كيري في المناظرة التي جمعته مع بوش قبل الانتخابات، أنه في اللحظة التي جرى خلالها غزو العراق، كان لدى عدد يتراوح بين 35-40 بلدا قدرات أكبر من العراق على صنع الأسلحة. أما المقارنة بين قدرات العراق وكوريا الشمالية فتشير إلى أن عدم امتلاك أسلحة الدمار الشامل هو الذي أوجد الظروف المناسبة للغزو. وعلى حد تعبير أحد مسؤولي وزارة الخارجية في كوريا الشمالية «تظهر حرب العراق أن السماح بنزع السلاح من خلال عمليات التفتيش لا يساعد على تجنب الحرب، بل ربما يشعل فتيلها»، ليختتم قائلا: «وحدها القوة العسكرية الهائلة والرادعة» تستطيع منع الهجمات على البلدان التي تكرهها الولايات المتحدة[47]. ومثلما علقت ايزابيل هيلتون في شباط / فبراير 2003.

> منذ الحرب الكورية، فهم [النظام الحاكم في كوريا الشمالية] أن إزالة نظام كيم [جونغ ايل]، وحتى كوريا الشمالية ذاتها، هو هدف السياسة الخارجية الأمريكية على المدى البعيد. لذلك، شكل ردع الولايات المتحدة هدفا جوهريا بعيد المدى.. الصين وروسيا واليابان وكوريا الجنوبية تريد جميعا أن تتخلى كوريا الشمالية عن أسلحتها النووية. لكنها تعرف أن مثل هذا الاتفاق يتطلب ضمانا بأن لا تشن الولايات المتحدة ضربة استباقية. في العشرين من أيلول/ سبتمبر من السنة الفائتة، أعلنت الولايات المتحدة أن من حقها شن ضربات استباقية[48].

الإنفاق العسكري الروسي زاد بنسبة هائلة خلال ولاية بوش: ففي شباط/ فبراير 2004، أجرت روسيا أكبر مناورة عسكرية لها منذ عقدين من السنين، وأعلن الجنرالات الروس ووزير الدفاع سيرغي إيفانوف أنهم يردون على خطط واشنطن «لتحويل الأسلحة النووية إلى أداة لأداء المهمات العسكرية». كما يمكن توقع ردة فعل مماثلة من جانب الصين أيضا[49]. ويبدو أننا نسينا أن القنبلتين الذريتين اللتين ألقتهما الولايات المتحدة على اليابان (التي لم تكن تمتلك سلاحا ذريا) عام 1945 ساعدت في حث وتحفيز البرنامج الذري السوفييتي في المقام الأول.

المشكلة السابعة في الهجوم على العراق أنه ساعد على تقويض وإضعاف فكرة الأمن الجماعي برمتها، والحق ضررا فادحا بالمؤسسات التي حملت مسؤولية تحقيقها، خصوصا الأمم المتحدة. وبإمكاننا القول: إن الهجوم على العراق كان عملية لتطبيق القانون دون تفويض رسمي من السلطة المسؤولة، لكن هذا الوصف سيكون مبالغا في اللطف. فمثل هذه العمليات ترد في الحالة النمطية على الجرائم، لكن الهجوم على العراق كان استباقيا بالأساس. وبذلك فهو يختلف عن هجوم التحالف عام 1991 حين رد بوش الأب على غزو العراق للكويت. كما كان حجم الموافقة الدولية مختلفا اختلافا جذريا أيضا: وحين نعبر عن ذلك بالأسلوب الشائع نقول: في حين أن حرب العراق عام 1991 قد شنت بمصادقة الأمم المتحدة (وبموافقة مجلس الأمن)، فإن حرب عام 2003 لم تصادق عليها الأمم المتحدة[50]. إذ عارضت الهجوم على العراق عام 2003 غالبية أعضاء مجلس الأمن، واعتبره العديد من خبراء القانون الدولي البارزين هجوما غير مشروع وغير قانوني[51] وعلق كبير مفتشي الأسلحة هانز بليكس قائلا: «ليس من المنطقي التوكيد على حق دولة واحدة عضو في مجلس الأمن في اتخاذ إجراء عسكري لتنفيذ قرارات المجلس حين لا تكون غالبية أعضاء المجلس مستعدة بعد لتخويلها الحق في اتخاذ مثل هذا الإجراء[52]» أما المدعي العام البريطاني، فقد أبلغ بلير أن الأمم المتحدة هي المخولة، وليس هو، بتقرير ما إذا كان

العراق يمتثل لقرار الأمم المتحدة السابق (رقم 1441) الصادر في تشرين الثاني/ نوفمبر والذي يدعو العراق للسماح بحرية عمل مفتشي الأسلحة[53] ومثلما يوضح خبير القانون الدولي تشالوكا بياني، فإن من حق مجلس الأمن وحده تقرير ماهية «العواقب الوخيمة» التي أشار إليها القرار[54] 1441 وعلى أي حال، فإن الإشارة المعتادة للحرب هي «استخدام جميع الوسائل الضرورية» لا «العواقب الوخيمة»، والقرار رقم 1441 قدم بعد توكيد السفير البريطاني في الأمم المتحدة، جيرمي غرينستوك، على أن القرار لن يتضمن أي «آلية» لشن الحرب بدون مزيد من النقاش في مجلس الأمن[55].

المشكلة الأخيرة في الهجوم على العراق هي أن مشروع نشر الديمقراطية بالقوة يعاني من شرخ عميق. فالإذلال الناتج عن فرض حل بالقوة يمثل مشكلة. قال جورج سوروس، المطلع على الخطوات العملية لتشجيع الديمقراطية، عن محاولة استخدام القوة لفرض الديمقراطية على العراق: «في ضوء الانقسامات الاثنية والمذهبية والدينية، يمكن لإدخال الديمقراطية أن يؤدي بسهولة إلى تفكك البلد[56]» التوترات الاثنية والمذهبية تشتد فعلا، حيث يشعر العديد من العرب السنة بالتهميش والإقصاء عن المفاوضات حول الدستور الجديد، بينما يربض الشيعة والكرد على معظم منابع النفط، ويستهدف المتمردون من العرب السنة المساجد الشيعية والحجاج الشيعة، ويتزايد عدد قتلى الهجمات المضادة والانتقامية التي يشنها الشيعة: وحتى تنامي استخدام اللغة المذهبية يتضمن ـ وربما يساعد على ـ تمذهب وعرقنة السياسات العراقية[57].

إذا كان منطق الهجوم على العراق يعاني من مثل هذه العيوب والأخطاء، فماذا عن الهجوم الذي شنته الولايات المتحدة على أفغانستان بعد الحادي عشر من سبتمبر مباشرة؟ برغم عدم إثارة قضية أسلحة الدمار الشامل هنا، إلا أن العديد من العيوب والأخطاء والشروخ تظهر واضحة في هذه المقاربة.

أولا، مازالت الصلة مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر، رغم أنها أكثر احتمالا، عرضة للشك والمساءلة. ومن المؤكد أن الهجوم على أفغانستان عكس حقيقة أن الطالبان قد سمحوا لـ«القاعدة» بتأسيس مقر لها ومعسكرات تدريب في أفغانستان[58]، ونجح الهجوم فعلا في إيقاع الفوضى في تنظيم «القاعدة» وتشتيت قيادتها وأنصارها ـ على الأقل إجبار العديد منهم على الهرب[59]. كان ابن لادن يمثل بالتأكيد صلة مهمة بين أحداث الحادي عشر من سبتمبر والهجوم على أفغانستان، لكنه نجا من الهجوم، بسبب اتكال الولايات المتحدة على الميليشيات المحلية وتركيز بؤرة اهتمامها على العراق[60] ومن المثير للاهتمام عدم وجود أي أفغاني بين الذين نفذوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر: فقد كان معظمهم من السعوديين، كما أن معظم التمويل أتى من السعودية[61]. لكن لم تتعرض السعودية لأي رد انتقامي. ففي تقرير مفصل أعد لحساب مشروع البدائل الدفاعية، لاحظ كارل كونيتا:

> لم يجمع نظام طالبان، الذي اجتذب معظم انتباهنا، سوى علاقة عرضية طارئة بأنشطة «القاعدة» خارج المنطقة. وفي الحقيقة، فإن لمعظم منشآت «القاعدة»، ومعظم المقاتلين الأجانب تحت إمرتها في أفغانستان، علاقة وثيقة بالحرب الأهلية الدائرة هناك. كما أن معظم كوادر التنظيم القادرة على شن أعمال إرهابية في البلاد الأخرى أقامت وتقيم خارج أفغانستان، وبالتالي كانت خارج المدى المجدي لعملية الحرية الدائمة [الهجوم بقيادة الولايات المتحدة][62].

حين يتعلق الأمر بأنشطة «القاعدة» خارج تخوم المنطقة، لم تكن أهمية أفغانستان تتمثل في كونها ملاذا آمنا ومعسكرا تدريبيا: بل تكمن في توفير قاعدة تجنيد لكوادر المستقبل (حيث استخدم معظم متطوعي القاعدة كقوات صدمة في الحرب الأهلية أو في الأجهزة الأمنية التابعة لطالبان). ولم تكن «القاعدة» بحاجة فعلا إلى دول أو منشآت تدريبية ضخمة في الأماكن المفتوحة، مثلما يلاحظ كونيتا:

والمستودعات والمواقع الصغيرة المخصصة لأغراض خاصة (مثل مدارس الطيران في فلوريداً) خدمت أغراضها على الوجه الأكمل[63]

الشرخ الثاني في منطق الهجوم على أفغانستان يتمثل في إهمال الخيارات السلمية الأخرى. صحيح أن المساعي والجهود الأمريكية السابقة لإقناع الطالبان بتسليم ابن لادن لم تفلح، لكن كان بالمستطاع تحديد موعد نهائي[64] إذ طالب زعيم طالبان الملا عمر الولايات المتحدة بتقديم دليل يثبت تورط ابن لادن في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وأشار إلى أنه سيكون آنئذ مستعدا لتسليم ابن لادن إلى محكمة إسلامية في إحدى البلدان الإسلامية (وفي عرض تصالحي آخر، أعلن الطالبان استعدادهم لتسليم ابن لادن إلى محكمة تضم في هيئتها قاض مسلم واحد على الأقل)[65]. كانت باكستان تتمتع بنفوذ واسع لدى الطالبان ولربما أثمرت مقاربة أخرى تتسم بالصبر والتأني في خلال ستة أشهر أو نحوها[66]. وفي الحقيقة، قيل إن اثنين من الأحزاب الإسلامية الباكستانية قد تفاوضت حول تسليم ابن لادن إلى باكستان، لكن المفاوضات أوقفت بتدخل من الرئيس برويز مشرف، وفقا لنصيحة من الولايات المتحدة كما هو معروف[67]. أما مطالبة الولايات المتحدة بتسليم ابن لادن وغيره من كوادر «القاعدة»، وإغلاق معسكراتها ومواقعها، فقد اعتبرت غير قابلة للتفاوض. يعلق كونيتا على ذلك قائلا:

> كان المطلوب أن يركع الطالبان. وكان من المفروض توقع ردة فعل من الكبرياء الوطنية. الأمر الذي أعطى قوة دافعة للمتشددين (الطالبان من قدماء المحاربين) في قندهار، بدلا من تعزيز دور مجلس الشورى (المكون من العلماء والملالي) الأكثر مرونة في كابول[68].

المشكلة الثالثة في الهجوم على أفغانستان أنه شجع على تفجر مقاومة مهمة ومستمرة داخل البلاد. أما الرابعة فهي أن الهجوم ذاته شكل مصدرا للإرهاب.

والخامسة أن الهجوم فاقم من مشاعر الغضب لدى العديد من المسلمين في شتى أرجاء العالم. ولسوف نتناول هذه النقاط بمزيد من التفصيل لاحقا.

أخيرا، كان للهجوم على معسكرات «القاعدة» فائدة مشكوك بها في سياق مواجهة عدو يأخذ هيكلا تنظيميا لا مركزيا ولا محددا على نحو متزايد. وفي الحقيقة، أسهم الهجوم في نزع المركزية عن «القاعدة»، ونشر المجموعة الإرهابية بدلا من القضاء عليها. وتبعا لتقديرات أحد كبار الخبراء المتخصصين في مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي فإن حرب أفغانستان لم تسفر إلا عن تقليص قدرة «القاعدة» بنسبة 30% فقط. إذ إن العديد من ناشطيها فروا إلى إيران[69]. كما عاد العديد من قيادييها إلى أوطانهم الأصلية، بما فيها الشيشان وجورجيا واليمن وشرق أفريقيا[70].

وفي حين وجد بعض الإرهابيين من أعضاء «القاعدة» الذين تفرق شملهم أن من الصعب عليهم العمل من جديد[71]، لكن من غير المرجح أن يشكل ذلك عقبة كأداء. ولاحظ روهان غوناراتنا، الخبير المتخصص في شؤون «القاعدة» (2003) أن القادة الإقليميين يعملون الآن بشكل مستقل عن القيادة المركزية. والأهم أن تفرق كوادر «القاعدة» ساعد على ما يبدو في تعزيز قيادة تتنامى لامركزيتها باطراد وتعتمد غالبا على مصادرها التمويلية المحلية[72]. في أواخر عام 2001، قال مسؤولو الاستخبارات الأمريكية إنهم يعتقدون أن ابن لادن نقل سلطة اتخاذ القرار بشن الهجمات الإرهابية إلى خلايا فردية داخل شبكة «القاعدة[73]». وفي أيار/ مايو 2003، علق جوناثان ستيفنسن من المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية قائلا: إن مسعى مكافحة الإرهاب عمل (على عكس ما كان يقصد منه) على «إجبار الشبكة الدولية المراوغة واللامركزية أصلا على التحول إلى كيان من الأصعب تحديده وتحييده.. وبفضل التقانة وجاذبية الجهادية (المتعددة الجنسيات)، لم تعد المعسكرات الأفغانية ضرورية [الآن]» ولاحظ ستيفنسن أن المنسقين على المستوى

المتوسط، الذين تدربوا في أفغانستان، استطاعوا لاحقا العمل في عشرات البلدان، وأن تفجيرات كتلك التي وقعت في كينيا عام 2002، يمكن أن يترك قرار القيام بها إلى «الأعضاء المحليين[74]». ومن المؤكد أن الهجوم على أفغانستان لم يمنع تفجير الملهى الليلي في بالي (تشرين الأول/أكتوبر 2002) ـ وهو عمل إرهابي فظيع جرى بالتنسيق مع «الجماعة الإسلامية»، المنظمة الإرهابية الإسلامية في جنوب شرق آسيا التي تعتمد في تمويلها على «القاعدة[75]». وتقدر تكلفة تنفيذ عملية التفجير في بالي بحوالي 35ألف دولار، وهو مبلغ يمكن جمعه بسهولة من بطاقات الائتمان المزورة وشبكات الجريمة الصغيرة التي يديرها بعض المتطرفين الإسلاميين[76]. وفي معرض الإشارة إلى معسكرات التدريب التابعة لـ«القاعدة» في أفغانستان، علق رونالد جاكارد الخبير الفرنسي المتخصص في شؤون الإرهاب، قائلا: «المعسكرات هي التي كلفت ــ القاعدة ــ الملايين، أما اليوم فهي ليست بحاجة إلى هذه الأموال كحالها فيما مضى». والجدير بالذكر أن تكلفة تخطيط وتنفيذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر قدرت بحوالي 400 إلى 500 ألف دولار[77].

يعتقد جي. تي. كاروسو، مساعد مدير قسم مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفيدرالي أن عملية الحرية الدائمة في أفغانستان قد سببت «إرباكا» في عمليات «القاعدة»، لكن لم «توقفها» بالضرورة: نتيجة الطبيعة اللامركزية للتنظيم. فكما يقال أحيانا، تصرفت «القاعدة» كمؤسسة تعطي المنح لأولئك الذين يقدمون خططا «واعدة» للهجمات الإرهابية. كما جرت مقارنتها بشركة لها «رسالة» مشتركة محددة في بيانها التأسيسي، وتدعم المبادرات على المستوى المحلي. ومن الأصعب رصد ومراقبة المنظمات اللامركزية والسيطرة عليها[78].

من الأمور التي لم تحسم بعد إمكانية وصف شبكات الإرهابيين الإسلاميين المفككة بأنها تابعة لـ«لقاعدة». كتب وليام دالريمبل (في «نيويورك ريفيو أوف بوكس») يقول:

في حين هيمنت ـ القاعدة ـ على الأخبار منذ الحادي عشر من سبتمبر 2001 إلا أن هناك العشرات من الجماعات المشابهة المكونة من الراديكاليين الإسلاميين المستقلين الذين تدربوا منذ الثمانينيات في معسكرات على الحدود الأفغانية. والعديد من هذه الجماعات أدارتها المخابرات الباكستانية ومولتها المخابرات المركزية الأمريكية (أحد المصادر الموثوقة قدر المساهمة الأمريكية بحوالي 7 مليارات دولار[79])..

وفي دراسة مهمة تناولت تنظيم «القاعدة»، لاحظ جيسون بيرك أنه بحلول الحادي عشر من سبتمبر، تمتع ابن لادن بولاء حوالي مائة من الأفراد المتحمسين ـ الذين شكلوا النواة الصلبة لـ«القاعدة»[80]، وأضاف:

ظل ابن لادن طيلة سنوات حياته، باستثناء خمس (أو ثلاث) شخصية هامشية في الحركة الجهادية الإسلامية الحديثة.. وخلال السنوات الخمس عشر الماضية، وصل عشرات الألوف من الشباب المسلم إلى معسكرات التدريب في أفغانستان. والعديد منهم لم يسمع قبل عام 1998 بأسامة ابن لادن أبداً[81].

وحتى في السياق الأفغاني، لم تحل مشكلة «القاعدة» أبداً: فقد بقي الطالبان و«القاعدة» حاضرين داخل الحدود. وذكرت الأمم المتحدة أن «القاعدة» أعادت في وقت لاحق افتتاح معسكرات تدريبية في الأماكن النائية من شرق أفغانستان حيث يتدفق إليها مجندون جدد[82]. وفي حين أن الحرب في أفغانستان قد «انتهت» رسميا منذ أمد بعيد، إلا أن عمليات القصف التي تشنها الولايات المتحدة لم تتوقف عام 2001. وفي الحقيقة مازال القصف مستمرا حتى عام 2005: في محاولة يائسة للقضاء على قوة تضم عناصر من الطالبان و«القاعدة»[83].

مبدأ الضربة الوقائية الاستباقية

إلى جانب الاختيار التسلسلي على ما يبدو للأعداء، هنالك تغيير كاشف ومنذر بالخطر في السياسة الخارجية المعلنة للولايات المتحدة. قال مساعد وزير الخارجية ريتشارد هاس:

> ما ترونه في هذه الإدارة (بقيادة جورج بوش) ظهور مبدأ جديد أو جملة من الأفكار الجديدة.. حول ما يمكن تسميته بحدود السيادة. فالسيادة تستتبع الالتزامات. إذ لا ينبغي أن يذبح أحد مواطنينا. الالتزام الآخر هو عدم دعم الإرهاب بأي طريقة كانت. فإذا فشلت حكومة في الوفاء بهذه الالتزامات، فإنها تغرم بحرمانها من بعض مزايا السيادة، بما فيها الحق بأن يترك لها التحكم بما يجري داخل أراضيها. ويكون للحكومات الأخرى، بما فيها حكومة الولايات المتحدة، الحق في التدخل. وفي حالة الإرهاب، يمكن لذلك أن يؤدي حتى إلى الحق في الدفاع الوقائي عن النفس. ويمكن في هذه الحالة التصرف بشكل استباقي، إن وجدت أسباب للظن بأن المسألة مسألة متى وليست إذا كنا سنتعرض للهجوم[84].

وفي معرض الإشارة إلى «تلك المنظمات الإرهابية العالمية أو أي إرهابي أو دولة ترعى الإرهاب وتحاول حيازة أو استخدام أسلحة الدمار الشامل أو الأسلحة الممهدة لها»، قالت الحكومة الأمريكية (في أيلول/ سبتمبر 2002):

> في حين سوف تسعى الولايات المتحدة باستمرار للحصول على دعم المجتمع الدولي، فإننا لن نتردد في العمل لوحدنا، إذا دعت الضرورة، لممارسة حقنا في الدفاع عن النفس عبر العمل الاستباقي ضد هؤلاء الإرهابيين، لمنعهم من إلحاق الضرر بشعبنا وبلدنا[85].

لنلاحظ أن ذلك ليس مجرد دفاع عن الضربات الاستباقية ضد الدول التي تملك أسلحة دمار شامل: بل ضد التي تحاول حيازتها أيضا، وحتى تلك التي تحاول حيازة «الأسلحة الممهدة لها». وليس من الواضح من هو المستثنى من هذا المشروع الواسع المدى. علاوة على ذلك، أعلن بوش قائلا: «إننا لن نفرق بين الذين خططوا لهذه الأعمال [هجمات الحادي عشر من سبتمبر] وأولئك الذين يؤونهم»[86]. وفي الحقيقة، يبدو أن المبدأ قابل للتوسع والتمدد بدون حدود تقريبا. ويمثل ذلك كله نقلة كبرى من سياسة الحد من انتشار الأسلحة النووية إلى سياسة إزالة خطر التهديدات النووية (وأسلحة الدمار الشامل الأخرى) بشكل فعال. وذكرت وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) أن على الولايات المتحدة أن تكون مستعدة لاستخدام الأسلحة النووية لتوقي، والرد على، استخدام أسلحة الدمار الشامل[87].

ولاحظ نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز، الذي ألح على جعل العراق هدفا أساسيا في «الحرب على الإرهاب» بعد الحادي عشر من سبتمبر:

> الأمر لا يقتصر على مجرد إلقاء القبض على أشخاص وتحميلهم المسؤولية، بل القضاء على الملاجئ الآمنة، وأنظمة الدعم، والدول التي ترعى الإرهاب. لسوف تكون حملة لا عملا مفردا. وسوف نستمر في مطاردة هؤلاء ومن يقدمون الدعم لهم حتى يتوقف الإرهاب[88].

شكل ذلك كله «رخصة» واسعة النطاق للقتل وإشارة قوية ومعبرة إلى حرب بلا نهاية. قال دونالد رمسفيلد (في حزيران/ يونيو 2005): إن التمرد في العراق قد يستمر مدة اثني عشر عاما[89]. وحتى الاسم الذي أطلق في البداية على الضربات الموجهة إلى أفغانستان («عملية العدالة المطلقة») بدا أنه يوحي بدلالته إلى نوع من التعطش للحرب المؤبدة[90] وأشار البنتاغون إلى الحاجة إلى «تغيير النظام» في إيران. ولاحظ ديفيد فروم وريتشارد بيرل، وهما من المحافظين الجدد النافذين

الذين يحتلون مناصب مهمة في «معهد أمريكان انتربرايز» (2003)، أن إيران «دولة إرهابية، وأسوأ دولة في العالم»[91]. وأشارا إلى النظامين الحاكمين في إيران وكوريا الشمالية بالقول: «إنهما يمثلان تهديدات لا تحتمل للأمن القومي الأمريكي. وعلينا التحرك بجرأة ضدهما معا وضد جميع الدول الأخرى الراعية للإرهاب: سورية، وليبيا، والسعودية، وليس لدينا الكثير من الوقت»[92]. وكانت السعودية قد اتهمت بالتحريض على الإرهاب وبأنها «عدو مقنع»[93]. وأضاف الاثنان مزيدا من التفاصيل حين تحولا جهة الشرق الأقصى: «مصالحنا (ومصالح اليابان) تختلف عن مصالح كوريا الجنوبية. وبأسلوب أكثر صراحة نقول: إن أي رأس نووي قد تبيعه كوريا الشمالية إلى ـ القاعدة ـ أو غيرها من الجماعات الإرهابية أخطر بالنسبة لنا من اندلاع الحرب على شبه الجزيرة الكورية.. في كوريا، الطريقة المؤكدة لتجنب الحرب هي الاستعداد لخوضها»[94]. وفي فقرة تثير الرعب، يقترح فروم وبيرل ما يلي:

> بعد ذلك، يجب أن نسرع عملية إعادة نشر جنودنا على شبه الجزيرة الكورية بحيث يصبحون خارج مدى المدفعية والصواريخ الكورية قصيرة المدى. لقد بدأ الرئيس بوش والوزير رمسفيلد القيام بذلك. فمهمة الجنود الأمريكيين أصلا هي ردع الشمال عن غزو الجنوب مرة ثانية: أما اليوم فقد أصبحوا رهائن، يستغل الشمال ضعف موقعهم لردعنا ـ كما أن تواجدهم لا يشجع الجنوب على تحسين دفاعاته.. وحين نعيد نشر جنودنا، يجب علينا وضع وتطوير خطط تفصيلية للقيام بضربة استباقية ضد المنشآت النووية في كوريا الشمالية[95].

هنالك أيضا تهديدات خفية للصين: «تتحمل الصين مسؤولية البرنامج النووي لكوريا ويجب أن تحاسب عليه» [96]. كما يشير المؤلفان إلى احتمال أن تشكل الصين «خطرا مهددا» على المدى الطويل [97]. ووجد هذا القلق صدى في مراجعة البنتاغون لاحتياجات أمريكا العسكرية (تسربت التفاصيل عام 2005)، حيث ذكرت

الصين في سياق الحاجة إلى إنفاق عسكري ضخم لردع الدول المرشحة لتصبح قوى عظمى[98].

لم يكن هذا النوع من التعطش للحرب مقتصرا على الولايات المتحدة فقط. فقد قال توني بلير: إنه لو أحجم بوش عن التدخل في العراق لدفعه في ذلك الاتجاه. ونقل عن رئيس وزراء بريطانيا قوله أيضا: إن من الضروري بعد إسقاط صدام «التعامل» مع كوريا الشمالية. وفي حين يبدو أن هناك حدودا لمثل هذا المشروع على الصعيد العملي (على الأقل بسبب احتمال ثورة حزب العمال عليه)، إلا أن ميول ونزعات بلير لا يحدها على ما يبدو سوى القليل من القيود. وكان قد قال قبيل مهاجمة العراق: «ما يدهشنا هو عدد الأشخاص الذين يسعدهم بقاء صدام. فهم يسألون: لماذا لا نتخلص من موغابي، أو الطغمة الحاكمة في بورما. أجل، دعونا نتخلص منهم جميعا. أنا لا أفعل لأنني لا أستطيع، وحين أستطيع علي أن أفعل»[99].

مبدأ الضربة الاستباقية يتلقى الآن التهليل والاستحسان بوصفه شرعيا وقانونيا. لكنه كقاعدة مؤسسة للعلاقات الدولية أو القانون الدولي يعتبر خطيرا ومفككا يفتقد التساوق إلى حد مؤسف. إحدى الصعوبات تتمثل في إعلان حكومة من الحكومات أن الحرب وقائية استباقية بينما يكون لها دوافع وبواعث أخرى[100]. والأهم أن مبدأ الحرب الاستباقية قد يستحيل العمل به حتى وإن جرى تعميمه[101]. دعونا نفترض جدلا أن من حق دولة مهاجمة أخرى إذا اعتقدت أنها على وشك التعرض لهجومها. بالنسبة للبلدان التي ترى أن هذا المبدأ قد يصبح وسيلة ضدها (كوريا الشمالية؟ إيران؟ العراق ذاته؟)، هل تملك حق مهاجمة الولايات المتحدة لاستباق الهجوم القادم عليها؟[102].

في أيلول/ سبتمبر 2004 وفي أعقاب الهجوم الإرهابي على مدرسة بيلسان، أكدت روسيا على حقها في توجيه ضربة استباقية ضد القواعد الإرهابية في شتى

أنحاء العالم[103]. ولن يكون الأمر مناسبا (أو محل ترحيب من قبل الولايات المتحدة) إذا اعتبرت روسيا أن من حقها تطبيق قرارات مجلس الأمن الدولي المتعلقة بالأراضي التي تحتلها إسرائيل مثلا[104] يلاحظ بيتر سينغر أن «أمريكا تأوي المنفيين الكوبيين الذين استخدموا ميامي كقاعدة لشن هجمات إرهابية ضد كوبا»، ويسأل هل يعطي ذلك كوبا الحق في مهاجمة الولايات المتحدة؟[105]. ولن يعتقد سوى قلة من الناس أن دعم الولايات المتحدة لعمليات «الكونترا» الإرهابية ضد نيكاراغوا يبرر قصف هذه الأخيرة للولايات المتحدة[106]. ولا تشكل السوابق التاريخية الأبعد دعاية جيدة تشجع الهجمات على الدول المزعومة الداعمة للإرهاب. ففي عام 1914، حين شنت الإمبراطورية النمسوية ـ الهنغارية الحرب على صربيا (لتعجل باندلاع الحرب العالمية الأولى)، اتهمت حكومتها الصرب بالتورط في عملية اغتيال الارشيدوق النمساوي فرانز فردينان[107].

المشكلات الخطيرة الناجمة عن توكيد الحق بالضربات الاستباقية تصبح أشد وضوحا إذا طبقنا المبدأ في مجال القانون والنظام داخل الدول. فكيف ستكون حال المجتمع إذا اعتبرت مهاجمة أحد الأفراد مقبولة ومرغوبة لمجرد أن فردا آخر اعتقد أن له أسبابا تدعوه للظن بأن الأول ينوي إلحاق الأذى به؟ لربما يصح ذلك على المجتمع المحلي في مدينة سالم (ماساتشوستس) عام 1692! علاوة على ذلك، كيف ستصبح حال بلد من البلدان إذا سمح بمهاجمة جماعات بأكملها: لأن جماعة أخرى اعتقدت أن الضحايا كانت تنوي إنزال الضرر بها؟ ربما ينطبق ذلك على رواندا عام 1994، أو ألمانيا في ثلاثينيات القرن العشرين! لقد لجأ الأقوياء إلى العنف الجماعي منذ عهد بعيد، وعملوا على شرعنته ورحبوا به باعتباره «وقائيا»، كما سهلوا ممارسته بواسطة هذه التوقعات المثيرة للشبهات بالضبط: وبهذا المعنى، كما في كثير غيره، يتبع مبدأ بوش تراثا طويلا وخطيراً.

تأجيج الغضب

على الرغم من الرضى الواضح الذي يبديه بوش على اللعبة التي راهن عليها بكل ما يملك، إلا أن مشكلة الإرهاب تتجاوز ـ لسوء الحظ ـ «الأشرار» الاثنين والعشرين الذين تضمهم اللائحة التي يحتفظ بها (على أي حال مازال تسعة عشر منهم حرا طليقا رغم مرور ثلاث سنوات على الحادي عشر من سبتمبر). فقد اعتقلت الولايات المتحدة وحلفاؤها حوالي 2700 من الإرهابيين المعروفين أو الذين يشتبه بتورطهم بالإرهاب وذلك حتى شهر أيار/ مايو 2003)[108] فئة «المشتبه بهم» نفسها محل للشبهة، نظرا للدور الرئيس الذي لعبته عمليات الاعتقال الخاطئة في توليد وزيادة الإرهاب). ومع ذلك يمثل الرقم 2700 جزءا من أعضاء «القاعدة» الذين قدر عددهم بحوالي 18 ألفا في تسعين دولة عام 2003 وزعمت وكالة المخابرات المركزية نفسها أن عددا يتراوح بين 70-120 ألفا من المجندين تلقوا التدريب في معسكرات ابن لادن في أفغانستان[109]، رغم أن الرقم يشمل على ما يبدو إرهابيي «القاعدة» وغيرهم من الإرهابيين الدوليين، إضافة إلى العديد من الإرهابيين الذين يركزون نشاطهم على الساحات الوطنية [110]. أما الأمر الجلي، فهو أن مشكلة الإرهاب لا يمكن احتواؤها بواسطة نظام يفترض أن عدد الإرهابيين صغير ومحدد ونهائي. ونستطيع أن نرى ذلك حتى ضمن كل بلد على حدة. ففي أعقاب تفجيرات بالي (تشرين الأول/ أكتوبر 2002)، اعتقلت الشرطة الإندونيسية أكثر من تسعين من أعضاء «الجماعة الإسلامية» (الشبكة الإرهابية المنتشرة في جنوب شرق آسيا والمرتبطة بـ«القاعدة»). لكن ذلك لم يمنع تفجير فندق غربي في جاكرتا (آب/ أغسطس 2003)، حيث قتل عشرة أشخاص على الأقل، والتفجيرات التي وقعت مرة أخرى في بالي ذاتها (تشرين الأول/ أكتوبر 2005)[111] هذا لا يعني أن مثل هذه الاعتقالات مضيعة للوقت: بل ينبغي أن يؤخذ المورد اللامحدود على ما يبدو من الإرهابيين «الجدد» على محمل الجد.

وحتى عند التعامل مع حالة انعدام الأمن داخل العراق، يخطئ المسؤولون والجنرالات الأمريكيون في افتراض أن العدو يمثل تراتبية هرمية ـ تشابه كثيرا قوات الاحتلال ـ وأن القضاء على قيادته (أولا ابنا صدام، ثم صدام ذاته) سوف يوقف العنف. أما الشعور المعتاد بالصدمة حين لا تتحقق هذه النتيجة السعيدة على أرض الواقع فيكشف عن ذهنية معينة.

في حين أن بعض مسؤولي الإدارة الأمريكية عقدوا مقارنة متفائلة بين «القاعدة» والأفعى التي ستموت متى قطع رأسها، إلا أن محللين آخرين قدموا حجة أكثر معقولية تثبت الشبه بين الشبكة والفطر: عليك أن تعالج البيئة التي ينمو فيها[112]. وبدلا من تخيل الإرهابيين على هيئة مجموعة متميزة ومنفصلة من الأشرار، نحن بحاجة لمعاينة عمليات تشكلها وأنساق صيرورتها. كيف يصبح الناس إرهابيين؟ هذا يعني النظر إلى البنى المحلية القمعية والتأثير الضار للنزاعات الدولية: ليس أقلها الضرر الذي حصل نتيجة «الحرب على الإرهاب» ذاتها. هنالك ميل متأصل في مكافحة الإرهاب، مثلما هي الحال في مجال الإغاثة من المجاعة (المختلف اختلافا بينا)، للتركيز على مجموعة مستهدفة دون اعتبار للعمليات والأنساق التي وصل عبرها الناس إلى مثل هذه الحالة المتطرفة[113].

من أجل فهم عملية التشكل والصيرورة نحن بحاجة إلى إحساس بالتاريخ على المستويين الفردي والوطني، إضافة إلى معرفة تأثير الغرب في المشكلة. لكن مثل هذا الحس والمعرفة غائبان عموما، خصوصا في الولايات المتحدة. الرئيس بوش عبر عن ذلك بأسلوب ينضح بالثقة بالنفس حين قال: «أعتقد أننا متفقون على أن الماضي قد انتهى»[114]. وعندما يتعلق الأمر بالتاريخ، فإن الكلمة ذاتها تستخدم مرارا في الولايات المتحدة لتعني أن شيئا أو شخصا قد مات أو لم يعد ذا صلة. في الوقت ذاته، فإن التاريخ كثيرا ما يتحول إلى ميدان للنرجسية: خصوصا بالنسبة

لبوش وبلير كليهما، اللذين يستحضران «التاريخ» غالبا للإشارة والتلميح إلى الطريقة التي سيحكم فيها على اللاعبين الرئيسين (من أمثال بوش وبلير) في المستقبل. على سبيل المثال، قال بوش في المقدمة التمهيدية لاستراتيجية الأمن الوطني (17/ 9/ 2002 التاريخ): «سيحكم بقسوة على أولئك الذين شاهدوا هذا الخطر القادم دون أن يفعلوا شيئا إزاءه»[115]. وأبلغ بلير الكونغرس الأمريكي، قائلا: إذا ارتكب خطأ في تقييم قدرات صدام في مجال أسلحة الدمار الشامل «فإن ذلك شيء أثق بأن التاريخ سوف يصفح عنه»[116]. ولاحظت وزيرة التنمية الدولية السابقة في الحكومة البريطانية، كلير شورت، أن بلير متهوس بهاجس ميراثه الخاص[117].

حقيقة أن مكافحة الإرهاب تقرر بشكل حاسم قوة التهديد الإرهابي ربما فاتت على بوش، لكنها لم تفشل في جذب انتباه الإرهابيين. ومثلما قال توماس فريدمان، فإن الإرهابيين الإسلاميين «يريدون تحريض الولايات المتحدة على اللجوء إلى رد عسكري كاسح لا يفرق بينهم وبين المسلمين الآخرين. ذلك سيكون نصرهم النهائي ـ لأنهم يرون العالم على شكل صراع بين الحضارات، ويريدون من كل مسلم رؤية العالم من هذا المنظور والانضمام إلى جهادهم»[118].

بغض النظر عن تأثير استخدام العنف في مكافحة الإرهاب في دفع الناس إلى التطرف، فإن بيانات وتصريحات بوش شجعت أيضا سياسة الاستقطاب. فقد قال عبارته المشهورة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر: «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا في الحرب على الإرهاب»[119]. ويبدو أن القصد من العبارة تملق الحياديين وحثهم على دعم «الحرب على الإرهاب». لكن بالنسبة لأولئك الذين لا يريدون أن يكونوا «مع» السيد بوش في سبيله الذي اختاره، فإن المنطق المنحرف والضمني للتعليمات التي أصدرها يعني: انضموا إلى صفوف الإرهابيين.

شعر الكثيرون بالارتياح طبعا لسقوط الطالبان وصدام. لكن رد بوش/ بلير ولَّد غضبا عارما داخل وخارج البلدان المستهدفة المختارة. دعونا نتناول أولا حالة أولئك الموجودين داخل هذه البلدان.

الغضب في البلدان المستهدفة

على الصعيد النظري، توجب على القوات العسكرية التي قادتها الولايات المتحدة للرد على هجمات الحادي عشر من سبتمبر أن تميز بدقة بين الأشرار والأخيار: يجب أن يكون القصف موجها لأهداف محددة، وينبغي على الحكومات الشريرة أن تسقط، وأن توفر الحماية للناس العاديين من الحرب بواسطة المعونات الإنسانية. لكن تظهر هنا أربع مشكلات على الأقل، جميعها تلهب الغضب على التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة.

أولا، من الصعب حتما تطبيق مثل مشروع «الفصل» هذا على صعيد الممارسة العملية: فالقنابل لا تعثر دوما على أهدافها، والفوضى تصيب الاقتصاد بصورة يتعذر تجنبها، ويجبر المدنيون على النزوح..

الهجوم على أفغانستان أدى إلى نزوح حوالي 500 ألف لاجئ[120]، وانقطاع المعونات الإنسانية مدة ثلاثة أشهر سبب العديد من الوفيات[121]. وحتى بعد انهيار الطالبان، عرقل اللصوص وقطاع الطرق وتداعي سلطة القانون توزيع المعونات[122]. ويقدر عدد المدنيين الأفغان الذين قتلوا نتيجة العمل العسكري الأمريكي (منذ بدء الهجوم في تشرين الأول/ أكتوبر 2001 وحتى نهاية شهر آذار/ مارس 2002) بحوالي 340 [123] وقد تم القصف من ارتفاعات عالية من أجل تجنب الخسائر الأمريكية في الأرواح، ونجح من هذه الناحية: بحلول العاشر من كانون الثاني/ يناير لم تتجاوز الخسائر الأمريكية في الأرواح رجلين اثنين سقطا بنيران معادية[124]. أما أكثر تقديرات وزارة الدفاع الأمريكية تفاؤلا فأكدت أن نسبة 85% من القنابل الأمريكية

أصابت أهدافها. لكن ذلك يعني ضمنا أن نسبة 15% ـ أي 450 قنبلة أو أكثر ـ قد ضلت أهدافها[125]. واعترفت الولايات المتحدة بأنها أسقطت قنبلتين وزن الواحدة 225 كغ فوق منطقة سكنية إلى الشمال من كابول[126]. وقال الناطق باسم البحرية إن 60% من القنابل التي سقطت على أفغانستان كانت من القنابل الذكية، رغم أن معظمها كانت أصلا «غبية» تحولت إلى ذكية بإضافة زعنفة ذيل موجهة بالأقمار الصناعية[127]. واستمرت عمليات القتل في أفغانستان حتى بعد أن بهتت التغطية الإخبارية. على سبيل المثال، قتل أحد عشر مدنيا في باكتيكا (شرق أفغانستان) في العاشر من أبريل 2003، بعد أن أسقطت طائرة حربية أمريكية بطريق الخطأ قنبلة موجهة بالليزر فوق أحد المنازل. ولا ريب أن مثل هذه الحوادث تؤدي إلى استعداء السكان المحليين.

بين آذار/ مارس وأيلول/ سبتمبر 2002، عاد حوالي 1، 7مليون لاجئ إلى أفغانستان. لكن الافتقار إلى التمويل الضروري لإعادة الإعمار عنى أن يجد العديد منهم البقاء صعبا أو مستحيلا، واضطر بعضهم للعودة من حيث أتوا. فقد استخدمت معظم الأموال المخصصة لإعادة الإعمار للنازحين داخل أفغانستان بسبب الاضطرابات الإثنية في الشمال والجفاف المنتشر على نطاق واسع[128]. وفي شباط/ فبراير 2003، وصف أحد الصحفيين الزائرين البلد بأنه في حالة من «البؤس المطلق والفقر المدقع»، وأضاف إن «نصف المليارات الثلاثة من الجنيهات [التي خصصتها الأمم المتحدة لإعادة الإعمار] قد أنفق، رغم زعم الحكومة الأفغانية بأنها لم تتلق سوى جزء من المبلغ». صحيح أن عددا كبيرا من الوكالات كانت تعمل في البلاد لكن «مع بعض الاستثناءات الملحوظة، يصعب تمييز ما حققته من إنجازات». فقد كان عشرات الألوف من اللاجئين يعيشون في خرائب دمرتها القنابل. بينما لم يتجاوز عدد الجيش الأفغاني 4000، أي حوالي واحد من عشرين من العدد المقترح. «حالما ينضم بعض الجنود الجدد إلى التدريب براتب لا يتجاوز

عشرين جنيها في الشهر ـ إذا تلقوا مثل هذا الراتب أصلا ـ فإن آخرين يشعرون بالحنين إلى قراهم البعيدة، وسرعان ما يتركون الجيش»[129]. وفي أيار/ مايو 2003، كانت الألغام أو القنابل التي لم تنفجر تقتل عددا يتراوح بين 100-150 أفغانيا في الشهر[130].

المشكلة الثانية تتمثل في أن المشروع الدولي المعلن لفصل الخير عن الشر (غير الواقعي أصلا) أصبح أكثر بعدا عن الواقع نتيجة الحوافز والبواعث ذات الصلة التي تدفع الأشرار في بلاد «العدو» لـ«تعكير صفو الماء»، أي الاختلاط مع المدنيين. فمدفعية الطالبان كانت ملاصقة أحيانا للمساجد والمدارس[131] ـ وهي عادة موروثة تعود في جزء منها على الأقل إلى الحكومة القديمة المدعومة من قبل السوفييت، حيث اعتادت وضع المنشآت والمرافق العسكرية في المناطق الحضرية لحمايتها من هجمات المجاهدين[132] في العراق، ذكر الجنود أن بعض رجال المقاومة يرتدون ثيابا مدنية[133]، واشتكى شون هيوز، جندي المشاة التابع لفرقة المارينز الأولى (2003) من أن:

> الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه ـ مقاتلة عدو يستخدم النساء والأطفال وغيرهم من المدنيين كدروع بشرية: الأمر الذي يجبرنا على الاختيار بين إطلاق النار على «أهداف المنطقة» (تعبير مهذب يعني إطلاق النار على الحشود من المدنيين) أو التعرض للقتل على أيدي «أولاد الزنا» الذين يستخدمون الحشود كحماية لهم ـ هذا الموقف مرعب إلى حد ينأى عن الوصف. رأيت العديد من جثث الأطفال مبعثرة في شوارع الناصرية (جنوب العراق) إلى جانب عدد لا يحصى من جثث المدنيين الآخرين[134].

المشكلة الثالثة هي أن الخسائر بين المدنيين شجعت المقاومة حتما، الأمر الذي أدى إلى سقوط المزيد من الضحايا المدنيين. مجلة «نيوزويك» أجرت في صيف عام

2003 مقابلة مع ثلاثة من مقاتلي المقاومة العراقية، ولاحظت «أن المقاتلين قادرون على ما يبدو على التحرك بشكل علني في العامرية [على بعد حوالي 30 ميلا إلى الشرق من بغداد] دون خوف من أن يبلغ أحد الأمريكان عنهم»[135]. وأضاف مقاتلو المقاومة أن لديهم حوالي خمسة آلاف مقاتل مسلح، وأن الغضب يملأ صدورهم على القوات الأمريكية بسبب وفاة ثمانية عشر رجلا وطفلا كانوا يحتجون (في 29/ 4/ 2003) على احتلال مدرستهم الابتدائية في الفلوجة. كانت تلك حادثة غيرت النظرة إلى الجنود الأمريكيين وأصبحوا معرضين للتهديد والخطر بعد أن كانوا في وضع آمن نسبيا في الفلوجة وغيرها من المدن الواقعة شمالي بغداد [136]وزعمت الولايات المتحدة أن جنودها كانوا يردون على مسلحين بين الحشد، لكن منظمة حقوق الإنسان لم تعثر على «دليل دامغ» لآثار طلقات الرصاص يثبت تعرض المدرسة التي يتمركز فيها الجنود الأمريكيون لإطلاق النار[137]. وحين قتل أربعة من المتعاقدين الأمنيين ومثل بجثثهم في الفلوجة (31/ 3/ 2004) كان رد المارينز على المدينة ساحقا ماحقا، حيث قتلوا عددا يتراوح بين 600-700 شخص. وزعمت القيادة الأمريكية أن جميع القتلى عبارة عن أهداف مشروعة، لكن الأطباء المحليين أكدوا أن معظم القتلى كانوا من النساء والأطفال والشيوخ. ثم شنت القوات التي تقودها الولايات المتحدة هجوما ثانيا على المدينة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، وبعد أسبوع من الحصار قدر مراسل لهيئة الإذاعة البريطانية عدد القتلى بألفي شخص. كما دمر حوالي 36 ألف منزل في المدينة المنكوبة[138].

انتهاكات وتجاوزات المحققين كانت منتشرة على أوسع نطاق في أفغانستان، حيث لم يكن للعديد من المعتقلين صلات يمكن إثباتها بأي منظمة محظورة. ولجأ المسؤولون الأمريكيون إلى تعذيب السجناء لا في «أبو غريب» (في العراق) فقط، بل في باغرام (في أفغانستان) وغوانتانامو (في كوبا)[139]وكانت وكالة المخابرات المركزية تنقل المشتبه بهم بالطائرات إلى سجون في مصر والأردن وسورية حيث

يتعرضون للتعذيب[140] . وفي العراق، طالت الاعتقالات المتمردين وغير المتمردين على حد سواء: لتحاكي الاختيار العشوائي للعراق كهدف في البداية. وفي اعتراف يثير القلق، قدر ضباط الاستخبارات العسكرية في قوات التحالف أن نسبة تتراوح بين 70-90% من أولئك الذين حرموا من حريتهم في العراق قد اعتقلوا خطأ[141] أما مارك دانر فعلق قائلا: إنه نظرا للحاجة الماسة للاستخبارات الجيدة، فإن «اعتقال وسجن آلاف المدنيين بواسطة عمليات اقتحام جرى تعريفها بأسلوب مشبوه بأنها ـ تطويق واعتقال ـ ، يمثلان تكتيكا فاضحا يهزم ذاته بذاته»[142] لقد جرى توثيق حالات سوء المعاملة بعد الاعتقال في العديد من مناطق العراق من قبل اللجنة الدولية للصليب الأحمر[143] ومع ارتفاع الخسائر البشرية في صفوف قوات التحالف، ازداد الضغط من أجل «تحطيم» إرادة السجناء واستخلاص المعلومات منهم[144] وحتى قبل تفجر فضيحة «أبو غريب»، أوردت مجلة «نيوزويك» ما يأتي:

اختفى حوالي 8 آلاف شخص منذ انهيار نظام صدام، والعديد من أقرباء هؤلاء يبحثون عن أجوبة حول مصيرهم. هنالك أكثر من خمسة آلاف شخص رهن الاعتقال في السجون الأمريكية.. وأولئك الذين اعتقلوا يعيشون في عزلة تامة، ولا يحق لهم طلب محامين أو الاتصال بأسرهم. وفي معظم الحالات لا يعرف أقرباؤهم أين هم.. الظروف بدائية.. والعقوبة المعتادة والمتكررة إجبار السجين على الركوع تحت أشعة الشمس اللاهبة حيث تتجاوز الحرارة 50 مئوية. أما الذين يخضعون للاستجواب فهم عرضة للحرمان من النوم، والموسيقى الصاخبة، وغير ذلك من الأساليب التي يعتقد العسكر أنها لا تنحدر إلى درك التعذيب. بل إن السلطات تعتقل زوجة المشتبه به وأطفاله كرهائن حتى يسلم نفسه، وهذا ما يفعله.. ويقول أحد أعضاء وفد الصليب الأحمر [عن السلطات الأمريكية]: «ما تفعله غير قانوني على الإطلاق، وهي تعلم ذلك»[145].

أججت هذه الفظائع ـ خصوصا تلك التي ارتكبت في «أبو غريب» ـ مشاعر الغضب في العديد من البلدان العربية والإسلامية، علاوة على أنها شجعت عددا كبيرا من الشباب على حمل السلاح في مختلف أرجاء الحزام السني في العراق[146] وفي بعض الأحيان أضفت الأعمال الوحشية التي ارتكبتها الجماعات المسلحة داخل العراق نوعا من الإثارة الدرامية على الصلات الرابطة بالانتهاكات الأمريكية: فقد قطعت رؤوس عدد من الرهائن وهم يرتدون اللباس البرتقالي المميز للمعتقلين في غوانتانامو. وبدا أن «أبو غريب» على وجه الخصوص يؤكد دعاية المتطرفين التي صورت العالم الغربي في حالة مزرية من الفسق والانحلال الجنسي. والأهم أن العار قد تجاوز بمراحل أولئك الذين تعرضوا للإذلال المباشر. فبعد تفجر فضيحة «أبو غريب»، قالت امرأة عراقية في منتصف العشرينات من العمر تعيش في بغداد، على موقعها الإلكتروني المعروف باسم «ريفربند»: «نحن نحترق من شدة العار والغضب والإحباط: لأننا لا نستطيع أن نفعل شيئا»[147] وعلق أحد المواطنين العراقيين (في نيسان/ أبريل 2004) قائلا: «كل من لا يقاتل لن يستطيع أن يزيل وصمة العار عن وجهه لأجيال وأجيال»[148] وتحدث قائد شاب من قادة التمرد السني عن مشاعره بعد غزو العراق، فقال:

> تجولت في الشوارع حاملا خنجرا في جيبي. خجلت من العودة إلى منزلي ورؤية عائلتي بينما بغداد ترزح تحت الاحتلال. الجثث وظروف الطلقات مبعثرة في كل مكان.. حين يحتل الكافر وطنك، تشعر وكأن امرأتك تغتصب أمام عينيك، أو كأنما دينك يهان كل يوم[149].

علقت سيلا الورثي في معرض إشارتها إلى «صدمة الاحتلال» قائلة: «في الثقافات التي يتعمق فيها مفهوم الشرف، فإن أولئك الذين يمارسون الإذلال ويجردون البشر من صفاتهم الإنسانية يعرضون أنفسهم للخطر»[150] وأبلغ شاب في الفلوجة الصحفي مارك دانر (في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003) أنه:

بالنسبة لأهل الفلوجة، فإن من العار أن يحطم الغرباء الأجانب أبوابهم. ومن العار أن يوقف الغرباء نساءهم ويفتشونهن. ومن العار أن يضع الغرباء كيسا فوق رؤوسهم، ويجبروا الرجل على الانبطاح أرضا والحذاء العسكري فوق عنقه. إنه عار كبير، أتعلم ذلك؟ عار على العشيرة كلها. ومن واجب ذلك الرجل، وتلك العشيرة، الثأر من هذا الجندي ـ وقتله. واجبهم مهاجمة الجنود لغسل العار. العار لطخة، بقعة قذرة: وعلى أهالي الفلوجة غسلها. لا نوم ـ لا يمكن أن يغمض لنا جفن قبل أن نثأر. علينا أن نقتل هؤلاء الجنود[151]

المشكلة الرابعة في المشروع المعلن الهادف إلى فصل المجال «العسكري» عن «الإنساني» هي أن التحالف بقيادة الولايات المتحدة تعرض مرارا لإغراء استغلال المشروع الإنساني لتعزيز وتقوية المشروع العسكري (مما عزز بدوره تصميم بعض العناصر المحلية على عرقلة المشروع الإنساني). إن مصداقية مشروع الولايات المتحدة «الإنساني» لم تدعمها الأفعال التي قامت بها الولايات المتحدة أو امتنعت عن القيام بها سابقا. فقد تراجع الاهتمام الغربي بأفغانستان في التسعينيات مع نهاية الاحتلال السوفييتي ثم نهوض حركة طالبان. وجرى إهمال الاحتياجات الإنسانية بصورة حادة، وبحلول منتصف عام 2001، انتشرت المجاعة على نطاق واسع، حيث قدر حجم العجز في الغذاء بأكثر من مليون طن[152]. وفي العراق أدت العقوبات الدولية في التسعينيات إلى مقتل 500 ألف طفل تحت عمر الخامسة [153]. وفي حين أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر حررت الموارد الإنسانية، إلا أن من الصعب تجاهل الدوافع العسكرية والسياسية.

حاول بوش وبلير استخدام المعونات الإنسانية لإظهار أنهما معاديان للنظامين الأفغاني والعراقي فقط، في حين أن نواياهما حسنة تجاه المدنيين. لكن الوفيات بين المدنيين كانت مؤكدة: على الأقل بسبب تكتيك القصف الجوي من ارتفاعات عالية.

وتوجب العثور على طريقة لتغطية القتل. ومثلما قال بوش حين خطط للحرب الأفغانية: «هل يمكن أن نجعل القنابل الأولى التي نسقطها أطعمة وأغذية؟»[154] بعض هذه المعونات أسقطت بالفعل من طائرات تحلق على ارتفاعات عالية، ولربما عرضت المتلقين لأخطار الألغام الأرضية[155]. ويبدو أن معظم وسائل الإعلام الأمريكية قد اعتنقت بكل حماس هذه المقاربة القائمة على «الغذاء مقابل الدم» («سنطعمك بقدر ما تنزف!»). لكن فكرة أن الناس سيبادلونك الحب: لأنك تسقط عليهم الطعام مع القنابل ربما تكون فكرة غريبة: التوازي ليس دقيقا، وليس واضحا تماما. على سبيل المثال، هل كان الأمريكيون سيسامحون ابن لادن على تدمير مركز التجارة العالمي لو قرر أن يسقط في الوقت ذاته رزم الأطعمة على المشردين في شيكاغو!؟[156].

في التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، أبلغ بوش مستشاري الأمن المقربين في مجلس الأمن القومي، قائلا:

> نحن بحاجة إلى حملة علاقات عامة تركز على الطالبان. نحن بحاجة إلى مؤتمر للمانحين [مؤتمر للبلدان المانحة للمعونات الغذائية]، إلى من يقوم بتنظيم ذلك كتعويض لشهر رمضان [الذي سيبدأ في منتصف تشرين الثاني /نوفمبر] نحن بحاجة ـ لأن نعطي التحالف شيئا [مشجبا] يعلق قبعته عليه حين نتابع القصف خلال رمضان. نحن بحاجة إلى تقديم معونة إنسانية خلال رمضان، معونة لم يعرف الأفغان مثيلا لها من قبل. نحن بحاجة أيضا إلى مبادرة سياسية في هذه المدة[157].

ومع التخطيط للقصف خلال شهر رمضان، أضاف بوش ملاحظة لها حساسية ثقافية: يجب على الولايات المتحدة تخفيف حدة القصف خلال أوقات الصلاة[158].

كان بوش مستعدا لتوسيع مدى هذه «الحساسية». ففي لقاء لمجلس الأمن القومي عقد في الثالث والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر، قال: «نحن بحاجة إلى مؤتمر لمانحي المعونات الإنسانية مع اقتراب شهر رمضان. ويجب أن نطلب من طالبان أن تسمح للشاحنات بالعبور. وإذا لم يفعلوا ذلك فهم ينتهكون مبادئ الإسلام»[159].

في أفغانستان، لم تكن المعونات الغذائية مفيدة في شرعنة العنف فقط، بل في تغطية المهمات العسكرية: وهو غرض مزدوج خدمته المعونات الإنسانية في الصراعات السابقة في نيجيريا وأثيوبيا والسودان[160]. في السادس من تشرين/ أكتوبر 2001، عقد لقاء في مجلس الأمن القومي، اتصل فيه المؤتمرون بواسطة جهاز الفيديو مع بوش في منتجع كامب ديفيد. وأعرب وزير الدفاع رمسفيلد عن قلقه من أن القاذفات ستشاهد وهي تغادر ميسوري، ونظرا لأن رحلتها إلى أفغانستان ستستغرق خمس عشرة ساعة أو أكثر، فقد يستفيد العدو من هذا التحذير المبكر الثمين من الهجوم الوشيك. فرد بوش: «دعها تقلع. وحاول التضليل بتقديم معلومات خاطئة». فأجاب رمسفيلد «لسوف نخبر الناس بأنها محملة بالأغذية»[161]وعلى الأرض، سرعان ما سيربط الجنود الأمريكيون توزيع الإغاثة بتقديم معلومات حول الطالبان و«القاعدة»[162].

يبدو أن إبهام الخطوط الفاصلة بين «الأجندات» العسكرية والإنسانية قد شوَّش وأربك بعض اللاعبين الرئيسين الذين يشتبهون ـ فطريا ـ بالاندفاع المتعجل إلى الحرب على العراق. تتذكر كلير شورت، أشهر منتقدي مقاربة بلير لهذه الحرب، أنها تشبثت ـ رغم ذلك ـ بمنصبها كوزيرة للتنمية الدولية خلال الهجوم على العراق ـ لأنها شعرت بالحاجة إليها لقيادة الجهد البريطاني في مجالي المعونات الإنسانية وإعادة الإعمار[163].

أدى ربط العمليات الإنسانية بالأجندات السياسية إلى مشكلات كبرى بالنسبة للمنظمات الأهلية (NGOs) إذا لم تقبل منظمة «أطباء بلا حدود» التمويل من حلف

الناتو، الأمر الذي ساعدها على العمل، في حين أن العديد من المنظمات الإنسانية الأخرى في أفغانستان كانت تتلقى التمويل من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية (USAID)وتريد أن تبدو حيادية[164]. وبالرغم من موقف منظمة «أطباء بلا حدود»، إلا أن الطالبان أعلنوا مسؤوليتهم عن قتل خمسة من العاملين فيها (حزيران/ يونيو 2004)، وذكر ناطق باسمهم أن «العاملين في الإغاثة الدولية يعملون لصالح السياسة الأمريكية»[165]. وفي تموز/ يوليو 2004، أعلنت المنظمة انسحابها من أفغانستان بعد أن عملت هناك طيلة 24 سنة[166].

قال بوش: إن المعونات الإنسانية إلى العراق تمثل «فرصة لتغيير صورة الولايات المتحدة»[167]، في حين دعا وزير الخارجية (آنذاك) كولين باول المنظمات الأهلية (غير الحكومية) للعمل «كقوة تضاعف قوتنا.. كجزء مهم من فريقنا المحارب»[168] وعلق الصحفي بيتر سوثارد، الذي أمضى ثلاثين يوما مع بلير (بدءا من 30/ 3/ 2003) خلال أزمة العراق، بالقول: «يفضل نواب حزب العمال ـ خطة كوفي عنان ـ وعبارة ـ من الأفضل استخدام خطة كوفي ـ تعني أن من الأفضل لنا إبهام هذا الجزء من التخطيط العسكري تحت غطاء جيد من هراء المعونات الإنسانية»[169] وسرعان ما أصبح العاملون في المنظمات التابعة للأمم المتحدة والمنظمات الأهلية هدفا مكشوفا في العراق المحتل. وشملت الفظائع التي ارتكبت بحقهم اختطاف وقتل مارغريت حسن مديرة منظمة «كير» الدولية في العراق. وانتشر إدراك واسع النطاق بأن جميع المعونات المقدمة إلى العراق هي جزء من الأجندة السياسية الأمريكية[170].

الغضب خارج البلدان المستهدفة

فاقمت «الحرب على الإرهاب» مشاعر الغضب، خصوصا بين المسلمين، خارج أفغانستان والعراق. وكررت الحكومتان الأمريكية والبريطانية مرارا التشديد على

أنهما لا تستهدفان المسلمين ككل. لكن من بين الستة والعشرين بلدا التي يشكل مواطنوها خطرا أمنيا متصاعدا داخل الولايات المتحدة تبعا لقائمة أعدتها وزارة الخارجية الأمريكية، هناك خمسة وعشرون بلدا إسلاميا (إضافة إلى كوريا الشمالية)[171]. كيف يبدو لك الأمر إن كنت مسلما؟ يمكن للتأثيرات الجانبية للعنف أن تكون واسعة المدى. على سبيل المثال، يبدو أن الهجوم على أفغانستان قد أثار وهيج الصراعات في فلسطين وكشمير (حيث نقلت الهند جنودها إلى حدود الإقليم الذي تتنازع عليه مع باكستان)[172].

وانصب الغضب على أبطال «الحرب على الإرهاب» في الغرب، وعلى الأنظمة المتواطئة مع الغرب في هذه «الحرب». وفي الحقيقة، كثيرا ما كانت «الحرب على الإرهاب» تعني «إضافة» العداء للغرب والولايات المتحدة إلى العداء للحكومات المحلية.

الغضب على الغرب

لا يجب الاستخفاف بقوة أولئك الذين يستخدمون الإرهاب ضد حكوماتهم، ولا بحماس وغلو إيديولوجيتهم المناهضة لأمريكا. أشار مايكل مان إلى أن ـ «القاعدة ـ تتألف من العرب المنفيين العاجزين عن مواجهة أنظمة الحكم في أوطانهم»[173]علاوة على أن العديد من أولئك الذين وضعتهم الولايات المتحدة في سلة «القاعدة» هم بالأصل جهاديون وطنيون (لا عالميون) (أتوا من الشيشان وكشمير وباكستان وإندونيسيا..). ويطرح مان سؤالا وجيها: «لماذا يعتبر هؤلاء الإرهابيون الوطنيون أنفسهم أعداء للولايات المتحدة؟»[174]. ويختتم بالقول: «لقد استعدى الجهاديون الكثيرين بسبب عنفهم المتطرف، كما فعلوا في التسعينيات في الجزائر ومصر. ولا ريب في أن الإسلاميين والجهاديين يعانيان من حالة انحطاط وتراجع منذ منتصف التسعينيات. لكن أعمال وأفعال الولايات المتحدة هي التي بدأت بإحيائهما»[175].

في إندونيسيا، حتى بعد الهجوم على أفغانستان، ذكر 61% من أولئك الذين أُستطلعت آراؤهم أنهم ينظرون إلى الولايات المتحدة باستحسان، لكن بحلول آب/ أغسطس 2004، (بعد الهجوم على العراق)، انخفضت النسبة إلى(176) 15% لقد أججت الحرب على العراق المشاعر المعادية للولايات المتحدة في مختلف أنحاء العالمين العربي والإسلامي(177). وعلق فيرغال كين، الصحفي الذي تنقل في شتى أرجاء العالم، على حرب العراق بالقول: «إذا كانت هناك أغلبية ـ أو حتى أقلية ـ عربية صامتة تعتقد بأن هذه الحرب أمر جيد، فإنني لم أعثر عليها بعد»(178) «فلا شيء يمكن أن تفعله أمريكا ويزود ـ القاعدة ـ وجيلها الجديد من الجماعات المستنسخة عنها بأداة تجنيد وحشد أفضل من غزونا لقطر عربي ـ غني بالنفط، دون استفزاز يدفعنا لذلك"، حسبما لاحظ كبير خبراء مكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة ريتشارد كلارك(179).

من الطبيعي أن تحفز أعمال الإرهاب ردة فعل تعبر عن الذهول والرعب: «لماذا يرتكب شخص مثل هذا العمل بحق السماء؟». العجز عن الفهم أمر إجباري تقريبا. لكننا نعرف الآن الكثير عن كيفية تشكل الإرهابي والدور الذي تلعبه أحداث العالم في هذه العملية. ويبدو أن اضطرابات الشخصية لم تعد أكثر شيوعا بين الإرهابيين مقارنة بغير الإرهابيين(180) فكل ما نعرفه يشير بدلالته إلى أن انتهاكات القوة الأمريكية (بما فيها الهجمات على أفغانستان والعراق) قد ساعدت على دفع عدد كبير من الناس إلى طريق الغضب والعداء الذي قد يؤدي إلى إنتاج الإرهابيين(181). الاحتلال الروسي لأفغانستان شكل نقطة مرجعية لإنتاج المقاومة، ومن ثم الإرهاب.

تعززت هذه العملية الآن، بعد أن أصبحت التدخلات العسكرية تُرى على نحو متزايد من خلال موشور وسائل الإعلام الخاضعة للسيطرة المحلية. إذ وفرت قناة «الجزيرة» (التي يقدر عدد مشاهديها بخمسة وثلاثين مليونا حتى قبل حرب عام

2003) بديلا معقولا ومقبولا لتغطية «سي. إن. إن» للصراعات الدولية، وخلال الهجوم على العراق (2003) عرضت «الجزيرة» مقاطع فلمية مصورة للخسائر العراقية عدة مرات كل ساعة[182]. وبعد تفجر فضيحة «أبو غريب»، كررت الفضائيات العربية عرض الصور كل بضع دقائق. أما قوة الحشد والتعبئة الكامنة في الصور، فتشير إليها تكتيكات الجماعات المتطرفة: على سبيل المثال، استخدم المتطرفون أحيانا في مسجد فينزبري في لندن مقاطع مصورة للانتهاكات التي ترتكب بحق المسلمين (بما فيها تلك التي ارتكبت ضدهم في البوسنة) لتعزيز ولاء أتباعهم، بل إعدادهم للقتال.

وبالطبع لا تنطلق حروب مكافحة الإرهاب الحالية من فراغ: فهي تأتي في سياق التجربة التاريخية للاستعمار وحالة الإذلال المؤسس في البلدان العربية والإسلامية. لقد صاغت التجربة الكولونيالية المدركات ليس في الشرق الأوسط فقط، بل في إندونيسيا وماليزيا والفليبين أيضا. وتبدى جزء من إذلال الاستعمار هذا حين قسم الغرب الأمة الإسلامية إلى دول[183] ويلاحظ برنارد لويس أن «المسلمين.. لا يميلون إلى رؤية أمة مقسمة إلى جماعات دينية، بل دين مقسم إلى دول»[184]ولم يحل الاستقلال المشكلة بالضرورة: على سبيل المثال، اعتبر المفكر الإسلامي المصري المتطرف سيد قطب القومية بمثابة اغتصاب لسلطان الله وحاكميته، حيث نظرت بإجلال وإكبار إلى الأمة والشعب بدلا من الله وحده[185].

شدد الإرهابيون مرارا وتكرارا على الإذلال (الذي تتعرض له الأمة) باعتباره ظلما يريدون رفعه. وأشار ابن لادن في شريط مصور (2001 /10 /7) إلى «الإذلال والخزي» اللذين عانى منهما الإسلام «لأكثر من ثمانين سنة»[186] ويبدو أن المدة تبدأ مع انحطاط وسقوط السلطنة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وفي معرض إشارته إلى الإرهابيين الذين قتلوا 24 أمريكيا في السعودية في عامي 1995و1996، قال: إنهم غسلوا جزءا كبيرا من العار الذي يلف الأمة[187] وقالت

جيسيكا ستيرن بعد أن أجرت بحثا حول الإرهابيين من مختلف الأديان: «في حين أن الإرهابيين الذين قابلتهم وصفوا تشكيلة متنوعة من المظالم والشكاوى، إلا أنهم تحدثوا جميعا عن الإذلال»(188). وبينما يعتبر الإسلام غالبا ـ خصوصا في الغرب ـ دينا يشرعن رد الفعل العنيف على المظالم والإذلال، إلا أن من الممكن اعتباره أيضا دينا يخفف حدة رد الفعل هذا. وعلق فؤاد نهدي (ناشر المجلة الإسلامية Q-News) قائلا: «لقد كان إذلال العالم العربي أسوأ مما تعرض له الألمان. والحمد لله لم نشاهد هتلر في العالم العربي، بسبب الإسلام غالبا»(189).

بدا الهجوم على العراق (2003) بالنسبة للعديد من سكان المنطقة وخارجها استعمارا جديدا. وكلما طالت مدة بقاء قوات التحالف، كلما تأكد هذا الانطباع. وفي حين أن رحيل صدام أدى إلى شعور واسع النطاق بالارتياح في العراق والكويت على وجه الخصوص، إلا أن توكيد قوة الغرب واستمرار الاحتلال أعادا نكأ العديد من الجراح التاريخية في العالم العربي: ليس أقلها الهزيمة المذلة لمصر وسورية والأردن في حرب عام 1967 مع إسرائيل، التي أدت إلى احتلالها لشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان. علق هاني شكر الله مدير تحرير «الأهرام الأسبوعي» بالقول:

> إن الإحساس بالهزيمة الذي ولد في يونيو 1967 ربما كان أشد ما حطم الآمال الكبرى للتحرر والانعتاق واستعادة الكرامة الوطنية التي أطلقتها موجة القومية العربية التي تزعمتها ورمزت لها قيادة عبد الناصر(190).

وارتبط بذلك بالطبع الغضب الواسع النطاق على الانتهاكات التي ترتكبها إسرائيل بحق الفلسطينيين، خصوصا وأنها تحظى بدعم قوي من قبل الولايات المتحدة ـ غضب يتراكم كل يوم نتيجة الاحباطات التي تسببها الأنظمة القمعية في العالم العربي. وكثيرا ما ساوى المتطرفون الإسلاميون بين احتلال الولايات المتحدة للعراق وبين سياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين(191).

علق رجل من أسرة ظلت أجيالا ترعى مرقدا إسلاميا قديما في كربلاء قائلا: «إذا قارنتم بين البلدين [العراق والولايات المتحدة]تجدون قوة أمريكا أكبر.. لكن الله أكبر منها»[192]. وبعد أن لاحظ هاني شكر الله الحماس الذي استقبل به خبر إسقاط عجوز عراقي مروحية أمريكية من طراز أباتشي خلال مرحلة "القتال الرئيس" من الحرب العراقية، أشار إلى أن مثل هذه المقاومة أعطت الكثيرين في العالم العربي شعورا بالفخر والإنسانية:

> بالنسبة للعرب، فإن الشعور بالكرامة الجريحة بكل ما فيه من غيظ ومذلة ومرارة، كان وما يزال يسبب عجزا ويوجد حالة ذهنية تبدو فيها الخيارات محصورة بين الانتقام الانتحاري والخضوع الذليل واليأس المرير. وليس من المعروف حتى الآن هل ستضع الحرب في العراق الجماهير العربية على مسار جديد، مسار يدفعها للقتال حتى النصر بدلا من الموت في سبيل الحفاظ على الإحساس بشيء من الكرامة الإنسانية الأساسية. لكن بغض النظر عن المسار الذي ستتخذه الحرب في الأيام أو الأسابيع القادمة، فإن الجماهير العربية تؤمن بشيئين اثنين: هي ليست فئران وليست لوحدها[193].

لكن أي شعور بالقوة والتمكين سرعان ما يزول في وجه القوة الساحقة للولايات المتحدة. لقد اتخذ الإذلال خلال الحرب أشكالا عديدة. ففي نيسان/ أبريل 2003، لاحظ جوناثان ستيل كبير صحفيي «الغارديان» أنه شاهد في الأردن «الكثيرين يستشهدون بصورة نشرتها عدة صحف على صدر صفحاتها الأولى وجدوا فيها رمزا فاضحا وصادقا للاحتلال الذي يلوح في الأفق. الصورة تظهر ثلاث نساء عراقيات يرتدين عباءات سوداء ويخضعن لتفتيش جسدي من قبل جندي أمريكي»[194]. وعلق الشيخ خالد الجندي، وهو إمام مسجد معتدل في القاهرة، بالقول:

«معظم الصور التي رأيناها تظهر رؤوسا لعراقيين تطأها أحذية الجنود الأمريكيين. لم يعد الأمر مجرد احتلال بل إذلال»[195]. وفاقمت الفظائع المرتكبة في «أبو غريب» طبعا الشعور بالمهانة والمذلة. ولاحظ موسدا موليا، وهو عالم تقدمي في إندونيسيا، أن «المعتدلين يجدون صعوبة أكبر في مناقشة قضايا مثل حقوق الإنسان والديمقراطية بينما يتواصل ظهور صور الأمريكيين وهم يعذبون العراقيين»[196].

أفرزت فظائع الحادي عشر من سبتمبر حاجة للرد العنيف وهذا أمر طبيعي تماما. أما ظاهرة «القتل لمسح دموعي» ـ أو مبدأ «فلتبك جميع الأمهات ما عدا أمي» ـ فهي مألوفة لدى علماء الإنثروبولوجيا[197]. لقد شهد الحادي عشر من سبتمبر ذبح آلاف الأبرياء بدم بارد، وفي حين أن بعض الأمريكيين طالبوا بضبط النفس (بمن فيهم العديد من أقارب الضحايا)[198]، إلا أن العديد من الشخصيات العامة ومسؤولي الحكومة ومراسلي وسائل الإعلام شددوا على ضرورة أن ترد الولايات المتحدة بتوجيه ضربات عسكرية. لكن هذا الدافع الانتقامي بالضبط هو الذي يجب أن يظهر لنا لماذا يستحيل الانتصار في «الحرب على الإرهاب»[199]. فلماذا لا يحس الآخرون بالمشاعر والبواعث المألوفة حين يتعرضون «هم» للهجوم، حين يقصف الأبرياء منهم بالقنابل أو يطلق عليهم الرصاص باسم «عدالة» غيرهم؟

وبالإضافة إلى هذا كله، إذا أعلن مرارا وتكرارا أن «الحرب على الإرهاب» سوف تجعل العالم أكثر أمنا (كما فعلت الحكومتان الأمريكية والبريطانية)، ألا يعزز ذلك الرسالة القائلة إنك تؤمن بأن ضحاياك ـ هنالك على الدوام ضحايا أبرياء ـ ليسوا مثلك، وليس لديهم مشاعرك ذاتها، بما فيها الرغبة البشرية بالرد والانتقام؟ بالنسبة لضحاياك، تبدو ثقتك بعنفك دليلا يؤكد عنصريتك ويثبت فشلك في الاعتراف بإنسانيتهم. ومن المفارقة أن أولئك الذين تعرضوا مرارا للإهانة والإذلال والتجريد من الصفات الإنسانية بشكل منهجي ومنظم ربما يطالبون بالثأر لتذكير أنفسهم وتذكير مضطهديهم بأنهم بشر («لا فئران»)، وأنهم موجودون[200]. يصعب

فهم هذه الآلية لأن الأعمال الانتقامية «الوحشية» هذه ـ كما تتضمنها الصفة ـ تجعل مرتكبيها يبدون ـ بشكل يتعذر تجنبه ـ أقل من مستوى البشر.

في مسرحية شكسبير الشهيرة «تاجر البندقية»، يشرح شايلوك رغبته اللاإنسانية بتشويه جسد أنطونيو (الذي استدان منه المال) واقتطاع جزء من لحمه، باعتبارها تمظهرا لإنسانيته في سياق جرّدهُ فيه الآخرون من صفاته الإنسانية:

> لقد أهانني.. وضحك على خسائري.. ولماذا؟ أنا يهودي. أليس لليهودي عينان؟ أليس لليهودي يدان؟ وأعضاء، وأبعاد، وحواس، ومشاعر، وعواطف؟.. إذا وخزتنا، ألا ننزف؟ إذا دغدغتنا ألا نضحك؟ إذا وضعت السم لنا ألا نموت؟ وإذا أخطأت معنا، ألا ننتقم؟

يمكن التعرف على مشاعر مشابهة بين المتمردين المشاركين في الحروب الأهلية. فخلال الحرب التي شهدتها سيراليون، ذكر المنشور السياسي للجبهة المتحدة الثورية أن الحكومة العسكرية «تتصرف وكأننا غرباء حقراء قادمون من كوكب آخر لا من سيراليون»[201]. والأهم أن الجبهة بعد الانقلاب الذي قام به الجيش والمتمردون معا (أيار/ مايو 1997) أصدرت «اعتذارا إلى الأمة»، ذكرت فيه «إننا لم نتمرد على الوضع القائم لرغبتنا بأن نكون برابرة، أو مجردين عن الإنسانية، بل لأننا أردنا أن نؤكد إنسانيتنا»[202]. وفي هذه الأثناء، انضم الجنود التابعون إلى الحكومة على نحو متزايد إلى المتمردين ليصبحوا «جنودا ـ متمردين». مرة أخرى، وعلى مستوى الإرهاب العالمي، تساءل بيان منسوب إلى ابن لادن: تبعا لأي مبدأ تعتبر ضحاياكم أبرياء وضحايانا تراب، و«بحسب أي مبدأ يعتبر دمكم دما ودمنا ماء؟»[203]. في أفغانستان، قال حاجي محمد زمان وهو قائد عسكري موال للغرب: «لماذا يقصفون المدنيين؟ هذا أمر سيئ. المئات قتلوا وجرحوا. إنها جريمة ضد الإنسانية. ألسنا بشرا؟»[204].

في حين يقدم شايلوك انتقامه العنيف كتمظهر لإنسانيته، فهو مستعد أيضا لتبني الشخصية اللاإنسانية التي حمل عبئها: «أنت تنعتني بالكلب قبل أن يكون لديك سبب: لكن بما أنني كلب، حاذر من أنيابي». من الصور المقززة الملتقطة في سجن «أبو غريب» واحدة تظهر سجينا يجر بواسطة طوق يستخدم للكلاب. ومن الصعب تخيل صورة أكثر إذلالا وتجريدا من الصفات الإنسانية ـ وتحريضا وإثارة للمشاعر ـ منها.

يمكن لأبلسة الناس ومعاملتهم كأطفال قصَّر ممارسة التأثير ذاته الذي يخلفه تجريدهم من صفاتهم الإنسانية. وهذا جزء من المشكلة المصاحبة لعبارات تصنيفية مثل «محور الشر». في نيسان/ أبريل 2002، تحدت كوريا الشمالية ـ عمليا ـ بوش للتوقف عن اعتبارها جزءا من «محور الشر»، حيث وافقت على استئناف الحوار مع الولايات المتحدة بشرط عدم «شتمها» والافتراء عليها مرة أخرى[205]. وحاول بوش أيضا معاملة الزعيم الكوري الشمالي كيم جونغ إيل كطفل قاصر، وذلك عبر الإشارة إليه بوصفه «قزما» و«طفلا أفسده الدلال يجلس على مائدة العشاء»[206].

أشار فرانتز فانون، الطبيب النفساني الذي ولد في جزيرة مارتينيك الفرنسية في البحر الكاريبي، ثم عمل في مشفى جزائري خلال حرب التحرير، أشار إلى الشعور بعدم الوجود بين أولئك الخاضعين لسلطة الاستعمار، نتيجة عدم معاملتهم كبشر. أما الحل الراديكالي فقد قدمه في كتابه «المعذبون في الأرض» (نشر أول مرة عام 1961): «على مستوى الأفراد، يعتبر العنف قوة تطهيرية. فهو يحرر أهالي البلد المستعمر من عقدتهم الدونية ومن يأسهم وعطالتهم، ويجعلهم شجعان جسورين ويعيد لهم احترامهم لذاتهم»[207]. لا ينبغي علينا الموافقة على هذا الخط من التفكير أو العمل لنرى مدى ما يتمتع به من منطق نفسي. وفكرة أن بإمكان العنف التخفيف من حدة الشعور بعدم الوجود عرضتها أيضا هانا إرندت في كتابها «أصول

التوتاليتارية» (نشر عام 1951)، حيث تشدد على اختلاف ما دعته بـ«الإرهاب التوتاليتاري» عن الإرهاب الثوري السابق:

لم يعد الأمر يتعلق بسياسة محسوبة ترى في الأعمال الإرهابية الوسيلة الوحيدة للقضاء على الشخصيات البارزة، التي أصبحت رمزا للقمع والاضطهاد بسبب سياستها أو مواقفها. وما ثبتت جاذبيته أن الإرهاب أصبح نوعا من الفلسفة التي يمكن بواسطتها التعبير عن الإحباط، والاستياء، والكراهية العمياء، نوعا من التعبيرية السياسية التي تستخدم القنابل للتعبير عن ذاتها، التي تراقب ببهجة الدعاية المصاحبة للأعمال المدوية، وتكون على أتم الاستعداد للتضحية بالحياة من أجل النجاح في فرض الاعتراف بالوجود على الطبقة العادية من المجتمع.. ما أراده الغوغاء، وما عبرت عنه دعاية غوبلز بدقة بالغة، هو الوصول إلى التاريخ، حتى لو كان الثمن خرابا ودمارا[208].

لن تكون بعض التنويعات على فكرة «الشعور بعدم الوجود» التي قدمها فانون مفاجئة في الحالة الفلسطينية، حيث أكدت رئيسة وزراء إسرائيل السابقة غولدا مائير عام 1969 على أنه «لا يوجد شيء اسمه الشعب الفلسطيني.. فنحن لم نأت ونطردهم ونأخذ بلادهم. فهم غير موجودين»[209]. فكرة مشابهة عبر عنها الشعار الأقدم السيئ الذكر الذي نحته الكاتب إسرائيل زانغويل عام 1901 فيما يتعلق بما يوجد الآن في إسرائيل: «أرض بدون شعب لشعب بدون أرض».

في بعض السياقات الاجتماعية، قد تسبغ المشاركة في الإرهاب الشرف والمجد والتكريم على الإرهابي وعائلته. وهذه هي الحالة السائدة غالبا في فلسطين[210] وفي باكستان، يشارك الآلاف في تشجيع أي فتى «يستشهد» في هجوم إرهابي في كشمير. وقال والد واحد من هؤلاء «الشهداء»: إن العائلات الفقيرة تصبح شهيرة حين تفقد أبناءها، ويعاملها الجميع بمزيد من الاحترام[211].

إذا كان فانون قد فهم كيف يغذي الإذلال العنف، فإن الطبيب النفساني الأمريكي جيمس غيليغان (الذي سنقدم عنه المزيد في الفصل الرابع) ومارك يورغنزماير (في كتابه: Terror in the Mind of God) هما اللذان استكشفا هذه الآلية. إذ لاحظ يورغنزماير أنه بالنسبة لطيف واسع من الإرهابيين الدينيين (بمن فيهم أعضاء منظمة «حماس» الفلسطينية شبه العسكرية)، يبدو أن محو العار والذل يحتل أهمية محورية[211]. وتابع قائلا: «لا أعتقد أن اليأس الاقتصادي أو الاجتماعي يؤدي آليا إلى العنف، نظرا لأن كل إنسان على الأرض قد عانى من نوع من المشقة الاقتصادية والاجتماعية في حياته»[213]. أما العامل الأهم فهو كما يستنتج في دراسات الحالة:

> الألفة مع الإذلال التي يعاني منها المرء والدرجة التي تعتبر عندها تهديدا للشرف والاحترام على الصعيد الشخصي. ويمكن لذلك كله أن يوجد الشروط اللازمة للحاجة الملحة للتمكين، الذي يعبر عنه بشكل رمزي وعنيف حين يبدو أفق البدائل الأخرى مسدودا[214]

إن الدعوة إلى الحقوق التي لا تؤيدها فعلا ظلت منذ أمد بعيد مصدرا للغضب والعنف. فهمت هانا أرندت أن الغضب يأتي من النفاق لا من مجرد الظلم[215]. وعلى نحو مشابه إلى حد ما، استنتجت إيفلين لندنر ـ التي عملت مستشارة نفسية في ألمانيا والشرق الأوسط وأجرت أبحاثا حول الإذلال والعنف في الصومال ورواندا وبوروندي، أن:

> الحرمان بحد ذاته لا يعتبر بالضرورة شكلا من أشكال المعاناة التي تستدعي العمل والتحرك. لكن الحرمان الذي يعتبر انتهاكا غير مشروع لُمثل المساواة والكرامة هو الذي يعد إذلالا يجب الرد عليه بكل إخلاص.. تنطلق مشاعر الإذلال حين يعتبر هؤلاء الذين يبشرون بحقوق الإنسان

وبضم كل إنسان داخل الفئة العالمية «نحن» ـ كثيرا ما يشار إليهم باسم الغرب ـ منتهكين في الوقت ذاته لما يدعون إليه. وهو ما يسمى بـ«ازدواجية المعايير»[216].

مرة أخرى نشير إلى أن «ازدواجية المعايير» هذه تقوم على فكرة أن الضحايا لا يعتبرون كلية من البشر. فبرغم كل شيء، إذا كانت حقوق الإنسان موجودة ويجري التبشير بها، ومع ذلك تتعرض جماعة معينة لسوء المعاملة، ألا يستتبع ذلك أن النظام يسمُ ضمنا أفرادها بأنهم ليسوا من البشر؟[217]. وما هي الخلاصة التي يمكن استنتاجها منطقيا من البيانات والتصريحات والإعلانات التي تؤكد أن للبشر حقوقا وحقيقة سجن أفراد من البشر في عزلة تامة وإلى أجل غير مسمى في أقفاص داخل غوانتانامو وغيرها من معسكرات الاعتقال؟ حين عبر عفيف صافية (ممثل السلطة الفلسطينية في بريطانيا) عن غضبه على لامبالاة الحكومة الإسرائيلية بالضحايا الفلسطينيين، قال: «أنا لا أنتمي إلى فصيلة لها أطفال ربهم أدنى مرتبة»[218].

يمكن لأبلسة العدو أيضا أن تفرز نتائج عكسية تتمثل في جعله أكثر جاذبية وإغراء. فقد زادت «الحرب على الإرهاب» بشكل واضح جاذبية وسحر وغموض شخصية ابن لادن. وذكرت صحيفة «نيويورك تايمز» أن «الصراع في أفغانستان ثبت على ما يبدو ابن لادن كبطل شعبي»[219]. وليس ثمة شك في أنه يحظى بالإعجاب والتقدير لدى العديد من الناس في العالم العربي والإسلامي[220]. على سبيل المثال، تبين أن نسبة المتعاطفين مع أهداف ابن لادن بلغت 49% من السكان، وذلك وفقا لاستطلاع أجري في السعودية عام 2004 [221] ويعتقد العديد من مسؤولي الحكومة البريطانية، بمن فيهم عدد من كبار الشخصيات العسكرية، أن أبلسة أمريكا لابن لادن قد شجعت بمرور السنين العديد من الناس في العالم العربي على اعتباره رمزا[222].

وصف المؤرخ البريطاني أريك هوبزبوم، في تاريخه الوجيز، لكن المتخم بالرؤى الثاقبة لعصابات قطاع الطرق، وصف الخط الرفيع الفاصل بين المجرمين و«الثوار الاجتماعيين» (على طريقة روبن هود) الذين تعتبر جرائمهم ضربات موجهة ضد النظام السائد. وأشار إلى فئة من قطاع الطرق أطلق على أفرادها اسم «المنتقمون». وهؤلاء يرتكبون أعمالا إرهابية مشهودة، ضد المتسلطين غالبا (لكن ليس دائما)، ويثبتون كما لاحظ هوبزبوم أن «بمقدور الفقراء والضعفاء أن يكونوا مرعبين»[(223)]. وبالطبع لم يكن ابن لادن فقيرا، لكن الكثيرين ما يزالون يعتبرونه رمزا لقوة الضعفاء السياسية. صدام حسين كان شخصية أخرى اجتذبت الأتباع والأنصار في الشرق الأوسط وذلك حين وقف بطريقة لافتة في وجه الولايات المتحدة رغم ضعفه: فقد كانت مكانته كـ«بطل» بالنسبة لبعض الناس على الأقل أقوى بما يكفي حتى للتغاضي عن الانتهاكات التي ارتكبها بحق الآلاف من الضحايا ـ وجلهم من المسلمين ـ داخل العراق.

وعلى طريقة الحكومات الاستعمارية وغيرها من الأنظمة القمعية في الماضي، سعت الحكومة الأمريكية إلى تعليق التمرد في العراق على مشجب «العناصر الخارجية». وفي حين أن ذلك يقلل بشكل خطير من أهمية الأغلبية العراقية في المقاومة، إلا أن العراق أصبح فعلا قطبا جاذبا للمقاتلين من بلدان أخرى في الشرق الأوسط. وأتاح فرصة للمقاتلين والمتشددين للإفلات من ترصد حكوماتهم، وخوض الجهاد ضد أهداف يمكن تحديدها والوصول إليها. لقد اعتقلت القوات الأمريكية في العراق مصريين وفلسطينيين وتونسيين ويمنيين ولبنانيين. وشوهد سلفيون سنة (يتبعون مذهب ابن لادن) في الفلوجة، كما ذكر الجيش البريطاني أن مسلمين شيعة من حزب الله اللبناني يمارسون نشاطهم في البصرة. في حين قال المنشق السعودي المقيم في لندن سعد الفقيه: إن المساعي الرامية لاتخاذ إجراءات صارمة ضد الإرهاب في السعودية قد تدفع الجهاديين عبر الحدود إلى العراق: «إذا لم يعد أمام

الشباب من خيار سوى السجن في زنزانة صغيرة والتعرض للتعذيب أو الفرار إلى العراق، فإن خيار العراق هو المفضل. لأنه مكان مثالي وفيه عدو مثالي»[224].

العملية التي جري بواسطتها دفع الناس إلى التطرف إلى درجة التحول إلى إرهابيين اختلفت باختلاف البلدان: لكن يبدو أن هناك قواسم مشتركة. فكثيرا ما تفاعل الغضب على الظلم في مجتمع الوطن مع الغضب على الأحداث الدولية. ومن أولئك الذين شعروا بالغضب على المظالم في الوطن الجيل الأول والثاني من المهاجرين في المجتمعات الغربية. وأدت «الحرب على الإرهاب» إلى تعميق هذا الغضب المزدوج: لا بسبب زيادة المظالم والشكاوى من السياسة الخارجية الغربية فقط، بل نتيجة تفاقم القمع الداخلي في العديد من بلدان العالم، وتنامي التمييز العنصري، وانتشار الأحكام المتحيزة ضد المسلمين في الغرب. في الولايات المتحدة على وجه الخصوص، تمثل جزء من ردة الفعل على الحادي عشر من سبتمبر في تزايد الاشتباه بـ«العدو الداخلي» (انظر الفصل 9). ومن المهم فهم العوامل التي تشجع المسلمين في الغرب على رؤية أنفسهم كجزء من المجتمعات الغربية أو كأجانب غرباء عنها. مثل هذه العوامل ـ لا سيما التفاعل بين الغضب على المجتمع والغضب على الأحداث الدولية ـ تتضح في حالة زكريا الموسوي (الذي أدين أخيرا بجرم مساعدة «القاعدة» على تنفيذ هجمات الحادي عشر من سبتمبر). والقصة التي يرويها شقيقه عبد الصمد تستحق أن نعرضها بشيء من التفصيل[225].

لم تظهر أي علامات تدل على «الشر» على زكريا حين كان صبيا. ويصف عبد الصمد شقيقه الأصغر بأنه «أخ مثالي. كان ذكيا، أريبا ولطيفا». ولد الاثنان في فرنسا لأبوين مهاجرين من المغرب. ثم انفصل الزوجان فوضعتهما الأم في ملجأ للأيتام. وبعد ذلك انضم الشابان إلى عصابة في منطقة سكنية في ناربون (جنوب فرنسا)، كانت تتنافس مع عصابة أخرى في المنطقة المجاورة، سكانها كلهم تقريبا من البيض. عقد زكريا صداقات مع بعض الطلاب المنتمين إلى الطبقة الوسطى في

المدرسة الثانوية، لكنه طلب أن ينتقل إلى مدرسة مهنية، ليصبح ميكانيكيا. ويعلق عبد الصمد قائلا: «أدركت أنه يفتقد الثقة بالنفس بسبب جذوره الاجتماعية. ابن شغالة مغربية تعمل في التنظيف وسط أبناء مدراء الشركات!؟ وهكذا ترك مدرسته وانضم إلي في الكلية المهنية. ولم يدرك أبدا أنه ارتكب خطأ». انتقلت أم الطفلين وزوجها الجديد إلى منطقة راقية في ناربون: «كنا العائلة الوحيدة القادمة من شمال أفريقيا في المنطقة. وتنقلنا من بركة سباحة إلى أخرى، وجربنا لعب التنس، بل حتى ركوب الخيل.. بفضل زكريا الذي نال القبول بسرعة في هذا الوسط». لكن عبد الصمد تذكر أن العائلة انسلخت عن ثقافة شمال أفريقيا:

> لم تستخدم عائشة [والدة الصبيين] العربية في الكلام معنا أبدا. لذلك شعرنا بوجود تحيز ضدنا حتى وسط الجالية القادمة من شمال أفريقيا، لأننا لم نكن نتحدث لغتها.. ولم تعلمنا العادات العربية أو الثقافة الإسلامية. سألتها أنا وزكريا عدة مرات كيف تصلين ولماذا. كنت في الخامسة والعشرين عندما دخلت المسجد أول مرة في مونبيليه. وأعتقد أن أول مسجد دخله زكريا كان في بريطانيا (بعد أن بلغ سن الرشد)[226].

ولم يشعر الصبيان بأنهما مقبولان في الغرب أيضا ـ فقد «علق» الاثنان بين عالمين: «لم نشعر بأننا فرنسيان، وكنا ندرك ذلك كلما واجهنا التمييز العنصري». في المدرسة، سئل الصبيان مرارا وتكرارا: لماذا لا يأكلان لحم الخنزير؟. وحين يجيبان لأنهما مسلمان، يكون الرد كما يتذكر عبد الصمد: «ولماذا بحق السماء لا تكونون أنتم المسلمون كبقية الناس؟». كان لزكريا صديقة بيضاء. ودخل في شجار ذات مرة في أحد النوادي، وحين كان يتعرض للضرب سمع أحدهم يقول: «طفح الكيل مع هؤلاء الزنوج! فهم يأخذون حتى نساءنا». بالطبع لا يختار كل شخص الرد على هذه الحوادث بالعنف: وفي الحقيقة، فإن رواية عبد الصمد تدل على أن ردة

فعل الشقيقين كانت مختلفة اختلافا بينا تجاه الظروف ذاتها: «حين كان زكريا يواجه الإذلال، كانت ردة فعله تختلف عن ردة فعلي. حيث اعتاد أن ينعزل عن الآخرين ليبقى وحيدا مع معاناته، يكابد ألمها الممض بصمت». وجد عبد الصمد شقيقه يصاب بالإحباط بسرعة عند البحث عن عمل، ويتعجل الاشتباه بالعنصرية حين يتعرض للرفض. لكن العنصرية حقيقة واقعة، كما يتذكر، وبعض أرباب العمل قالوا بصراحة: «نحن لا نريد عربا هنا».

يبدو أن حرب الخليج عام 1991 شكلت عاملا مهما في دفع زكريا الموسوي نحو مزيد من التطرف. ففي ذلك الحين كان يدرس الهندسة في بيربنيان بجنوب فرنسا. وخلال الحرب، انقسم الطلاب بين مؤيد ومعارض للأمريكان ـ أو برأي عبد الصمد بين أولئك الذين هللوا للقصف وأولئك «الذين تأثروا بمحنة المدنيين العراقيين». ويتذكر: «شعرنا أن فرنسا التي أرسلت جنودا للقتال إلى جانب الأمريكان لم تكن فرنسا التي نعرفها. أعتقد أن زكريا بدأ يشعر في تلك اللحظة بأنه ينتمي إلى السود، في حين ينتمي الفرنسيون إلى البيض». أصبح لزكريا أصدقاء جدد. ونادرا ما قضى وقتا مع شخص ولد وترعرع في فرنسا، وتبنى أصدقاؤه الجدد موقفا متمردا: «كانوا يسخرون دائما وأبدا من السياسيين والمفكرين ـ خصوصا الفرنسيين منهم».

بعد ذلك التحق زكريا بجامعة «ساوث بانك» في لندن. وقال: إن الإنكليز متسامحون على السطح فقط. وكان عبد الصمد قد بدأ ممارسة شعائر الإسلام، لكن زكريا لم يظهر أي اهتمام. إذ أراد أن يصبح غنيا وطلب من صديقته أن تذهب إلى إنكلترا معه. يتذكر عبد الصمد: «أصيب بجرح عميق حين رفضت اللحاق به». وقالت شقيقتهما: إن زكريا أتى إليها ليقول: «عبد الصمد وفوزية [زوجته] يمارسان ـ التواصل ـ، وهذا كفر. حاذري منهما، لكن لا تقولي لهما شيئا» (يشمل التواصل في الإسلام السني الدعاء لله بشفاعة النبي أو أحد الأولياء. لكن المذهب الوهابي،

وهو حركة سنية إصلاحية ظهرت في الجزيرة العربية، يرفض الشفاعة باعتبارها بدعة). سمع عبد الصمد أن شقيقه تصرف بشكل غريب خلال زيارة قام بها إلى المغرب: «اعتبر كل ما يراه حراما، لكنه بدا متناقضا. فقد كان يحرم على الآخرين التدخين ثم يذهب إلى ركن في الشارع ويدخن لفافة»[227].

يصف عبد الصمد الأساليب التجنيدية للمتطرفين، فيقول:

«المجنِّدون» يتبعون بشكل ثابت الطريقة ذاتها. فقبل كل شيء ينتقون الشباب الذين تركوا عائلاتهم، الركائز الأخلاقية والمعنوية المتينة التي يجسدها الأب والأم والأخوة والأخوات، وحتى الأصدقاء.

وبعد قضاء عدة شهور مع إحدى الجماعات المتطرفة، يصبح المجنَّد جاهزا للتدريب في أحد المعسكرات:

ما إن يصل إلى المعسكر حتى يصبح من السهل دفعه ليفقد حس الاتجاه، مثلما يحدث في أي طائفة دينية. فهو يتعرض للتجويع، والتصغير، والتوكيل بالقيام بمهمات لا يقدر على استكمالها، لكن يقال له: إن آخرين نجحوا في إنجازها وانتقلوا إلى أداء مهمات أعظم.

ويعلق عبد الصمد:

ولأنه «عاجز»، فإن الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يساعد به القضية هو تقديم حياته فداء لها. وهذا سيثبت للآخرين أيضا أنه كان في النهاية على مستوى توقعاتهم. فهو جاهز الآن للعمليات الانتحارية[228].

تظهر قصة زكريا الموسوي كيف يمكن لفرد أن ينقلب ضد الغرب حين يتغذى الإحساس بالانجذاب إلى الأساليب الغربية على أزمة الهوية. فالكراهية المجردة لا تمثل القصة برمتها. والطريقة التي يمكن فيها للعداء للغرب على وجه

الخصوص أن يتعايش مع الانجذاب إلى الثقافة الغربية لاحظها المراسل الصحفي جون بيرنز في مقالة تميزت بالبصيرة الثاقبة كتبها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بقليل:

> حين بدأ الطالبان حكمهم لأفغانستان عام 1996 بتعليق أجهزة التلفاز على الأشجار وتحريم الموسيقى والأفلام، كانوا على الحافة القصوى لشعور بالقلق ينتشر على نطاق واسع في المجتمعات التقليدية، التي أخذت تشعر بأن طوفان الثقافة الغربية، خصوصا الأمريكية، يكتسحها[229].

إن جاذبية أمريكا ـ والطوابير الطويلة من طالبي تأشيرات الدخول أمام السفارات الأمريكية ـ وجدت نقيضها في المشاعر المعادية لأمريكا، في الإحباط الناجم عن الرفض، في الاستياء الناتج غالبا عن الظروف القاسية في الولايات المتحدة ذاتها:

> في المناقشات مع المتطرفين الإسلاميين، كثيرا ما كان الغضب على إسرائيل، أو بسبب ما يجري في العراق، أو البوسنة، يفيض ليشمل رواية تجارب شخصية، تافهة حينا، ومهمة أحيانا، لتهيج فيها المواجهة مع أمريكا ـ العمل في وظيفة وضيعة، أو الدراسة في الولايات المتحدة، أو مقابلة مخيبة للآمال مع سلطات الهجرة ـ مشاعر الاستياء والحنق وتطلق مشاعر العداء والعداوة[230].

يقدم الكاتب جوناثان رابان وصفا لسلالة من الفكر الإرهابي اتسم بردة فعله العنيفة على الانحلال الغربي الذي ثبتت قدرته الهائلة على الإغراء[231]. والأدلة التي تثبت تعرض بعض الإرهابيين لإغراء «الانحلال الغربي» كثيرة ووفيرة. على سبيل المثال، اعتاد خالد شيخ محمد (الكويتي الأصل الذي قيل: إنه الرجل الثالث في «القاعدة»، واعتقل في راولبندي في أوائل عام 2001) زيارة حي الدعارة في

مانيلا حين كان يعيش في الفليبين، واشتهر بأنه زير نساء[232]. أما زياد الجراح، الذي قاد إحدى الطائرات المختطفة وأسقطها فوق بنسلفانيا في الحادي عشر من سبتمبر، فكان شخصية اجتماعية ومغرما بالحفلات في لبنان[233]. ولربما تثير جاذبية "الحياة الراقية" مشاعر الاستياء والسخط بصورة مباشرة: علق فتى فلسطيني في السابعة عشر من العمر حاول تنفيذ عملية انتحارية وفشل، علق قائلا: «حياتنا لا قيمة لها.. بينما يتمتع الإسرائيليون بحياتهم. فهم يخرجون للسهر في الليل، وعندهم مقاه ومراقص. ويسافرون في مختلف أنحاء العالم. يذهبون إلى أمريكا وبريطانيا. ونحن لا نستطيع حتى مغادرة فلسطين»[234].

حين أجرى يورغنزماير مقابلة مع محمود أبو حليمة، وهو مصري وأحد المدانين بتفجير مركز التجارة العالمية عام 1993، شدد أبو حليمة على الطبيعة المخادعة للعديد من السياسيين المعاصرين الذين يدعون الإسلام لكنهم يتبعون قواعد السلوك العلمانية[235]. في عام 1981، حين اعتقل الرئيس المصري أنور السادات الناشطين الإسلاميين من أمثال أبو حليمة، قرر الشاب الذهاب إلى ألمانيا بواسطة تأشيرة دخول سياحية. وهناك تزوج من ممرضة ألمانية، وحين انفصلا، تزوج بأخرى. وخلال سنواته الأولى في ألمانيا، عاش أبو حليمة كما يتذكر «حياة فساد ولهو.. فتيات، مخدرات، وما شئت من موبقات». ثم «مارس شعائر الإسلام ـ الصلاة والصوم ـ لكنه ترك الإسلام الحقيقي وراءه». وبعد ذلك «أحس بالملل» وعاد للالتزام بدينه. واعتنقت زوجته (الثانية) الإسلام[236]. وفي عام 1988 انضم إلى الجهاد في أفغانستان، رغم أنه لم يشارك في مهمات عسكرية كما زعم[237].

يوضح تحليل أجراه الصحفي المتمرس معروف خواجه بعض الضغوط التي تنشأ نتيجة المطالب المتعارضة من الشباب المسلم، خصوصا في الغرب. ويلاحظ أن الإسلام يطالبهم بممارسة الشعائر والتضحية، ويكتشف في بريطانيا:

هوة تتسع بين الأجيال داخل العائلات المسلمة ـ تمظهرت في فقد الأهل زمام السيطرة وتدهور المرجعية الأخلاقية لكبار السن في الأسرة، وفي فرض قيود صارمة (خصوصا على الفتيات).. فالشباب المسلمون، برغم كل شيء، يريدون أن يحاكوا أصدقاءهم العلمانيين ـ السهر خارج المنزل، والذهاب إلى النوادي، ومصاحبة الفتيات والفتيان.. فهم يشعرون بالامتعاض والاستياء من حقيقة أن البيت المسلم التقليدي يعتبر كل ما يجتذبهم ـ موسيقى، ورقص، وتلفاز، حتى العديد من أنواع الهوايات والرياضات ـ من المحرمات، والخطايا والذنوب الكبرى التي تعد شيطانية[238].

تختلف ردود أفعال الناس على هذه العمليات والأنساق اختلافا كبيرا. لكن بالنسبة لأقلية ضئيلة يبدو الرفض العنيف لكل ما هو غربي خيارا جذابا[239]

حبك مختلف المظالم معا

تميل إدارة بوش إلى التشديد على أن الإرهابيين الدوليين «يكرهون أمريكا» و«يكرهون حريتنا». ورأينا كيف أججت أفعال الحكومة الأمريكية مشاعر الغضب ونوازع الإرهاب، لكن هناك عاملا آخر من النرجسية المعكوسة في تحليل «إنهم يكرهوننا». فالعديد من مظالم وشكاوى الإرهابيين كانت موجهة ـ تاريخيا ـ نحو الأنظمة المحلية. ثم تحولت جهة الولايات المتحدة وأفعالها: أولا، لأنها كثيرا ما تدعم الأنظمة اللاديمقراطية واللاشعبية: وثانيا، لأنها شجعت مؤخرا على دمج مختلف المظالم تحت مظلة إيديولوجية مناهضة لأمريكا أو معادية للغرب. وفي الحقيقة، لعبت «الحرب على الإرهاب» دورا مفتاحيا في تجميع وحبك مختلف المظالم المنوعة ضمن «أجندة» معادية لأمريكا. وحتى في غرب أفريقيا يعبر السكان المسلمون عن معارضة متزايدة لسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، إضافة إلى تنامي

التبشير الأصولي[240]. وفي الواقع استغلت «القاعدة» سلسلة من الصراعات المحلية أساسا ـ بما فيها استخدام الإرهاب من قبل الجماعات الإسلامية ضد حكوماتها ـ في الفليبين وأوزبكستان والجزائر على سبيل المثال. كما منحت «الحرب على الإرهاب» رخصة إضافية للقمع الداخلي، ومثلما أشارت مجلة «تايم» فإن أحد العوامل التي ضاعفت من حدة إرهاب المتطرفين الإسلاميين معارضة الإجراءات القمعية التي اتخذتها الحكومات (في باكستان ومصر وغيرهما) ضد الجهادية الإسلامية[241].

يشدد هوغ روبرتس على أن «القاعدة» عبارة عن تركيبة تجمع بين الوهابية (ابن لادن وصحبه) والتطرف المصري (ممثلا بأيمن الظواهري)، مع اعتناق الجناحين مؤخرا مبدأ العداء لأمريكا. إذ ركز المتطرفون المصريون عداءهم ـ تقليديا ـ على الحكومة المصرية. ومن جانبه، كان ابن لادن متحالفا مع الأمريكان ضد الاحتلال السوفييتي لأفغانستان، وركزت الوهابية على الأعداء من غير الأمريكيين، ولم تتخذ موقفا مناهضا لأمريكا إلا بعد زيادة الوجود العسكري للولايات المتحدة في السعودية خلال وبعد حرب الخليج الأولى 1991)[242].

يؤكد هوغ روبرتس على أن الجهاديين الجزائريين حين كانوا يستهدفون الأجانب لم يجدوا أمامهم سوى الفرنسيين ـ خصوصا في المدة الممتدة بين عامي 1993-1996. وعكس هذا الاختيار للهدف التجربة الكولونيالية، والمعارضة الفرنسية للتحرر من الاستعمار، والتدخل السافر للحكومات الفرنسية في السياسة الجزائرية منذ الثمانينيات. ولم توجه الهجمات التي تستهدف الأجانب ضد الأمريكان. لكن العداء للسياسات الأمريكية يكتسب قاعدة قوية في الجزائر (كما في تونس والمغرب حيث ظلت فرنسا تمثل العدو التقليدي): فـ«الجماعة السلفية للدعوة والقتال» في الجزائر لها روابط مع «القاعدة» وإيديولوجيتها المناهضة لأمريكا تزداد قوة وحدة.

ومن العوامل المفتاحية في نهوض التطرف (العنفي واللاعنفي) في الجزائر، كما يشير روبرتس، تدمير السلطة المرجعية (الأخلاقية والفكرية والاجتماعية) للعلماء المسلمين، وعودة المتطرفين إلى التفسير المتخلف والرجعي للإسلام. العامل الثاني ـ كما في مصر والسعودية ـ هو السياسة الخارجية للولايات المتحدة، خصوصا الحرب على العراق. والأهم أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر والحرب على الإرهاب نفختا روحا جديدة في الحملة العسكرية المحلية التي دخلت طور الذبول والتراجع. فبحلول ربيع عام 2001، دخل العسكر في الجزائر قفص الاتهام بسبب ما ارتكبوه من انتهاكات. ويقدم روبرتس الحجة على أن الحاجة الأكثر إلحاحا في الجزائر هي إقامة دولة (ومن ضمنها الجيش) تلتزم بحكم القانون. لكن مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر تمكن الجيش الجزائري من ضمان إعادة التأهيل وكأنما يقول للأمريكان: «شكرا لكم للانضمام إلينا أخيرا في الحرب على الإرهاب!». في الوقت ذاته، ساعدت على إعادة تأهيل الدولة الجزائرية مبادرة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في إحالة الجنرالات الذين ارتبطوا بـ«الحرب القذرة» في التسعينيات على التقاعد[243].

في أفغانستان أيضا، لم تكن مشاعر العداء لأمريكا أصيلة أو راسخة الجذور. ويلاحظ جيسون بيرك أن «الطالبان كانوا يحاذرون من ابن لادن وعقيدته المتشددة التي تسعى لتدويل الجهاد. فقد كان مشروعهم محصورا ضمن أفغانستان ولم يضمروا أي سوء نية تجاه أمريكا أو الغرب». لكن ذلك كله قد تغير الآن[244].

في دراسة مهمة تتفق مع تحليل روبرتس وبيرك، يلاحظ فواز جرجس أن الحركات الجهادية نزعت إلى التركيز على استهداف «العدو القريب» (الأنظمة الحاكمة في الجزائر ومصر وغيرهما) لا «العدو البعيد» (الولايات المتحدة والبلدان الغربية الحليفة). وكانت هذه الحركات عموما تعاني من حالة تراجع وانحطاط طيلة التسعينيات: فقد نأى المسلمون العاديون عن أساليبها المتطرفة وغلوها، إضافة إلى

أن الأجهزة الأمنية الوطنية قد أضعفت الجهاديين الذين كانوا أيضا يعانون من المصاعب المالية والانقسامات الداخلية. ومثل تركيز «القاعدة» على مهاجمة أمريكا، من نواح عديدة، محاولة يائسة لإحياء الحركات الجهادية التي فترت همتها وتراجع نشاطها من خلال استفزاز الولايات المتحدة للرد، وذلك مع فشل الظواهري في إقناع كبار القادة الجهاديين بأن من الحكمة تركيز الهجمات على «العدو البعيد». لم تكن سلطة ابن لادن مطلقة بأي حال من الأحوال، رغم أن تقرير لجنة الحادي عشر من سبتمبر قد ركز عليه تركيزا شديدا. لكن الرد الانتقامي الذي قادته الولايات المتحدة على أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ والحرب على العراق على وجه الخصوص ـ نجح في تحقيق ما أمل به ابن لادن[245]. ومثلما قال القائد الميداني لـ«القاعدة» سيف العدل: «ابتلع الأمريكيون الطعم وسقطوا في الفخ الذي نصبناه لهم»[246].

في الفليبين، تلقى المتطرفون الإسلاميون دفعة تشجيعية إلى الأمام نتيجة «الحرب على الإرهاب»، مثلما يبين جيمس بوتزيل[247]. وبالرغم من تشهير الولايات المتحدة بزعيم حركة التمرد الإسلامية «أبو سياف»، إلا أن الأزمة في الفليبين بالغة التعقيد، ولا يمكن اختزالها في نطاق بضعة إرهابيين «أشرار». إذ شجعت الحكومة إعادة الاستيطان الجماعي وذلك استجابة للضغط على الأراضي في المناطق الزراعية الخصبة، وردا على المتمردين من الفلاحين. وانخفضت نسبة السكان المسلمين في ميندناو (الذين شكلوا نسبة 76% من السكان عام 1903) إلى 20%. ووجد المسلمون في ميندناو وأرخبيل سولو أنفسهم أقلية دائمة، مع تراجع احتمال انتشالهم من هوة الفقر بالوسائل الديمقراطية. وفي سبيل المحافظة على سيطرتها على ميندناو، كما يشير بوتزل، اعتمدت الدولة على نخبة المستوطنين المسيحيين، ونخبة مسلمة ضئيلة، وعلى القوات المسلحة الخاصة. وساعدت هذه العمليات على ظهور «أبو سياف» وحركة التمرد المسلحة في ميندناو. أما الحملة العسكرية التي شنتها الحكومة عام 2000 ضد الجبهة الإسلامية لتحرير مورو (في ميندناو والجزر

المجاورة) فقد اتسمت بالوحشية والقسوة وساعدت المتمردين على اكتساب مزيد من الدعم والتأييد.

في هذا السياق، منحت أحداث الحادي عشر من سبتمبر الفليبين فرصة لضمان المعونة المباشرة من الولايات المتحدة للسيطرة على ميندناو. وفي أوائل عام 2002، شاركت طليعة مكونة من 660 من الجنود الأمريكيين في المعارك ـ مما شكل انتهاكا سافرا للدستور الفليبيني[248]. وفي شباط/ فبراير 2003، أعلنت إدارة بوش أن قوة إضافية قوامها 3000 جندي ستنضم إلى هذه الطليعة[249]. لكن التدخل العسكري الأمريكي أدى إلى توحيد مسلمي ميندناو في معارضته[250]. وفي الحقيقة، اكتسب أبو سياف دعما كبيرا من قبل السكان المحليين[251]، ولربما يساعد التورط الأمريكي المتشددين الإسلاميين على ارتداء العباءة القومية أيضا[252].

في حين يشكل المسلمون أقلية ضئيلة في الفليبين، إلا أنهم أغلبية ساحقة في إندونيسيا وماليزيا. وهذا يعني أن الحكومتين الإندونيسية والماليزية بحاجة للبقاء على مسافة تفصلهما عن السياسة الخارجية الأمريكية. وحتى في هذه الحالة، وجدت إندونيسيا في «الحرب على الإرهاب» أداة مفيدة تستخدمها ضد الانفصاليين المسلمين في اتشيه واريان جايا[253]. ويبدو أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر زودت الحكومة بالجرأة لشن هجوم عسكري كبير ضد المتمردين في اتشيه في أيار/ مايو 2003[254].

في أوزبكستان، أدى ارتباط القمع بالإجراءات الصارمة ضد الإرهاب إلى تنامي التطرف. فقد ظل استخدام الشرطة لأساليب التعذيب أمرا روتينيا، اعترفت به وزارة الخارجية الأمريكية. أما السفير البريطاني في أوزبكستان، كريغ موراي، فقد قال: «سوف يوجد القمع الشديد، بالإضافة إلى عدم المساواة في توزيع الثروة وغياب الإصلاح، الأصولية الإسلامية التي يحاول النظام كبتها»[255]. كما استخدم

التعذيب لتوفير المعلومات (المضللة والزائفة كلية تقريبا) لوكالة المخابرات المركزية (CIA) وجهاز الاستخبارات البريطاني (MI6) معلومات تربط عناصر من المعارضة الأوزبكية مع الإرهاب الإسلامي و«القاعدة»[256].

تظهر باكستان أيضا بعض الميول المتطرفة نتيجة «الحرب على الإرهاب». وفي حين تمت مهاجمة العراق على أساس أسلحة الدمار الشامل التي لم يكن يمتلكها، فإن باكستان تمتلك بالفعل قنبلة نووية ـ وهددت «الحرب على الإرهاب» بقيادة الولايات المتحدة بوضع هذا السلاح في أيدي المتطرفين الدينيين. فقد أعطت استجابة بوش / بلير للحادي عشر من سبتمبر دفعة قوية للإحياء الديني في باكستان. ذكر أحد مراسلي صحيفة «الغارديان» في تقرير كتبه في أيار/ مايو 2002 ما يلي:

> في الأشهر التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر، اكتسحت موجة من الانبعاث الإسلامي باكستان. فمشاعر الغضب على السياسة الخارجية الأمريكية متجذرة وشاملة. وبالنسبة للكثيرين، بدأت القصة مع الحملة التي قادتها الولايات المتحدة ضد الطالبان في أفغانستان، واعتراف واشنطن ولندن في الأشهر الآتية بنكث وعودهما بإعادة إعمار البلد الذي قصفته قواتهما بالقنابل. كما تأججت مشاعر الغضب بسبب الهجمات السافرة التي تشنها عناصر مكتب التحقيقات الفيدرالي عبر الحدود الباكستانية بحثا عن المشتبه بانتمائهم لـ«القاعدة»، وبسبب الحرب في العراق (وهنا يصبح الغضب محتوما وشاملا). وفي نظر الباكستانيين، تستهدف السياسة الخارجية الأمريكية الدين الإسلامي. فهل ستكون باكستان الهدف القادم؟ إنه سؤال على كل شفة ولسان. وفجأة، لم تعد الأحزاب الإسلامية على هامش المجتمع، لكنها تركب

منتصرة موجة جديدة من الشعور بالمرارة والإحباط على الصعيد الوطني[257].

تراجعت شعبية الرئيس الباكستاني برويز مشرف حين أيد الهجوم على أفغانستان، على الأقل لأن البشتون في أفغانستان شهدوا سقوط سلطة أبناء عمومتهم البشتون في أفغانستان[258]. هذا التراجع في الشعبية كان شديدا على وجه الخصوص في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية. تلاحظ ايزابيل هيلتون أنه:

> في المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية، اعتبر تأييد مشرف للولايات المتحدة بمثابة خيانة، ولا شيء يمكن أن يغير الاعتقاد الراسخ بأن الحرب الأفغانية هي حرب ضد الإسلام.. على الأرض، في المقاطعة الحدودية وفي جنوب أفغانستان، تستمر المواجهات المسلحة بين المقاتلين البشتون على جانبي الحدود والقوات التي تقودها الولايات المتحدة التي مازالت تحاول إخماد ما تصفه بمقاومة «القاعدة» وطالبان[259].

تمكنت الأحزاب الدينية المحافظة من السيطرة لا على المقاطعة الحدودية الشمالية الغربية فقط: بل على بلوشستان، وهي مقاطعة أخرى فر إليها من أفغانستان العديد من ناشطي ومقاتلي الطالبان و«القاعدة»[260].

ملاحظات ختامية

«الحرب على الإرهاب» لم تفرز نتائج عكسية فقط: بل شتتت الانتباه عن سلسلة من القضايا التي كان يجب التصدي لها لو أردنا تقليص خطر الإرهاب إلى الحد الأقصى. ويعود جزء من السبب في ذلك إلى إهمال من جانب مسؤولي الأمن الوطني في الولايات المتحدة. وبهذا المعنى، فهو جزء من اضطراب وظيفي وعجز في الانتباه (قال جورج بوش في أول مناظرة له مع جون كيري سبقت إعادة انتخابه: «إن أفضل طريقة لحماية وطننا هي البقاء في موقع الهجوم»). جزء آخر من عجز

وقصور الانتباه تمثل في السماح لابن لادن بالفرار وإهمال إعادة إعمار أفغانستان، بينما جرى التركيز على الهجوم المبيت على العراق (انظر الفصل الثالث)[261]

وإلى جانب تركيز بؤرة الاهتمام على العراق، تبدى إهمال خطير لمسألة انتشار الأسلحة النووية. فقد ذُكر الحافز الغريب لبرامج الأسلحة النووية السرية الذي أوجده الهجوم على العراق. وعلى أية حال، زاد الوضع سوءا نتيجة حماسة الولايات المتحدة الجديدة لاستخدام ما يسمى بـ«القنابل النووية المصغرة» (المصممة لمهاجمة الأسلحة النووية أو الكيماوية أو البيولوجية المخبأة تحت الأرض)، إضافة إلى رغبة الولايات المتحدة وبريطانيا المعلنة في المبادرة إلى «الاستخدام الأول» أو الضربة النووية الأولى[262]. وخلافا لما كانت عليه الحال في الحرب الباردة، فإن وزارة الدفاع الأمريكية تفكر الآن بـ«الاستخدام الأول» للأسلحة النووية حتى ضد البلدان التي لا تملك أسلحة نووية[263]. «الحرب على الإرهاب» تشتت الانتباه أيضا عن الحاجة إلى تأمين المواد الانشطارية الموجودة حاليا. يقول بيتر سينغر:

> لربما يكون الإجراء الأشد تأثيرا وفاعلية الذي يمكن اتخاذه لمنع الإرهابيين من امتلاك أسلحة نووية هو ضمان تحويل المواد الانشطارية الناتجة إما عن برامج الأسلحة، كتلك الموجودة في روسيا وباكستان، أو برامج الطاقة النووية، إلى مواد غير مؤذية أو تخزينها وحمايتها بشكل آمن[264].

ومع ذلك حاولت إدارة بوش أولا إلغاء هذه البرامج في بلدان الاتحاد السوفييتي السابق، ثم قلصت حجم التمويل المخصص للعملية بصورة حادة[265]. ولربما تمتلك روسيا كمية تقدر بألف طن متري من اليورانيوم أو البلوتونيوم الصالحة لصنع الأسلحة النووية[266]. وثلاثة أرباع توريداتها ليست آمنة بالشكل المناسب[267]. ولاحظ ريتشارد نورتون ـ تايلر أن في روسيا:

> أكثر من عشرين ألفا من الرؤوس النووية مخزنة في مائة وعشرين موقعا منفصلا. وتحتوي قذيفة مدفعية واحدة من غاز الأعصاب موضوعة في حقيبة يد صغيرة ما يكفي من الجرعات القاتلة لإبادة حوالي 100 ألف شخص. الولايات المتحدة تتردد في تمويل برامج تأمين المخازن الروسية بينما تنفق المليارات لإرسال عشرات الألوف من الجنود إلى الخليج، بدعم بريطاني، لإسقاط ديكتاتور لا يشكل تهديدا لا للأمن الأمريكي ولا البريطاني[268].

هنالك نقطة أخيرة تستحق الذكر: إن الغضب الناجم عن «الحرب على الإرهاب» قد يغذي الإرهاب لدى الأمريكيين أنفسهم (خصوصا الجنود). فالدور المفتاحي في أسوأ ثاني هجوم على الولايات المتحدة، أي تفجيرات اوكلاهوما عام 1995، لعبه جندي سابق شارك في حرب الخليج عام 1991 وشاهد فظائع قتل المدنيين خلالها. ويعلق غور فيدال قائلا: «في نهاية الحرب [عام 1991]، وهي حرب شعبية جدا، عرف مكفي [منفذ تفجيرات اوكلاهوما] أنه لم يحب ذبح الأبرياء. بصق على الرمال حين راودته فكرة إجباره على إلحاق الأذى بأولئك الذين لا يكرهونه مثلما لا يكرههم»[269]. للوهلة الأولى، يصعب مساواة ذلك مع حقيقة أن مكفي قتل فيما بعد عددا كبيرا من الأبرياء. لكن تجربة حرب الخليج ساعدت فعلا على ما يبدو في دفع مكفي نحو سبيل غريب وشاذ وعنيف. فقد شجعت اعتقادا بأن حكومة الولايات المتحدة كانت تشن الحرب على المدنيين (وهو رأي عززه فيما بعد موت أعضاء الجماعة السرية في واكو بولاية تكساس عام 1993، بعد أن هاجمهم العملاء الاتحاديون ـ المأساة التي سافر مكفي لمشاهدة فصولها). ولا يجب التقليل من أهمية وحجم الغضب الذي شعر به العديد من الجنود الأمريكيين على الأسلوب الذي استخدم لتضليلهم ودفعهم إلى المشاركة في الحرب على العراق[270]. فالعنف يولد العنف: وغالبا ما لا نعرف كيف إلا فيما بعد.

إذا أفرزت الحرب على الإرهاب هذا القدر من النتائج العكسية، فكيف إذن سنفسر ديمومة وجاذبية مثل هذه الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية؟ سوف يتطرق الفصل الثالث إلى عوامل المصلحة الذاتية، ويعاين على نحو خاص «أنظمة الحرب». سيعتبر بعضهم أن التفسيرات المؤسسة على المصلحة الذاتية أقل معقولية مما دعي بنظرية «الطبخة»: فكرة أننا في أيدي عصبة من الحمقى ـ يقودها «أبله على التل» ـ ترتكب سلسلة من الأخطاء الفادحة الشنيعة. الاحتمال الثاني ليس مستبعدا. لكن من المهم استقصاء الوظائف النفسية للتكتيكات الفاشلة، وكيف جرت قولبة التفكير السحري الكامن وراءها ليبدو معقولا وجديرا بالتصديق. وهذا ما سنحاوله بدءا من الفصل الرابع.



3
أنظمة الحرب: محليا وعالميا

مقدمة

من أجل فهم الحرب على الإرهاب نحن بحاجة إلى معاينة دقيقة لفكرة «الحرب». ولربما نظن أننا نعرف ما هي الحرب، لكن هل نعرفها حقا؟ يمكن أن نفهم بشكل أفضل العديد من الحروب الأهلية المعاصرة باعتبارها أنظمة لا نزاعات. والافتراض المعتاد هو أن الهدف يتمثل في «الفوز» ـ موقف يفترض وجود «طرفين» لهما أهداف عسكرية أساسا توضع «على قمة» الأولويات. لكن الأهداف في أي حرب يرجح أن تكون عديدة، حيث يتركز اهتمام العديد من اللاعبين الرئيسيين على استغلال (وربما حتى إطالة أمد) حرب معلنة بدلا من الانتصار فيها. ففي الحروب الأهلية المعاصرة في أفريقيا وغيرها، شنت قوات الحكومة والمتمردين على حد سواء هجمات متكررة على السكان المدنيين أدت إلى تنامي تطرف هؤلاء السكان واجتذبت الدعم والتأييد للعدو (مثلما هو متوقع). هنالك العديد من الأمثلة على جنود باعوا السلاح إلى «الطرف الآخر»، إضافة إلى أشكال متنوعة أخرى من التعاون بين الأعداء المزعومين؛ والمثال على هذه الحالة الأخيرة تبدى في أيار/ مايو 1997 حين حدث انقلاب عسكري مشترك قام به جنود ومتمردو سيراليون الذين كانوا يتقاتلون كما بدا ظاهريا طيلة السنوات الست الماضية. وضمن إطار التركيز على «الفوز»، تبدو هذه السلوكيات غير مفهومة أو غير منطقية (وربما «أخطاء»). لكن الأهداف الأخرى التي لا تتصل بتحقيق النصر كثيرا ما حظيت بالأهمية في الحروب الأهلية. وهي تشمل: ممارسة الانتهاكات تحت غطاء الحرب، التمتع بالشعور بالقوة، كسب

المال، وحتى فرض / أو الحفاظ على «حالة الطوارئ»، لدرء الديمقراطية أو توفير غطاء لقمع المعارضة السياسية[1]. بكلمات أخرى، حين يتعلق الأمر بالحرب، لا يمثل النصر كل شيء: فالمهم هو المشاركة. وفي الحقيقة، ومثلما رأى جورج اورويل في روايته الشهيرة «1984»، فإن بعض أنظمة الحكم تزدهر على الأعداء والحرب المؤبدة. وباختصار: قد تكون لا معقولية التكتيكات ذات النتائج العكسية ظاهرية أكثر منها حقيقية، وحتى الحرب اللانهائية قد لا تكون بدون نهاية بمعنى افتقاد الأهداف أو الوظائف.

قدم ميشيل فوكو دليلا لأولئك الراغبين بفهم عمليات اعتقال وحبس المنشقين ـ التي أشار إليها باسم «الغولاغ»* ـ في الاتحاد السوفييتي السابق. وشدد على أهمية:

رفض حصر التساؤل ضمن مستوى الأسباب. فإذا بدأ التساؤل بالبحث عن «سبب» وجود «الغولاغ» (التنمية العاجزة والمتخلفة في روسيا، تحول الحزب إلى بيروقراطية، الصعوبات الاقتصادية التي واجهت الاتحاد السوفييتي) سيبدو «الغولاغ» نوعا من المرض أو الدمل، عدوى التهابية، انحطاطا، أو انحدارا تراجعيا. هذه هي طريقة التفكير السلبية بالغولاغ، أي التي تعتبره اختلالا وظيفيا يجب تصحيحه ـ علة أمومية أصابت بلدا عانى آلام ولادة الاشتراكية. لكن مسألة الغولاغ يجب أن تعرض بتعابير إيجابية. ولا ينبغي فصل مشكلة الأسباب عن مشكلة الوظيفة: ما فائدة الغولاغ، وما هي الوظائف التي يعد بها، وبأي استراتيجيات يدمج ويتكامل؟[2].

* شبكة من السجون/معسكرات العمل الإجباري التي أرسل إليها المنشقون في الاتحاد السوفييتي السابق. (م).

شدد فوكو أيضا على أن السلطة تشكل المعرفة، والعكس بالعكس: وحين تعلق الأمر بأي مجموعة من الممارسات الاجتماعية، أراد أن يعرف «من هو الذي أعطي حق قول ما اعتبر حقيقة». وتعد مقاربته لـ«الغولاغ» والسلطة / المعرفة مفيدة فيما يتصل بالحروب الأهلية. أولا، يجب في الحقيقة عدم فصل مشكلة أسباب هذه الحروب عن وظيفتها. ثانيا، يمكننا عند تحليل الحرب الأهلية أن نسأل أيضا من أعطي الحق بقول ما يُعد حقيقة؛ وبالمقابل، من هم الذين همشت تفسيراتهم وأسقطت أهليتها: وما هي الأغراض العملية التي خدمتها اللغة والتعريفات المتبناة؟ وفي حين صور «الطرفان» المشاركان في الحرب الأهلية كلاهما الصراع باعتباره معركة بين «نحن» و «هم»، فقد أشار المدنيون مرارا (إذا استشيروا أصلا) إلى أنظمة الصدام والدوافع التي لا تتصل إلا بعلاقة واهية مع النصر العسكري[3].

يتمثل جزء من مفتاح فهم هذه الأنظمة في رفض ومقاومة إغراء أخذ خطوط التصدع في الصراع على ظاهرها. ما هي أنظمة الصدام التي تبهمها «الحرب»؟ ما هي الصراعات المخبأة والمخفية (مثلا: صراع طبقي، صراع بين الجماعات المسلحة وغير المسلحة، صراع بين الرجال والنساء، بين الشباب والشيوخ) التي تبهم حين يصور السياسيون والصحفيون الحرب الأهلية كمعركة بين جماعتين أو أكثر من الجماعات المسلحة؟ أي جماعات تتجاوز فعلا القانون في سياق أحد الصراعات وأيها تخضع له؟ وفي حين أن الصراع حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها، إلا أننا بحاجة إلى ذهن مفتوح لفهم طبيعة ـ ووظائف ـ أي صراع محدد.

يجب أن تترك فينا التجربة مع الحروب الأهلية والحروب المحلية أثر الأخطار الناجمة عن تقسيم العالم بشكل تبسيطي وتسطيحي بين معسكري الخير والشر، وبين أولئك الذين هم «معنا» والذين هم «ضدنا». ولا يقتصر الأمر هنا على أن العالم المعقد سيقاوم دائما مثل هذه المبالغة في التبسيط والتسطيح، بل نحن بحاجة أيضا إلى فهم الأسباب الكامنة وراء العنف، بما فيه التطرف في العنف والإرهاب

الموجهين ضد المدنيين. علاوة على أن العديد من الصراعات الأهلية تعلمنا أن الشرعية الأولية أو الظاهرية لصراع معين هي ذاتها التي توفر الحيز والفرصة والمناعة للانتهاكات والتجاوزات التي لن تدان أو تصحح: والأمثلة الصارخة على «الانتهاكات المشرعنة» تنبثق على ما يبدو حين تستمد الشرعية من كون المعتدي ضحية لإبادة جماعية في السابق (كحال إسرائيل وقمعها للفلسطينيين: ورواندا واستغلالها لجمهورية الكونغو الديمقراطية؛ وحتى صربيا، حيث غذت معاناة الصرب على أيدي الكروات في الحرب العالمية الثانية اضطهادهم للبوسنيين وألبان كوسوفو في التسعينيات).

يستحضر هذا الفصل بعض الرؤى من الحروب الأهلية ليستخدمها في فهم «الحرب (العالمية) على الإرهاب»: والأهم أن هذه الحرب والحروب الأهلية المعاصرة تشتركان في العديد من الديناميات ذاتها. ويبدو أن بعض أوجه الشبه هذه متأصلة في فكرة «الحرب» نفسها والشرعية التي تسبغها عادة على تشكيلة منوعة من أنماط العنف[4]. أوجه الشبه الأخرى تعكس حقيقة أن قوى عالمية متشابهة قد ساعدت في تشكيل وصياغة الحروب الأهلية المعاصرة و«الحرب (الراهنة) على الإرهاب» في آن معا.

إن مزايا استحضار فهم للحروب الأهلية وتطبيقه على «الحرب على الإرهاب» تؤكدها حقيقة أن «الحرب (العالمية) على الإرهاب» ذاتها مكونة من حروب أهلية غالبا: على سبيل المثال، في كولومبيا والفليبين والشيشان وأفغانستان والعراق (على نحو متزايد باطراد). والمقاربات الهجومية والعدوانية لمشكلة «الإرهاب» في الحروب المحلية (نسبيا) أوجدت غالبا فرصا لارتكاب انتهاكات مربحة (من قبل القوات شبه العسكرية في كولومبيا مثلا، أو الجنرالات والجنود الروس الذين استفادوا من عمليات النهب والاختطاف وفرض الضرائب وتحويل الرواتب واستخراج النفط في الشيشان): كما تنزع المقاربات العدوانية إلى إطالة أمد الصراع الذي يشرعن هذه

الانتهاكات. لقد أدى تقديم الحروب الأهلية ضمن إطار «الحرب (العالمية) على الإرهاب» إلى تشجيع مزيد من أبلسة المتمردين وتخصيص موارد إضافية لمكافحة التمرد، مما جعل الحل أشد صعوبة.

يجب علينا بالطبع عدم السقوط في شرك الإصرار على أن ديناميات «الحرب على الإرهاب» مماثلة تماما لديناميات الحروب الأهلية (المتفاوتة بحد ذاتها تفاوتا كبيرا). فمن جهة، تدخل الحرب العالمية على الفور في مشكلات السيادة. ومن جهة أخرى، تؤدي حقيقة أن عمليات مكافحة الإرهاب تشنها غالبا ديمقراطيات كبرى وفيرة الموارد إلى ظهور فارق مهم يميزها عن عمليات مكافحة التمرد التي تشنها ديكتاتوريات استبدادية تعاني من نقص الموارد: ربما بسبب الحاجة الملحة للفوز بدعم الرأي العام على الأقل. وحتى في هذه الحالة، هنالك دروس ثمينة يمكن تعلمها من محاربة «الإرهاب» في سياق النزاع الأهلي. لسوف تتركز بؤرة اهتمام هذا الفصل على تجربة مكافحة التمرد وبعض مضامين ومقتضيات عمليات مكافحة الإرهاب العالمية. لكن من المهم أولا تفحص بعض أوجه الشبه بين شبكات التمرد وشبكات الإرهاب.

التمرد والإرهاب

تجمع شبكات التمرد والإرهاب المعاصرة بعض السمات المهمة المشتركة ـ والعديد منها مرتبط بطبيعة العولمة المعاصرة. أولاها اللامركزية: إذ مالت الفصائل الإرهابية/المتمردة إلى التوزع والانتشار مع ضعف سلسلة القيادة غالبا. الأمر الذي يجعل من الأصعب عزل مجموعة ثابتة ومحددة من المتمردين أو الإرهابيين والاعتقاد بأن «القضاء عليها سوف يحل المشكلة»، على الأقل لأن القضاء عليها يرجح أن يتبعه ظهور مزيد من المتمردين أو الإرهابيين المسلحين[5]. ويعكس تعدد الفصائل وضعف سلسلة القيادة (جزئيا) انتشار الأسلحة الرخيصة الثمن في السوق

العالمية. ومن المهم في دلالته أيضا توفر المعلومات المجانية على نحو متزايد، إضافة إلى سلسلة واسعة من السلع الأولية، والمال ذاته[6]. وما تمتعت به المنظمات الإرهابية / المتمردة من سهولة الوصول إلى الأسواق العالمية المربحة («القاعدة» والماس في شرق ثم غرب أفريقيا مثلا)[7]. لم يضاعف صعوبة تدميرها فقط: بل شجع في الوقت ذاته أنماط القيادة اللامركزية (نسبيا) وذلك من خلال مساعدة مختلف الجماعات في الحصول على الأسلحة وبناء القدرة التنظيمية. ووُضعت الدول الضعيفة والمسؤولون الذين يحصلون على رواتب متدنية في موقف صعب يتعذر معه مواجهة شبكات التمرد أو الإرهاب المرتبطة بشبكات التجارة العالمية. وليس من الضروري أن تكون المبالغ المالية المطلوبة ضخمة: فلن يكون الحصول على بضع قنابل لوضعها في القطارات أو الحافلات باهظ التكلفة مثلا.

ومن العوامل التي شجعت أيضا على سلسلة القيادة الضعيفة نزعة حركات التمرد / الإرهاب إلى محاولة الاستفادة من عدد كبير ومتنوع من المظالم والشكاوى، لا يتصل العديد منهما إلا بصلة هامشية مع الأهداف المعلنة لمختلف الحركات. في سيراليون، استفاد المتمردون من شكاوى الزعماء السياسيين المعزولين، والتجار المهمشين، ومسؤولي الحكومة المطرودين، وحتى من الجنود الحكوميين الذين يتقاضون رواتب متدنية. لكن أعضاء هذه الجماعات نادرا ما وافقوا على إيديولوجية «الجبهة المتحدة الثورية» أو خضعوا لأوامرها. والعديد من المظالم والشكاوى التي تغذي التمرد محلية أساسا، تعكس (في جزء منها) الأسلوب الذي أدارت به الحكومات في حقبتي الاستعمار وما بعد الاستقلال البلاد عبر نوع من «الاستبداد اللامركزي» (بحسب عبارة محمود ممداني)، وهو نمط من الحكم مال إلى إبطال مفعول أي سياسة وطنية ناشئة وتوجيه المظالم والشكاوى وجهة الزعماء المحليين خصوصا[8]. ومن المرجح أن تكسب المظالم والشكاوى المحلية في أي حرب أهلية نوعا من النبرة المتسقة المعادية للحكومة في ظروف تشهد فيها عمليات

الحكومة المناهضة للتمرد انتهاكات كبرى. ويمكننا أن نلاحظ ضمن شبكات الإرهاب الدولية توليفة تجمع أجندة مناهضة لأمريكا (شديدة الحدة في دعاية «القاعدة») وتشكيلة متنوعة من المظالم المحلية ضد حكومات محددة ـ مظالم لا تكون بالضرورة متصلة بالمشاعر المعادية لأمريكا[9]. لقد شدد هوغ روبرتس على أن المشاعر المعادية لأمريكا ليست طبيعية ولا متجذرة في بلدان مثل الجزائر ومصر، لكن الأعمال العدوانية الأمريكية تؤدي إلى فرض العدو الأمريكي على قمة لائحة المظالم المحلية [10] أما جون بيرك فقد جذب الانتباه إلى التراتبيات المخلخلة والمتغيرة لدى الجماعات الإسلامية الشديدة التباين والمتورطة في الإرهاب، وإلى حقيقة أن ابن لادن مارس غالبا سيطرة ضعيفة (أو لم يمارس أي سيطرة على الإطلاق) على العديد من هذه الجماعات. يقول بيرك معلقا: «بعض ـ الإرهابيين الإسلاميين ـ يشاركون ابن لادن في معظم أهدافه، وبعضهم الآخر قلة منها، وغيرهم لا يشاركون في أي من أهدافه البتة. ومئات الجماعات والخلايا والحركات (وحتى الأفراد) التي جمعت كلها تحت عنوان ـ الإرهاب الإسلامي ـ هي في الواقع مختلفة اختلافا هائلا» [11]. ومثلما لاحظنا آنفا، أدى تفرق وتشتت أعضاء «القاعدة» بعد الهجوم على أفغانستان إلى تعزيز البنية اللامركزية للعنف. ويشير بيرك إلى أن الإجراءات الصارمة ضد قيادة الإرهابيين كثيرا ما شجعت العنف اللاممركز وإلى زيادة التركيز على «الأهداف اللينة»[12]. في الحروب الأهلية والعالمية معا، تؤدي الانتهاكات المرتكبة في مكافحة التمرد / الإرهاب إلى جمع المظالم وحبك الشكاوى المتنوعة لأولئك الذين ستكون أهدافهم ـ لولاها ـ محلية تماما.

وجه الشبه المهم الثالث بين شبكات التمرد والإرهاب يجسده الغضب والدور المفتاحي الذي يلعبه (غضب يتفاقم نتيجة انتهاكات مكافحة التمرد/الإرهاب). في الحروب الأهلية التي اندلعت مؤخرا، وفي الإرهاب أيضا، يبدو أن جزءا من الغضب ـ المتأجج على نحو خاص في صدور الشباب ـ يأتي من شعور بالإقصاء يرتبط

بالعولمة: إذ أعلنت حقوق الإنسان وانتشرت الدعاية لأساليب الحياة المرغوبة، بينما يشهد الواقع القاسي الحرمان من الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية (بالنسبة للأفراد المتمردين أو للجماعات التي يرتبطون بها)[13]. ولربما يكون من المهم الإشارة إلى أن التمرد في سيراليون كان شائعا بين أنصاف المتعلمين، بعد أن ارتفع سقف توقعاتهم وامتدت آفاقهم لتتجاوز ما يستطيع اقتصاد الحد الأدنى توفيره[14]. الإرهابيون أيضا على قدر من التعليم في العادة: ومثلما قال مدافع عن عدد من المسلمين البريطانيين الذين أدينوا بتهمة الإرهاب في اليمن: «هؤلاء أشخاص أذكياء وتمكنوا من الاندماج تقريبا في مجتمعهم»[15]. وأولئك الذين يعيشون في بلدان ديمقراطية (مثل الذين نفذوا تفجيرات لندن في تموز/ يوليو 2005) ربما يكونون في وضع أفضل من غيرهم، لكن غضبهم (مهما كان سببه) سيبدو بدهيا، وتوقع الالتزام بالحقوق ربما يكون أعلى عند الإقامة والعيش في الغرب حيث ينتشر الحديث عن الحقوق والحريات في كل ركن فيه.

يتمثل وجه الشبه الرابع بين شبكات التمرد والإرهاب في أن هذه الشبكات أظهرت مرارا ـ في عصر يحظى فيه حضور وسائل الإعلام بأهمية حاسمة في إبراز القوة ـ اهتماما بإعلان مسؤوليتها عن الفظائع التي تحدث، بغض النظر هل ارتكبتها فعلا أم لا. الأمر الذي يساعد على إيجاد صورة مغالية لترابطها وقوتها. ولربما «تروج» الفظائع لقدرة الجماعات الإرهابية على الصمود أمام قوة أعظم[16]. في سيراليون، عززت «الجبهة المتحدة الثورية» المتمردة ـ التي تبدو غالبا غير مهتمة بالاستيلاء على الأراضي والتشبث بها ـ صورة قوتها ووحشيتها من خلال إعلان مسؤوليتها عن سلسلة واسعة من الفظائع المرتكبة بحق المدنيين ونسبة «فضلها» إليها، في حين ارتكب العديد منها في الواقع جنود الحكومة. وعلى نحو مشابه إلى حد ما، لاحظ تحليل أجرته مجلة «تايم» لـ«لقاعدة» (في كانون الأول/ ديسمبر 2003) أنه:

منذ غزو العراق، ارتفع عدد الهجمات بصورة دراماتيكية. فمن الأمور التي تخدم أغراض «القاعدة» الدعائية دفع الناس إلى الاعتقاد بأنها وراء كل حالة غضب وحنق ـ حتى حين تتصرف الجماعات المشابهة «للقاعدة» في التفكير بدوافعها الذاتية. ويشتبه المحققون بأن لجماعة ابن لادن دورا مباشرا في تفجيرات السعودية (في شهر أيار/ مايو) والهجوم الانتحاري في إندونيسيا (آب/ أغسطس). لكن المسؤولين الأمنيين المغاربة والفرنسيين يقولون إن التفجيرات المتزامنة التي حدثت في المغرب (في أيار/ مايو 2000) كانت من عمل جماعة مستقلة أساسا [17].

عزا المراقبون قدرا كبيرا من الاستقلال الذاتي إلى أولئك المسؤولين عن تفجيرات مدريد (في آذار/ مارس 2004) [18]، وإلى الذين نفذوا تفجيرات لندن (تموز/ يوليو 2005)[19] ويشدد جيسون بيرك على أن ابن لادن كان غامضا فيما يتعلق بمسؤوليته عن هذه الأعمال الفظيعة، لكنه يضيف بأن من مصلحته تعزيز أهمية دوره في الجهادية الإسلامية المقاتلة[20].

الوجه الخامس من أوجه الشبه بين شبكات التمرد والإرهاب تجسده رغبة بعض المتمردين في الرد الانتقامي بشكل وحشي مما يضمن لهم ضم مزيد من المجندين، بالتزامن مع توكيد دعاية المتمردين على الطبيعة القاسية للعدو أو حتى العالم عموما. ومثلما لاحظت هانا ارندت فيما يتعلق بالإرهاب التوتاليتاري في ألمانيا النازية والاتحاد السوفييتي، قد يشكل الفعل الإجرائي أكثر الدعايات تأثيرا وفاعلية ـ على الأقل عبر جعل العدو مشابها للصورة التي رسمتها الدعاية اللفظية (أو المرئية) (سوف نناقش هذه المسألة في الفصل السابع). واعتقد فرانتز فانون أن الإرهاب المناهض للاستعمار يمكن أن يستفز ردا انتقاميا يفضح الطبيعة الحقيقية

والوحشية لهذا الاستعمار (خصوصا الاستعمار الفرنسي في الجزائر)[21]: وبهذه الطريقة، سوف يجتذب الإرهاب المجندين إلى التمرد. وشاع اعتبار ابن لادن بأنه يحاول تفجير نوع من «صدام الحضارات» يجعل المسلمين كلهم «يدركون» العدو الحقيقي. مرة أخرى نؤكد إننا رأينا تنويعات مختلفة لهذه المسألة من قبل. ففي غواتيمالا، كان رجال حرب العصابات في الثمانينيات يدركون أن العمليات الوحشية الهادفة لمحاربة التمرد يمكن أن تزودهم بمجندين جدد. على سبيل المثال، استخدم «جيش الفقراء» أسلوبا تكتيكيا دعته الإرساليات التبشيرية «القمع المستفز»، كان يشمل غرس أعلام في القرى في الليل لإجبار القرويين على الاختيار بين الحفاظ على الأعلام (وربما دعوة الحكومة للرد) وانتزاعها (مما يعني كشف أنفسهم أمام رجال حرب العصابات بوصفهم من مؤيدي الحكومة)[22]. في ليبيريا، اكتسب تمرد تشارلز تايلور القوة عام 1989 من خلال استفزاز نظام صمويل دو الوحشي لشن هجمات انتقامية ضد بعض المجموعات الاثنية المعينة[23]. إن تصاعد العنف وتحقيق أهداف الدعاية قد يعتمدان على عامل غير محسوب: يشدد بول ريتشاردز على أن بعض متمردي سيراليون كانوا يحاولون تحويل العالم إلى خرائب ليتوافق مع رأيهم بأن الفساد والانحلال متأصلان فيه[24].

وجه الشبه السادس المهم بين شبكات التمرد والإرهاب يتمثل في أن أفعال أولئك الراغبين بتوسيع وإطالة أمد الصراع قد تغل فوائد ومنافع فورية تفوق أي اهتمام بـ«الفوز». فلربما تؤدي ممارسة القوة من خلال العنف إلى مشاعر فورية بالرضى، خصوصا حين يسيطر على ممارسيها إحساس عميق بالعجز أو الخزي. هنالك أيضا احتمال أن تطور شبكات التمرد / الإرهاب آليات تجارية مربحة تتحول إلى غاية بحد ذاتها ـ وتساعد على تعزيز وتقوية الرغبة في الإبقاء على الصراع مستمرا[25]. المدى الذي بلغته «القاعدة» في هذا السياق غير واضح المعالم، لكن هنالك بعض الأدلة على الانتهازية والاستغلال[26].

«محاربة التمرد» و«مكافحة الإرهاب»

إذا جمع التمرد والإرهاب في الحقبة المعاصرة بعض أوجه الشبه المهمة، فإن هناك ما يجمع محاربة التمرد ومكافحة الإرهاب أيضا. أولا، سيادة وانتشار الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية. ثانيا، للعنف غالبا (بما في ذلك العنف المتطرف والعشوائي والذي يفرز نتائج عكسية) وظائف بالنسبة للتحالفات المتنوعة التي ابتكرته. بكلمات أخرى، كثيرا ما خدم العنف سلسلة من الأغراض العملية والنفسية حتى حين يفشل في تحقيق الهدف المعلن والمتمثل في هزيمة الإرهاب أو تقليص خطره. فتأجيج المعارضة واستدامة الصراع يمكن اعتبارهما فعلا وبطرائق عديدة بمثابة نجاح سياسي[27].

الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية

اتخذت التكتيكات التي تعطي نتائج عكسية ثلاثة أشكال رئيسة: قتل المدنيين، السماح للعدو بالنجاة، التبادل التجاري مع العدو.

في أحيان كثيرة شملت محاربة التمرد ومكافحة الإرهاب قتل المدنيين. ويمكن لأولئك الذين يردون على التمرد / الإرهاب اختيار عملية دقيقة تستهدف بكل عناية المتمردين / الإرهابيين، وفي هذه الحالة يستبعد (نسبيا) استعداء الناس العاديين ودفعهم إلى التطرف. ويشمل هذا الخيار في أنقى أشكاله إحضار الأفراد المتمردين أو الإرهابيين إلى العدالة عبر القنوات القانونية المناسبة. في الطرف الأقصى المقابل، يمكن للذين يردون على التمرد / الإرهاب اختيار سياسة التهديد والوعيد أو مهاجمة جماعة أوسع من الأفراد. الأمر الذي يرجح دفع العديد من الناس إلى التطرف، وإنتاج مزيد من الأعداء بدلا من تقليص عددهم. في الفصل الثاني عرفنا التأثيرات العكسية لـ«الحرب على الإرهاب» وكيف أججت مشاعر الغضب وزادت الإرهاب: خصوصا كنتيجة لقتل المدنيين. وهذا أيضا درس حيوي مفيد ومستمد من

الحروب الأهلية: الانتهاكات العنيفة تولد الأعداء الذين تزعم أنها تحاول هزيمتهم.

يبدو أن الدروس والعبر المستخلصة من تجربة التحرر من الاستعمار قد ضاعت في غياهب النسيان. ومثلما قال «مرجعية» الإرهاب في الولايات المتحدة ريتشارد كلارك حينما شاهد عمليات محاربة التمرد الفرنسية في الجزائر في فيلم «معركة الجزائر»: «بعد إلقاء القبض على الزعماء الإرهابيين المعروفين، مر وقت، ثم ظهر إرهابيون جدد غير معروفين». وبعد ذلك بزمن بعيد، وثَّق الضابط الجزائري حبيب سويديه كيف أتخمت تكتيكات الجيش الجزائري الوحشية والأنانية في مكافحة الإرهاب صفوف الإرهابيين هناك بالمتطوعين والمجندين[29].

تمثل جزء مما ميز الحروب الأهلية المعاصرة في تجنب المعارك السافرة ضد عدو أقوى عددا وعدة، بالتزامن مع نزعة لاقتناص أهداف سهلة، خصوصا المدنيين. ولهذا علاقة على الأقل مع ضعف العديد من الدول التي خبرت الحرب الأهلية، خصوصا فشل هذه الدول في ترسيخ احتكارها للعنف المشرعن. وفي بعض النواحي، يردد هذا النمط المعاصر صدى الحروب القروسطية في أوروبا، أي الحقبة التي سبقت تأسيس الدول الأوروبية القوية. إذ شملت الصراعات في السودان وسيراليون هجمات غير معقولة على ما يبدو على المدنيين الذين لم يلتزموا بتأييد أي جانب حتى ذلك الحين، الأمر الذي دفعهم إلى التطرف (كما هو متوقع) وتقوية العدو[30]. ففي السودان، هاجمت المليشيات الشمالية جماعات متنوعة من السكان بدءا من منتصف الثمانينيات، مما استحث هذه الجماعات على الارتباط بجيش التحرير الشعبي المتمرد في جنوب البلاد[31]. وانتشر التمرد مع دفع الجماعات الحيادية سابقا من قبائل الدنكا في الجنوب مثلا إلى التورط في الصراع نتيجة الهجمات العشوائية[32]. في سيراليون أيضا، لم يساعد التمرد شيء مثلما ساعدته الطبيعة المهينة والتعسفية والعشوائية لعمليات محاربة التمرد. ومن المفارقة

أن حكومة بلير ـ خصوصا وزارة التنمية الدولية البريطانية ـ هي التي لعبت الدور الرائد في كبح جماح عمليات محاربة التمرد التعسفية في سيراليون من خلال عملها الإبداعي في تقوية وإصلاح قوات الجيش والشرطة. لكن الدرس الأساسي ـ كبح جماح الانتهاكات من خلال محاربة التمرد أمر حيوي ـ لا يبدو أنه امتد ليشمل «الحرب (العالمية) على الإرهاب». إن استخلاص الدروس الخاطئة من سيراليون قد لقي التشجيع من الانطباع الواسع النطاق الذي يشير إلى أن البريطانيين حققوا السلام في سيراليون من خلال هزيمة متمردي «الجبهة المتحدة الثورية» الأشرار ـ وفي هذا على ما يبدو تعزيز لفكرة أن بالمستطاع القضاء على الشر بالقوة المادية. وفي الحقيقة، لم تواجه القوات البريطانية متمردي الجبهة بشكل مباشر أبدا. وأي ضعف أصابها نتج عن القوات الغينية والمقاتلين المحليين من الدفاع المدني. أما أهمية المساهمة البريطانية فتنحصر في إرسال إشارة تدل على القوة والعزم والتصميم بالتزامن مع إصلاح الجيش ووقف الانتهاكات التي يرتكبها.

الانتهاكات المصاحبة لعمليات محاربة التمرد التي تفاقم حالة الفوضى والاضطراب والتمرد ليست ظاهرة أفريقية بأي حال من الأحوال. المؤرخ ديفيد ستول تقصى عمليات مكافحة التمرد المدعومة من قبل الولايات المتحدة في غواتيمالا (في الثمانينيات)، وقال:

> العنف الذي مارسه الجيش ارتد إلى نحره. فبدلا من قمع رجال حرب العصابات، ضاعف عدد عصبة صغيرة من الغرباء لتتحول إلى جيش تحرير معظم أفراده من الهنود القادمين من مجتمعات محلية. وبحلول نهاية عام 1980، بدا أن الفظائع التي ارتكبتها الحكومة قد استعدت جميع السكان الذين ينتمون إلى قبائل المايا [ويعيشون في منطقة كويتشي في غواتيمالا](33).

في كولومبيا رأينا تنويعا على هذا النمط. هنا، تبنت الحكومة استراتيجية تشجيع انشقاق متمردي منظمة «القوات المسلحة الثورية في كولومبيا» وتدميرهم في بعض المناطق المعينة[34] لكن القوات شبه العسكرية التي تشكل جزءا من جهاز مكافحة التمرد قامت بشكل روتيني بإساءة معاملة المدنيين وقتلهم، واستعداء العديد منهم، بل دفعهم أحيانا للانضمام إلى المتمردين. ولاحظت ايزابيل هيلتون أن «الأجهزة الأمنية الكولومبية تبنت منذ عهد طويل استراتيجية بعيدة المدى تقوم على إرهاب المدنيين وعرقلة المفاوضات مع رجال حرب العصابات»[35]. أما الوسيلة المفتاحية التي استخدمت ضد المنظمة المتمردة فكانت تدمير المحاصيل التي تعتمد حياة أفرادها عليها (وهذا تكتيك استخدام بشكل متزايد في أفغانستان أيضا). لكن هذه المحاصيل تمثل مصدر رزق عدد كبير من المزارعين الكولومبيين أيضا. كما أن مشروع القضاء على زراعة الكوكا أدى هو الآخر إلى انضمام عدد كبير من المجندين الجدد إلى صفوف المتمردين. ووضعت على الرف غالبية خطط التغيير الاقتصادي والاجتماعي لمناطق زراعة الكوكا، وعلى أية حال فهي تبهت بالمقارنة مع خطط التحول الاجتماعي (بما في ذلك الإصلاح الزراعي) في البرنامج الذي وضع في الستينيات وعرف باسم «التحالف من أجل التقدم»؛ وبدلا من ذلك، جرى التركيز على بناء وتجهيز الجيش[36]. ومثلما هي الحال في «الحرب (العالمية) على الإرهاب»، يبدو أن الافتراض الأساسي يشير إلى وجود عدد محدود من الأفراد المنحرفين أو الأشرار سوف يحل القضاء عليهم المشكلة. مرة أخرى، غاب تقريبا الوعي التاريخي: إدراك كيف انضم الأفراد إلى منظمة «القوات المسلحة الثورية في كولومبيا» مثلا، ومعرفة المظالم والشكاوى التي دفعت الناس إلى ركوب مخاطر القتال[37].

في الشيشان، تبنى الجيش الروسي تكتيكات (خصوصا قصف المدنيين وغيره من أشكال العنف ضدهم) ثبت أنها تفرز نتائج عكسية على الصعيد العسكري، مما

ساعد على تجدد وزيادة حدة المقاومة وتنامي قوة الجهادية الإسلامية المقاتلة[38]. ومثلما لاحظ ديفيد هيرست: «لم يكن الشيشان مسلمين متزمتين قبل إعلان الجمهورية استقلالها عام 1991.. وأدى الهجوم الروسي [الأول بين عامي 1994-1996] إلى تنامي الطبيعة الإسلامية والأصولية للمقاومة الشيشانية»[39]. وبعد أن لاحظ اناتولي ليفين تزايد أهمية الأصولية في المقاومة الشيشان، كتب يقول: «نحن جميعا نصلي حين نتعرض للقصف»[40] لقد ساعدت الانتهاكات الروسية في التعجيل بالهجوم الإرهابي على أحد مسارح موسكو (في تشرين الأول/ أكتوبر 2002)، الذي استفز بدوره ردا عنيفا من جانب الجنود الروس الذين اقتحموا المسرح[41].

في تشرين الأول/ أكتوبر 2003، كشف النقاب عن أن رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الجنرال موشيه يالون قد اعترف سرا بأن أسلوب الحكومة المتشدد في التعامل مع المدنيين الفلسطينيين ساعد على تقوية «المنظمات الإرهابية»[42]. أما اغتيال إسرائيل لقادة «حماس» فقد دفع المنظمة لارتكاب فظائع جديدة[43]. وفي الحقيقة، فإن عمل "حماس" وأعضائها في العيادات الطبية والجامعات والمساجد ساعد في إيجاد قدر من الولاء الجماعي لها بين الفلسطينيين لا يمكن لإسرائيل مواجهته عبر القضاء على قيادتها[44]. وبالمقابل، حين انسحبت إسرائيل من جنوب لبنان تحسن الوضع الأمني على طول حدود إسرائيل الشمالية[45].

شمل أحد الأشكال المنحرفة لقتل المدنيين في عمليات مكافحة التمرد قيام الجنود بمحاكاة الجماعات المتمردة وانتحال دورها. وأمكن ملاحظة هذا النمط الشاذ في سيراليون والجزائر وروسيا (على ما يبدو)[46]. ففي الجزائر، حولت الحكومة أعضاء «الجماعة الإسلامية المسلحة» إلى سلاح لتشويه سمعة الإسلام واضطهاد أعضاء «جبهة الإنقاذ»، الحزب الإسلامي السياسي الذي فاز في

الانتخابات التي ألغتها الحكومة عام 1991 [47] في مراجعة مفصلة، قال غوردون كامبل معلقا (2004):

> تفاصيل الصدام الفرنسي / الجزائري مع «الجماعة الإسلامية المسلحة».. تثير القلق. إذ لا يقتصر الأمر على تنكر فرق الموت الجزائرية بقناع «الجماعة» وارتكاب المجازر باسمها أو إنشاء ميليشيات محلية ـ ما يسمى بـ«الوطنيون» ـ للقيام بأعمال مشابهة فقط، بل إن أدلة دامغة بدأت تظهر في السنوات الأخيرة من مصادر المؤسسة العسكرية الجزائرية وكبار الأكاديميين تثبت أن «الجماعة» المفزعة كانت ـ ربما منذ البداية وحتما تحت قيادة [جميل] زيتوني الدموية ـ مجرد دمية، أو «واجهة» تديرها الاستخبارات الفرنسية / الجزائرية لمكافحة التجسس[48].

حتى في المجتمعات الصناعية جرت أحيانا عمليات عنيفة لمكافحة الإرهاب أدت إلى قتل المدنيين، وأفرزت نتائج عكسية. ايرلندا الشمالية مثال يثبت ذلك. فكما قال الروائي الايرلندي رونان بينيت: «الأحد الأسود دفع آلاف الشباب والشابات لحمل السلاح»[49]. وامتد العنف الذي يفرز عنفا مضادا ليشمل إساءة معاملة السجناء. أما سياسة الاعتقال والسجن الفظة التي اتبعتها بريطانيا في السبعينيات، بما في ذلك استخدام أساليب التعذيب، فقد أدت إلى دفع السكان إلى التطرف[50].

المعلم الثاني للأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية تمثل في نزعة للسماح للمتمردين والإرهابيين بالنجاة من الاعتقال، بالرغم من التفاوت الكبير في الموارد بين المتمردين / الإرهابيين «الأبالسة» والقوى المصطفة ضدهم. وحتى حين تجري محاولات جدية لاعتقال هؤلاء، فإن ذلك سيكون صعبا جدا بالطبع. ومع ذلك فإن من اللافت ضعف الجهود المتناغمة التي تبذل أحيانا لأداء هذه المهمة.

في العديد من الحروب الأهلية، كثيرا ما أدى الفشل الدائم في اعتقال أو حتى مواجهة جماعات المتمردين بشكل جدي إلى الاشتباه بأن للحرب العديد من الفوائد والمنافع بحيث يتعذر السماح بوضع حد لها. فخلال الحروب الأهلية التي تفجرت في بلاد متباينة مثل غواتيمالا وأوغندا وسيراليون، تمكنت جماعات صغيرة نسبيا من المتمردين من البقاء والصمود بل حتى التوسع والنمو في القوة في وجه قوات متفوقة لمحاربة التمرد. في أوغندا وسيراليون، شكل الأطفال نسبة كبيرة من المتمردين: لكن هذه الجماعات المتمردة استطاعت البقاء فترات طويلة من الزمن، وكثيرا ما اكتسبت قوة وسط إدانة شاملة تقريبا. الأمر الذي دفع بعض المحللين المحليين للتساؤل عما إذا كانت الحكومات المعنية ترغب فعلا في إنهاء الحرب الأهلية[51]. في البيرو، قام الجنود الحكوميون أحيانا بإطلاق سراح أعضاء منظمة «الدرب المضيء»، وفي أحيان أخرى عملوا على تأبيد حالة انعدام الأمن في المناطق التي كان يكسب فيها بعض الجنود المال من تجارة المخدرات. في الفليبين، اتهم الجنود كبار ضباط الجيش بمساعدة الإرهابيين المدانين على الفرار[52].

خلال عمليات الإبادة الجماعية في رواندا (1994)، قتل حوالي 800ألف من «التوتسي» و«الهوتو» المعتدلين. وبمساعدة التدخل «الإنساني» برعاية الحكومة الفرنسية («عملية الفيروز»)، فر العديد من الذين ارتكبوا المجازر إلى زائير المجاورة (أصبح اسمها الآن جمهورية الكونغو الديمقراطية). وبعد عمليات الإبادة الجماعية في رواندا، شعرت الحكومة الرواندية الجديدة التي يسيطر عليها «التوتسي» بتهديد هؤلاء الفارين، الذين كانوا يستخدمون معونات الإغاثة لإعادة تنظيم صفوفهم والتخطيط لمزيد من عمليات القتل الجماعي. أرسل الجنود الروانديون إلى جمهورية الكونغو الديمقراطية لمواجهة ميليشيات «انتراهاموي» المسؤولة عن الإبادة الجماعية. لكن ذكر العديد من الديبلوماسيين والمقاتلين وعاملي الإغاثة واللاجئين أن الجنود الروانديين كانوا يتعاونون بصورة متزايدة مع أعدائهم المزعومين. وتوقفوا

على ما يبدو عن نزع سلاح الميليشيات ولم يبذلوا جهدا كبيرا لمحاربتها. في عام 2002، قال أحد مقاتلي المتمردين الذين تدربوا في رواندا إن أوامره لم تعد تفرض ملاحقة ميليشيات «انتراهاموي»، وأضاف «إن رواندا أتت هنا لقتال الميليشيات لكن أهدافها قد تغيرت الآن. فنحن في هذه الأيام نتظاهر بقتالها وحسب ـ إنها السياسة»[53]. وفي نيسان/ أيلول 2002، قدرت لجنة الإنقاذ الدولية أن حوالي 4,7 مليون شخص قضوا كنتيجة مباشرة للحرب في جمهورية الكونغو الديمقراطية[54].

فيما يتعلق بـ«الحرب (العالمية) على الإرهاب»، ذكر مايكل شوير، أحد كبار مسؤولي الاستخبارات الأمريكيين الذي شارك في مطاردة ابن لادن، أن حوالي عشر فرص جدية سنحت للولايات المتحدة لقتل أو اعتقال ابن لادن بدءا من أيار/ مايو 1998 [55] وبعد الحادي عشر من سبتمبر، رُفض عرض الطالبان تسليم ابن لادن إلى بلد حيادي (إذا قدمت الولايات المتحدة دليلا يثبت تورطه في هجمات الحادي عشر من سبتمبر). وبالرغم من استهداف الولايات المتحدة معسكرات «القاعدة» في هجومها على أفغانستان (2001)، إلا أن ابن لادن ظل حرا طليقا. ويقول كبار المحللين العسكريين إنه كان من المتوجب على حكومة الولايات المتحدة استخدام مزيد من الجنود للقبض على ابن لادن، بدلا من الاعتماد على وكلائها الأفغان[56]. ولم تقم القوات الأمريكية بأي محاولة للسيطرة على الحدود مع باكستان خلال العمليات ضد ابن لادن و«القاعدة» في أواخر شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 2001 [57]، وقال شوير إن الولايات المتحدة أضاعت أكبر فرصة سانحة لأسر زعيم تنظيم «القاعدة» في تورا بورا في الجبال الأفغانية (كانون الأول/ ديسمبر 2001) حين اعتمد الجنرال تومي فرانكس على الوكلاء الذين لا يعتمد عليهم بدلا من جنوده[58]. وبعد ذلك استقطب تخطيط وتنفيذ المغامرة العراقية الانتباه والقوة البشرية بعيدا عن مطاردة «القاعدة»[59].

ثبت أن التحالف الشمالي الذي يعتبر أهم حليف للولايات المتحدة داخل أفغانستان، كان أشد اهتماما بالاستيلاء على كابول منه بأسر ابن لادن. وفي الوقت ذاته، لم تغلق باكستان حدودها بصورة جدية للمساعدة على اعتقاله[60]. وفي الحقيقة، أكد رئيس مكتب المخابرات المركزية السابق في باكستان وأفغانستان، غاري شروين، على وجود نزعة أصولية داخل الجيش وجهاز الاستخبارات الباكستاني أضعفت رغبة السلطات الباكستانية بأسر ابن لادن[61]. وأشار الخبراء إلى أن برويز مشرف قد اتفق مع الولايات المتحدة بعد الحرب الأفغانية على أنه لن يطارد ابن لادن بشكل جدي، لأنه خشي من إثارة المشاكل في بلاده إضافة إلى زيادة الهجمات على الأهداف الغربية في الخارج[62]. ومن المؤكد أن ارتفاع شعبية ابن لادن لدى العديد من الباكستانيين يعني أن القبض عليه سيفجر مشكلات كثيرة في وجه مشرف[63].

لا تتمثل النقطة المهمة في عدم رغبة جورج بوش في القبض على ابن لادن: فمثل هذا التغير في الأحداث كان سيعزز بالتأكيد فرصه الانتخابية عام 2004. لكن لدى الولايات المتحدة، أولا، أولويات أخرى حولت الانتباه والموارد بعيدا عن هذا المشروع: وثانيا، لأن مكافحة الإرهاب عبارة عن جهد تعاوني تعكس فيه الأهداف أولويات العديد من الأطراف والفرقاء علاوة على واشنطن. ومثلما أكد مستشار الحكومة العمالية السابق ديفيد كلارك، فإن عملية مكافحة التمرد الناجحة لا بد أن تشمل حملة عسكرية تستهدف مرتكبي العنف وحملة سياسية مصممة لعزلهم: و«الحرب (الراهنة) على الإرهاب» لا تشمل أيا منهما[64].

العامل الثالث في الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية هو السعي لإقامة نوع من علاقات العمل (البيزنس) بين الأعداء المزعومين. فقد شهد العديد من الصراعات الأهلية حجما مهما من التبادل (التجاري) بين الأعداء، بما في ذلك بيع

السلاح إلى الطرف الآخر، ليس في الشيشان فقط بل في سيراليون وكمبوديا والكونغو، حيث شوهد الجنود الروانديون يبيعون السلاح إلى ميليشيات «انتراهاموي»[65]. أما جنود الحكومة في الفليبين فقد احتجوا على ضباطهم الكبار الذين حُملوا مسؤولية عدد من التفجيرات واتهموا ببيع الأسلحة والذخيرة إلى قوات المتمردين[66]. وأوضح مثال على «التبادل مع العدو» في سياق «الحرب على الإرهاب» تجسده أيضا حرب أهلية: الصراع في الشيشان. فخلال الحرب الأولى (1994-1996)، كثيرا ما باع الجيش الروسي السلاح إلى المتمردين[67]. وتباهى شامل باساييف، الذي أصبح أقوى أمير حرب في الشيشان، بأن نسبة 90% من سلاحه أتى من الجنود الروس. وحتى خطّاب، زعيم المقاتلين العرب في الشيشان، تمكن من الحصول على المال من «العدو» الروسي إضافة إلى حلفاء الشيشان. ويقال إن الجيش الروسي يقدر قيمته وأهميته باعتباره أفضل مستفز لردود الأفعال الانتقامية لتدمير القضية الشيشانية، وقد ساعد في واقع الأمر في استفزاز الجيش الروسي لإحداث دمار هائل في الشيشان بدءا من عام 1999 وذلك حين قاد هجوما شنه الشيشان على داغستان الروسية في تلك السنة[68].

حتى الاطلاع الخاطف على التاريخ يجب أن يكون كافيا لإعلامنا بأن التعريف الراهن للأعداء و«الأشرار» يتوقف على الحسابات المالية والسياسية المهمة. ومن مفارقات «الحرب على الإرهاب» أن العلاقات التجارية القوية بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية (بما فيها المبيعات الضخمة من الأسلحة إلى السعوديين) عرقلت ممارسة ضغط ديبلوماسي مؤثر وفعال على السعوديين للتوقف عن غرس وتلقين إيديولوجيات العنف التي أنتجت منفذي هجمات الحادي عشر من سبتمبر. الروابط شخصية أيضا[69]. فشركة ديك تشيني السابقة «هاليبرتون» تجاوزت قيمة أعمالها في مجال تطوير حقول النفط والمشروعات الأخرى في السعودية 174مليون دولار. كما أن كوندوليزا رايس كانت عضوا في مجلس إدارة شركة «شيفرون» التي

تمارس أنشطة تجارية كبيرة في السعودية. أما جورج بوش الأب فقد كان كبيرا للمستشارين في «مجموعة كارليل»، التي تملك أسهما في شركات الدفاع الأمريكية المستأجرة لتجهيز وتدريب القوات المسلحة السعودية[70].

نعرف أن أفرادا من أسرة ابن لادن نقلوا على جناح السرعة إلى خارج الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر[71]. كما أن التمويلات السعودية دعمت المجاهدين في البوسنة والشيشان[72]، ولم يبدأ السعوديون بشكل جدي باستئصال «القاعدة» إلا بعد أن انفجرت شاحنة ملغومة في الرياض في تشرين الثاني/ نوفمبر 2003 [73] وبالرغم مما يسمى بـ«الحرب المالية على الإرهاب»، تباطأ السعوديون في التعاون مع المسؤولين الأمريكيين في مطاردة الوسطاء الذين يساعدون في تمويل الإرهابيين[74]، كما أحجموا عن تجميد أصول المنظمات المرتبطة بابن لادن (رغم أن تواطئهم في السر قد يتجاوز حد ما يعترف به الطرفان)[75]. وبالطبع فإن استهداف «الدول الداعمة» لهجمات الحادي عشر من سبتمبر استثنى بشكل ملحوظ السعودية.

بعض أولئك الذين شُهّر بهم في «الحرب على الإرهاب» ـ خصوصا صدام حسين وأسامة ابن لادن ـ كانوا من الأشخاص الذين ساعدهم الغرب على التسلح ومضاعفة قوتهم بالأساس[76]، رغم أن إمداد شخص بالسلاح ليصبح فيما بعد عدوا ليس ظاهرة غريبة (فهي تلاحظ في الحرب الأهلية)، حيث تزود مختلف الأطراف فريقا أصبح عدوا لها فعلا.

وظائف التحالف المنوع

في «الحرب على الإرهاب» والحروب الأهلية معا، كانت للأسباب التكتيكية ذات النتائج العكسية المستخدمة في مكافحة الإرهاب وظائف مهمة لمختلف الأطراف التي تشكل حملة مكافحة الإرهاب. هذه الوظائف اقتصادية وسياسية (نناقشها في

هذا الفصل) ونفسية (نتطرق إليها في الفصول اللاحقة). وعند الفشل في تحقيق الهدف المعلن والمتمثل في هزيمة أو حتى إضعاف التمرد أو الإرهاب، نجح اللاعبون الرئيسون رغم ذلك في تحقيق مآرب أخرى (خفية وأكثر قيمة وأهمية غالبا).

في الحروب الأهلية و«الحرب (العالمية) على الإرهاب»، يمكن أن نرى وفرة من الفرص لاقتناص «المكافآت والجوائز» السياسية والاقتصادية والنفسية بالنسبة للمشاركين ـ أو الذين يزعمون المشاركة ـ في المجهود الحربي، دون أن يجمعهم بالضرورة هدف القضاء على الإرهاب المعني. ويعود جزء من ذلك إلى اشتغال عمليات محاربة التمرد ومكافحة الإرهاب على الصعيد العالمي من خلال نوع من «الترخيص» أو التسخير للعنف من قبل جماعات مختلفة (ومثلما لاحظنا من قبل، فإن ذلك ينطبق أيضا على التمرد / الإرهاب إلى حد ما). ويعني الترخيص والتسخير للعنف بمختلف صنوفه ضمن إطار مكافحة الإرهاب أن أهداف «محاربة التمرد» أو «مكافحة الإرهاب» شديدة التنوع والاختلاف (رغم أن لبعض الأطراف، مثل الولايات المتحدة في حالة «الحرب على الإرهاب»، تأثيرا واضحا وغير متناسب في تشكيل هذه الأهداف وصياغتها). وكما لاحظ ميشيل فوكو، لا تنحصر القوة «في قمة» النظام فقط، بل تتوزع (وإن بصورة غير متكافئة) عبر المجتمعات ومن خلال منظومات التدخل. ومن المهم في دلالته أن «الحدود» المقيدة لقوة الولايات المتحدة على المسرح العالمي تدفع باتجاه ابتكار إستراتيجيات تحاكي استراتيجيات الحكومات التي تسعى إلى مكافحة التمرد في الدول الضعيفة. إذ تمثل «الحرب على الإرهاب» جملة من الأهداف ضمن التحالفات المتغيرة التي تتعاون فيما بينها نتيجة تشكيلة متنوعة من الأسباب، والتي تزعم المشاركة في هذه «الحرب». وفي حين أن الفوائد والمنافع العائدة على مصالح الشركات والمؤسسة العسكرية الأمريكية على قدر عظيم من الأهمية (كما أكد تشومسكي وبيلجر على سبيل المثال)، إلا أن ربط كل شيء بواشنطن يمكن أن يشتت الانتباه عن الديناميات المحلية المهمة ضمن

مختلف بلدان العالم[77]. فالمستفيدون من «الحرب على الإرهاب» لا يتمركزون في الولايات المتحدة وبريطانيا فحسب، بل يتوزعون أيضا في تشكيلة متنوعة من الأنظمة المريبة التي عرضت تعاونها بعد أن طلب منها. ونظرا لهذا التكتل من المنافع، لا يمكن للرغبة في هزيمة الإرهاب أن تؤخذ بالضرورة كقضية مسلم بها ـ في العواصم الغربية أو على المستوى المحلي (مثلا: السلوك التآمري للجنود الروس في الشيشان حيث جنى الجنرالات الروس ثروات مالية طائلة). ومن المهم أن أبلسة عدو معين في الحروب الأهلية يوجد حيزا يسمح بالانتهاكات التي يرتكبها أولئك الذين يزعمون محاربة هذا العدو المنبوذ. فقد أعيد ابتكار نمط الحرب الباردة القائم على حصانة الأصدقاء واستخدم في «الحرب على الإرهاب».

بالرغم من بعض الضعف الذي أصاب التحكم بأهداف مكافحة الإرهاب، إلا أن توزع العنف على تحالف معقد قد يكون له أيضا فوائد ومنافع بالنسبة لأولئك المتربعين «على قمة» هذا النظام. في الحروب الأهلية و«الحرب (العالمية) على الإرهاب»، يحظى الترخيص بممارسة العنف (من قبل حكومات تشجع «العنف القبلي» كجزء من محاربة التمرد، ومن قبل شركاء التحالف بمن فيهم الشركات الخاصة المشاركة في إدارة شؤون وسجون العراق مثلا، ومن قبل واشنطن التي استخدمت سجون دول أخرى «ثالثة» لممارسة التعذيب أو تحالف الشمال لإسقاط نظام طالبان) بميزة إتاحة العديد من الفرص لـ«الإنكار» عند افتضاح الانتهاكات. وهذا يقلص إلى الحد الأقصى العنف الذي تمارسه القوة المهيمنة مباشرة، ويقلل احتمال تعرض قواتها لأخطاره.

الوظائف الاقتصادية للحروب الأهلية

وردت أنباء عديدة عن هجمات ذات تأثيرات عكسية ـ عسكريا وسياسيا ـ شنت ضد المدنيين في السودان وسيراليون. فإذا كان هدف الحرب مجرد الانتصار،

تفقد هذه الأعمال أي معنى منطقي. لكن إطالة أمد هذه الحروب الأهلية تغل منافع اقتصادية مهمة. في السودان، أثرت الفصائل العسكرية واغتنى التجار ومربو قطعان الماشية المتحالفون من الهجمات والغزوات، والاستيلاء على الأراضي، وزيادة الأسعار التي تصاحب المجاعة (وتفاقم حدتها). وساعد التشبث بالأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية على استمرارية نظام الحرب [78]. في سيراليون، خسر المتمردون الدعم السياسي نتيجة الهجمات الوحشية التي شنوها على المدنيين، لكن هذه الهجمات ضمنت وجود نظام لاستخراج الموارد، لاسيما عبر إخلاء السكان ـ جزئيا ـ من المناطق الغنية بالماس. كما خدمت الانتهاكات التي ارتكبها جنود حكومة سيراليون (مع تآكل الدعم السياسي أيضا) وظائف اقتصادية مشابهة في أغلب الأحيان. في أوغندا، ذكر العاملون في الإغاثة أن ضباط الجيش يبيعون المؤن إلى متمردي «جيش الرب» ويستفيدون من تضخيم أعداد الجنود لقبض رواتبهم: ولذلك فإن إنهاء الحرب سوف يضع حدا لهذه المكاسب[79].

الحرب في جمهورية الكونغو الديمقراطية المستمرة منذ منتصف التسعينيات، تظهر بكل وضوح الوظائف الاقتصادية للعنف إضافة إلى الحدود المقيدة لأي رغبة في هزيمة «العدو». فالمطاردة المزعومة لميليشيات «انتراهاموي» التي ارتكبت مجازر الإبادة الجماعية خدمت كغطاء يخفي رغبة الجيش الرواندي في نهب الثروات المعدنية[80]. ومع أن جمهورية الكونغو بلد فقير جدا، إلا أنه بالغ الغنى في ثرواته الطبيعية، التي شكلت بمرور الزمن عاملا مهما في حسابات رواندا وأوغندا وزيمبابوي، وهي بلدان تورطت أيضا في الصراع. هنالك دليل يثبت أن القادة الأوغنديين يثيرون أعمال العنف فعلا بين جماعات المتمردين، وذلك للبقاء على ما يبدو في المنطقة الغنية بالذهب والكولتان[81]. ومع تناقص عدد المعارك التقليدية بين الجيوش المتنازعة، صرف مزيد من الجهد والطاقة على الاستغلال الاقتصادي. وغالبا ما تركز القتال الفعلي في المناطق الغنية بالكوبالت والنحاس والماس في

جمهورية الكونغو[82]. وفي هذه الظروف، لم تعد ميليشيات "الهوتو" العدوة تعتبر مجرد تهديد، بل تهديد مفيد! وبالتواطؤ مع الأعداء المزعومين، عمل الجنود الرونديون على إطالة مدة بقائهم في جمهورية الكونغو الديمقراطية[83]. أما الخطوات الواعدة نحو السلام فقد ثبت أنها هشة. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر 2004، أرسلت رواندا جنودا عبر الحدود مع الكونغو بزعم مطاردة «قوات التحرير الديمقراطية في رواندا» وأعضائها من الهوتو المتطرفين (المتورطين في مذابح الإبادة الجماعية عام 1994)[84]. ولم يكن هذا النسق الإجرامي بعيد الشبهة كليا عن الديناميات المستخدمة في سيراليون حيث جرى الحفاظ أحيانا على منظمة «الجبهة المتحدة الثورية» باعتبارها «تهديدا مفيدا» يسوغ الاستغلال الاقتصادي من قبل الأطراف الأخرى.

في أمريكا الوسطى، كانت للحروب الأهلية أبعاد إيديولوجية أكثر وضوحا. لكن في غواتيمالا، اشتبه العديد من المراقبين بأن «الأجندات» الأوسع لتراكم المنافع الاقتصادية وقمع القوى الديمقراطية كانت تعني أن الحكومة لم ترغب بإنهاء الحرب: وحتى بعد اتفاقية السلام عام 1996، تمكن الجيش من إخفاء تورطه في عمليات التهريب المنظمة تحت غطاء عمليات مكافحة المخدرات وقمع «المخربين»[85].

الوظائف الاقتصادية لـ«الحرب على الإرهاب».

لـ«الحرب على الإرهاب» وظائف اقتصادية مهمة. ومثلما هي الحال تقريبا في الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية المستخدمة في الحروب الأهلية، ساعدت التكتيكات ذات النتائج العكسية في «الحرب على الإرهاب» في الحصول على عدد من المكاسب والمنافع الاقتصادية (الخفية غالبا) لأطول فترة ممكنة ــ وذلك من خلال المساعدة على إطالة أمد الصراع وتعميقه. هذا لا يعني أن ذلك هو المقصد. لكن التشبث بهذه التكتيكات يشير بدلالته أولا إلى ارتقاء نظام عملي يؤدي وظيفته

عبر طرائق مهمة، وثانيا إلى الافتقار إلى الرغبة (على أقل تقدير) في تفكيك أو إصلاح هذا النظام. لقد قوضت الامتيازات والمصالح المكتسبة الدافع ضد الإرهاب وأفسدته.

استغلال «الحروب» العالمية ليس أمرا جديدا: فقد غذى رعب الحرب الباردة وأدام مجمعا عسكريا ـ صناعيا غنيا في الولايات المتحدة (ناهيك عن نسخته الشيوعية في الاتحاد السوفييتي). في غرفة الاجتماعات الحكومية في البيت الأبيض، أبلغ السيناتور الجمهوري آرثر فاندنبرغ الرئيس هاري ترومان عام 1947 أن بمقدوره عسكرة الاقتصاد كما كان يريد، لكن بعد أن «يجعل الشعب الأمريكي يرتجف فزعا» من التهديد السوفييتي[86]. انتهت الحرب الباردة، لكن الإنفاق العسكري السخي لم يتوقف. وفي الحقيقة، فإن الميزانية العسكرية الأمريكية وقت السلم (بأسعار الدولار الثابتة) تقارب معدلاتها خلال الحرب الباردة (في الخمسينيات والستينيات، والسبعينيات، والثمانينيات)[87]. بل إن حجم إنفاق وزارة الدفاع (البنتاغون) ارتفع بحوالي الثلث بين عامي 2003و 2004 [88] ويبدو أن تاريخ الصراع مع كوريا والعراق قد أوجد مصلحة مؤسسية في الإنفاق المستدام على هذين المجالين تحديدا لدى المؤسسة العسكرية الأمريكية ـ تتغذى على الحاجة إلى القدرة على شن «حربين اثنتين» في وقت واحد[89] أما الميزانية الحالية لوزارة الدفاع والبالغة 400 مليار دولار فتمثل حوالي ضعفي الإنفاق الدفاعي في باقي القوى العسكرية العالمية مجتمعة[90]وطلبت وزارة الدفاع 419 مليارا لميزانية عام 2006.

تلقت أكبر ثلاث شركات مصنعة للسلاح في الولايات المتحدة ـ «لوكهيد مارتن»، «بوينغ»، «ريثيون» ـ أكثر من ثلاثين مليار دولار في السنة من عقود وزارة الدفاع[91]، كما أن هناك علاقات وشيجة تربط بين الصناعة الدفاعية (الحربية) والعديد من كبار المسؤولين الحكوميين. على سبيل المثال، شغل جيمس روش عدة مناصب رفيعة

في شركة الدفاع العملاقة «نورثروب غرومان» قبل أن يصبح وزيرا للقوى الجوية. كما عمل بول ولفوفيتز، نائب وزير الدفاع (السابق)، مستشارا للشركة نفسها. وقال رونالد سوغار، كبير المدراء التنفيذيين في «نورثروب غرومان» (2003) إنه شهد «نموا كبيرا جدا في المبيعات والعائدات» نتيجة الزيادات التي طرأت على الميزانيات[92].

كيف يمكن تبرير ذلك كله في سياق الفقر المنتشر في العالم ومستوياته المرتفعة والمتنامية في الولايات المتحدة ذاتها؟ الجواب يكمن ـ إلى حد بعيد ـ في استمرارية الصراع، بغض النظر هل تجسد العدو في الشيوعية، أو «الدول المارقة»، أو «الأصولية الإسلامية»، أو «المخدرات»، أو «الإرهاب» في الآونة الأخيرة. وتمثل «الحرب على الإرهاب» تطبيقا جديدا لمبدأ قديم: مبدأ الحرب المتواصلة بلا نهاية. وحتى خلال مرحلة «السلم» بعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن الحرب الاستثناء بقدر ما كانت القاعدة. فقد تدخلت الولايات المتحدة عسكريا في كوريا وفيتنام وكمبوديا وليبيا وبنما والعراق وصربيا وأفغانستان والعراق مرة أخرى، ناهيك عن الحروب التي خاضتها بالوكالة في أنغولا وموزمبيق ونيكاراغوا، أو الدعم الذي قدمته للحكومات القمعية التعسفية في السلفادور وغواتيمالا وكولومبيا والفليبين وغيرها[93]. ومثلما لاحظ نعوم تشومسكي، لم تعلن الحرب على الإرهاب بل «أعيد إعلانها» (ومن قبل بعض الأشخاص أنفسهم): حين وصل رونالد ريغان إلى سدة الرئاسة وأعلن حربا على الدول التي تدعم الإرهاب في الشرق الأوسط وأمريكا الوسطى.

هنالك إحساس ملموس تقريبا بالارتياح لبروز عدو جديد عبر عنه نائب الرئيس ديك تشيني في خطاب أمام مجلس العلاقات الخارجية (شباط / فبراير 2002):

> حين اختفى عدو أمريكا الخطير فجأة، تساءل الكثيرون عن ماهية الوجهة الجديدة التي ستتخذها سياستنا الخارجية. تحدثنا كحالنا دائما عن مشكلات وأزمات إقليمية طويلة الأمد في شتى أرجاء العالم،

لكن لم يظهر تهديد عالمي وحيد وفوري يمكن أن يتفق عليه عدد كاف من الخبراء. وتغير ذلك كله قبل خمسة أشهر. الآن، التهديد معروف لدينا ودورنا واضح لا لبس فيه[94].

يبدو أن أجندة مكافحة الإرهاب قد اندمجت مع أجندة تحديث القدرات العسكرية الأمريكية، الأمر الذي صعبّ مساءلة مشروع تحديث الأسلحة والتشكيك في جدواه[95]. وفي ما يمكن اعتباره تطبيقا وحشيا لمبدأ فنون القتال الحربية، ارتدت قوة الولايات المتحدة ذاتها ـ ناطحات السحاب فيها وطائراتها ـ إلى نحرها في الحادي عشر من سبتمبر. لكن إذا لم تكن منظومات الأسلحة المتطورة هي المشكلة في ذلك اليوم، فقد تكرر الترحيب بها باعتبارها جزءا من الحل. وحتى قبل الحادي عشر من سبتمبر، كان بوش ورمسفيلد يبلغان الأمريكيين بأن الردع التقليدي لا يعمل بنجاح في عصر الإرهاب والدول المارقة، ولذلك فهم بحاجة إلى ردع صاروخي[96] لكن حوالي ثلاثة أرباع التمويل العسكري الإضافي منذ استلم بوش الرئاسة ليست مرتبطة بشكل مباشر بمحاربة الإرهاب، وهي تشمل الإنفاق على الدرع الصاروخية [97]. كما أن الحماسة الجديدة لـ«القنابل النووية المصغرة» جزء أيضا من ازدهار صناعة الأسلحة والثروة الجديدة الناتجة عنها.

الشركات الأمريكية الكبرى التي تغرف مبالغ طائلة من إعادة الإعمار، خصوصا في العراق، تشكل أيضا جزءا من المجمع العسكري ـ الصناعي في الولايات المتحدة. فأضخم عقد لإعادة الإعمار في العراق ـ الذي بلغت قيمته 680 مليون دولار ـ ذهب إلى تكتل «بكتل»، الذي تربطه صلات وثيقة بإدارة بوش، وقدم تبرعات سخية إلى الحزب الجمهوري ومرشحيه[98] أما شركة «هاليبرتون»، التي ترأسها ديك تشيني خلال الفترة الممتدة بين عام 1995و آب/ أغسطس 2000) ومازال يحتفظ بحق شراء وبيع أسهم فيها بأسعار تفضيلية)، فقد كوفئت بالعقد الرئيس لترميم صناعة النفط

العراقية: وحصلت على العقد بدون مناقصة، ومُنحت سلطات التحالف ذاتها للتحكم بالاحتمالات المستقبلية للنفط العراقي[99] وعلى وجه الإجمال، بلغت قيمة عقود «هاليبرتون» في العراق حتى تشرين/ أكتوبر 2004 تسعة مليارات دولار (100) وفي خطوة تدل على ارتقاء نظام مربح يعتمد على التدمير وإعادة الإعمار، أنشأت إدارة بوش (في آب/ أغسطس 2004) «مكتب منسق إعادة الإعمار والاستقرار» وفوضته رسم خطط تفصيلية لمرحلة «ما بعد الصراع» في خمسة وعشرين بلدا لم تدخل في أي صراع حتى الآن[101].

ومثلما هي الحال مع «تحديث» القوات المسلحة، تم دمج أولوية الوصول إلى النفط مع أجندة مكافحة الإرهاب بشكل فعال، الأمر الذي جعل من الصعب مساءلة دافع النفط (حسبما أشار مايكل كلير)[102]. لقد مثل النفط بالتأكيد عاملا في اختيار الولايات المتحدة للأعداء خلال «الحرب على الإرهاب»، حيث أثر في انتقاء الدول التي ستتعرض للهجوم وتلك التي ستنجو منه. ومع أن القول إن الهجوم على أفغانستان والعراق جزء من «حرب من أجل النفط» سيكون مبالغا في التبسيط، لكن ليس ثمة شك في أن الحكومة الأمريكية تلهفت على توسيع واردات النفط وتقليص حجم اعتمادها على السعودية: كما لا يوجد مجال للشك في أن أفغانستان والعراق لعبا دورا مهما في هذه الاستراتيجية. والروابط الوثيقة التي تجمع إدارة بوش مع صناعة النفط معروفة. ففي أيار/ مايو 2001، توقع تقرير «مجموعة تطوير سياسة الطاقة الوطنية» برئاسة ديك تشيني (الذي يدعى غالبا «تقرير تشيني»)، أن واردات الولايات المتحدة النفطية بحاجة لأن ترتفع من 10,4 مليون برميل في اليوم إلى 16.7 بحلول عام 2020 ومن المتوقع أن تستورد نسبة 66% من احتياجاتها النفطية بحلول عام 2020، بعد أن لم تكن تتجاوز 52% عام 2001 [103]، ودعا تقرير تشيني البيت الأبيض إلى جعل السعي إلى الواردات «أولوية في تجارتنا وسياستنا الخارجية»، وزيادة التنويع الجغرافي للمصادر[104]حاليا، تعتمد الولايات المتحدة اعتمادا شديدا

على فنزويلا والسعودية للحصول على واردات النفط الخام، لكن الاضطراب السياسي في فنزويلا أوقف عمليا صادراتها النفطية إلى الولايات المتحدة، في حين أخذ بعض المستثمرين وخبراء النفط يعتبرون السعودية في وضع سياسي مقلقل ولا يمكن الاعتماد عليها[105]. وبالطبع فإن الدور الرئيس الذي قام به المواطنون السعوديون في هجمات الحادي عشر من سبتمبر جعل الاستمرار في الاعتماد على النفط السعودي يسبب مزيدا من القلق والانزعاج[106].

منذ حوالي منتصف التسعينيات، مثلت الرغبة في استخدام أفغانستان كأنبوب نفط عاملا مهما أخذته السياسة الخارجية للولايات المتحدة بعين الاعتبار. وأدرك كبار المسؤولين على نحو متزايد أهمية ما يحتويه حوض قزوين من احتياطي هائل من النفط والغاز الطبيعي (الوقود الأحفوري). وفي خطاب ألقاه ديك تشيني أمام الصناعيين العاملين في قطاع النفط عام 1998، قال ملاحظا: «لا يمكن أن أفكر بزمن تظهر فيه فجأة منطقة تعادل في أهميتها الاستراتيجية منطقة بحر قزوين»[107]. لكن كيف يمكن نقل هذه الاحتياطات إلى السوق؟ إن نقلها عبر روسيا أو أذربيجان سوف يزيد سيطرة روسيا على جمهوريات وسط آسيا. أما نقلها عبر إيران فسوف يكون مناقضا لسياسة الولايات المتحدة التي تحاول عزلها. في حين أن نقلها عبر الصين سوف يعطي الصين دعما استراتيجيا، وستكون المسافة على أية حال طويلة وباهظة التكلفة. وهذا يجعل مد أنبوب عبر أفغانستان إلى باكستان والهند خيارا مفضلا بقوة. ومن بين أولئك المشاركين في المفاوضات حول أنبوب النفط في عهد إدارة كلينتون، ديك تشيني، ممثلا لتسع شركات نفطية، وكوندوليزا رايس، التي كانت آنذاك مديرة في شركة «شيفرون ـ تكساكو» مكلفة بشكل خاص بشؤون باكستان ووسط آسيا[108]. وبعد سقوط الطالبان، جرت مفاوضات مطولة استهدفت مد أنبوب من تركمانستان إلى باكستان عبر أفغانستان (مشروع قديم وضعته شركة «يونوكال» التي تتخذ من كاليفورنيا مقرا لها)، حيث كان الرئيس

القادم لأفغانستان، حامد كرزاي، واحدا من كبار مستشاري شركة «يونوكال»، لكن انعدام الأمن استمر في عرقلة الخطة[109] وأصبح جون ماريسكا أحد الموظفين السابقين في الشركة سفيرا للولايات المتحدة في أفغانستان. وفي هذه الأثناء، تنامى اهتمام الولايات المتحدة بأوزبكستان كنتيجة مباشرة للنفط أيضا، ولربما بسبب الحاجة إلى قاعدة للعمليات في أفغانستان[110].

ما هي أهمية عامل النفط في الهجوم على العراق؟ وفقا لبوب ودوارد «كان البنتاغون يعمل طيلة شهور قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر على تطوير خيار عسكري ضد العراق»[111]. وتذكر ريتشارد كلارك ما حدث بعيد هجمات الحادي عشر من سبتمبر بقليل فقال:

> أدركت وأنا أكاد أشعر بألم جسدي حاد أن رمسفيلد وولفوفيتز كانا يحاولان الاستفادة من هذه المأساة الوطنية للترويج لأجندتهما حول العراق. ومنذ بداية عهد هذه الإدارة، وحتى قبل ذلك في الحقيقة، كانا يمارسان الضغط من أجل شن الحرب على العراق. أصدقائي في البنتاغون قالوا لي إننا سنغزو العراق في وقت ما من عام 2002 [112].

لم يكن النفط الدافع الوحيد هنا، لكنه شكل عاملا مهما. فصادرات النفط العراقي لم تتجاوز 1، 5 مليون برميل في اليوم، لكن الخبراء يقولون إن بمقدور العراق تصدير 6 مليون برميل يوميا بحلول عام 2008 [113] وحتى كريستوفر هيتشنز، الذي دافع بشدة عن الحرب على العراق، لاحظ قائلا: «إن ترميم صناعة النفط العراقية يمثل نهاية للاحتكار السعودي، ونحن نعرف أن هناك الكثيرين من أمثال ولفوفيتز الذين يتلهفون على ذلك لكنهم لا يستطيعون إعلانه أمام الملأ بأسلوب حصيف»[114]. وقالت إدارة بوش إنها تستهدف نقض وعكس القرار التاريخي بتأميم نفط العراق قبل أن تنتهي من «إعادة الإعمار»[115].

إذا ساعد النفط على تعريض بعض البلدان للهجوم والخطر، فإنه ساعد أيضا على حماية غيرها. ومثلما لاحظنا آنفا، أتى من السعودية خمسة عشر من الخاطفين التسعة عشر في الحادي عشر من سبتمبر، ومع ذلك لم يكن هناك رد انتقامي ضد السعودية. الأمر الذي يعكس مكانة السعودية كحليف رئيس للولايات المتحدة، واعتمادها الشديد على النفط السعودي. ولربما أدى الدور السعودي في أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى إدراك الحاجة الماسة للعثور على قواعد أمريكية بديلة في العراق(116).

هناك جزء من صناعة الحرب كثيرا ما ينساه المراقبون ألا وهو الآلة الإعلامية المؤيدة للحرب. إذا لم تكتف هذه الآلة بالترويج للحرب بل جنت مكاسب طائلة من هذا الترويج. فقد استغل روبرت مردوخ حمى الحرب على العراق وأجج أوارها بالمواقف الداعمة لها التي تتبناها صحفه. وكانت صحفه الشعبية (التابلويد) المائة والأربعون والواسعة الانتشار في مختلف بلدان العالم تبيع أربعين مليون نسخة في الأسبوع(117) كما عرضت محطة «فوكس» الإخبارية المغالية في شوفينيتها (التي يمتلكها مردوخ أيضا) القاذفات وهي تقلع باتجاه بغداد بمصاحبة النشيد الوطني الأمريكي. وبالرغم من قلة عدد مراسلي "فوكس" في الشرق الأوسط مقارنة بمنافساتها(118)، إلا أنها حظيت بأكبر عدد من المشاهدين خلال الحرب على العراق في الولايات المتحدة. أما محطة «ام اس ان بي سي» التي احتلت المرتبة الثالثة بعد «فوكس»، و«سي ان ان»، فقد ارتفع عدد مشاهديهما بنسبة 350% خلال الحرب (119). وهذا يعني بالطبع مزيدا من عائدات الإعلانات. ومثلما وجد استطلاع أجرته «لوس انجلوس تايمز» (نيسان/ أبريل 2003)، فإن 70%من الأمريكيين يحصلون على معظم معلوماتهم من المحطات الإخبارية الكبلية، مثل «فوكس» و «سي ان ان» و «ام اس ان بي سي»، بينما تعتمد نسبة 18%منهم على الأخبار المسائية التقليدية(120). استفادت أيضا شركات ومؤسسات العلاقات العامة. على سبيل المثال، حصلت

«رندون غروب» على 397 ألف دولار لإدارة حملة علاقات عامة حول ملامح وجوانب الضربات العسكرية الأمريكية التي وجهت إلى أفغانستان[121].

لا تنحصر المكاسب الاقتصادية لـ«الحرب على الإرهاب» ضمن نطاق الولايات المتحدة. على سبيل المثال، استفاد المتحكمون بميزانية الحرب في روسيا من النزاع في الشيشان الذي دمج الآن ضمن إطار «الحرب على الإرهاب». ففي عام 2001، اكتشفت هيئة المحاسبة والتدقيق التابعة للحكومة الروسية اختفاء مبلغ 45 مليون دولار من الميزانية. وكان معظمه عبارة عن رواتب للجنود[122] أما مرابح بيع السلاح إلى المتمردين الشيشان فهي معروفة وذائعة. في كولومبيا، استفادت القوات شبه العسكرية والأثرياء الذين يدعمونها من حرب أهلية (أصبحت الآن أيضا جزءا من «الحرب على الإرهاب») أعلن فيها أن العدو أصبح مجسدا في منظمتي «القوات المسلحة الثورية» و «جيش التحرير الوطني»، لكن غالبية الهجمات (التي شنها المتمردون والقوات شبه العسكرية على حد سواء) استهدفت المدنيين. في بعض الأحيان تمتد المنافع الاقتصادية أيضا لتشمل حتى الناس العاديين في البلدان الفقيرة. إحدى الآليات تسير بالتوازي مع الخصومات والعداوات التافهة التي فاقمت العنف في الحروب الأهلية وفي العديد من حملات المطاردة المسعورة للساحرات في الماضي: يعتقد اثنان (على الأقل) من المعتقلين في خليج غوانتانامو أن الأمريكان ألقوا القبض عليهما بعد وشاية كاذبة تتهمهما بالإرهاب من قبل منافسين يسعون للاستيلاء على أملاكهما في بلدة خوست الأفغانية قرب الحدود مع باكستان[123]. ونظراً لتلهف الجنود الأمريكيين على إظهار قدرتهم على اعتقال أفراد العدو، يظل احتمال ارتكاب مثل هذه الأخطاء في تحديد الهوية قائما وكبيراً.

الوظائف السياسية للحروب الأهلية

بالإضافة إلى الوظائف الاقتصادية فإن للحروب الأهلية وظائف سياسية أيضا تتجاوز (وحتى تناقض) الهدف المتمثل في الانتصار. وشملت الوظائف السياسية

للعنف ـ حتى ذاك الذي يفرز نتائج عكسية على الصعيد العسكري ـ المكاسب الناتجة عن توحيد البلد حول عدو مشترك ومحدد بوضوح. الوظيفة الثانية تمثلت غالبا في شرعنة تدخل العسكر في السياسة. والوظيفة الثالثة (الوثيقة الصلة في كثير من الأحيان) للنزاعات الأهلية تمثلت في درء تهديد الديمقراطية (مثلا: إعلان/ أو الحفاظ على «حالة الطوارئ»). وتجسد جزء من الهدف هنا في تسهيل وشرعنة الترهيب الذي تمارسه مجموعة أوسع من غير المتمردين تحت غطاء «الحرب»: يمكن للمحافظة على استمرارية الصراع أن تكون مفيدة في كبت حرية الكلام، وقمع النقابات والقوى الديمقراطية[124].

في الحرب الأهلية التي استمرت في سيراليون طيلة أحد عشر عاما، شجع بعض المسؤولين السياسيين والضباط العسكريين المتمردين على ما يبدو، بل ساعدوهم على الاعتقاد بأن «حالة الطوارئ» تفيد في درء الديمقراطية. في رواندا، نسقت نخبة صغيرة ضمن «الهوتو» عملية إبادة جماعية حين واجهت تهديد الديمقراطية المنبثق من اتفاقية السلام في اروشا1993 [125]في كولومبيا، تلاحظ نعومي كلاين أن:

> حرب الحكومة ضد رجال حرب العصابات اليساريين استخدمت مدة طويلة كغطاء لقتل كل من لهم صلات يسارية، بغض النظر هل كانوا من الناشطين النقابيين أو المزارعين المحليين. لكن الأمور ساءت منذ اعتلى الفارو اوريبي سدة الرئاسة في آب/ أغسطس 2002 على خلفية الحرب على الإرهاب[126].

لنفكر أيضا بحالة غواتيمالا. علق أحد المحللين لحملة مكافحة التمرد المدعومة من قبل الولايات المتحدة في الثمانينيات، فقال:

> يتفق معظم المراقبين على أن الغرض من حملة مكافحة التمرد التي

شنها جيش غواتيمالا كان غالبا تعليم السكان الهنود درسا نفسيا، إضافة إلى القضاء على حركة التمرد التي يقودها رجال العصابات الذين لم يتجاوز عددهم في أفضل الحالات 3500 من المسلحين المدربين. أما في الجوهر فقد كان الغرض من الحملة توليد حالة من الرعب والخوف ـ يمكن أن نسميها «ثقافة الخوف» ـ لدى السكان الهنود، لضمان امتناعهم عن تقديم أي دعم مرة أخرى لحركة حرب العصابات الماركسية أو التحالف معها[127].

تمكنت حركة التمرد في غواتيمالا من تجنيد متطوعين جدد نتيجة هذا التكتيك. لكن تعرضت القوى الديمقراطية للقمع، وجرى الحفاظ على نظام الحرب، واستمرت الولايات المتحدة في التمتع بصورة المدافع عن الحرية ضد المتمردين الشيوعيين (العنيدين). وبقي العنف الموجه ضد بعض الجماعات «الجانحة» من الأمور الروتينية حتى اليوم في غواتيمالا، وظلت ممارسات الشرطة اعتباطية وعشوائية في معظم الأحيان، حيث فشلت في استهداف العدو المحدد لكنها نجحت في ترهيب مجموعة أوسع من السكان. وفي هذا الصدد، يشابه النظام الراهن حملة مكافحة التمرد السابقة[128]؛ وفي الحقيقة، هنالك منطق وراء إخفاق عمليات مكافحة الإرهاب يتجاوز إلى حد ما التمايزات التقليدية بين الجريمة والحرب الأهلية (وبين الحرب الأهلية و«الحرب (العالمية) على الإرهاب»). سيرجيو موراليس، الذي أجرى دراسة تفصيلية حول الجريمة والشباب في مدينة غواتيمالا، قال لي في عام 2002:

منطق الإستراتيجية تجاه الشباب ـ خلال الصراع ـ تمثل في دفعهم إلى المخدرات، لكي لا يتدخلوا في السياسة. فقد روجها العسكر عمدا. كما حثوا الشباب على المشاركة في اللقاءات الدينية. الآن، يتعرض

عشرون شابا للاغتيال في المدينة كل أسبوع. وتقول السلطات إنهم من الأحداث الجانحين، لكننا نشك في ذلك، فحين يلقى القبض على هؤلاء الشبان، حين نرى الشرطة تعتقل أفراد العصابات، فإنها تقتلهم غالبا. وهؤلاء [الشبان] يستخدمون مسدسات محلية الصنع أو غيرها من الأسلحة الخفيفة، بينما يقتلون بواسطة أسلحة من عيار أثقل ـ لا تستخدمها العصابات. الشرطة تستخدم البنادق الروسية (كلاشنيكوف). أما القتل فيتم عبر قيام أربعة إلى ستة شبان باقتحام مقهى أو متجر وقتل كل من فيه. ولا تجري الشرطة تحقيقا جديا، بل تثابر على القول إن القتلة من الجانحين والقضية ليست مهمة. أما الهدف النهائي فهو الإبقاء على الشباب في حالة من الخوف، كي لا يشاركوا في السياسة. ومن اللافت عدد الفتيات من بين الضحايا ـ ربما تتراوح النسبة بين 20-25% ـ اللاتي قد لا يتجاوزن الثالثة عشرة. كثيرا ما يقتل الناس بطريقة مريعة، بعد تعرضهم للتعذيب ـ وهذا أحد تمظهرات مشروع مكافحة التمرد [السابق] هنالك خطاب سائد يعادي الشباب بشدة، وجدل مفتوح ضدهم، خصوصا أولئك الذين يرتدون ثيابا غريبة أو يستخدمون الوشم على أجسامهم[129].. ويتبدى بناء أيديولوجي يتساوى فيه أفراد العصابات مع الجانحين. والحكومة تتحدث دوما عن الأمن، وهي بحاجة لإيجاد انطباع بأنها تتخذ الإجراءات المناسبة. فإذا لم يكن هناك كفاية منهم (مجرمين، عصابات) فهي تبتدعهم، بحيث تجعل الأمر يبدو وكأنها تواجههم.

تردد هذه الفقرة بشكل غريب أصداء جوانب عدة من «الحرب (العالمية) على الإرهاب». أولا، محاولة تحويل انتباه التطرف السياسي وجهة الدين تردد صداها في الولايات المتحدة والعديد من البلدان الإسلامية[130] ثانيا، جرى تجاهل عملية

تجميع الأدلة المناسبة في «الحرب على الإرهاب» (كما سنرى في الفصل السادس على وجه الخصوص). وفي الحقيقة، تحول القتل بدون إجراءات قانونية أو تحقيقات جنائية مناسبة إلى مبدأ رسمي في الولايات المتحدة. «تثابر على القول إن هؤلاء القتلة من الجانحين [إرهابيين] والقضية ليست مهمة». ثالثا، يظهر خرق وعنف مكافحة الإرهاب أن مخترعيها يتخذون الإجراءات الضرورية، وأن المجد يتعاظم بشكل غريب بتعاظم الإخفاق والفشل: «فإذا لم يكن هناك كفاية منهم (مجرمين، عصابات) فهي تبتدعهم». رابعا (وربما الأهم فيما يتعلق بوظائف العنف)، تعتبر الطبيعة العشوائية للعنف بمعنى من المعاني وظيفية: فهي تضاعف الخوف إلى أقصى حد لكي يبدو كرادع للمشاركة السياسية[131].

فيما يتعلق بالحروب الداخلية أو الإقليمية، عرف الحكام المستبدون، مثل سلوبودان ميلوسيفيتش وصدام حسين، منذ أمد بعيد المزايا الاقتصادية والسياسية لاستدامة الصراع، بما في ذلك الحاجة المدركة لزعيم قوي (أي الحاجة «إليهم»). ومع أن الغرب يرى ميلوسيفيتش كديكتاتور غالبا، إلا أنه لم يفشل في الانتخابات (رغم أنها جرت في ظل سيطرة وسائل إعلام الدولة والتهديد والترهيب)[132]. حين كنت في بلغراد عام 1999، قدم العديد ممن تحدثت إليهم الحجة على أن ميلوسيفيتش وأصدقاءه المقربين استغروا بالفعل العقوبات الدولية، وأن هذه العقوبات ساعدته سياسيا واقتصاديا. أولا، عززت شعورا بالحصار في صربيا، شعورا بأن «العالم يقف ضد الصرب». وفي هذه الظروف، تمكن ميلوسيفيتش من تقديم نفسه بشيء من النجاح كزعيم قوي يدافع بهمة ونشاط عن مصالح الصرب. وكما علق أحد مسؤولي الأمم المتحدة الذي عمل مدة طويلة في برامج المعونات الإنسانية المقدمة إلى المنطقة: «تتمثل استراتيجية ميلوسيفيتش في تفجير صراع وعرض حل ـ حماية»[133]. ثانيا، زادت العقوبات بشكل كبير فروقات الأسعار بين صربيا والبلدان المجاورة. وفي حين أن ذلك أدى إلى إلحاق الضرر بغالبية الصرب،

إلا أنه أتاح فرص ربح كبير للعصبة المحيطة بميلوسيفيتش، حيث تمكن أفرادها من تجاوز العقوبات والاستفادة من فروقات الأسعار هذه. وبهذا المعنى، يمكن تقديم الحجة على أن نظام ميلوسيفيتش السياسي والاقتصادي في صربيا قد اعتمد على نوعين اثنين من الحرب الاثنية: أولا، حرب دورية مع تشكيلة منوعة من «المجموعات الاثنية»؛ ثانيا، «حرب أكثر اتساعا» ـ الأزمة بين صربيا والمجتمع الدولي (أو معظمه) كانت بحد ذاتها نتيجة للحروب المحلية التي شنها ميلوسيفيتش. ويعتقد الكثيرون أن سبب سقوطه يرجع في جزء كبير منه إلى حقيقة أن جعبته خلت من الحروب المعقولة ظاهريا.

الصراع في الشيشان نموذج آخر خدم فيه العنف وظائف سياسية واقتصادية. وحين شن فلاديمير بوتين (الذي كان يشغل منصب الرئيس المؤقت بعد استقالة يلتسين) الجولة الثانية من الحرب الوحشية في الشيشان (بدءا من عام 1999)، تعاظمت شعبيته، الأمر الذي ساعده على الفوز بالانتخابات الرئاسية الروسية في آذار/ مارس 2000. دعيت هذه الحرب «حرب روسيا الخاصة على الإرهاب» بعد أن اتهم الإرهابيون الشيشان بقتل أكثر من ثلاثمائة شخص في سلسلة من التفجيرات التي استهدفت مجمعات سكنية في روسيا. وفي أيلول / سبتمبر 2004، استشهد بوتين بتهديد الإرهاب ـ وخصوصا ما حدث في مدرسة بيسلان ـ حين اقترح أن يعين بنفسه المسؤولين المحليين، إضافة إلى جعل السلطة ممركزة في الكرملين عموما[134].

الوظائف السياسية لـ«الحرب على الإرهاب».

في الفترة التي سبقت الحادي عشر من سبتمبر، سبب آل غور على ما يبدو قلقا أشد لبوش من «القاعدة». حيث حاز (بوش) على عدد أقل من الأصوات مقارنة بمنافسه الديمقراطي في انتخابات عام 2000. وعند وقوع هجمات سبتمبر كانت

شعبية بوش في أدنى مستوياتها منذ تنصيبه رئيسا، حيث لم تتجاوز نسبة المبحوثين المؤيدين له 50%. وبعد يومين من الهجمات قفزت النسبة إلى 82%. وبحلول 13-14 آذار/ مارس عادت إلى 53%، لكن في الثامن عشر منه أعلن بوش الحرب على العراق فقفزت النسبة إلى 68% [135]. وعلق سيدني بلومنتال في شباط / فبراير 2005 قائلا: «كلما زادت هيمنة الإرهاب على وسائل الإعلام، زادت شعبيته: وكلما غاب عنها تبدأ بالانحسار»[136].

من المؤكد أن بوش قد راقب نتائج الاستطلاعات على ما يبدو. وحين ارتفعت شعبيته من 55% إلى 84-90% في الشهور التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر، نقل مستشاره الاستراتيجي كارل روف (الذي عده الكثيرون مهندس انتصاري بوش عامي 2000و 2004) معلومات الاستفتاءات إليه وفسر ذلك بأن الأمر يحتاج إلى فترة تتراوح بين 30-40 أسبوعا قبل أن تعود النتائج إلى الوضع الطبيعي كما يظهر استقراء التاريخ. يتذكر ودوارد أن بوش رد على روف قائلا: «لا تضيع وقتي بها»، متظاهرا بعدم الاهتمام لكنه عاين المعطيات. « .. الرئيس رصد بعناية موقعه السياسي»[137]. وأبلغ روجر ايلز، رئيس شبكة «فوكس»، كارل روف أن التأييد سيتلاشى إذا لم ير الرأي العام أن بوش يتصرف بقسوة، ونقلت الرسالة إلى الرئيس بالشكل المناسب[138].

بعد حملة عام 2004 التي مثلت فيها «الحرب على الإرهاب» قضية مفتاحية، فاز بوش بأغلبية مريحة مقارنة بحاله عام 2000. أما الرسالة السائدة في مؤتمر الحزب الجمهوري الذي سبق الانتخابات فكانت تشير إلى أن أمريكا في حالة حرب ولا يمكنها الثقة بتصميم وعزم الديمقراطيين على خوض غمارها. ويبدو أن التكتيك قد نجح إلى حد معقول.

إضافة إلى دور «الحرب على الإرهاب» في رفع مستويات الشعبية، فقد سهلت عملية ترهيب المعارضين في الداخل وممارسة قدر من القمع للمنشقين (سوف

نتناول هذه المسألة بمزيد من التفصيل في الفصل التاسع). أما الطبيعة العشوائية والمفاجئة للجزء الأكبر من حملة مكافحة الإرهاب فيبدو أنها كانت مفيدة بصورة فعالة هنا، ولعب التعذيب دورا فيها. فمناخ الخوف السائد عبرت عنه بأسلوب بليغ نعومي كلاين، التي وصفت كيف صمت قادة المجتمع المحلي عند تكريم ماهر عرار، وهو كندي من أصل سوري نقل من نيويورك إلى سورية حيث اعتقل مدة عشرة أشهر وتعرض للضرب. علقت كلاين قائلة:

> بعض الخطباء لم يتمكنوا حتى من ذكر اسم الضيف المكرم، كأنما فيه شيء قد يصيبهم. ولربما كانوا على صواب: فالدليل الدامغ ـ الذي دحض لاحقا ـ ووضع عرار في زنزانة مليئة بالجرذان، تبين أنه ذنب بالتداعي. وإذا أمكن لذلك أن يحدث لعرار، مهندس البرمجيات الناجح ورب الأسرة العطوف، فمن يبقى آمنا؟[139].

وفي معرض تعليقه على الاتجاه الجديد نحو عدم احترام القانون (في أوائل عام 2004)، لاحظ كينيث روث، المدير التنفيذي لمنظمة حقوق الإنسان، أن «إدارة بوش استخدمت خطاب الحرب بالضبط لتعطي نفسها السلطات الاستثنائية التي تتمتع به حكومة الحرب لاعتقال وحتى قتل المشتبه بهم بدون محاكمة»[140]. لقد عبر الآباء المؤسسون للولايات المتحدة بكل وضوح عن قلقهم من أن تزيد الحرب سلطة الرئيس، وأن السلطة التنفيذية هي الأكثر ميلا للحرب ـ وهو سبب رئيس دفعهم لتفويض سلطات الحرب إلى الهيئة التشريعية، التي ثبت إذعانها بعد الحادي عشر من سبتمبر. وفهموا أن الخوف العمومي، حسبما قال آل غور «يمكن أن يطلق العنان لإغراء يدفع أولئك الذين يحكمون أنفسهم إلى التنازل عن السلطة إلى شخص يعدهم بالقوة ويعرض عليهم الأمان والأمن والتحرر من الخوف»[141]

ومن المؤكد أن تشريع مكافحة الإرهاب قد أظهر نزوعا للتسرب إلى المجالات الأخرى أيضا، في الولايات المتحدة وخارجها. ففي عام 2003، استخدمت السلطات

الخاصة الممنوحة للحكومة البريطانية وفقا لقانون الإرهاب (لعام 2000) ضد المتظاهرين في معرض السلاح في لندن[142]. وبعد بضعة أيام من اقتراح وزير الداخلية البريطاني ديفيد بلنكت تخفيض معيار الدليل في قضايا الإرهاب (شباط / فبراير 2004)، اقترح بلير إجراء التغيير ذاته على القضايا المتعلقة بتجارة المخدرات والجريمة المنظمة[143]. وفي أيلول/ سبتمبر 2005، تعرض والتر ولفغانغ، عضو حزب العمال البالغ من العمر 84سنة، إلى معاملة خشنة والطرد من قاعة مؤتمر الحزب بعد أن قاطع وزير الخارجية جاك سترو ونعته بألفاظ نابية باعتباره الوزير المدافع عن دور بريطانيا في العراق؛ وحرم الشيخ طبقا لسلطات مكافحة الإرهاب من معاودة الدخول إلى القاعة[144]. أما رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا أزنار فقد حظر حزب الباسك السياسي «باتاسونا»، رغم عدم وجود صلة مباشرة يمكن إثباتها بينه وبين الأعمال الإرهابية؛ كما حظر جماعات حقوق الإنسان الباسكية والصحيفة الناطقة بلغة الباسك[145].

تمثل جزء مهم من الوظيفة السياسية لـ«الحرب على الإرهاب» في الطريقة التي استخدمتها لشرعنة الترهيب السياسي من قبل سلسلة من الحلفاء خارج محور بوش/ بلير/أزنار. وفي واقع الأمر، منحت «الحرب على الإرهاب» ترخيصا لممارسة القمع الداخلي في بلدان تدعم هذه الحرب (ناقشنا هذه المسألة في الفصل الثاني عندما تناولنا مشاعر الغضب الناجمة عن «الحرب على الإرهاب»). وكما هي الحال في العديد من الحروب الأهلية، أوجدت عملية تشويه سمعة أحد الأطراف مساحة تتيح ممارسة الانتهاكات (بصورة خفية) ضد البقية. ومثلما يلاحظ مايكل مان، فإن وسم المعارضين بأنهم من «القاعدة» «يسمح للحكومات القمعية بفعل ما تريد مع التعرض لقدر محدود من الانتقاد من دول العالم»[146].

منحت «الحرب على الإرهاب» فرصا لإسرائيل مثلا كي تقدم أفعالها وممارساتها كجزء من الكفاح العالمي المشترك ضد الإرهاب، وقدم رمسفيلد وتشيني

الحجة على أن التساوق والانسجام في محاربة الإرهاب يتطلبان تقديم الدعم لشارون[147]. وقال براد ادامز، مدير مكتب آسيا لمنظمة حقوق الإنسان إن «الحملة العالمية ضد الإرهاب أعطت بكين الذريعة المثالية لممارسة إجراءات أشد صرامة عن ذي قبل في زينجيانغ (شمال غرب الصين)»، حيث يعيش ثمانية ملايين من شعب الويغور (الناطق باللغة التركية)[148]. في الهند، سهل تشريع مكافحة الإرهاب ممارسة الانتهاكات السياسية التعسفية ضد مجموعات الأقليات والمعارضين السياسيين[149]. وحتى الانتهاكات التي ارتكبت في يوغسلافيا السابقة جرى تبريرها (بأثر رجعي) باعتبارها «مناهضة للإرهاب». ومن المؤكد أن «الحرب على الإرهاب» قد شكلت تهديدا داهما لنظام مشرف في باكستان، خصوصا بسبب المعارضة للهجوم بقيادة الولايات المتحدة على أفغانستان المجاورة. لكن حصلت باكستان كتعويض على مبلغ 600 مليون دولار عدا ونقدا، إضافة إلى مساعدتها في إعادة جدولة الديون، ورفع العقوبات الأمريكية المفروضة سابقا بسبب تجارب الأسلحة النووية، وزيادة تأمين البرامج النووية الباكستانية، وحماية العالم النووي المارق عبد القدير خان من المحققين الأمريكيين[150]. وتمكن مشرف المستبد من تقديم نفسه كركيزة من ركائز الحرية.

في الفليبين، شجع اتهام المعارضين بالانتماء إلى «القاعدة» عمليات القمع[151]. وشمل ذلك تهديد وتخويف النقابات العمالية، حيث شكلت على ما يبدو الأهداف التي وجهت إليها الرئيسة غلوريا ارويو إدانتها، حيث وصفت أعضاءها بأنهم «أولئك الذين يروعون المصانع التي توفر فرص العمل»[152].

في كولومبيا، أتاحت الحرب على المخدرات لحملة مكافحة التمرد الوحشية نزع الشرعية عن الأعداء باعتبارهم «رجال حرب عصابات مرتبطين بتجارة المخدرات»، ويعتقد العديد من المراقبين الكولومبيين أن «الحرب (العالمية) على الإرهاب» شجعت

وغذت الانتهاكات التعسفية التي تمارس هناك. في حزيران / يونيو 2002، وضعت منظمة «القوات المسلحة الثورية الكولومبية» على قائمة الولايات المتحدة للمنظمات الإرهابية الأجنبية، واستهدفت بشكل مباشر من قبل «خطة كولومبيا» و«الحرب على الإرهاب». وشجعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر الولايات المتحدة على حلحلة القيود المفروضة على استخدام التمويل لمواجهة رجال حرب العصابات (مقابل عمليات مكافحة المخدرات)، كما شجعت الولايات المتحدة عموما الحكومة الكولومبية على تشديد موقفها ضد متمردي «القوات المسلحة الثورية الكولومبية» و«جيش التحرير الوطني»(153). والمهم ظهور مساحة متزايدة للمناورة بالنسبة للميليشيات الكولومبية شبه العسكرية، التي ارتكبت العديد من انتهاكات حقوق الإنسان الخطيرة، وحافظت غالبا على علاقات وثيقة مع الوحدات العسكرية الكولومبية(154).

جرى إسكات الانتقادات الغربية للأعمال الوحشية الروسية في الشيشان بشكل شائن ومخز(155). صحيح أن المقاتلين العرب متورطون في الحرب هناك منذ عام 1998، إلا أن «روسيا تبالغ في تضخم الصلات بين المتمردين الشيشان و ـ القاعدة ـ للحصول على مباركة أمريكا لإرهاب الدولة التي تمارسه»، حسبما لاحظ مايكل مان (2003)(156). ولقد رأينا كيف يكون للإرهابيين ـ مثل المتمردين في الحروب الأهلية ـ مصلحة في تضخيم ما تحظى به شبكات التمرد / الإرهاب من انتشار وتلاحم وتماسك: مثل هذه المبالغات قد يروجها أيضا التحالف الذي يبتكر «مكافحة الإرهاب»، الذي قد يجد هذا التهديد نافعا ومفيدا من عدة جوانب مهمة. في شباط / فبراير 2002، وافقت الولايات المتحدة على وضع ثلاث جماعات من المتمردين الشيشان على اللائحة السوداء، وهو مطلب روسي قديم العهد(157).

شكلت اوزبكستان، التي وفرت قاعدة للعمليات في أفغانستان وتلقت كميات كبيرة من المعونات الأمريكية، شريكا مريبا آخر في «الحرب على الإرهاب». ففي

أيار/ مايو 2003، كان في السجون الأوزبكية حوالي 6500 معتقل سياسي. ولم تعترض الولايات المتحدة أو تحتج[158]. وفي أيار/ مايو 2005، قتل الجنود الحكوميون 500متظاهر[159]. أما قمع الحركة الإسلامية في اوزبكستان ـ وهي حركة ضعيفة يعتقد بأنها أصيبت بالشلل نتيجة عمليات قوات التحالف في أفغانستان ـ فقد استخدم كذريعة لتسويغ قمع الإسلاميين عموما. صحيح أن بعض الإصلاحات قد طبقت ـ مثلا: السماح بإنشاء جماعة لحقوق الإنسان وإصدار صحيفة جديدة ـ إلا أن الممثل المحلي لمنظمة حقوق الإنسان قال إنها أساسا مجرد واجهة للحصول على التمويلات العسكرية من خلال القوانين الأخلاقية للكونغرس الأمريكي [160]. وشدد جهاز الاستخبارات الأوزبكي إجراءاته الصارمة ضد «حزب التحرير»، وهو جماعة إسلامية (حظرت لاحقا في بريطانيا من قبل توني بلير). كما استُهدفت جماعة إسلامية أخرى («الأكرمية») التي تقوم أيديولوجيتها على الاقتصاد لا على العقيدة الدينية الدوغمائية على ما يبدو[161]. واستخدم وادي فيرغانا في اوزبكستان كقاعدة لجماعة إسلامية أخرى، «الحركة الإسلامية في اوزبكستان» التي تقول الولايات المتحدة وبريطانيا إن لها صلات مع «القاعدة». والمهم أن التصويت الديمقراطي يمكن أن يؤدي إلى فوز حكومة إسلامية لا ترضى عنها الولايات المتحدة[162]. مثلما حدث في الجزائر والعراق.

بعض الوظائف المحلية لـ«الحرب على الإرهاب» مراوغة وخفية، لكنها ليست أقل ضررا. ففي حين أن بعض البلدان المتورطة في زعزعة استقرار جمهورية الكونغو الديمقراطية (خصوصا رواندا وأوغندا) لم تشارك مباشرة في «الحرب على الإرهاب»، إلا أنها استفادت من تضمينها (من قبل الحكومة البريطانية على الأقل) في معسكر «قوى الخير» في أفريقيا. فأكبر حليف وداعم لرواندا هو بريطانيا، التي قدمت لها معونات مالية كبيرة، وبقيت صامتة مدة طويلة على الانتهاكات التي ترتكبها (أو نادرا ما أشارت إليها). وتشكل أوغندا ورواندا اللتان تحابيهما الولايات المتحدة

وبريطانيا، جزءا من «تحالف الدول الراغبة» المتهالك الذي جند لدعم الحرب على العراق عام 2003 [163] ولربما نرى هنا فكرتين تجتمعان معا في توليفة خطرة: أولا، الحرب ضد الإرهاب، التي تشمل (بعد إعادة ابتكار خطاب الحرب الباردة) تحديد وتقرير من معنا ومن ضدنا: ثانيا، ما يبدو أنه أسلوب متنام لتركيز المعونات على البلدان التي تعتبر أنها تدار من قبل حكومات صالحة (على الأقل ضمن حدودها).

تصاحب أي حرب الحاجة إلى كسب الحلفاء مع ما يتضمن ذلك من التساهل مع الانتهاكات التي يرتكبها هؤلاء الحلفاء. فالحرب ضد الشيوعية منحت الحكومة السودانية مثلا فرصة ثمينة لشن حرب وحشية في الجنوب سببت مجاعة هناك. وبعد تفاقم الأعمال العدائية في التسعينيات، حدث تقارب جزئي بين واشنطن والخرطوم، بمصاحبة تعاون استخباراتي متزايد بينهما من أجل «الحرب على الإرهاب» (حيث أظهرت واشنطن اهتماما متجددا بنفط السودان). أما التأثيرات فكانت غامضة: فمن ناحية، شجع الانفراج الجزئي في العلاقات الحكومة السودانية على الإذعان لإقامة السلام في الجنوب: ومن ناحية أخرى، يبدو أن التقارب قد زاد ضعف الموقف الدولي فيما يتعلق بالانتهاكات التي ترعاها الحكومة في دارفور بغرب السودان. وفوق ذلك كله، قال الأمين العام لمنظمة العفو الدولية، ايرين خان (أيار/مايو 2005) أن الولايات المتحدة لم تتمكن من جمع التأييد اللازم في أفريقيا للتدخل العسكري (في السودان مثلا)، ويعود جزء من السبب على الأقل لأنها أنفقت «عملتها الأخلاقية» في العراق[164] فإبلاغ الحكومة السودانية بوجوب الالتزام بحقوق الإنسان لم يعد سهلا بعد ما حصل في «أبو غريب».

ملاحظات ختامية

بالرغم مما قيل لنا مرارا إن الحادي عشر من سبتمبر كان «يوما غير وجه العالم»، إلا أن معظمنا يعرف بأن الإرهاب المتطرف لم يبتكر أو يخترع في ذلك

اليوم. هنالك دروس مهمة نتعلمها من محاولات مواجهة استخدام الإرهاب ضمن مدى الحروب الأهلية، ويمكن لمكافحة الإرهاب أن تستخلص دروسا مهمة من محاربة التمرد. ومن الدروس الحاسمة في أهميتها أن انتشار الأسلحة ومشاعر الغضب المتجذرة على الإقصاء السياسي والتهميش الاقتصادي قد أجج الصراعات التي لا يمكن فهمها أو التصدي لها بشكل كاف باعتبارها معركة بين فريقين: ناهيك عن كونها معركة بين الخير والشر. الدرس الثاني هو أن أنماط العنف والإرهاب قد تشكلت إلى حد بعيد بواسطة طبيعة الاستجابة لها: إذ اجتذبت محاربة التمرد غالبا مجندين جددا إلى تمرد سيكون ضعيفا لولاها. والأهم أن من المتعذر التعامل بشكل منطقي مع المتمردين ـ مثلهم مثل الإرهابيين ـ باعتبارهم جماعة مميزة ومحددة يمكن القضاء عليها ـ بالقوة المادية ـ أي بواسطة العنف. والتركيز حصريا على بعض الجماعات المؤبلسة ـ مهما كانت شريرة وعنيفة ـ يوجد حيزا يسمح بارتكاب الانتهاكات من قبل مختلف الأطراف المعنية التي تزعم أنها تعارض أو تواجه هذه الجماعة.

في سيراليون، أعاق العنف الموجه ضد المدنيين من قبل جنود الحكومة الجهود المبذولة لكسب القلوب والعقول في الحرب ضد «الجبهة المتحدة الثورية». أما مفهمة الحرب في سيراليون بوصفها صراعا بين فريقين (أحدهما يمثل الخير والآخر الشر) فهي عملية ضارة ومؤذية جدا. فتعريف «الجبهة» بأنها مصدر للشرور كافة ـ وهو موقف ليس شائعا داخل سيراليون فقط بل لدى الدول الأجنبية المانحة للمساعدات أيضا ـ يوجد فعلا فسحة للإرهاب: أولا، يشتت الانتباه عن الشكاوى والمظالم الأساسية التي أججت الإرهاب في البلد: ثانيا، يشتت الانتباه عن الانتهاكات التي ترتكبها قوات مكافحة التمرد على اختلاف أنواعها. هناك مشكلات مشابهة تحيط بنسبة الإرهاب إلى «شر» أو عزوه إلى «إيديولوجيا شريرة».

في نهاية المطاف، وبغض النظر هل ينطبق ذلك على الصراعات المنسية في أفريقيا، أو أمريكا الوسطى، أو هجمات الحادي عشر من سبتمبر التي شدت انتباه العالم، لا يمكن للأمن الدائم أن يأتي إلا من معالجة أسباب الغضب الأساسية لا من تعميقها. وعلى المدى الطويل، يتضمن ذلك تطوير وتعزيز الديمقراطية بالوسائل السلمية. أما على المدى القصير، فهو يقتضي الامتناع عن جعل الأمور أكثر سوءا من خلال العنف ومكافحة الإرهاب بأسلوب عشوائي. والمبدأ الطبي الأساسي يجب تطبيقه دون تأخير على مكافحة الإرهاب: أولا وقبل كل شيء «لا تلحق الأذى بالمريض».

في حين أن فكرة «الحرب على الإرهاب» تشرعن العنف تحت اسم الحرب، إلا أن المعتقلين من «الطرف الآخر» حرموا من معاملتهم كـ«أسرى حرب». وبالتالي نحن مطالبون بأن نعتقد بأنها حرب ولا حرب في آن معا. وهذا يعكس الخطاب الرسمي الشيزوفراني في العديد من الحروب الأهلية حيث تعمل الدولة عادة على نزع الشرعية عن عنف المتمردين باعتباره «إجراميا»[165]، بينما تشرعن عنفها باعتباره «حربا» (وتفضل عادة الرد بواسطة الجيش لا الشرطة). في الوقت ذاته، تبنى الإرهابيون فكرة أن هذه هي حرب بالفعل واستخدموها، مثلا، لشرعنة الهجمات على المتعاقدين المدنيين في العراق، وغيرهم من المدنيين في شتى أرجاء العالم.

تحول ما يسمى بـ«الحرب على الإرهاب» بسرعة إلى نظام وخيم وبيل. فقد جعلتنا أنظمة حكم استبدادية، مثل نظامي صدام حسين وسلوبودان ميلوسيفيتش، نعرف أهمية ضمان التواطؤ في العنف. إذ عمل كلا الرجلين على تعزيز وتقوية سلطته عبر تشجيع المتواطئين على التورط في الفساد والجرائم المرتكبة. بكلمات أخرى، تعزز الولاء والتواطؤ بالجريمة. ولربما تساعد مشاركة الزعماء المحليين في «الحرب على الإرهاب» في إسكات العديد من الانتقادات الموجهة إلى مبادرات

الولايات المتحدة في هذه «الحرب»، أو أي تحفظات لديهم حول الإمبريالية الأمريكية. وفي الوقت ذاته، أحجم المسؤولون الأمريكيون أحيانا عن انتقاد الاعتقالات التعسفية في مختلف بلدان العالم، حيث لا يمكن أن تقارن بما يحدث في المعتقلات الأمريكية[166].

ثمة سؤال ينبثق من الفصلين الثاني والثالث: إذا كانت لـ«الحرب على الإرهاب» (وأساليبها التكتيكية ذات النتائج العكسية المتوقعة) وظائف مهمة، ألا تقوض الطبيعة ذات النتائج العكسية لهذه التكتيكات شرعية من ابتدعوها؟ بكلمات أخرى، ألا يعتبر الفشل المتواصل مشكلة؟[167].

يبدو أن الجواب هو: ليس بالضرورة. فالمكافآت والجوائز قد لا تكون معتمدة على تعريف صحيح للتهديد: فالتظاهر بإلحاق الهزيمة بعدو مشترك قد يكون أكثر أهمية من هزيمته فعلا. ومثلما هي الحال مع المعونات الإنسانية (حيث امتدح الفشل في إيتاء المعونة أحيانا لأنه يمنع «الاتكالية على المعونات»، أو حتى بوصفه عاملا يشجع على الهجرة والتحديث)[168]، جرى غالبا التكيف مع «الفشل» في «الحرب على الإرهاب» من خلال إعادة تحديد الأهداف (وعبر تحديدها بصورة مبهمة أصلا). وفي حين أن ذلك يلحق الضرر بالمصداقية الدولية للولايات المتحدة على وجه الخصوص[169]، إلا أن بمقدوره دعم صورة النجاح المتداعية، خصوصا داخل الولايات المتحدة. فحين ثبتت قدرة ابن لادن على المراوغة والهرب، قال بوش إن جزءا من استراتيجيته يتمثل في إبقاء ابن لادن «طريدا وهاربا»، بحيث يصعب عليه وضع «الخطط التآمرية»[170]. وفي الحادي عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، ذكر مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت أن الأهداف في أفغانستان هي: أولا، تحطيم الطالبان: ثانيا، قتل ابن لادن أو اعتقاله أو إبقاؤه «هاربا طريدا»[171]. وعلى العموم، انحسر التركيز على ابن لادن في خطاب الحكومة الأمريكية مع

تمجيد إسقاط نظام الطالبان، ثم نظام صدام حسين. ومن جانبه، شدد توني بلير على أن من أسباب الهجوم على أفغانستان السيطرة على تجارة المخدرات. لكن إنتاج الأفيون ازدهر منذ سقوط الطالبان[172]، حيث اغتنى أمراء الحرب (مدعومين من الغرب غالبا) من الموارد المالية لازدهار تجارة المخدرات[173]. وفي الواقع، نجح الطالبان في تقليص إنتاج الأفيون إلى حد كبير، لتشجيع إنتاج الغذاء ومواجهة فصول الجفاف. ومثلما هو متوقع، غاب عن النظر الهدف الغربي المعلن المتمثل في السيطرة على تجارة المخدرات. في بعض الأحيان جرى التشديد على قمع الطالبان للمرأة كذريعة لتبرير التدخل العسكري، لكن العنف الجنسي ظل منتشرا على نطاق واسع ولم نعد نسمع الكثير عنه الآن[174]. وحين لم يتم العثور على أسلحة الدمار الشامل في العراق، أعيد مرارا تحديد الهدف من التدخل ليصبح تحرير الشعب العراقي. في وقت مبكر، حدد رمسفيلد وتيرة تغيير الأهداف: فبعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، سئل عما يشكل النصر في الحرب على الإرهاب، وأجاب إن النصر هو إقناع الشعب الأمريكي بأن الحرب لن «تنتهي في غضون شهر أو سنة أو حتى خمس سنين»[175]. فالانتصار، بكلمات أخرى، ليس في النصر: وإذا كان النصر في الحرب على الإرهاب مستبعدا (نظرا للتأثيرات ذات النتائج العكسية لمكافحة الإرهاب خصوصا)، فإن تعريف الانتصار يمكن تغييره بأسلوب متقن.

إعادة تعريف المدنيين ليصبحوا أعداء هو جزء من السبب الذي يجعل مكافحة الإرهاب الخرقاء تفرز هذا القدر من النتائج العكسية. لكن ذلك يساعد أيضا في تقديم «صورة» للنجاح. قال أحد الجنود البريطانيين المتمركزين في أفغانستان: «إذا حملت بندقية، مثلما يفعل نصف الرجال الأفغان، وسددتها نحو جنود قوات التحالف الخاصة، فسوف تُقتل بسرعة حتما، وما إن تقتل حتى تصبح من ـ القاعدة ـ الطالبان بالتعريف»[176]. هنالك أدلة دامغة تثبت أن الضباط الأمريكيين في العراق تلقوا المكافآت والأوسمة لأنهم خاضوا المعارك لا لأنهم تحلوا بضبط النفس

وحاولوا كسب قلوب وعقول العراقيين. قال الرقيب في الجيش الأمريكي كاميلو ميجا، الذي قاد جماعته في العديد من المهمات الخطرة في العراق: «لديك زمرة من الضباط العاملين في الجيش منذ عشرين أو خمسة وعشرين عاما لكن ليس لديهم خبرة قتالية. ولذلك بحثوا عن المعارك لكي تذكر في سيرتهم المهنية. لم يقل أي قائد منهم: ـ أنا أقوم بذلك لأحصل على أوسمة ـ، إلا أن الأمر واضح لا يحتاج إلى بيان». يرفض رئيس ميجا التهمة، لكن «البنتاغون» يعترف بأن الروح المعنوية متدنية إلى درجة الخطر في العراق، حيث يعتقد ثلاثة أرباع الجنود بأن رؤساءهم من الضباط لا يأبهون لأمرهم(177).

مرة أخرى نؤكد أن بعض هذه الديناميات مألوفة في الحروب الأخرى. في سيراليون، يعتبر المدنيون أحيانا متمردين حين يحاول الجنود إثبات أنهم أدوا عملاً جيداً. شمل ذلك قتل الأطفال أيضا(178). في فيتنام، قال مايكل برنهاردت، وهو جندي أمريكي حاول مقاومة الفظائع المرتكبة هناك بما فيها مذبحة «ماي لاي» الشهيرة، إنه في كل مواجهة مع الفيتناميين عليك أن تقرر:

> هل يعتبر الشخص تهديدا لأمنك وأمن وحدتك، أم لا يشكل أي تهديد. قد يصبح تهديدا وتقرر قتله وهذا هو الصواب.. أو أنه لا يمثل تهديدا، ويمكنك قتله أيضا. المشكلة تكمن في أن النتيجة تبدو متماثلة والعمل صائبا. وليس ثمة فرق على الإطلاق. أنت بحاجة لتسجيل نقاط، الجندي بحاجة لتسجيل نقاط، وكذلك الضابط، وقائد الكتيبة، وقادة الفرقة. فما الذي سيحدث غير ذلك؟(179).

في بعض الأحيان، يبدو أن الجميع يريدون حصة من كعكة «الحرب على الإرهاب». حتى الشركات المصنعة للأقراص المدمجة اتهمت القرصنة ـ بدون دليل دامغ ـ بأنها تمول الإرهابيين(180). في بريطانيا، حاولت حكومة بلير «ربط» أجندتها

المحلية المتعلقة بالاضطرابات مع «الحرب على الإرهاب»: ومثلما لاحظ الصحفي سايمون جنكنز في «التايمز»: «يستخدم الأمن بأسلوب متقن لربط عالم ـ القاعدة ـ، والتفجيرات، وقطع الرؤوس، مع سكير لا يؤذي أحدا يترنح في أحد شوارع الحي»[181]. إن من أكثر المهمات إلحاحا اليوم التيقظ لأنواع الأجندات المتنوعة التي تحمل على عربة «مكافحة الإرهاب». والعديد منها أشد خطرا من معاقبة القراصنة أو السكارى، والعديد منها يؤجج لهيب الإرهاب ذاته.



4
مراوغة الأعداء والحاجة إلى اليقين

بالرغم من أن الأساليب التكتيكية المستخدمة حاليا في «الحرب على الإرهاب» تؤجج مشاعر الغضب التي تسعّر بدورها الإرهاب، إلا أنها قدمت وعدا (زائفا) باليقين والأمان في عالم يزداد تخويفا وترويعا باطراد. لقد تصرف بوش وبلير، عند شن الهجمات على البلدان الأخرى أو عند التعامل مع التمرد داخل أفغانستان والعراق، على أساس وجود مجموعة متميزة ومحددة من الإرهابيين والدول الداعمة لهم بحيث يمكن القضاء عليها بصورة مفيدة ومشروعة. وفي حين أن هذه المقاربة أفرزت نتائج عكسية فيما يتعلق بتقليص خطر الإرهاب، إلا أنها فوق كل شيء تمتعت بميزة تحديد عدو في ظروف يعتبر فيها التهديد متنوعا ومنتشرا وغامضا.

أصر بوش وصحبه على الترويج لليقين باعتباره في حد ذاته مروجا للأمان. على سبيل المثال، قال بوش في أول مناظرة له سبقت انتخابات عام 2004) «عرف الناس أين أقف. وأولئك الذين يسمعون الآن يعرفون ما أؤمن به، والطريقة المثلى للحفاظ على السلام»[1]. وفي الحملة الانتخابية الرئاسية لعام 2004، تكرر ـ بالمقابل ـ تصوير منافس بوش، جون كيري، كشخص متقلب ومشوش، وبالتالي فهو مصدر للخطر. وعلاوة على الإصرار على الصلة بين اليقين والأمان، ربما يكمن أيضا اهتمام (ثانوي) باليقين باعتباره جزءا من الازدهار. في تشرين الثاني/ نوفمبر 2002، وجد بوش أن خطط إجراء مزيد من التخفيضات الضريبية يصطدم بمشكلة الركود والاقتصاد المحاصر بعدم اليقين في خضم الحديث كله عن الحرب على

العراق: فأبلغ مستشاريه قائلا: «لن نتخلص من حالة عدم اليقين حتى نتخلص من صدام حسين»[2] وفي خطاب لحشد التأييد أمام البرلمان البريطاني في الثامن عشر من آذار/ مارس 2003 قبيل الحرب على العراق، لاحظ بلير أن «العالم يزداد اعتمادا على بعضه بعضا. فالاقتصادات وأسواق الأسهم ترتفع وتنخفض معا، والثقة مفتاح الازدهار. أما انعدام الأمن فينتشر كالوباء. لذلك، يتلهف الناس على الاستقرار والنظام»[3].

بالنسبة لمعظم الأمريكيين، يبدو أن الشعور بالضعف والانكشاف أمام الخطر قد تفاقم نتيجة الدرجة المرتفعة من المناعة ضد الحرب التي تمتعوا بها سابقا. إذ لم تقع حرب على التراب الأمريكي منذ الحرب الأهلية التي وضعت أوزارها عام 1865 (تعرضت الولايات المتحدة مرة واحدة لهجوم مباشر شنته القوات اليابانية على بيرل هاربر في هاواي في كانون الأول/ ديسمبر 1941، مما سبب صدمة عميقة عجلت بمشاركة الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، وأدت في نهاية المطاف إلى قصف مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين بالسلاح الذري في آب/ أغسطس 1945)[4] وفي حين أن الخوف كان شديدا بالتأكيد خلال الحرب الباردة، إلا أن الأزمة المستعصية مع الاتحاد السوفييتي تمثلت بالضبط في ابتعاد الطرفين كليهما عن المواجهة الفعلية. وجرى خوض حروب تلك الفترة بالوكالة: أما الخسائر والضحايا فقد صدرت عمليا إلى البلدان النامية. الاستثناء الجزئي لتلك القاعدة تمثل في حرب فيتنام، التي قتل فيها عدد كبير من الأمريكيين. لكن هذا عزز على ما يبدو الشعور بأن حياة الأمريكيين مقدسة ولا يجوز المساس بها. في أوائل ثمانينيات القرن العشرين، حين كنت أعيش في تكساس (حيث سيصبح جورج بوش الابن حاكما للولاية)، أذكر شعورا غريبا بالمناعة والحصانة ملأ كياني، شعوراً بأنك بعيد جداً عن مشكلات بقية العالم (وباقي أمريكا). في هذه البيئة كان لمبادرة «حرب النجوم» الطائشة التي أعلنتها إدارة ريغان (لصد الصواريخ القادمة في أعالي

السماء) رنين غريب ومعقول ـ كأنما الصواريخ ليست سوى كرات بيسبول يمكن صدها بسرعة بواسطة مضرب ضخم يحمله رئيس/ نجم سينمائي سابق.

في أحد أيام أيلول/ سبتمبر 2001 تحطم هذا الإحساس المتراكم بالمناعة بصورة دراماتيكية، ولم تفلح الإجراءات الرسمية اللاحقة (مثل الإنذارات المختلفة الألوان المحذرة من الهجمات الإرهابية) إلا في تعميق هذا الإحساس بالخوف. بعد شهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر نشرت مجلة «تايم» مقالة عبرت بوضوح عن مناخ الخوف الجديد حين قالت: «يجد كل شخص نفسه عالقا في الجبهة»[5]. علاوة على ذلك، كان هناك شعور عميق بفقد حس الاتجاه. فالحفاظ على السلم خلال الحرب الباردة كان يعتمد غالبا على مبدأ الردع: كل من يفكر بشن الحرب عليه أن يحسب حساب تهديد رد انتقامي واسع النطاق. كما أن مبدأ الردع دمج في تطبيق القانون على المستوى المحلي، حيث اعتبرت حيازة الأسلحة النارية، والاعتقال والحبس على نطاق واسع، والاستخدام المتكرر لعقوبة الإعدام، بمثابة رادع للمجرمين في الولايات المتحدة[6]. لكن الردع لن يعمل مع الإرهابيين الانتحاريين. ويعود جزء من السبب إلى تمتع الإرهابيين بالقدرة على المراوغة والتملص والإفلات من العقاب. وكثيرا ما يندمج الإرهابي، نتيجة مقدرته الكبيرة على الحركة وعدم القدرة على تمييزه، في المجتمع المضيف[7]. ولربما يعتمد في بقائه على عالم الجريمة السري الذي يتكيف باستمرار مع الترصد ومحاولة القمع. وفي أحيان كثيرة، يراوغ الإرهابي حتى عند الموت، حيث كثيرا ما ينجو من التحقيق أو المساءلة أو العقاب لأنه ينتحر عند تنفيذ جريمته. الأمر الذي يمثل مشكلة أخرى بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بمبدأ الردع: فلربما يرغب الإرهابي فعلا بالموت. فهل يستطيع أحد، مثلا، أن يظهر مثل هذا الفخر عند صدور حكم الإعدام كما فعل منفذ تفجيرات بالي، أمروزي بن نورهايسم، ميكانيكي السيارات المبتسم دائما والقادم من جاوا الشرقية؟ في أيلول/ سبتمبر 2002، ذكر بوش ذاته في إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة:

إن المفاهيم التقليدية للردع لن تنجح ضد عدو إرهابي تتمثل أساليبه التكتيكية المعلنة في التدمير العشوائي واستهداف الأبرياء: أولئك الذين يدعون جنودا يسعون للاستشهاد، وتتجسد أفضل حماية ممكنة لهم في كونهم لا ينتمون إلى أي دولة[8].

يبدو أن إحدى القواعد الأبدية للحرب هي: حين يكون العدو خفيا مراوغا، يجب العثور على أعداء يسهل الوصول إليهم. خلال الحرب الأهلية في ليبيريا، قال الأسقف ناه ديكسون (من الكنيسة العنصرانية) عن الجنود الحكوميين وما يرتكبونه من انتهاكات: «لأنهم غير قادرين على مواجهة العدو على أرض المعركة، يهاجمون المدنيين الأبرياء.. يقتلونهم بشبهة تحريض وإخفاء المتمردين»[9]. مشكلة مشابهة ظهرت في سيراليون[10]. ويبدو أن العقاب سيجد ضحاياه على الدوام، وسيجد تفسير المعاناة موضوعه. فبعد مدة وجيزة من الحادي عشر من سبتمبر أعلن بوش أن «أحدا ما سيدفع الثمن»[11]. وأبلغ الملك الأردني عبد الله الثاني: «هناك شهوة لسفك الدماء، لكننا لن نتركها توجه ردة فعلنا.. نحن نتمتع بالثبات ووضوح الرؤية والصبر، لكننا سوف نبدأ قريبا بإنزال العقاب الشديد»[12]. وكما لاحظ رينيه جيرارد: «حين لا يجد العنف ما يهدئ حدته، يسعى إلى / ويجد دائما ضحية بديلة. فالمخلوق الذي أجج الغضب يستبدل فجأة بآخر، يتم اختياره بسبب ضعفه وعدم مناعته وسهولة الوصول إليه»[13]. آلية مشابهة شدد عليها ـ في سياق مختلف ـ الطبيب النفساني الأمريكي جيمس غيليغان، حين أظهر كيف ينفس المجرمون العنيفون عن غيظهم وغضبهم على ما أصابهم من إذلال في الماضي في أولئك الذين جعلهم حظهم العاثر قريبين منهم وأيقظوا مشاعر الخزي والإذلال السابقة (سوف نناقش هذا المنظور بصورة أشمل في الفصل التاسع).

بعد الحادي عشر من سبتمبر، ثبت أن أسامة بن لادن، الذي شاع اعتباره مهندس أحداث سبتمبر الفظيعة، مراوغ وقادر على الهرب والتخفي. وعززت العادة

القديمة ذاتها المتمثلة في إطلاق التهديدات ضد الدول فكرة تحديد هدف يمكن الوصول إليه. نائب الرئيس ديك تشيني كشف شيئا من «المنطق» الأساسي حين قال: «نصل إلى الدول تبعا للمدى الذي نحدد فيه مهمتنا عموما، بما فيها الدول التي تدعم الإرهاب. ومن السهل العثور عليها مقارنة بالعثور على ابن لادن»[14]. لم يكن الاندفاع المتهور إلى الحرب مع أفغانستان أمرا مبررا. فمثلما لاحظنا آنفا، اتخذت باكستان والطالبان خطوات وإجراءات بعد الحادي عشر من سبتمبر للسماح كما قيل بإخراج ابن لادن من أفغانستان وتسليمه: وكان من المحتمل بالطبع ألا ينجح ذلك، لكن تحديد وعد نهائي لتسليمه كان أمرا ممكنا. على أي حال، تدرب الخاطفون التسعة عشر (ولم يكن بينهم أي أفغاني) على أداء مهمتهم في أوروبا والولايات المتحدة لا في أفغانستان[15]. لكن القادة الرئيسيين ما كانوا ليتخلوا كما يبدو عن ذلك الحل المجرب والموثوق (بشكل غريب): الحرب. إذ يجب تحديد أعداء، واستعراض قوة الرد العسكري.

حين كان صناع السياسة يخططون للحرب في أفغانستان، بدا البلد المستهدف مغايرا بشكل مرض للإرهابيين. ففي حين أن هؤلاء مراوغون ومتخفون وغائبون عن البصر، فإن أفغانستان بلد معروف وموجود على الخارطة: عدو محدد لا يستطيع التحرك والتخفي. الشيء ذاته يصدق على العراق الذي عد هدفا مرغوبا أكثر: لأن رمسفيلد، كما يتذكر كبير خبراء مكافحة الإرهاب في الولايات المتحدة ريتشارد كلارك، اشتكى في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر من عدم وجود أهداف تستحق القصف في أفغانستان، وأن على الإدارة التفكير بقصف العراق، الذي يمتلك برأيه أهدافا أفضل[16].

لكن الوضع أصبح معكوسا مرة أخرى بالنسبة للجنود الأمريكيين وحلفائهم الذين يقاتلون في هذين البلدين، وأصبح العدو مجددا مراوغا ومتخفيا ومريعا

يصعب العثور عليه ومواجهته. لقد اتخذ العنف في أفغانستان والعراق شكل حرب أهلية بين متمردين وقوات مدعومة من الغرب، ومثلما هي الحال في العديد من الحروب الأهلية / الداخلية، سرعان ما يسعى الجنود إلى أهداف يسهل الوصول إليها وتحديدها. وفي الحقيقة، فإن من السهل جدا أن يتوسع استهداف العدو ليشمل قتل المدنيين. علق الرقيب جون ميدوز على تجربته في العراق فقال:

لا يمكنك التمييز بين من يحاول قتلك ومن لا يحاول. وكأنما الطريقة الوحيدة للخروج من هذه الورطة هي التركيز على قتل أكبر عدد ممكن من الناس، الذين تعلم أنهم يحاولون قتلك. يجب قتلهم أولا ثم العودة إلى أرض الوطن[17].

أما جندي مشاة البحرية مايكل هوفمان فكتب يقول عن تجربته في العراق: «حين يكون عدوك غامضا، يصبح كل شخص عدوك»[18]. ولربما تعزز أسلوب العمل هذا بغياب الدليل الذي يثبت صلات العراق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر. يضيف هوفمان:

«الحرب من أجل النفط» تعبير يعرفه الجنود في العراق جيداً. فهذا هو السبب الوحيد الباقي لهذه الحرب، الأمر الذي يترك للذين يقاتلون على الأرض سببا واحدا للقتال ـ العودة إلى الوطن أحياء. وحين يهيمن هذا النوع من اليأس، يسهل وضع من تواجههم في مرتبة دون البشر، وارتكاب أعمال فظيعة بحقهم.

فاقمت مشكلة الاتصال صعوبة تمييز المقاتلين عن غير المقاتلين[19]، وكذلك حقيقة عدم ارتداء المتمردين زيا موحدا[20]. وفي هذه الحالة، لم يثبت وجود هدف أكثر إغراء وسهولة في الوصول إليه من الأسرى، والعديد منهم ـ في أفغانستان والعراق ـ لا علاقة لهم بالتمرد في البلدين[21]

عندما نأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل الانعكاسية لبوش / بلير والجنود على الأرض، من المفيد أن نتذكر موقف الجنود الأمريكيين الذين واجهوا عدوهم المراوغ في فيتنام: «الفيتكونغ»* الذين برعوا في استخدام الغابات والمدنيين الفيتناميين كغطاء لهم. الجندي السابق غريغ اولسن قال للكاتبة سوزان فالودي: «كنا نمشي كثيراً في الأدغال، لكننا لم نواجه ولو مرة واحدة حشدا من الأعداء يمكن رؤيته». ومعظم الخسائر البشرية التي لحقت بفرقة اولسن نتجت عن الشراك المنصوبة والألغام الأرضية. أما الملازم في الجيش الأمريكي وليام كالي فقد لعب دورا مفتاحيا في مذبحة «ماي لاي» الشهيرة التي ارتكبها أفراد من سرية «تشارلي» («فرقة أميريكال»). ويبدو أن الأعمال الوحشية التي ارتكبها كالي انبثقت في جزء منها من محاولاته «حل» مشكلة «الفيتكونغ» القادرين على المراوغة والتخفي دائماً وأبداً. كتب يقول فيما بعد:

> في النهاية اتضحت الفكرة أمامي ـ هؤلاء الناس هم جميعا من الفيتكونغ.. أدرك أن هناك أمريكيين يقولون: «وكيف تعرف حقا؟». حسنا، كنت هناك. اتخذت قرارات. كنت بحاجة إلى أجوبة، ولم أجد إجابة أكثر منطقية[22].

وأضاف:

> واجبي في منطقتنا كلها العثور على الفيتكونغ، ومواجهتهم، وتدميرهم. وجدت آنذاك الفيتكونغ. الناس كلهم من الفيتكونغ. الشيوخ والأطفال والرضع كانوا جميعا من الفيتكونغ أو سيكونون منهم بخلال ثلاث سنين. أعتقد أن داخل نساء الفيتكونغ الآن آلاف من الفيتكونغ الصغار[23].

ألقى كالي رضيعا فيتناميا (عمره عامان) في خندق للري حيث كان المدنيون يقتلون بالرصاص. وعلقت سوزان فالودي بما تتمتع به من وعي وفطنة في كتابها

«القسوة»: «لم يكن قتل المدنيين مجرد نوبة هياج عنيف وهمجي في عالم خرج عن السيطرة فقط: بل كان أيضا محاولة لإعادة فرض إطار متوقع، بغض النظر عن سخف مقاسه.. فالرجال سيؤدون مهمتهم بأي طريقة كانت»[24]. من العدل الإشارة إلى أن بوش وبلير بذلا بعض الجهد لتقليص الخسائر في صفوف المدنيين إلى الحد الأقصى. لكن حتى في هذه الحالة، فإن الطبيعة العشوائية لأهدافهما المختارة ـ علاوة على ميل العنف إلى التوسع من استهداف المتمردين إلى استهداف «المشتبه بانتمائهم إلى المتمردين»، إلى استهداف المدنيين ـ تردد صدى تصميم كالي وجماعته على «أداء مهمتهم بأي طريقة كانت». فالرغبة في العثور على عدو تأتي أولا: ومقاومة هذا المشروع الإمبراطوري الجديد ملأت الفراغ و«تفضلت» بتوفير واحد (لتحل مشكلة العثور على عدو).

إن تحديد العدو ـ حتى وإن كان الخيار عشوائيا ـ يوفر على ما يبدو الرضى المعرفي/الإدراكي الناتج عن اليقين في عصر غياب اليقين، مثلما أوضحت هانا ارندت في دراستها «أصول التوتاليتارية». في إحدى المناظرات التي سبقت انتخابات عام 2004 مع بوش، أدلى المرشح الرئاسي جون كيري بتعليق معبر: «يمكن أن تكون على يقين، لكن يمكن أيضا أن تكون على يقين وعلى خطأ». لكن هانا ارندت شددت على أنه بالنسبة للزعماء الراغبين باجتذاب الجماهير إلى صفهم، فإن المهم ليس الصواب، بل اليقين.

أشارت ارندت إلى أن جزءا من جاذبية الفاشية تمثل في حقيقة أن تحديد هوية عدو واضح المعالم ـ حتى لو كان مريعا ـ يظل أقل ترويعا وتشويشا من عالم بقي مصدر عدم الأمان فيه غامضا ومبهما. ففي ألمانيا، شمل المشروع الفاشي الإمساك بهؤلاء «الأعداء» الذين «عاشوا بيننا"، ووسمهم بالعلامات المميزة، وفصلهم وعزلهم، ثم إبادتهم في نهاية المطاف. ومن المهم في دلالته أن الدعاية (البروباغندا) النازية

حاولت أن تفاقم حالة الخوف من اليهود والعداء لهم من خلال استغلال حقيقة أن من الصعب ـ غالبا ـ تمييزهم عن غير اليهود. وبالتالي، فإن اللغة التي تجردهم من صفاتهم الإنسانية رُبطت، بقصد إحداث الصدمة والرعب، بإعلان أنهم يبدون مثلنا تماما![25] لم ترتبط جماعة بشكل أكثر عمقا مع الثقافة الألمانية من اليهود: ولم تحقق أي أقلية قومية نجاحا أعظم من نجاحهم في الاندماج. لكن ذلك لم ينقذهم. وفي الحقيقة فإن النازيين نجحوا في إعادة تعريف الاندماج ليصبح تلوثا وعدوى، والمضمون المستخلص اقتضى ضرورة القضاء على العامل الملوث أو المعدي.

اعتبر الإرهابيون أيضا بمثابة خطر مهدد نظرا لصعوبة تحديد هويتهم، وفصلهم، ووسمهم بعلامات مميزة. فهم يعيشون غالبا بين ظهرانينا. ولربما يكون الإرهابي منتسبا إلى الجامعة التي ندرس فيها أو مدرسة الطيران التي نتدرب فيها، أو يجلس في المقعد المجاور في قطار الأنفاق[26]. فكم يبلغ حجم إغراء العثور على طريقة لفصل وعزل الإرهابيين، وتحديد موقعهم على الخريطة، ومهاجمتهم! في الوقت ذاته، تحظى هذه الإزاحة من الإرهابيين المراوغين المتخفين إلى «دولة تدعمهم» بميزة (مشبوهة) تتمثل في المساعدة على إبقاء مبدأ الردع القديم حيا. ومثلما علق أستاذ القانون في جامعة هارفارد الن ديرشوفيتز:

الرغبة في الاستشهاد لا تلغي بالضرورة جميع احتمالات ردع العمل [الإرهابي] بالتهديد بالعقاب الشديد. بل تتطلب فقط توجيه هذا العقاب نحو شخص، أو شيء، غير الاستشهادي المحتمل نفسه ـ مثل القضية التي يدافع عنها أو أولئك الذين يقدمون الملاذ له[27].

بكلمات أخرى، مات الردع: عاش الردع! وبدلا من التفكير بحلول مبتكرة لمشكلة بازغة، عرّف صناع السياسة مشكلة الإرهاب بطريقة تستحضر الحل القديم: الحرب. التهديد الإرهابي شديد التعقيد، حيث يشكل تهديدات أمنية متنوعة وغير

ممركزة غالبا تنبثق من عمليات سياسية وأنساق ثقافية معقدة. وبالتالي فإن الأشد إغراء هو الوصول إلى نوع من اليقين المعرفي/الإدراكي عبر وضع كل شيء تحت عنوان متقن (لكن لا معنى له في نهاية المطاف) هو «الشر». ومن تمظهرات هذه النزعة للتجميع العشوائي فكرة بوش حول «محور الشر»، التي استحضرت إلى الأذهان دول المحور في الحرب العالمية الثانية (ألمانيا، إيطاليا، اليابان)، إضافة إلى التضمين الخاطئ بأن العراق وإيران وكوريا الشمالية تتعاون مع بعضها بعضا ((28)هذا الترتيب للأعداء الأشرار لا يتم بسلاسة على الدوام. فقد لاحظ رمسفيلد عام 2003 أن «هنالك أربعة بلدان لن تؤيدنا أبدا، أبدا، ـ كوبا، ليبيا، ألمانيا..». فسأل أحدهم: «والبلد الرابع؟». أجاب «نسيته»)[29]. ثم ظهر نموذج آخر لنزعة «التجميع العشوائي» في أول مناظرة لبوش قبل الانتخابات مع جون كيري، حين جمع الرئيس بين المهاجمين الذين نفذوا عملية الحادي عشر من سبتمبر والمقاومة العراقية مع الميليشيات التي هاجمت مدرسة بيسلان في روسيا:

> على أمتنا واجب وحيد هو هزيمة إيديولوجيا الكراهية هذه.. لن تكتفي هذه المجموعة من القتلة بالقتل هنا، بل تقتل الأطفال في روسيا، وسوف تهاجمنا دون رحمة في العراق آملة بزعزعة إرادتنا. علينا واجب هزيمة هذا العدو.. وأفضل طريقة لهزيمته.. هي البقاء دوما في موقع الهجوم.

على أحد المستويات، يبدو أن بوش يجمع أعداءه كلهم في سلة واحدة، ومن هنا جاءت الاستجابة المشوشة للحادي عشر من سبتمبر والفصل بين المشكلة والحل. وبالنسبة له، فإن الحالة العميقة من عدم اليقين والتشوش وفقدان الاتجاه التي انبثقت من الحادي عشر من سبتمبر تطلبت عملا إجرائيا. أما السؤال المفتاحي فلم يكن هل ظن أحد بأن العمل سينجح أم لا بل هل كان لدى أحد فكرة أفضل. فقد

اعتبر العمل جليلا بحد ذاته، وقال بوش أمام طلاب كلية «ويست بوينت» العسكرية في أواسط عام 2002: «في العالم الذي دخلناه، السبيل الوحيد للأمان هو سبيل الفعل»[30]. ولاحظ ريتشارد كلارك، «مرجعية» مكافحة الإرهاب في الحكومة الأمريكية، أن بوش شعر بالحاجة إلى أن «يفعل شيئا كبيراً» ليرد على الحادي عشر من سبتمبر[31]. وحين تذكر الشك الذي أبداه كولن باول، قال بوب ودوارد إن «باول أدرك أن حججه استجدت سؤالا: حسن، لكن ما الذي ستفعله؟ لقد عرف أن بوش رغب، بل أصر في الحقيقة على الحلول»[32]. ويبدو أنه كان سيؤدي مهمته بأي طريقة كانت.

انعدام الأمن الاقتصادي والبحث عن يقين

خلال الحملة الانتخابية المتكافئة تقريبا التي فاز فيها بوش عام 2004، بدا أن حالة انعدام الأمن الاقتصادي والاجتماعي المرتبطة بنظام بوش قد تسهم في فوز كيري. لكن لم يكسب كيري. ولربما قدمت هانا ارندت جزءا من مفتاح اللغز حين أشارت إلى أن حالة انعدام الأمن الاقتصادي والاجتماعي في حقبة سالفة لا تعمل على تغذية الوعي الراديكالي ودعم الاحتجاج المتطرف فقط، بل التلهف الأكثر استكانة على زعامة، ويقين، ونوع من «الاحترام» الذي يحصل عليه المرء من التماهي بشدة مع أمة أو جماعة اثنية قوية. ووفقا لارندت، خدم تشويه النازيين لسمعة اليهود عملية عزل وتطويع سلسلة من المخاوف المتعلقة بالحداثة وعدم الأمان الاقتصادي[33]. وعرض النازيون تفسيرا لحالة عدم الأمان الاقتصادي والهزيمة في الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى)، فاندفع عدد كبير من الناس العاديين لاعتناقه. وفي هذه الحالة، يبدو أن تعريف التهديد المسمى بالاسم قد ناب عن مخاوف أخرى من الأصعب تسمية أو تعيين مصادرها. ورأت ارندت في ألمانيا خلال فترة ما بين الحربين مزيدا من الأفراد «المتذررين» الذين واجهوا عالما لم يستطيعوا

السيطرة عليه أو توقع أحداثه، عالما تعرضت فيه مصادر الدخل واحترام الذات للتهديد. الأمر الذي أدى لانبثاق نوع من «المرارة المتمحورة حول الذات»[34]، حفزت فيه معاداة السامية احتمال استرجاع احترام الذات[35]. ولاحظت في معرض الإشارة إلى الكوارث الاقتصادية، مثل البطالة وخسارة المدخرات بسبب التضخم الهائل، «حقيقة أن المصير نفسه حل بجمهور من الأفراد بشكل متماثل/ رتيب لكن معنوي/ مجرد، لم تمنع حكمهم على أنفسهم فيما يتعلق بالفشل الفردي، وعلى العالم فيما يتعلق بحالات محددة من الظلم»[36]وأضافت:

> من وجهة نظر مؤسسة تعمل وفقا لمبدأ من لا ينضم يُقصى، ومن ليس معي فهو ضدي، فقد العالم عموما جميع ملامح التمايز ومعالم التعدد التي أصبحت على أية حال مربكة ومشوشة ويتعذر احتمالها بالنسبة لأناس فقدوا مكانهم ووجهتهم فيه[37].

يؤكد مارك يورغنزماير على نقطة مشابهة حين يقول: «إن العيش في ظل حالة الحرب هو عيش في عالم يعرف فيه الأفراد من هم، ولماذا يعانون، ومن الذي أذلهم»[38]. في ألمانيا، قوّت حالة انعدام الأمان الاقتصادي وما نتج عنها من مشاعر السخط عزيمةً وتصميم النخب على تحويل هذا الاستياء عن القضايا الاقتصادية باتجاه الأعداء الخارجيين والقضايا الثقافية: وبهذا المعنى، يمكن للعدو الأجنبي أن ينوب بشكل مفيد عن العدو الطبقي»[39].

لم تواجه الولايات المتحدة بالطبع أزمة اقتصادية بحجم تلك التي واجهتها ألمانيا في فترة ما بين الحربين. وحتى في هذه الحالة فإن اليقينيات المتعلقة بـ«نحن وهم» التي أبرزتها إدارة بوش اكتسبت على ما يبدو جاذبية وفتنة نتيجة ظروف الحالة المتطرفة من انعدام الأمان الاقتصادي والاجتماعي، والظلم، والبلايا التي روجت لها هذه الإدارة في الوقت ذاته. وفي هذه الأثناء، ساعدت حالة غياب

المساواة والأمان في توفير القوة البشرية اللازمة، حيث شجع الفقر على انضمام المجندين إلى القوات المسلحة، خصوصا في الولايات الجنوبية وبين الأقليات العرقية[40].

الولايات المتحدة مجتمع يعاني بشدة من الظلم الاجتماعي، حيث يملك أغنى الأغنياء الذين يشكلون نسبة 1% أكثر من 38% من الثروة القومية، وحيث متوسط عمر الفرد أدنى من معدله في أي دولة صناعية أخرى[41]. في عام 2001، كان حوالي تسعة ملايين شخص في الولايات المتحدة يعانون من «جوع حقيقي»، بينما كان 31 مليونا يعانون من انعدام الأمن الغذائي، وذلك وفقا لوزارة الزراعة الأمريكية. وتفاقم الفقر والظلم في عهد إدارة بوش وذلك مع زيادة حدة الانكماش وتحديد موعد زمني لمدفوعات الضمان الاجتماعي من قبل برنامج إصلاح الرعاية الاجتماعية، الأمر الذي أدى ـ بالإضافة إلى أسباب أخرى ـ إلى ظهور مؤسسة أمريكية غريبة، عرفت باسم «المطاعم الخيرية» التي تقدم الطعام المجاني (أو الرخيص الثمن) للفقراء والمعوزين[42].

في التسعينيات، سعى ملايين الأمريكيين العاديين لتحقيق أحلامهم الخرافية من خلال البورصة، مما رفع أسعار الأسهم. وخفضت الضريبة على أرباح رأس المال، الأمر الذي ضاعف الثروات التي هبطت من السماء. وحين بدأت الأسعار بالتدهور منذ عام 1999، سارع مدراء الشركات ـ بمساعدة مؤسسات النفط والطاقة والمال المتحررة من القيود والضوابط ـ إلى سحب أموالهم حتى برغم نصحهم لحملة الأسهم العاديين والمستخدمين المحليين بمتابعة استثمارهم[43] شركة «انرون» (إحدى الشركات الرئيسة الراعية لعائلة بوش) كانت أشهر مثال على خداع المستثمرين. فمع زيادة اهتمام وسائل الإعلام بالكوارث والفضائح التي عصفت بشركة "انرون" وغيرها بحلول نهاية عام 2001، شعر كارل روف بالقلق من أن تصيب

آثارها بوش وتشيني[44]. وبدا احتمال حدوث ردة فعل شعبية عميقة كبيرا نظرا لأن ثروة الطبقة الوسطى الأمريكية في حالة ركود عموما، والأمريكيين يراكمون ديونا استهلاكية يصعب عليهم سدادها[45].

وبدلا من إنزال أي نوع من العقاب أو اللجوء إلى ردة فعل سياسية، حصل الأغنياء على تخفيضات ضريبية ضخمة بفضل جورج بوش[46]. وفي عام 2001، أشرفت إدارة بوش على إجراء تخفيضات ضريبية (على الدخل والعقارات) بلغ إجمالي حجمها 1، 35 تريليون دولار (تطبق على مدى عشر سنوات). وبعد حوالي عامين، أجري مزيد من التخفيضات الضخمة[47] أضيف ذلك كله إلى تهرب النخبة الأمريكية من دفع الضرائب، تلك النخبة التي كان يخاطب بوش أفرادها في إحدى حفلات جمع التبرعات حين اعترف قائلا: «هذا حشد مؤثر ـ الأغنياء والأكثر غنى. بعضهم يدعونكم بالنخبة. أنا أدعوكم الركيزة التي أعتمد عليها»(48). كتب مايكل مور، الذي يتمتع بحس خاص تجاه الأبعاد الطبقية لـ«الحرب على الإرهاب» يقول:

لربما يتمثل أكبر نجاح حققته الحرب على الإرهاب في قدرتها على تشتيت انتباه الأمة عن حرب الشركات علينا. في العامين التاليين على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، مرت الشركات الأمريكية بنوبة من الهياج التدميري العنيف والمجنون تركت ملايين الأمريكيين العاديين بدون مدخرات، وقد نهبت معاشاتهم التقاعدية، وتضاءلت أو سحقت آمالهم بمستقبل مريح لعائلاتهم[49].

يقدم توماس فرانك دراسة حالة كاشفة حول الكيفية التي غذى فيها انعدام الأمان الاقتصادي التأييد والدعم لبوش وللسياسيين اليمينيين عموما. ويوثق الخراب الذي أصاب ولاية كنساس (في الوسط الأمريكي)، كما يسلط الضوء على المفارقة التي تمثلها ولاية دمرت زراعتها إصلاحاتُ السوق الحر ومع ذلك بقيت خلف جورج بوش تسانده بكل صلابة. والأهم أن بعض أشد المناطق فقرا في

كنساس ضمت أشد المؤيدين حماسا للمتشددين الجمهوريين. فعند نهاية القرن العشرين، ازدهرت سياسة راديكالية قوية في كنساس، مع دعم راسخ للنقابات، وللتشريعات المناهضة للاحتكارات، وللملكية العامة. لكن الحلول العلاجية القديمة لا تعني اليوم الكثير بالنسبة لمعظم سكان الولاية. وفي الحقيقة، يقدم فرانك الحجة على أن العداء القديم للشركات قد حل محله عداء تجاه سلسلة من «الجماعات الخارجية»، وتجاه قوى (علم، نشوء، علمانية، تعددية) يبدو أنها تقوض اليقينيات القديمة والمريحة(50).

وكثيرا ما اعتبرت هذه القوى مدينية ومنتشرة في القطاعات الساحلية من الولايات المتحدة. وقدم سايمون سكاما الحجة بأسلوب بليغ على أن هناك «أمتين اثنتين» فعليا في الولايات المتحدة: «الوسط الأمريكي الديني» حيث يهيمن الجمهوريون عموما: و«أمريكا الدنيوية»، في المدن الكبرى والمناطق الساحلية الغنية بالمهاجرين، الأكثر انفتاحا، ثقافيا وتجاريا، والتي ترى فيها أمريكا الدينية مصدرا للفساد والتلوث والفجور. أمريكا الدينية تتمحور حول المزرعة والكنيسة والثكنات (أماكن مسيجة ومقدسة)، وحول جعل المكان على صورتها، كما يشير سكاما، بينما تتمحور أمريكا الدنيوية حول العثور على طرق للمشاركة في حيز مكاني مكتظ بالناس(51).

في كنساس، تسيطر خمسة أو ستة مشاريع زراعية ضخمة على القطاع الزراعي برمته، وتفرض أسعارا مرتفعة على المستهلكين. وفي الوقت ذاته، حاول المزارعون ـ بعد أن خسروا التوليفة التي تجمع دعم الأسعار وبرامج تخصيص الأراضي التي انطلقت أساسا من «المشروع الجديد» في الثلاثينيات ـ تعويض الانخفاض في المداخيل عبر زيادة الإنتاج، مما أدى إلى مزيد من الانخفاض في الأسعار. واضطر المزارعون الذين تستغلهم الاحتكارات الزراعية إلى أخذ قروض من

مصارف هذه الاحتكارات: أجبروا على رهن أراضيهم، وعندما حجزت باعوها للشركات الزراعية المهيمنة[52] ومما أسهم في تدني الأجور في القطاع الزراعي الاستخدام الواسع النطاق لليد العاملة المهاجرة في صناعة تغليف وتعليب اللحوم وتكرار نقل المصانع إلى المناطق البعيدة. مما أدى إلى إضعاف العمل المنظم في النقابات[53]. ولا يصعب رؤية كيف أجج ذلك مشاعر العداء لـ«الجماعات الخارجية»، كما هي الحال في كاليفورنيا، حيث يواجه العمال الضيوف قرارات المحاكم بطردهم على نحو متزايد عندما تسوء الحالة الاقتصادية[54]. وفي الوقت ذاته، برعت الشركات الأمريكية في تأليب المدن والولايات على بعضها بعضا، وذلك في بحثها الدائم عن أكبر قدر من الإعفاءات الضريبية، ويذكر توماس فرانك أن ذلك أدى في كنساس إلى أزمة عائدات كبرى للحكومة المحلية. إحدى البلدات باعت مدرستها الرسمية بواسطة الإنترنت. بينما ألحقت سلسلة المتاجر الكبرى «وال ـ مارت» دمارا شديدا بتجارة التجزئة المحلية[55]. ونظرا للفكرة البارزة السائدة في أمريكا: «بمقدور الجميع النجاح إذا بذلوا ما يكفي من جهد»، فإن هنالك حتما مجالا واسعا لما أشارت إليه ارندت بالحكم على الذات «فيما يتعلق بالفشل الفردي»[56].

ما نتج عن ذلك كله من المرارة وانعدام الأمان شجع ما يدعوه فرانك بسياسة «رد الفعل العنيف» التي انتهجها اليمين الجمهوري، والتي تفضل اتباع سياسة خارجية «متشددة»، مع التوكيد على سلسلة متنوعة من القضايا الثقافية غالبا. والمتشبثون بهذه السياسة يؤيدون تطبيق عقوبة الإعدام ويدعون إلى مواجهة سلسلة كاملة من «التهديدات» المحلية، مثل إضافة الفلور إلى الماء، وزواج المثليين، وأبحاث الخلايا الجذعية، ونظرية الارتقاء والنشوء، والسيطرة على الأسلحة، وموسيقى الراب، وتعاطي المراهقين للمخدرات. ويشير فرانك إلى موجة كاسحة من الشعبية لليمين الديني منذ الثمانينيات وتحول دراماتيكي في الرأي العام حول الإجهاض على وجه الخصوص. أما إدارة بوش فقد تبنت، تحت تأثير كارل روف خصوصا،

تكتيك حشد وتعبئة أنصارها المحليين عبر تبني موقف أيديولوجي واضح وتنظيم جيد[57].

فكرت سوزان فالودي في كتابها «القسوة» (1999)، بحالة عدم الأمان الاقتصادي التي أقلقت فرانك أيضا، وسلطت الضوء على تأثيراتها المسببة لتآكل الأدوار الرجولية التقليدية التي تمحورت على الحماية والتزويد. وتناولت «البحث عن شخص يوجه إليه اللوم على الموت المبتسر للوعد الرجولي»[58]، وأضافت مفصلة:

> ما بدا في الخمسينيات ملاحقة متطرفة للشيوعيين في الأجهزة الحكومية البيروقراطية، وفي الصناعات الدفاعية، والنقابات العمالية، والمدارس، ووسائل الإعلام، وهوليود، سيصبح في نهاية المطاف مطاردة لعدو متغير الشكل يمكن أن يتخذ هيئة امرأة في المكتب، أو مثلي في الجيش، أو شاب أسود في الشارع، أو أجنبي على الحدود يحاول الدخول بصورة غير مشروعة، ومن هناك تحولت إلى "معركة" سوريالية مع حوامات سوداء لا وجود لها، وحكومة عالم واحد، وجنود من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة يحتشدون بخطواتهم العسكرية في آفاق متخيلة[59].

بكلمات أخرى، كانت الرغبة في العثور على عدو موجودة من قبل. والإرهابيون، العدو الذي اتخذ الهيئة النهائية ربما، دخلوا في القالب المعد مسبقا. أما إزاحة العداء من الإرهابيين إلى مناصريهم ومؤيديهم الغامضين (المزعومين والمتخيلين) فقد حاكت التغيرات السريعة والعشوائية في تحديد وتعريف الأعداء قبل الحادي عشر من سبتمبر.

ملاحظات ختامية

إذن، يتمثل جزء من وظيفة «الحرب على الإرهاب» في كونها توفر إحساسا باليقين والأمان في عالم لا تتطابق فيه التهديدات الأمنية مع النماذج القديمة القائمة على الردع وعلى الدول، عالم فاقم فيه تحرير السوق وتآكل الرعاية الاجتماعية حالة عدم الأمان الاقتصادي. ولا يغذي البحث عن اليقين الأصولية على الطريقة «البوشية» فقط، بل يدعم الأصولية داخل العالم الإسلامي أيضا. وكما لاحظت سكيلا الورثي، لاسيما فيما يتعلق باحتلال العراق: «تقدم الأصولية، في جو تسوده الفوضى والإذلال، فلسفة راسخة وقادرة على إعطاء انطباع باليقين في عالم يغيب عنه اليقين»[60]. ونتعلم من عمل عدد من المحللين ـ جيرارد، غيليغان، وارندت على وجه الخصوص ـ أن الكراهية يمكن أن تتجه بسرعة نحو أولئك الذين يمكن تحويلهم إلى ضحايا نتيجة قربهم وضعفهم وسهولة الوصول إليهم. مرة أخرى نؤكد أن ذلك لا ينطبق على «الحرب على الإرهاب» فقط، بل على الإرهابيين الذين يواجهون مشكلة أن أعداءهم الرئيسيين ـ وأبرزهم بوش وبلير، كما هو مفترض ـ يتمتعون بحماية قوية، ولذلك فضلوا عموما مهاجمة الأهداف التي يمكن الوصول إليها بصورة أسهل. أما الافتقار إلى التمييز أو الدقة أو الإجراءات القانونية / القضائية في «الحرب على الإرهاب» فيفتح الطريق أمام نوع معاصر من الحملات المسعورة (التي طاردت الساحرات في الماضي)، وهي ظاهرة سوف نتطرق إليها الآن.

5
الحملات الجديدة لمطاردة الساحرات
العثور على مصدر الشر واستئصاله

إذا وقعت فاجعة، كيف نفسرها؟ في دراسته الكلاسيكية «الدين وانحسار السحر»، لا حظ كيث توماس أنه حين تعذر تفسير المعاناة ضمن نطاق الأطر الموجودة، نزع البشر إلى التفكير السحري: بكلمات أخرى، تحولوا إلى الحلول التي لا تربطها صلة منطقية أو علمية بالمشكلة. على سبيل المثال، أوجدت القيود المحددة للمعرفة الطبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر دافعا قويا لتفسير المرض من خلال «السحر والشعوذة». كتب توماس يقول: «في القرن السابع عشر.. لم يكن الأطباء قادرين على معالجة أو تشخيص معظم الأمراض المعاصرة.. ولم يتبد عجز التقنية الطبية المعاصرة بصورة أوضح منها في التصدي لتهديد الطاعون»[1]. وصل الوضع إلى درجة من السوء دفع طبيبا بريطانيا بارزا هو توماس سيدنام إلى ملاحظة أن العديد من الفقراء يدينون بفضل بقائهم على قيد الحياة إلى عدم قدرتهم على تلقي المعالجة الطبية التقليدية[2]. ولم يتوفر أي تفسير للوفيات التي تعزى اليوم إلى أمراض القلب أو السرطان، كما أن غياب نظرية الجراثيم جعل العديد من الأمراض المعدية غير قابلة للتفسير على الإطلاق[3]. وفي الحقيقة، لاحظ توماس كيث أنه كان «من المعتقد عموما أن عجز الأطباء المتمرسين عن تحديد سبب معاناة مرضاهم يمثل إشارة قوية تدل على السحر»[4].

ما يزال الإيمان بالسحر منتشرا على نطاق واسع في العديد من مناطق العالم، حيث يتعذر نسبيا الحصول على التفسيرات البديلة (خصوصا الدراية الطبية).

علاوة على أنه حتى في تلك المناطق من العالم التي ترسخت فيها الأطر الحديثة والعلمية، فإن هذه الأطر تفشل غالبا في الإجابة عن السؤال: «لماذا أنا؟ لماذا أصابني المرض في ذلك الزمان والمكان بالتحديد؟ ولماذا لم يصب شخصا آخر ربما تعرض للمصدر ذاته من العدوى»[5].

من اللافت أن السحر اشتد عادة في فترات الاضطراب والقلق[6]. الحرب الأهلية الإنكليزية (في أربعينيات القرن السادس عشر) شهدت موجة من الاتهامات بممارسة السحر والشعوذة، وذلك مع بحث الناس عن كبش فداء وتفسيرات للمعاناة المنتشرة على نطاق واسع. الحرب المستمرة في أوغندا شهدت أيضا انتشار الاتهامات بالسحر والشعوذة[7]. في سيراليون، حمَّلت مختلف الفصائل العسكرية السحر والشعوذة مسؤولية النكسات العسكرية[8]. وعلى وجه العموم، أشارت دراسة تشابال ودالوز حول مناطق إفريقيا الواقعة جنوب الصحراء (الكبرى) إلى أنه كلما تفاقمت حالة الاضطراب وغياب النظام، تعاظم إغراء استحضار شكل من أشكال الإجراءات السحرية المضادة، ولربما السعي لإعادة إحياء العادات الباطنية والتقاليد السرية[9].

في الغرب، نتخيل غالبا أننا تركنا هذه الخرافات خلف ظهورنا. لكن ميشيل فوكو مثلا ذكرنا بالبحث عن «اللامعقولية» في الحاضر كما في الماضي. اليوم، وفي وجه «وباء» الإرهاب المعاصر وتفاقم حالة التشتت والتشوش والقلق بعد الحادي عشر من سبتمبر، ساعدت الأخطاء الذريعة والعيوب الشنيعة في الأطر التفسيرية على إيجاد حيز سياسي وفكري للتفسيرات والوصفات التي تقودنا مرة أخرى إلى عوالم الخرافات والاضطهاد. ونحن نرى عودة إلى التفكير السحري بطرائق عديدة: شعور الارتياح والأمل بقدرتنا على إعادة تنظيم العالم حسب ما نشتهي بمجرد قوة الإرادة، أو الأفعال التي تفتقد الصلة المنطقية بالمشكلة التي نتصدى لها. مثل هذا

التفكير ـ كما أظهر ادوارد ايفانز ـ برتتشارد فيما يتعلق بقبيلة الزاندي في السودان ـ قد يوجد جنبا إلى جنب الأطر الأكثر علمية.

تبنى معظمنا في وقت ما سلوكا شعرنا بأنه قد يجعلنا أكثر أمانا لكنه يتصل بصلة واهية (أو لا يتصل على الإطلاق) بالتهديدات الفعلية: تجنب الشقوق على الرصيف مثلا. ويبدو أن الأوضاع التي تشمل حالات حادة من الخوف والعجز تستحضر هذه النزعة نحو التفكير السحري، مهما كانت وجهة نظرنا العامة علمانية أو عقلانية. بعضنا يقوم بحركات أو يتمتم عبارات تجلب الحظ إذا صادفت طائرتنا مطبات هوائية: وطبعا، إذا لم تسقط الطائرة، فإن عددا منا يعتقد ـ عند مستوى من المستويات ـ بأن تعويذته الخرافية قد «نجحت» إلى حد ما في عملها. وعلى المستوى النفسي الفردي، يبدو أن هذه الآلية هي التي تعزز الاضطرابات القهرية الوسواسية: نتابع ما نفعله (مهما كان غريبا وشاذا) لأنه ساعدنا على ما يبدو في درء ما نخشاه[10]. الأمر نفسه يمكن أن يصدق ربما على التسلح النووي خلال الحرب الباردة: كان ذلك جنونيا، لكن طالما لم يوجد من يضغط على الزر، فقد بدا «ناجحا» بالنسبة للكثيرين.

أسهمت السمات الشخصية لبوش وبلير على ما يبدو في أحدث «صرعة» من التفكير السحري. المحلل الأمريكي جو كلاين قال عن بوش: «يبدو أن الرئيس يؤمن بتحقق الرغبات والأماني»[11]. الروائية دوريس ليسنغ قالت عن بلير: «يؤمن بالسحر. فإذا ذكر شيئا يعتقد أنه سيصبح حقيقة واقعة»[12]. بولي توينبي لاحظت في معرض تعليقها بشكل خاص على بلير و«أسلحة الدمار الشامل» العراقية المزعومة أن رئيس الوزراء البريطاني:

> انساق مندفعا بكل سهولة وقد اقتنع بكلماته وقوة حججه بحيث يمكنك رؤية أنه استخدم التنوم المغناطيسي لتنويم نفسه.. ثمة تشويش طفولي

يبهم المسافة الفاصلة بين الأمنية والحقيقة: حين يقول شيئا بأسلوب معبر قوي، فإن كلماته يمكن أن تسحره وتحوله إلى حقيقة[13].

في حين لعبت السمات الشخصية دورا، فإن اللجوء إلى التفكير السحري يتبع أيضا مسارا تاريخيا مطروقا بلي من كثرة الاستعمال. فالبحث عن «شرير»، يمكن وضع اللوم عليه، ويمكن لاستئصاله أن ينتج عالما أكثر أمانا، سمة لسلسلة متواصلة وطويلة من الحملات المسعورة لمطاردة السحرة. في بعض الأحيان خدم ذلك هدف تخليص الزعماء من ورطتهم المأزقية. في الفترة المبكرة من الحقبة الحديثة، استحثت الأوبئة غالبا حملات تستهدف مطاردة الساحرات. تعلق آن بارستو قائلة: «من خلال إخضاع النساء للطقوس العنيفة، نجا الزعماء من لعب دور المسيح المخلص الذي يستوجب التضحية بالنفس لعلاج المشكلة»[14]. ومن الطبيعي أن يتعرض بوش ورايس ورفاقهما لضغط كبير من أجل تفسير السبب الذي جعلهم يخفقون في منع هجمات الحادي عشر من سبتمبر الفظيعة[15]. وفاقم ذلك حتما الضغط من أجل العثور على أشخاص في الداخل أو الخارج يمكن أن يوجه إليهم اللوم.

انقطاع الصلة بين المشكلة والحل الذي تمظهر في القفزة من الحادي عشر من سبتمبر إلى مهاجمة العراق كان أيضا سمة مميزة لحملات مطاردة الساحرات: وكما كانت الحال مع الهستريا الجمعية في مدينة سالم (في شمال أمريكا) في القرن السابع عشر مثلا[16]، تفاعلت صفات التفكير الخرافي والرهابي وشبه الديني بطريقة مؤذية مع الأهداف الأكثر دنيوية (كالمكسب الاقتصادي مثلا).

إذا كان التفكير السحري يزدهر في غياب التفسيرات العقلانية، فإن من اللافت كيف تخلف المقاربات القائمة لتحليل الصراعات العالمية فجوة هائلة حين يتعلق الأمر بتفسير حدث مثل الحادي عشر من سبتمبر. لسبب واحد هو غياب النقاش الكافي لدى التيار الغالب حول دواعي وبواعث العداء الشديد لأمريكا لدى

بعض الجهات (انظر الفصل التاسع). الأمر الذي يعني أن العديد من الأمريكيين قد أصابهم الذهول والارتباك فعلا نتيجة هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وبالتالي أصبح لديهم ميل للقبول بالتفسير (وبالتوسع: بالحل) الذي قدمته لهم حكومتهم.

النواقص والعيوب في دراسات الصراعات العالمية ربما تمثل أيضا جزءا من المشكلة. فقد استولى علم الاقتصاد ـ جزئيا ـ على الميدان، كما هي الحال في المحاولات الهادفة لتفسير العنف باعتباره تمظهرا لـ«الجشع» (أبرز هذه المقاربة بول كوليير في البنك الدولي، وأسهمت فيها أنا أيضا). لهذا النوع من إطار «العامل العقلاني» بعض المزايا (خصوصا في مواجهة فكرة العنف كفوضى وتشوش)، لكنه لا يصيب نجاحا كبيرا في حالة الغضب الذي يغذي العنف ولا مع أولئك الذين يرغبون بالموت[17]. كما أنه يخاطر بتعزيز موقع أولئك الذين لا يملكون سوى حس ضئيل بالتاريخ واستعداد أقل للإصغاء إلى الشكاوى والمظالم التاريخية[18]، ولربما يسهم في تفاقم العيوب والنواقص في فهم كيف يتحول الناس إلى العنف ودور محاربة التمرد ومكافحة الإرهاب في هذا التحول.

إطار «صراع الحضارات» (كما قدمه صموئيل هنتنغتون) الذي يتصدى على الأقل لبعض الأبعاد الثقافية للصراع، يمثل رغم ذلك جزءا من المشكلة أيضا. فهو يفترض على وجه الخصوص، بدلا من أن يفسر، الكراهية والعداوات الثقافية، وبالتالي يميل إلى تعزيزها وترسيخها. الأمر ذاته ينطبق على تفسير الحرب، الذي ما يزال شائعا (ووثيق الصلة)، باعتبارها «اثنية» أو «قبلية». وفي الوقت ذاته، استولى على «السياسة» غالبا شكل من «العلوم السياسية» يعتمد اعتمادا شديدا على نشر الأرقام، وكثيرا ما يغيّب الأصوات الهامشية وراء حشد منها. وحتى تقارير حقوق الإنسان، التي يمكن أن تلعب دورا بناء جدا، يمكن أيضا أن تسهم في ثقافة تنزع إلى مجرد إدانة العنف بدلا من أن تسعى لفهمه: ثقافة التسميات وتوجيه اللوم

والتعبير. فكلمات مثل «وحشي» و«لا إنساني» ـ رغم أنها تمثل جزءا من محاولة نقل صورة عن حدة العنف ـ تبعد العنف بشكل روتيني عن المجال البشري والقابل للتفسير، بينما تميل إلى نزع الصفات الإنسانية عن ممارسي العنف وزيادة حدة شعورهم بالعار والخزي الذي يشجع الأعمال الوحشية والفظائع (انظر مناقشة جيمس غيليغان في الفصل التاسع).

لربما تكمن أخطر المشكلات في الفرع المعرفي الذي كثيرا ما يستحضر لتفسير الصراعات الدولية الكبرى: أي العلاقات الدولية. فقد نقل انتهاء الحرب الباردة ثلاث مشكلات إلى هذا الفرع. أولا، الفشل في توقع الأحداث اللاحقة: إذ كان سقوط الشيوعية في الاتحاد السوفييتي على وجه الخصوص ـ وهو أكبر حدث في هذا المجال ـ بمثابة مفاجأة كاملة تقريبا[19] ثانيا، أفرزت هيمنة الحروب الأهلية مع نهاية الحرب الباردة مشكلات كبرى لفرع معرفي يشدد على العلاقات بين الدول. ثالثا، مثل ظهور الإرهاب، باعتباره أعظم تهديد مدرك عند نهاية القرن العشرين، هيمنة نشاط لعب فيه أفراد لا ينتمون لأي دولة دورا حاسما. سلطت هذه المشكلات جميعا الضوء على أهمية المجالات التي عانت فيها العلاقات الدولية تقليديا من الضعف: فهم العلاقة بين الدول والمجتمع المدني، وفهم قيم وأولويات الناس العاديين، وفهم طبيعة العنف الذي لم يعد ممركزا[20] وكما لاحظ مارك دوفيلد، فإن صناع السياسة في الغرب قد انتقلوا من عدو مركزي (الاتحاد السوفييتي) إلى عدو لا مركزي: لكن الاستراتيجيات القائمة على الدول ظلت على حالها[21]. ويبدو من المهم القول إن بعض اللاعبين الأساسيين في حرب بوش على الإرهاب، مثل رمسفيلد، قد جرى صقلهم وإعدادهم في عهد ريغان. والتشديد على الحلول القائمة على الدول وعلى التراتبيات يناسب أيضا الإدمان على «الحرب» كحل للمشكلات الأمنية.

وبغض النظر عن الحدود المقيدة للأطر الموجودة حاليا لفهم العنف، لا يمكن للتفكير السحري أن يروج لذاته باعتباره تفكيرا سحريا. فالعلاجات والمعتقدات السحرية القديمة، التي درسها كيث توماس، تزيّت عموما بلبوس من المعقولية الدينية أو العلمية. واليوم، وفي حين قد لا توجد صلة منطقية أيضا بين المشكلة والحل المفضل، فإن هذا الانقطاع يبهم ويغطى بوسائل عدة، خفية مراوغة حينا وظاهرة واضحة أحيانا. وبغض النظر عن كون مطاردة الساحرات طريقة قديمة أم جديدة، فنحن بحاجة إلى فهم كيف مُوّهت المعتقدات السحرية والخرافية واللاعقلانية لتبدو عقلانية ومشروعة إلى حد ما، وكيف جُهزت «لتعمل كأنها حقيقية»، حسب تعبير ميشيل فوكو.

لم يقتصر الهدف في مطاردة الساحرات على القضاء على شر مستطير مسمى ومعرّف ويسهل الوصول إليه: بل تمثل أيضا في السعي لإضفاء الشرعية على هذه الحملات المريبة. وتشير تجربة الماضي إلى أنه حين يُفتقد الدليل في حملات مطاردة الساحرات، يحاول ممارسو الاضطهاد شرعنة أنشطتهم عبر دفع المتهمات إلى إدانة أنفسهن بأنفسهن: فأحد مصادر «دليل الإثبات» كان الاعتراف، وكلما تعاظم الاشتباه بعدم وجود أساس للاتهام، تعاظمت مطالبة النظام القمعي بالاعتراف لشرعنته. في هذه الحملات، لا يمكن للمتهمة بممارسة السحر الأسود إنقاذ نفسها إلا بالاعتراف بأنها ساحرة. قال كيث توماس عن الساحرات المشتبه بهن في الحقبة التي سبقت العصر الحديث في أوروبا: «إذا اعترفت الساحرة، تنتهي القضية: أما إن رفضت الاعتراف فهي تضيف اليمين الكاذبة إلى خطاياها وذنوبها الأخرى»[22] حظي الاعتراف بالأهمية أيضا عندما اتخذت مطاردة «السحرة» (المنشقين) شكل حملة اضطهاد جماعية قادتها الأنظمة التوتاليتارية. ومثلما لاحظت هانا ارندت، كانت الاعترافات مفضلة كثيرا في النظام السوفييتي كطريقة لشرعنة الحملات الجماعية لاضطهاد المنشقين[23].

اليوم، يفترض الجنرالات (ومعظمهم لا يرتدون اللباس العسكري الرسمي) الذين نصبوا أنفسهم مسؤولين عن العثور على السحرة أنهم وجدوا المصدر المعاصر للشر وشرعوا في تقديم «دليل الإثبات» للعالم. على المستوى الفردي، استخدم التعذيب مرة أخرى بشكل روتيني لاستخلاص المعلومات التي تجرّم المشتبه به أو طرفا ثالثا[24]. وفي حين أن التعذيب قد استخدم خلال الحرب الباردة (في فيتنام مثلا)، إلا أن نمطا حديثا من الصفاقة قد ربط بالممارسة، وشرعنتها تعريفات وقوانين جديدة[25]. أوضح بوش أن السبيل الوحيد أمام صدام حسين لتجنب الحرب هو إعلان «كامل ومتكامل» عن وجود أسلحة دمار شامل غير مشروعة لديه، لم يكن يملكها في الحقيقة. وقارن رئيس فريق التفتيش عن الأسلحة التابع للأمم المتحدة هانس بليكس عملية التفتيش المجهضة عن الأسلحة في العراق مع حملة مطاردة السحرة: وحين رفض المسؤولون الأمريكيون فكرة أن العراق يمكنه أن يلبي «معياراً» محددا بحيث يظهر الاستعداد للتعاون مع المفتشين ونزع أسلحته (وهو سبيل فضلته ألمانيا وروسيا ودرسته بريطانيا)، فهم بليكس أن موقف الولايات المتحدة هو: «هنالك سحرة: وأنت معيّن للتعامل مع هؤلاء: واختبار هل هم سحرة مجرد تلطيف لتعبير حملة مطاردتهم»[26]. أما جون وولف، مساعد وزير الخارجية للحد من انتشار الأسلحة، فقال إن «التغيير الدراماتيكي» الضروري في موقف العراق من أسلحة الدمار الشامل «يوجب أن يعترف علنا، لا تحت الضغط، بأنه امتلك ويمتلك أسلحة دمار شامل وبرامج لأسلحة الدمار الشامل»[27]. ونظراً لأن الضغط لا يعادل في شدته التهديد بشن الحرب، فإن من الواضح أن هذا الخيار لم يكن متاحا، حتى لو كان العراق مستعدا لـ«الاعتراف» بوجود أسلحة دمار شامل لم يكن يملكها. كما أن اقتراح بريطانيا بوضع معيار (يقاس تبعا له أداء العراق في مجال نزع أسلحته) تطلب أيضا من صدام الاعتراف بأن العراق حاول في الماضي إخفاء أسلحة الدمار الشامل (التي قيل إنها شملت، كما هي الحال مع أي «ساحرة»

تحترم نفسها، مصفوفة من المواد الكيماوية المؤذية)[28]. وعلق بليكس قائلا: «الإذلال، كما أعتقد، هو الأسلوب المؤكد لدفع إمبراطور بلاد ما بين النهرين إلى رفض فكرة الإعلان. وربما كان هذا هو المقصد»[29].

من الإنصاف الإشارة إلى أن الاعتقاد بامتلاك العراق بعض أسلحة الدمار الشامل كان شائعا ومشتركا على نطاق واسع، وتبنته الحكومتان الفرنسية والألمانية من ضمن أطراف عديدة، الأمر الذي عكس فجوات حقيقية في المعلومات، إضافة ـ ربما ـ إلى درجة من الهستيريا الجمعية أو «التفكير الجماعي». لكن لم تستخلص جميع الأطراف النتائج السياسية نفسها من الشبهات والشكوك. فحيازة أسلحة الدمار الشامل لا يشكل في حد ذاته تهديدا للولايات المتحدة، كما اتبعت الوسائل الكفيلة بإجراء عمليات تفتيش اقتحامية للتعامل مع أي أسلحة موجودة لدى العراق [30]. وحين خيم شبح الحرب على العراق، ضغط الفرنسيون على وجه الخصوص من أجل إصدار قرارين دوليين منفصلين: الأول لإجراء جولة جديدة من التفتيش: فإذا تبين وجود أي خرق خطير، فسوف تجري مناقشته في مجلس الأمن، الذي يحتاج آنئذ لإصدار قرار ثان للموافقة على شن الحرب. لكن في الفترة الممتدة بين منتصف وأواخر عام 2002، كان نائب الرئيس ديك تشيني خائفا من أن يؤدي السبيل الديبلوماسي لحل أزمة الأسلحة العراقية إلى درء الحرب، حسبما اعتقد وزير الخارجية كولن باول[31]. ولاحظ أن تشيني «أصابته حمى» ـ «هاجس مرضي» بتثبيت الصلة بين «القاعدة» والعراق[32]. في تشرين الأول/ أكتوبر 2002، أبلغ رئيس وكالة الأمن الوطني، مايكل هايدن، موظفيه بأنه نظرا للظروف الجوية في العراق وضرورة ارتداء القوات الأمريكية ملابس خاصة لتوقي المواد الكيماوية (بسبب أسلحة الدمار الشامل المزعومة)، «لا يمكنكم شن الحرب على العراق بعد شهر مارس، إذ ينبغي البدء بها في يناير أو فبراير أو مارس». وأصر تشيني على وجوب أن يقدم صدام، بعد إصدار قرار دولي لبدء جولة جديدة من عمليات التفتيش،

إعلانا يبين بالتفصيل جميع ما لديه من أسلحة دمار شامل. يعلق بوب ودوارد قائلا: «صمم ذلك نوعا ما ليكون بمثابة شرك لصدام. فسوف يزعم أنه لا يملك أسلحة دمار شامل وتلك الكذبة ستشكل القاعدة المؤسسة للحرب. أو سيعترف بأنه يمتلك أسلحة دمار شامل، مما يثبت أنه كان يكذب طيلة اثني عشر عاما»[33]. من الواضح أن النقطة ليست العثور على طريقة لتجنب الحرب بل طريقة لشن الحرب.

وحين لم يتم العثور على «أسلحة دمار شامل»، تزايد الحديث حول قيام صدام بإخفائها أو تدميرها أو شحنها إلى خارج البلاد. وقدمت الحكومتان الأمريكية والبريطانية الحجة على أنه ربما دمر أسلحته عشية الحرب[34]. وقال رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني: «لو كنت مكان الرئيس صدام حسين لقمت بإخفاء هذه الأسلحة، وذلك إما بتدميرها أو إخراجها من البلد»[35]. وعلق كيث توماس على حملات مطاردة الساحرات تبعا للنموذج القديم، فقال: «إذا تعرضت [الساحرة] للتفتيش بحثا عن علامة من علامات الشيطان، فإن من المؤكد أن يحمل جسدها ـ شامة أو ندبة أو زائدة ـ: وإلا فقد أزالتها، أو ربما أخفتها بواسطة السحر: فمن المعروف أن هذه العلامات تظهر وتختفي بشكل غامض»[36]هل دق ذلك جرس إنذار في «داوننغ ستريت»، أو «البيت الأبيض»، أو «بلازو تشيغي»؟

استحضر التفكير السحري ثلاث مرات على أقل تقدير. أولا، هنالك تركيز سري/باطني غامض على سوء النية، الذي افترض بأنه يمثل خطرا في حد ذاته. ومن المثير للذعر أن خطاب المسؤولين الأمريكيين المعاصرين حول الإرهاب، والضربات الاستباقية ضد الأخطار والتهديدات عموما، يشمل الافتراض المسبق بأن بمقدورك معرفة من ينوي إلحاق الأذى بك، أو أن باستطاعتك (وهذا أمر يسبب خلافا أشد) التعامل مع نكسات (الماضي) الكبرى ـ مثل أحداث الحادي عشر من سبتمبر ـ عبر ربطها بالنوايا الشريرة المضمرة، خصوصا المقاصد الخبيثة المبيتة

في أعماق صدام حسين. ينسجم هذا المنطق مع اضطهاد الساحرات (وهو ممارسة ما زالت مستمرة في مختلف أرجاء العالم)، حيث تعزى النكسات عادة إلى النوايا الشريرة. ثانيا، هنالك فشل في تمييز ـ أو حتى تركيز الاهتمام على ـ العلاقات السببية الكامنة فيما وراء العالم المركز على الذات: وبالتالي، يمكن الافتراض بأن «القاعدة» والعراق يشكلان عصبة واحدة لأن من الأنسب للطرفين فعل ذلك، ولأنهما يشتركان كما يقال في العداء لأمريكا: فغالبا ما تعتبر معاداة أمريكا من الأمور العادية أو الطبيعية («يكرهوننا ويحسدوننا»)، مما يهمش احتمال أن تكون مظالم وشكاوى العديد من الشعوب (قبل أن يشتد عنف مكافحة الإرهاب) موجهة ضد حكوماتها: ويلغي الحاجة ـ على المستوى الأشمل ـ للدليل القائم على السبب والنتيجة (انظر الفصلين السادس والسابع). العامل الثالث في التفكير السحري تمثل في فكرة أن القضاء على مجموعة معينة من الأفراد الأشرار سوف يؤدي بشكل سحري إلى حل المشكلات الاجتماعية والسياسية المعقدة: ولم تؤخذ على محمل الجد الرابطة السببية/العلية والعملية التي يتشكل عبرها الإرهابيون ويأخذ غيرهم مكانهم حين يقتلون أو يعتقلون. يبلغ ذلك كله مستوى أنانة غريبة ذات حدين: فمرة نصبح «نحن» (التي تعني أساسا، الولايات المتحدة) مركز عالم «لن يكون كما كان أبداً»، حيث كل فرد من سكانه يكرهنا / يحسدنا/ يريد أن يكون مثلنا: ومرة يختفي على ما يبدو الوعي بما تفعله الذات ولا يأبه أحد تقريبا لتأثيرات الأعمال العدوانية بقيادة الولايات المتحدة في تأجيج مشاعر الغضب لدى الآخر.

يثير التركيز على النوايا الشريرة الخبيئة طبعا سؤال من يعطي لنفسه الحق في افتراض معرفة هذه الأفكار والنوايا. فمن أجل الحكم على النوايا الشريرة أنت بحاجة للتمتع ببعض القوى السرية والسحرية الغامضة، وهنا يثبت غموض "الاستخبارات السرية" فائدته في إضفاء شرعية زائفة على مطاردة السحرة. يعلق ريتشارد نورتون ــ تايلور قائلا: «يبدو من تصميمه العنيد على شن الحرب أن السيد

بلير يعتقد أن ورقته الرابحة ستكون نشر معلومات ـ الاستخبارات السرية ـ، وهي عبارة عن نوع من المادة الغريبة التي ستقنع، كما أمل، حتى أشد المتشككين حين تظهر»[37]. نحن نعرف حجم الشرخ والغش في مقاربته. وعلى أية حال، لا تمثل السرية والخفية على الدوام مصدرا للحكمة والحقيقة: وكما قال وزير الخارجية البريطاني الأسبق دوغلاس هيرد: «ليس ثمة صدق على نحو خاص في تقرير لمجرد أنه سري. فبعض الناس يشعرون بالإثارة لأن التقرير سري ويظنون إنه صحيح نتيجة ذلك. وتبعا لتجربتي لا يكون الأمر هكذا على الدوام»[38].

التركيز على الفعل الوقائي الاستباقي وعلى النوايا الخبيئة لصدام حسين وغيره يستحث أيضا عقد مقارنة مع رواية جورج اورويل «1984»، وتحريم نظام الحكم الذي تخيله لـ«جرائم الفكر». وكما في رواية اورويل، يمكن أن تتعرض اليوم للعقاب على ما فكرت فيه أو نويته أو قصدته في داخلتك حسب افتراض أعدائك، بدلا من محاسبتك على أفعالك الحقيقية[39]. وفي حين «غازلت» أمريكا خلال الحرب الباردة فكرة «الضربة الأولى»، إلا أن الفكرة المهيمنة كانت عدم استخدام الأسلحة النووية إلا في حالة التعرض للهجوم (وكمنت وظيفتها في ردع الهجوم). أما السياسة الراهنة فهي مؤسسة على فكرة الهجمات «الاستباقية»، وهذه تشمل حتى احتمال استخدام الأسلحة النووية ضد القوى التي لا تملكها.

كان لصدام سجل مريع في مجال حقوق الإنسان: والبحث الذي أجريته بنفسي في شمال العراق يعتبر كافيا لإثبات هذا الأمر بالنسبة لي[40]. لكن قصف صدام للكرد بالغازات عام 1988 لم يستثر أي ردة فعل مهمة من قبل الغرب. وحين جرى تبرير العنف ضد «الآخرين» بذريعة ما يوشكون على فعله، كان ذلك بمثابة خطوة شديدة الخطورة. وفي الحقيقة، شكلت الدعاية حول «ما هم على وشك فعله» معلما مميزا للأنظمة القمعية التي تستعد لارتكاب أعمال الإبادة الجماعية: يمكننا إثبات أن من المتعذر إبادة جماعة اجتماعية (اليهود في ألمانيا وأوروبا المحتلة من قبل

النازيين، و«التوتسي» في رواندا) إلا إذا اقتنعت أعداد كبيرة من الناس بأن هذه الجماعة على وشك إلحاق الدمار بهم[41].

ويمكن اعتبار اضطهاد النازيين لليهود بحد ذاته حملة مطاردة للساحرات جرت في القرن العشرين، حيث ثبت أن حلها السحري لمشكلات ألمانيا على قدر كبير من الإغراء بل حتى الإقناع بالرغم من افتقاره إلى أي أساس من الصحة. ولم يكن المشروع الفاشي وحده الذي استهدى بفكرة عزل الأشرار والقضاء عليهم: بل برزت لدى الشيوعية المصابة بذهان الارتياب التي عانى منها سولجنتسين وقادته إلى التحذير من مغبة محاولة عزل وتدمير «الأشرار».

تشير تجربة الماضي إلى أنك حين تفترض أن شخصا ينوي إلحاق الأذى بك فقد يكون لافتراضك علاقة بنواياك السيئة المبيتة تجاهه وسوء ظنك به[42]. ويربط كيث توماس العديد من الاتهامات بممارسة السحر مع الرفض القبْلي للإحسان والبر والعون الذي يطلبه المتهم. في إنكلترا على سبيل المثال:

> لم يكن من قبيل الصدفة أن تكون روث اوزبورن، التي أعدمها الغوغاء في هارتفوردشر عام 1751، هي نفسها التي رفض أحد المزارعين إعطاءها الزبدة، والذي استحث مرضه الغامض فيما بعد توجيه الاتهام لها. وغالبية الاتهامات غير الرسمية بالسحر التي سجلت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى في القرن العشرين تتوافق مع النمط القديم لتفادي عمل الخير والإحسان، تتبعه نكبة تصيب من يرفض مساعدة المحتاج/ المتهم[43].

هل يمكن القول إن عامل سوء النية قد أدى على نحو مشابه إلى إدراك نوايا العراق السيئة تجاه الغرب وفاقم بالتالي عدوانيته وعداءه للعراق؟ أي رفض جماعي لمساعدة المحتاجين أفظع من العقوبات الدولية التي قتلت حوالي نصف مليون طفل

عراقي في التسعينيات، وحاولت المنظمات التي ترعى حقوق الطفل إلغاءها مرارا وتكرارا؟ يمكن بالطبع توجيه إصبع اللوم على وفيات الأطفال إلى نظام صدام حسين، الذي يحمل فعلا جزءا من المسؤولية[44]. وحتى في هذه الحالة، لا عيب، على مستوى من المستويات، في هذا المنطق: نظرا لأننا نلحق الأذى بهم، ربما نفترض بأنهن ينوون إلحاق الأذى بنا: وحين تعرضنا للأذى في الحادي عشر من سبتمبر، فلمن نوجه اللوم؟[45]. أفغانستان أيضا شكلت مصدرا للنوايا السيئة (انظر الفصل التاسع). ويتصل بذلك كله احتمال أن يعكس العقاب افتراض الحسد. والأبحاث التي تناولت حملات مطاردة الساحرات في ألمانيا على وجه الخصوص تشير إلى أن العجائز كن في الحالة النمطية أهدافا نموذجية، وافترض أن لديهن نية سيئة نتيجة الحسد والغيرة من النساء الشابات اللاتي مازلن في مرحلة الخصوبة[46]. من الممكن طبعا الانجراف وراء مثل هذه المقارنات: لكن من اللافت مدى هيمنة الخطاب الذي يؤكد أن سبب هجوم الإرهابيين يكمن في شعورهم بالحسد من أساليب الحياة الغربية والحرية الغربية على وجه الخصوص[47]. في وقت مبكر يرجع إلى عام 1948، كتب جورج كينان، المحلل النافذ في وزارة الخارجية الأمريكية، مذكرة يوضح فيها أن ثراء أمريكا الهائل سوف يجتذب «الحسد والاستياء» (وأن المهمة الحقيقية هي الحفاظ على التفاوت الاقتصادي من خلال الاستغناء «عن المغالاة في العواطف وأحلام اليقظة»)[48]وربما تغذي بعض عوامل الشعور بالذنب نتيجة حالة الظلم الشديد المهيمن على العالم، النسخ المعاصرة لهذا الخطاب: نظرا لندرة فهم الإرهاب وأسبابه، يقدم الحسد المزعوم كتفسير وتبرير في آن معا: تفسير جاهز للنكبة التي حلت وتبرير (ضمني) للعقاب العنيف.

من الملاحظ أيضا في العقود الأخيرة، مثلما كانت الحال في حملات مطاردة الساحرات العجائز، أو الشابات، أو أي فرد معزول، ضعف أولئك الذين يزعمون أنهم يجسدون التهديد الأخطر: وكما استحث الهجوم على العراق (2003) ارونداتي

روي على القول: «نحن نشاهد مرة أخرى ذهان الارتياب، حيث يوشك بلد جائع ومدمر ومطوق على تدمير أمريكا القوية القادرة على كل شيء (لم يكن العراق سوى آخر حلقة في سلسلة من البلدان ـ بعد كوبا ونيكاراغوا وليبيا وغرينادا وبنما)»[49]. وبالطبع فإن للضعف ميزة عملية مفيدة تتمثل في عدم قدرة الهدف على الرد بسهولة. ويذكرنا ذلك باهتمام حكومتي القوتين العظميين خلال الحرب الباردة ـ اللتين وجدتا على ما يبدو في تأبيد الصراع (المحدود) أمرا مفيدا على الصعيدين السياسي والاقتصادي ـ بتجنب المواجهة العسكرية المباشرة (والانتحارية) بينهما، لكن عمل كل منهما برغم ذلك على نشر الفوضى في العديد من البلدان الأقل قوة من خلال الحروب بالوكالة. ولم نر الولايات المتحدة ـ لا أمس ولا اليوم ـ تهاجم موسكو بسبب حيازة الروس أسلحة دمار شامل، لأسباب واضحة. وبدلا من ذلك نلاحظ تركيزا واستئسادا على الأهداف السهلة التي لا تستطيع الرد.

واعتمادا على رينيه جيرارد، أشار العالم الأنثروبولوجي البريطاني تيم الين إلى أن حملات مطاردة الساحرات خدمت في بعض الظروف (وهذا يثير خلافا جداليا) نوعا من الوظيفة الإيجابية تمثلت في تركيز العداء المجتمعي على فرد واحد ومساعدة المجتمع على النجاة من حلقة الأعمال الانتقامية[50]. الفكرة تثير الاهتمام فعلا، وذكر جيرارد نفسه أن «طقوس التضحية بالقرابين خدمت هدف استقطاب الدوافع العدوانية لدى المجتمع المحلي وإعادة توجيهها نحو ضحايا، قد تكون حقيقية أو مفترضة، حية أو غير حية، لكنها غير قادرة دوما على الرد والانتقام والثأر»[51]. وبغض النظر هل نوافق على أن لذلك أهمية «وظيفية» بالنسبة للمجتمع أم لا، إلا أن تأملات جيرارد حول هذا القانون تستحق الذكر:

من يثأر لنفسه يقال عنه «طبق القانون بيديه». وليس ثمة فارق من حيث المبدأ بين الانتقام الخاص والعام، لكن على المستوى الاجتماعي يبدو الفارق هائلا. فتحت

مظلة النظام العام، لم يعد من المسموح الثأر من الفعل الانتقامي: لقد ألغيت العملية، وتم تجنب خطر التصعيد[52].

باتباع هذا المنطق، وفي الظروف التي يظهر فيها نوع من القبول المعمم بالحرب (كما حدث إلى درجة ما في حرب الخليج عام 1991)، فإن إمكانية تأجيج مزيد من العنف في المستقبل ستكون أقل احتمالا بكثير من الحرب التي تعتبر عملا عدوانيا أو انتقاميا على الصعيد الخاص (العراق عام 2003)، قد يستدعي بحد ذاته الانتقام والثأر.

تشير الأدلة المستمدة من حملات مطاردة الساحرات في الماضي والحاضر إلى أنها تشتغل ضمن أنظمة فكرية مغلقة تجعل من الصعب تحدي منطقها. وحين لا يفيد قتل أو نفي الساحرة في القضاء على مشكلة محددة، فإن النتيجة المستخلصة عادة هي ضرورة العثور على مزيد من الساحرات، لا خطأ أو فشل مطاردتهن. وعلى نحو مشابه، حين واجه اضطهاد جماعة كبيرة من الناس مشكلات عويصة أو أفرز نتائج عكسية، فإن الاستجابة الشائعة تمثلت في مضاعفة الجهود لتكثيف حملات المطاردة. وهذا ما قام روبرت روبنز وجيرولد بوست بتفصيله في كتابهما «ذهان الارتياب السياسي»، خصوصا فيما يتعلق بحملات التطهير التي نفذها الخمير الحمر في كمبوديا [53]. وبمقدورنا رؤية تلميحات لهذا الدافع في الهجمات الإرهابية التي حدثت في بلدان مختلفة في أعقاب غزو أفغانستان والعراق. فمثل هذه التفجيرات الإرهابية تشير بدلالتها على أقل تقدير إلى أن الإجراء العقابي لم يتمكن من القضاء على المشكلة. لكن النتيجة المستخلصة في الأوساط الرسمية المعنية لم تكن في الحالة النمطية تؤكد على سوء التخطيط لعمليات مكافحة الإرهاب أو عدم فاعليتها: بل على ضرورة تعزيز الاستراتيجية القائمة وربما توسيع حملة مطاردة المتآمرين. ولا نعرف هل سيتعرض رفاق العراق في «محور الشر» (إيران وكوريا الشمالية) إلى الهجوم بذريعة الوقاية أم لا!

من المهم في دلالته أن «الحرب على الإرهاب» لم تشكل النموذج الأول لاعتماد التدخلات الدولية على الاعتقاد (المريح) بأن القضاء على الأشرار سيوفر المفتاح الضامن للأمان والأمن. ففي أوائل تسعينيات القرن العشرين، فشلت محاولات الولايات المتحدة لإغاثة ضحايا المجاعة في الصومال نتيجة التورط في حرب معقدة اختزلت الحكومة الأمريكية أجندتها السياسية والاقتصادية في «الشر» المزعوم الكامن في الجنرال محمد فارح عيديد. أصبح عيديد هذا موضوعا للمصقات الحكومة الأمريكية باعتباره الرجل «المطلوب» والهدف المرغوب الذي تركز عليه هجوم أمريكي أخرق أدى لمقتل ألف من الصوماليين في المعارك التي اندلعت عام 1993 وفي مطلع القرن الحادي والعشرين، جرى تبسيط المشكلات المعقدة التي تعاني منها منطقة غرب إفريقيا (وبأسلوب متقن وخطير غالبا) واختزالها في «الشر» الكامن في الرئيس الليبيري تشارلز تايلور ـ الذي جسد قوة تدميرية وتخريبية فعلا، لكن يصعب اعتباره المشكلة الوحيدة في منطقة غذى فيها الفساد والدول الضعيفة عمليات تمرد وحشية وعمليات مكافحة تمرد مضادة مماثلة في الوحشية. وفيما يتصل بليبيريا، قال اليكس فينز، مدير برنامج إفريقيا في المعهد الملكي للشؤون الدولية في لندن (في منتصف عام 2003) إن «بعض الدول في مجلس الأمن تعتقد على ما يبدو بأن تغيير النظام أمر مرغوب لكنها تفتقد أي رؤية حول ما سيحدث حالما يسقط تايلور»[54]. وبعد ذلك، علقت الولايات المتحدة آمالا كبارا في الشرق الأوسط على التخلص من ياسر عرفات، لكن «مجموعة الأزمات الدولية» لاحظت بكل حكمة أن «العيوب والنواقص في الديمقراطية الفلسطينية لم تكن السبب وراء الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، كما أن معالجتها لن تؤدي إلى العثور على حل له»[55]. لقد ظل تجسيد الشر منذ عهد بعيد حلا مغريا وخطرا للمشكلات المعقدة.

الشياطين تكمن في التفاصيل: إهمال إعادة الإعمار

أثبتت إدارة بوش بالدليل القاطع أنها أكثر اهتماما بالشياطين من التفاصيل، وباستئصال الأشرار من تعب إعادة الإعمار. وفي الحقيقة، شجع الاعتقاد الجازم بفائدة القضاء على الأشرار على ظهور قدر كبير من السذاجة فيما يتعلق بالخطوة التالية. وعلى شاكلة الشيوعيين وكارل ماركس نفسه، الذي حلل نواقص ومثالب وعيوب الرأسمالية دون الإشارة كثيرا إلى بديلها الممكن، نادرا ما فكر دعاة الإمبراطورية الجدد في هذه الأيام بطبيعة الوضع بعد طرد الأشرار. يلاحظ جون ميكلثويت وأدريان وولدريدج وجود «تناقض مباشر بين تشاؤم تشخيص المحافظين الجدد (العالم مكان أشد خطرا مما تظن) وتفاؤل ثقتهم بالتغيير»[56]. إن التركيز على زعماء الشر هو الذي يفسر إلى حد كبير هذا التناقض. فمع التركيز كله على ابن لادن والطالبان، لم تتجاوز عملية إعادة الإعمار في أفغانستان على ما يبدو إطار الفكرة التابعة. بوب ودوارد ذكر في معرض تعليقه على اجتماع مجلس الأمن القومي الأمريكي في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2001). قبل ثلاثة أيام من بدء الهجوم على أفغانستان) ما يلي:

بالنسبة لأفغانستان في مرحلة ما بعد الطالبان، تحدث [بول]ولفوفيتز و[كوندوليزا] رايس عن إقناع بلدان أخرى بتمويل إعادة الإعمار. فسأل بوش: «من سيدير البلد؟». فكرت رايس في قرارة نفسها: كان يجب علينا التصدي لهذه المسألة. ومرت أفظع اللحظات عليها حين فكر الرئيس بشيء كان يجب على كبار المسؤولين، خصوصا هي، توقعه. لم يكن لدى أي منهم جواب حقيقي شاف، لكن رايس بدأت تفهم أن ذاك السؤال حاسم الأهمية. إلى أين يتجهون؟[57].

وكالعادة، يبدو أن ودوارد قد عمي تقريبا عن الطبيعة الشائنة للأحاديث التي يوثقها (وقد يساعد ذلك في تفسير كيف تمكن من الحصول على المعلومات الثمينة

في المقام الأول، وفي الحقيقة بدت إدارة بوش سعيدة عموما بعمله)[58]. في الواقع، عانت عملية إعادة الإعمار من نقص التمويل، وأعاقها فشل وسائل الإعلام الذريع في التغطية. لقد أطلق سقوط الطالبان العنان لقوى نابذة عديدة وأعطى دعما لأمراء الحرب، والسياسة الإثنية، وقطاع الطرق، وإنتاج الأفيون[59]. وأحجمت الحكومة الأمريكية عن توفير قوات حفظ السلام أو السماح بها، خوفا من أن تصبح أهدافا أو تقيد حرية عمل الولايات المتحدة ضد الطالبان و«القاعدة»[60].

ومثلما أشارت دراسة مفصلة لمشروع البدائل الدفاعية (في كمبريدج بولاية ماساتشوستس)، فإن «الاندفاع إلى القيام بعملية عسكرية ضخمة وطموحة أعاق إعداد الترتيبات الكافية للبيئة السياسية والاحتياجات الإنسانية في مرحلة ما بعد الحرب»[61]. وأجج إهمال إعادة الإعمار مشاعر الغضب على ما دعاه بعض الأفغان بـ«الهروب الثاني» للغرب، بعد أن تخلى عن أفغانستان حين هزم السوفييت.

قال جيمس دوبينز، الذي عمل مبعوثا خاصا لبوش في أفغانستان وكان أول من مثله في كابول المحررة، إن النتيجة في أفغانستان صاغها قرار الحكومة الأمريكية بتجنب أنشطة حفظ السلام، ومعارضة كل من يلعب هذا الدور خارج كابول، وتفادي المشاركة في أنشطة مكافحة المخدرات[62]. أما هدف التحالف الذي قادته الولايات المتحدة في أفغانستان فكان مطاردة الطالبان و«القاعدة»، لا توفير الأمن للشعب الأفغاني[63].

وقال ريتشارد هاس، مدير تخطيط السياسة في وزارة الخارجية في أواخر كانون الأول/ ديسمبر 2001: «لا نريد التورط في عملية بناء الأمم / الدول الاقتحامية التي ربما يعترض عليها الأفغان أو يقاومونها في نهاية المطاف»[64] (وقد يظن المرء بأن القصف عملية «اقتحامية» جائرة أيضا، لكن نفذت العملية برغم ذلك). وحين خيم شبح الحرب على العراق، ظهر عامل آخر عرقل انتشار الأمن في أفغانستان، وهو الاحتفاظ بالجنود لاستخدامهم في العراق[65].

تبع طرد الطالبان من الحكم في أفغانستان إقامة «إدارة مؤقتة» بموافقة الولايات المتحدة، وذلك بالاعتماد بشدة على الأقليتين الاثنيتين الطاجيكية والأوزبكية. الأمر الذي أفرز شعورا بالإقصاء لدى العديد من البشتون في الجنوب، وأوجد مناخا ملائما مكّن عناصر الطالبان و«القاعدة» وأمراء الحرب من أمثال قلب الدين حكمتيار من العمل[66]. وعلى شاكلة الجيش العراقي عام 2003، اختفى الطالبان بسرعة لكنهم عادوا إلى الظهور لإثارة المشكلات لاحقا. وفي نيسان/ أبريل 2003، لاحظ تقرير لوكالات المعونة البريطانية العاملة في أفغانستان أن:

> المؤشرات تدل على أن الطالبان وغيرهم من العناصر الراديكالية نجحوا في جهودهم لإضعاف عملية إعادة الإعمار في جنوب البلاد، على الأقل حين سحبت وكالات المعونة برامجها الفعالة في تلك المنطقة. ومن المحتم أن يزيد ذلك من خطر استعداء السكان البشتون ومعارضتهم للحكومة المؤقتة، ويثير الأسئلة المتعلقة بسلامة ووحدة أراضي أفغانستان كأمة / دولة في المستقبل. وتبدو قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة عاجزة عن عكس هذه النزعة، وهنالك مؤشرات قوية على أنها ربما تعززها[67].

معظم القوة التي تملكها حكومة حامد كرزاي المدعومة من الولايات المتحدة ترتكز على ما يبدو على قادة تحالف الشمال السابقين ـ مثل وزير الدفاع (الطاجيكي) محمد فهيم، الذي عارض قبول أفراد من مجموعات اثنية أخرى في جيشه. واستخدم كرزاي أموال المعونات لمحاولة شراء دعم وتأييد أمراء الحرب، بينما استفاد هؤلاء ـ لا الحكومة المركزية ـ من فرض الضرائب على الطرق التجارية[68]. الأمر الذي أدى إلى ظهور شركاء للغرب على قدر كبير من التنافر، كما لاحظت إيزابيل هيلتون:

كان البريطانيون يشحنون أوراق النقد السائل إلى حضرة علي، رئيس القيادة العسكرية الشرقية في أفغانستان، وإلى أمير الحرب في نانغهار، الذي عمل مع الأمريكان في تورا بورا، وتخصص رجاله في اعتقال الناس بذريعة أنهم من مؤيدي طالبان، ثم تعذيبهم إلى أن تقبل عائلاتهم دفع فدية مالية لإنقاذهم[69].

ولاحظ تجمع لوكالات المعونات البريطانية في نيسان /أبريل 2003وجود «شعور بالاستياء والحنق ربما تولد نتيجة الدعم الذي تقدمه قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة إلى بعض الزعماء المحليين الذين ستكون قاعدة قوتهم هزيلة لولاه»[70]. ومن المؤكد أن العديد من الانتهاكات قد ارتكبت من قبل الميليشيات المسلحة، والقادة المحليين في مختلف المناطق، وقوات الشرطة[71].

لا تتجاوز سلطة الحكومة المركزية في عهد كرزاي حدود العاصمة كابول كثيرا. أما قدرة وحجم الجيش الأفغاني الجديد فلا يشهدان إلا نموا بطيئا[72]. في حين ينحصر نشاط «قوة المساعدة الأمنية الدولية» (بدون الجنود الأمريكان) ضمن نطاق العاصمة[73]. ويبدو أن من المعوقات الكبرى عدم رغبة وزير الدفاع الأمريكي رمسفيلد، الذي انشغل بالتخطيط لحرب العراق، تقييد حرية الجنود الأمريكيين في نطاق عمليات حفظ السلام[74].

في العراق، كما في أفغانستان، جرى التخطيط للتدمير بصورة أكثر دقة وعناية من التخطيط لإعادة الإعمار. فهنا أيضا، أضاف الفشل في تأمين الخدمات الأساسية في ظل النظام الجديد مزيدا من القوة إلى التمرد. وبالرغم من الوعود بالمعونات الضخمة التي أطلقت قبل الحرب[75]، إلا أن الولايات المتحدة أحجمت عن مواجهة التحدي الذهني والمالي لإعادة إعمار العراق، علاوة على عدم السماح للأمم المتحدة أو الاتحاد الأوروبي بلعب دور رئيس هناك. ومثلما قال غايلز فودن في

منتصف عام 2003: «المقاربة الطائشة للإدارة المدنية والمعونات الإنسانية في عراق ما بعد الحرب ضاعفت الانطباع بأن معارضة الشر لا تعني، بالنسبة لبوش وصحبه، فعل الخير»[76]. توني بلير أيضا لم يقدم إشارة واضحة تثبت أنه فكر مليا بكيفية استقبال العراقيين للغزو / الاحتلال[77]

دفع عراق ما بعد صدام ثمنا باهظا لنزعة اختزال مشكلاته كلها في الشر الكامن في صدام ورفاقه البعثيين.فالتنظيم التراتبي للمؤسسة العسكرية الأمريكية جعلها تميل إلى تخيل العدو على شاكلتها، أي تنظيم تراتبي سوف يصاب بضعف قاتل عبر القضاء على قادته الرئيسين. في أواخر عام 1993، قال الخبير الإستراتيجي العسكري جون أركويلا عن مطاردة صدام في العراق: «نحن هيكلية تراتبية ونرغب بمحاربة التراتبيات. نظن بأننا إذا قطعنا الرأس نستطيع إنهاء المسألة»[78]. وجرى استكمال إزاحة صدام بالتفكيك السريع للدولة البعثية: مجموعة يمكن تحديدها من الأفراد الأشرار سوف يجعل استئصالها ـ كما يُزعم ـ الجميع في أمان. وفي الواقع، طرد رئيس سلطة التحالف المؤقتة بول بريمر موظفي الدولة كلهم[79]، وأقصي حوالي ثلاثين ألفا من المسؤولين البعثيين من مناصبهم بشكل آلي (وهي سياسة جرى التراجع عنها جزئيا فيما بعد)[80]. والأخطر من ذلك تسريح جيش يضم حوالي 400 ألف جندي بدون أي برنامج لإعادة التوظيف أو التقاعد. وفي حين أن بنى الدولة هذه قد ثبت تعسفها واستبدادها، إلا أن محاولة إزالتها بين عشية وضحاياها أدت إلى حالة مركبة من انعدام الأمن، بدأت بعمليات نهب وسلب انتشرت على نطاق واسع في أعقاب الهجوم الذي قادته الولايات المتحدة مباشرة. إن تفكيك دولة برمتها بخلال أسابيع قليلة، رغم أنه ينسجم تماما مع الأجندة الليبرالية الجديدة إضافة إلى الدافع إلى أبلسة مجموعة محددة من الأعداء، يمثل مشروعا بالغ الخطورة (طوفان لويزيانا عام 2005، والمعلومات حول الإهمال السابق للحواجز الواقية من الفيضان، والتخطيط لحالات الطوارئ، والمباني المجانية للجميع

في المستنقعات، سرعان ما ستذكر الأمريكيين، بطريقة تلحق ضررا أكبر بالرئيس بوش، بأخطار إيديولوجيا الجمهوريين التي بدت غير مؤمنة بشكل كاف حتى بفكرة الحكومة)[81]. في العراق، تضاعفت أخطار المسؤولين السابقين الغاضبين حين شجع الضرر الذي أصاب الخدمات عمليات التمرد، والنشاطية الدينية الشيعية على وجه الخصوص التي سببت قلقا كبيرا للولايات المتحدة. ومثلما لاحظت «مجموعة الأزمات الدولية»:

> في أعقاب الحرب مباشرة، استحث غياب السلطة المركزية الفعالة في مجتمع اعتمد فيه 60% من السكان على الدولة للحصول على الخبز، الكثيرين على الالتجاء إلى رجال الدين طلبا للعون (وما كانوا ليفعلوا ذلك لولا هذا الغياب). ووفر الناشطون الشيعة خدمات الرعاية الاجتماعية والصحية، إضافة إلى القانون والنظام. وفي غياب قوة شرطية فاعلة، قام الحراس الذين عينهم الزعماء الدينيون بتسيير دوريات في الشوارع وإدارة المستشفيات والجامعات[82].

تولى مقتدى الصدر و«جيش المهدي» حراسة المصانع ضد اللصوص (بل ساعد أفراده في تنظيم حركة المرور) إلى أن استفز بريمر الصدر وجره إلى معركة مكشوفة حين أغلق صحيفته واعتقل وقتل ممثليه[83].

جرى تجاهل تحذيرات عديدة من مغبة عواقب التسريح بالجملة. وبالرغم من تفضيل البنتاغون القيام بعمليات تطهير تشمل أولئك الذين تورطوا مع حزب البعث وصدام، إلا أن وزارة الخارجية أرادت الحفاظ على الجهاز الحكومي سليما، على الأقل حتى يصبح من الممكن إجراء انتخابات[84]. كما توقعت انتشار عمليات النهب والسلب التي حدثت فعلا[85]. وفي نهاية شهر أيار/ مايو 2003، حذر راميرو لوبيز دي سيلفا، كبير مسؤولي الأمم المتحدة للمعونات الإنسانية، من أن القرار المفاجئ

بتسريح الجيش دون برنامج لإعادة التوظيف أو التقاعد، يمكن أن يولد «صراعا خفيف الحدة» في الأرياف، خصوصا نتيجة إجراءات الأمن المشددة في العاصمة [86]. وثبت أن قرارات التسريح شكلت عاملا مهما في التمرد الذي اندلع بعد الاحتلال. وقال ضابط في القوات الأمريكية الخاصة المتمركزة في بغداد إنه بعد حل الجيش «كان رجالي يأتون إلي ويقولون ـ هل يدرك بريمر أن هناك أربعمائة ألف عسكري عراقي يملكون أسلحة جميعا؟ ـ فهل أسهمت هذه القرارات في التمرد؟ الجواب: أجل، قطعا»[87].

الشرطة العراقية تمثل مشكلة أخرى، كالفشل في التعامل مع البطالة. اندرو بالثازور، أحد كبار ضباط الاستخبارات الذي عمل طيلة عشرة أشهر في بغداد، لاحظ في آب/ أغسطس 2004 أن قوات الشرطة العراقية السابقة انخرطت في وقت متأخر جدا في عملية إعادة الإعمار، وأن مشكلة البطالة لم تعتبر ـ نتيجة الحمق ـ أولوية، وأن «العاطلين عن العمل يشكلون خطرا داهما»[88].

الافتراض العملي الذي تبنته الحكومة الأمريكية على وجه الخصوص كان: عند إزاحة صدام (أس المشكلة)، سوف تحل الديمقراطية بشكل طبيعي محله. لكن أثبت الموالون لصدام أنهم يمثلون قوة مهمة، وانضم إليهم القوميون مدفوعين بالرغبة بالاستقلال والأمن، والإسلاميون الراغبون بإعادة الإسلام السياسي إلى العراق[89]. هنالك أسباب وراء غياب الديمقراطية في العراق طيلة القرن العشرين (ليس أقلها الحدود الاستعمارية المصطنعة وقوة التحالفات السنية وسلطتها)، وبقي العديد من هذه الأسباب بدون تغيير. أما إسقاط الحكم التوتاليتاري فيوجد فراغا حتما: ولربما تملك الديمقراطية فرصة، إلا أنها لا تمثل سوى واحد من الأنظمة السياسية التي يمكن أن تملأ هذا الفراغ. علاوة على ذلك، فإن العراق الديمقراطي الحقيقي يمكن أن يمهد السبيل لنوع من الحكومة الإسلامية لا يرغب به الغرب (وساعد على إحباطه في الجزائر).

كمن جزء من مشكلة برنامج «الدمقرطة» الإجبارية الذي تبنته الولايات المتحدة في تهميش الخبراء والمتخصصين[90]. ففي عام 2002، أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية إغلاق «معهد حفظ السلام» التابع للجيش، وهو الوكالة الحكومية الوحيدة المكرسة لدراسة كيفية تحقيق السلام في البلدان الفاشلة أو في أوضاع ما بعد الصراع[91]. وفي نيسان/ أبريل 2003، نقلت صحيفة «الأوبزرفر» عن أحد كبار الدبلوماسيين السابقين في بغداد قوله: «لم يبق مستعربون جادون في الحكومة [الأمريكية] الآن، بل أولئك الذين يبلغون البيت الأبيض ما يريد سماعه. لقد استولت التنانين على مقاليد الأمور»[92]وحين تتعلق المسألة بالقرارات التي تتخذها السلطة الأمريكية في العراق، يتعرض المتخصصون والخبراء العرب في وزارة الخارجية للتهميش بينما يتخذ معظم القرارات أولئك الذين عينهم البنتاغون ويرفعون تقاريرهم إلى رمسفيلد مباشرة[93] ولم يكتف الدبلوماسيون والجنود وخبراء حفظ السلام الأمريكيون بتحذير البنتاغون من أن الفوضى مرجحة في العراق بعد الحرب، بل أكدوا على أن السيطرة على الوضع هناك بحاجة إلى قوات كبيرة من الشرطة العسكرية. لكن، مرة أخرى، جرى تجاهل هذه التحذيرات. وذلك بالرغم من الأدلة التي أثبتتها السوابق التاريخية، مثل الغزو الأمريكي لبنما عام 1989، حيث أصيبت بنما بمعظم الأضرار بعد انتهاء الأعمال الحربية[94].

بغض النظر عن المحاولة الفظة لتفكيك الدولة العراقية، هنالك مشكلة أساسية أخرى يمثلها الفساد وعدم الكفاءة في جهود إعادة الإعمار الخارجية ذاتها. فبحلول الوقت الذي أعلن فيه عن «انتهاء» الاحتلال رسميا في منتصف عام 2004، لم تنفق الحكومة الأمريكية سوى 2% من مبلغ الـ 18، 4 مليار دولار التي حصلت عليه من الكونغرس لإعادة إعمار العراق، وذلك وفقا لما كشفه تقرير للميزانية أصدره البيت الأبيض. ووضعت الحكومة الأمريكية اللوم على انعدام الأمن[95]. عائدات النفط العراقي ضاعت أيضا. إذ وجد تقرير خاص قدم للكونغرس أن غياب ما يكفي من

السيطرة والشفافية كان يعني «عدم وجود ضمان لاستخدام التمويلات [حوالي 8،8 مليار دولار من إجمالي تمويل إعادة الإعمار البالغ 20 مليار دولار الذي جمع من عائدات النفط تحت الاحتلال] للأغراض التي حددها مجلس الأمن الدولي»[96]. فازت شركة «هاليبرتون» بأهم العقود «بدون مناقصات»، وقال كبير ضباط الاستخبارات الأمريكية اندرو بالثازور إن استخدام المتعاقدين بدون مناقصات جعل الأمور أشد سوءا «عبر إبعاد أو تثبيط عزيمة بعض المنظمات الدولية والأهلية غير الأمريكية التي كانت تعمل في القطاعات نفسها التي استخدمت شركات مثل ـ بكتل ـ لإصلاحها وإعادة إعمارها»[97]. أما استخدام العمالة العراقية الرخيصة من الأرياف فقد سبب القلق للعراقيين العاطلين في المدن. وأضاف بالثازور:

كانت سلطة التحالف المؤقتة بمثابة عدو لنا مثلها مثل أولئك الذين يزرعون القنابل على الطرقات ويطلقون النار علينا. إذ اعتبرت المكاسب الأمريكية أو سيطرتها على الوضع أكثر أهمية من الأمن للعراقيين أو الجنود الأمريكيين هناك. وكان معظم موظفيها من الجمهوريين الشبان الذين يرغبون بإضافة «سلطة التحالف المؤقتة» / العراق إلى سيرتهم الذاتية لكي يثبتوا أقدامهم في الحزب[98].

في مراجعة تفصيلية لعمل سلطة التحالف المؤقتة في أيلول / سبتمبر 2004، لاحظ بيتر غالبرايث أن «الصلات السياسية مع الجمهوريين كانت أكثر أهمية من الكفاءة المهنية والحرفية، أو الخبرة الدولية ذات الصلة، أو المعرفة بشؤون العراق»[99]. وجرى أحيانا استبدال الأصدقاء والمقربين السياسيين الجمهوريين بالخبراء المحترفين (يبدو أن ظاهرة المحسوبية هذه قد ساعدت أيضا في إضعاف وكالة إدارة الحالات الطارئة الفيدرالية في أعقاب كارثة إعصار كاترينا في الولايات المتحدة: وكما يشير بول كروغمان: إذا كنت تعتقد بأن الحكومة غير قادرة على فعل ما هو مفيد فلمَ لا تساعد أصدقاءنا في الحصول على حصة من الكعكة؟)[100]في

العـراق، أدى تبـاطؤ وسـوء توجيــه الإنفـاق الأمـريكي من خـلال سلطة التحـالف المؤقتة (التي يسميها بعض العراقيين «السلطة العاجزة المؤقتة») إلى تفاقم مشكلة البطالة التي بلغت حـوالي 50% [101]، الأمـر الذي ضـاعف شـعـور المرارة لدى العراقيين. أما تهميش سلطة التحالف المؤقتة للسياسيين الشيعة الذين يتمتعون بالشعبية فجعل من الأسهل على مقتدى الصدر تصوير الحكومة الانتقالية كأداة في يد الاحتلال الأمريكي. واستجاب رئيس الحكومة الانتقالية إياد علاوي كما أمل مقتدى الصدر، حيث فوض مشاة البحرية بمهاجمة المتمردين الشيعة في مدينة النجف الأشرف، مما أدى إلى مقتل المئات وانضمام مجندين جدد إلى الصدر. وفي هذه الأثناء، لم يكن الجيش العراقي تحت سلطة التحالف المؤقتة يمثل قوة جدية. أما الاستثناء فكان كتيبة الحرس الجمهوري 36 (ومعظم أفرادها من الميليشيات الكردية) التي استخدمت لاقتحام الفلوجة والنجف، مما فاقم حدة التوترات بين الشيعة والكرد[102].

ملاحظات ختامية

إذن، أدى التركيز على استئصال أشرار يمكن تحديدهم إلى إهمال قضايا إعادة الإعمار المعقدة، وتشجيع الحلول التي لا تتصل سوى بعلاقة واهية (أو لا تتصل على الإطلاق) بالمشكلات التي فرضها الإرهاب، مع تفضيل الحل السهل على الحل المنطقي.

ومن المهم في دلالته أن فعل مطاردة السحرة الانعكاسي يبدو قابلا للتمدد والتوسع بدون حدود. لسبب واحد هو أن تحديد هوية أعداء الخارج سار عادة جنبا إلى جنب تحديد هوية عناصر «الطابور الخامس» في الداخل، وهي ظاهرة سنقوم باستكشافها في الفصل التاسع. علاوة على ذلك، ازدهر الاضطهاد السياسي ـ مثلما رأينا ـ في عدد كبير من البلدان التي انضمت إلى «الحرب على الإرهاب».

لربما تكون حملات مطاردة السحرة مفيدة أيضا في محاولات التكيف مع الانتهاكات المفضوحة التي ارتكبها «الطرف الذي نقف معه». في الاستجابة لما حدث في سجن «أبو غريب» (مثلما هي الحال في الحرب الأصلية على الإرهاب)، ثبت أن من الأنسب والأسهل استحضار فكرة أن مسؤولية السيئات تقع على عاتق حفنة من «الأشرار»؛ قلة من «التفاحات الفاسدة». على سبيل المثال، حرص بوش على إنكار حقيقة أن عمليات التعذيب تعكس سياسة رسمية أو تماثل الانتهاكات في غوانتانامو وأفغانستان[103]. في بريطانيا، وضعت صحيفة «صن» صورة ليندي انغلاند تحت عنوان عريض: «الساحرة»[104].

في الواقع، لم تكن الانتهاكات التي حدثت في «أبو غريب» مجرد أفعال سادية فردية ارتكبتها حفنة قليلة من «الأشرار»: بل كانت أيضا نتاجا للخوف، والعنصرية، والإشارات القادمة من القمة. وقرر بوش في السابع من شباط / فبراير 2002 أن مقاتلي «القاعدة» وطالبان في أفغانستان سيحرمون من حق الحماية التي توفرها لهم معاهدة جنيف، مما أدى إلى ظهور مشكلة خاصة نظرا للجهود اللاحقة لنقل التقنيات المستخدمة في غوانتانامو إلى «أبو غريب»[105]. وقدم محامو وزارتي العدل والدفاع الحجة على أن بمقدور الأمريكيين تعذيب السجناء والأسرى وتجنب التهم الجنائية[106]. وصادق رمسفيلد في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2003 على تقنيات الاستجواب بما فيها استخدام القلنسوة المخروطية، وتعرية المساجين، والاستفادة من الرهاب الفردي (مثل الخوف المرضي من الكلاب) لإحداث الشدة والتوتر[107] (أبطل هذه الأساليب كما قيل بعد معارضة شديدة من محامي البحرية). ومن اللافت أن فكرة إمكانية القضاء بالقوة المادية على الشر ميزت الاستجابة إلى فضيحة «أبو غريب» إضافة إلى «الحرب على الإرهاب». استجابة بوش الرئيسة لفظائع «أبو غريب» تمثلت في اقتراح هدم السجن (رغم أنه أهمل توفير التمويل اللازم لهدمه في ميزانيته!)[108].

في حين أن التشديد على «بضعة أشرار» يميز الاستجابة للانتهاكات التي يرتكبها الأعداء والأصدقاء على حد سواء، إلا أن هناك فارقا بارزا فيما يتعلق بالدرجة التي يعتبر عندها العنف لامركزيا. فإلى جانب المبالغة في لامركزية العنف في العمليات التي تقوم بها الأطراف الصديقة («لا توجد أوامر بممارسة الانتهاكات»)، هنالك محاولة منهجية لزيادة درجة مركزية عنف العدو. أما الأخطار هنا فذات حدين: أولا، يؤيد هذا الأسلوب في التفكير والحديث الانتهاكات التي يرتكبها الصديق، ثانيا، يعزز الاستراتيجيات ذات النتائج العكسية القائمة على إبادة حفنة من «الأشرار» أو الأنظمة «الشريرة».



6
التراجع عن التفكير القائم على البينة والدليل

في آب/ أغسطس 2004، لاحظت مجلة «الايكونوميست» اللندنية أن «السيد بوش قد أصاب في قرارات سياسته الخارجية الكبرى.. فوفقا للدليل الذي ظهر آنئذ، كان محقا حين قرر غزو العراق»[1]. لكن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة، فالدليل لم يظهر من تلقاء نفسه: بل جرى السعي إليه، والتركيز عليه، وتفسيره، وتشويهه وتحريفه، وأحيانا تجاهله[2].

المقاربة الاستثنائية الغريبة التي تبنتها إدارة بوش لـ«الدليل»، خصوصا فيما يتعلق بالعراق، تستحق التفحص والتقصي بمزيد من التفصيل.

تشمل أي مقاربة تقليدية للجريمة البحث عن دليل يشير إلى من يتحمل المسؤولية، ثم إثبات هذا الدليل، ثم إنزال العقوبة بالمذنب. لكن هذا الإجراء وضع جانبا فيما يتعلق بجرائم الحادي عشر من سبتمبر الشنيعة. أولا، سبق اختيار العراق كهدف أحداث الحادي عشر من سبتمبر بوقت طويل: في الواقع، سبق التجريم الجريمة. ثانيا، لم يكن ثمة دليل دامغ (كما لاحظنا) يربط العراق بأحداث الحادي عشر من سبتمبر. ثالثا، أنكرت إدارة بوش بشكل مفاجئ وواضح وصارخ الحاجة إلى بينة أو دليل[3]. وفي حين شكل خداع الرأي العام بالتأكيد جزءا مهما من القصة، إلا أن ما كان أقل توثيقا هو المدى الذي وصل إليه كبار صناع القرار في تبني (وأحيانا التعبير بشكل سافر عن) فكرة عدم الحاجة إلى دليل يعتمد عليه أمر جدي وخطير (ومثير للفتن) كالحرب. اقترب دونالد رمسفيلد من الاعتراف

بذلك حين قال: «عدم وجود دليل ليس دليلا على عدم وجود أسلحة دمار شامل»[4]. وعلى وجه العموم، أصبح الدليل شيئا يمكن أن تجمعه وترتبه (وتحرّفه) لدعم موقف تبنيته مسبقا. ومن اللافت أن أحدا لم يخجل من تبني هذا الإجراء. ففيما يتعلق بالتبريرات المعلنة للحرب على أقل تقدير، مثل أسلحة الدمار الشامل والصلات مع «القاعدة»، عمل دعاة «الحرب على الإرهاب» على أساس عدم الحاجة إلى المعرفة والفهم.

النبوءة التي أرهصت لمقاربة إدارة الرئيس بوش (الابن) لمسألة الأمن ظهرت في أعقاب حرب الخليج عام 1991 على شكل مسودة وثيقة، كتبها بول ولفوفيتز ولويس ليبي، وتسربت في ربيع عام 1992. وكان الاثنان يعملان آنذاك محللين في البنتاغون، تحت رئاسة ديك تشيني. الورقة دعت إلى تفوق الولايات المتحدة على أوراسيا (أوروبا وآسيا معا) عبر منع صعود أي قوة معادية محتملة، وأيدت سياسة الضربات الاستباقية ضد الدول التي يشتبه بأنها تطور أسلحة دمار شامل[5]. وفي عام 1997، وضعت مجموعة من المفكرين المحافظين برئاسة وليام كريستول «مشروعا» للقرن الأمريكي الجديد، مع «بيان بالمبادئ» دعا إلى نوع جديد من الإنفاق الدفاعي وشدد على وجوب أن تواجه أمريكا تحديات تفوّقها. ومن بين الموقعين شقيق بوش جيب، وديك تشيني، وكبير موظفيه لويس ليبي[6]. ونحن نعرف الآن أن هناك خطة محددة وضعها منذ زمن طويل المحافظون الجدد للإطاحة بصدام حسين[7] (رغم أن بوش لم يكلف نفسه عناء إعلام الناخبين بها في حملة انتخابات عام 2000). في كانون الثاني/ يناير 1998، كتبت مجموعة مشروع القرن الأمريكي الجديد «رسالة إلى الرئيس كلينتون حول العراق» تستحثه على إزاحة صدام عن السلطة. وأضيف إلى الموقعين دونالد رمسفيلد، بول ولفوفيتز، ريتشارد ارميتاج (الذي أصبح معاونا لكولن باول في وزارة الخارجية)، ريتشارد بيرل (رئيس هيئة سياسة الدفاع فيما بعد)[8]. ومع انتخاب جورج بوش، أصبح ديك تشيني نائبا

للرئيس، وعُيّن ولفوفيتز نائبا لوزير الدفاع، وليبي رئيسا لموظفي تشيني ومستشارا لشؤون الأمن القومي[9]. وثبت أن انتخاب جورج بوش (الابن) ـ وحتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر ذاتها ـ يمثل فرصة مهمة لأفراد جماعة تمتعت بنفوذ قوي في عهد إدارة ريغان، لكنها تعرضت للتهميش في عهد كل من إدارتي بوش (الأب) وكلينتون[10]. عمل رمسفيلد مبعوثا خاصا إلى العراق في عهد ريغان، ووزيرا للدفاع في عهد فورد (1975-1977)، حيث استغل المخاوف من القوة السوفييتية لزيادة سلطة المؤسسة العسكرية الأمريكية على حساب وكالة المخابرات المركزية (CIA) ثم عاد إلى البنتاغون في كانون الثاني/ يناير 2001 كوزير للدفاع.

ولربما يتوقع المرء من مسؤولي السياسة الخارجية مراكمة الأدلة على التهديدات المحتملة، ثم اختيار الرد المناسب. لكن العراق جسد حالة بدا فيها أن عددا من كبار المسؤولين الأمريكيين حددوا وقرروا مصدر التهديد أولا ثم جمعوا الأدلة وركَموا البينات التي تناسب وتثبت نظريتهم. ومن المهم في دلالته أن وزير الخزانة بول اونيل ذكر أن التخلص من صدام مثّل أولوية بالنسبة لبوش وحلقته الداخلية منذ بداية عهد إدارته[11]. ولاحظ أيضا أن المناقشات تركزت على كيف ينبغي التخلص من صدام، وليس لماذا ولا حتى لماذا الآن[12]. في حالة العراق، لم يظهر جديد فيما يتعلق بمزاعم امتلاكه أسلحة دمار شامل: فقد تم احتواء برنامج أسلحته منذ عقد من السنين (بعد أن لعب الغرب دورا مفتاحيا في بناء صناعة الأسلحة العراقية)[13]. يقول الصحفي المحقق سيمور هيرش إنه وفقا لمستشار البنتاغون الذي عمل في «مكتب الخطط الخاصة»:

> رسمت خطط خاصة [في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر] من [أجل العثور على دليل يثبت ما يؤمن به] نائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز ورئيسه وزير الدفاع دونالد رمسفيلد: وجود صلات تجمع صدام حسين

بـ«القـاعـدة»، وامتـلاك العـراق ترسـانة هـائلة من الأسلحـة الكيـمـاوية والبـيـولـوجـيـة وربما النـووية، تهـدد المنطـقـة، ويمكن أن تهـدد الـولايات المتحدة[14].

(من المثـيـر للقلق أن مكتب الخطط الخـاصـة سـيـشـارك لاحـقـا فـي تنسـيق المعلومات المتعلقة بالتهديد القـادم من إيران)[15]. في بريطانيا، ربما وجد «المكتب» نظيره في «عملية روكينغام» التي أسسها موظفو استخبارات الدفاع في وزارة الدفاع عام 1991 وشاركت فيما بعد في «قطاف الكرز»، وهي عملية استخبارية غرضها إثبات وجود برنامج عراقي نشط لأسلحة الدمار الشامل[16].

في آذار/ مـارس 2001، أبلغ ريتشـارد بيـرل، رئيس هيـئة سيـاسـة الدفـاع في البنتـاغون آنذاك، أبلغ لجنة فـرعية للعـلاقات الخـارجيـة في مجلس الشيوخ بأن لدى صدام حسين أسلحة كيماوية وبيولوجية، وأضاف:

أظن بـأننا لا نعلم مـدى مـا وصل إليـه في مـجـال الأسلحـة النـووية. وأحسب أنه تجـاوز حدود ظنوننا. الأمـر يتـجـاوز دائمـا مـا نعتـقـده لأننا نقـيـد أنفـسنا، حين نفكر في المسـألة، ضـمن إطار مـا نسـتطيع إثبـاته وإظهار[17].

لم يفتقد هذا البلاغ المنطق كليا: ففي عالم سريع الحركة يمكن أن تمتلك بعض الدول أسلحة لا تعرف الدول الأخرى عنها شيئا. لكن هذه المقاربة بالغة الخطورة. فهي تهدد بظهور عالم يمكن أن تشن فيه حرب «استباقية» لمجرد الحدس الظني. وحين سئل ولفوفيتز عن الدليل على الصلة بين العراق و«القاعدة» (خصوصا حول اللقاء المزعوم في براغ بين محـمـد عطا قـائد مـجـمـوعـة الإرهابيين الذين نفـذوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر وبين عدد من المسؤولين العراقيين) أجاب: «أعتقد أن فـرضـيـة السـيـاسـة يجب أن تكون: لا يمكننا أن ننتظر دليـلا يتـجـاوز حـدود الشك

المعقول»[18]. مثل هذه التصريحات والعبارات تظهر رفضا واضحا لعالم الأدلة والبينات لصالح الحدس والتخمين، واستعدادا صريحا لاعتناق حقيقة لا يمكن إثباتها وإظهارها. وشدد ولفوفيتز على أنه لا يستطيع الغوص في التفاصيل لأن المعلومات «سرية»[19]. وذكر بوب ودوارد أن ولفوفيتز «أسهم في فكرة رمسفيلد التي تؤكد على أن افتقار شيء إلى دليل لا يعني عدم وجوده»[20]. وطبق هذا المنطق على وجود أسلحة دمار شامل عراقية وعلى الصلات المزعومة بين العراق و«القاعدة». ولاحظ ريتشارد بيرل في معرض تقدير حجم التهديد الذي يمثله العراق وصواب وخطأ مهاجمته: «لا يمكن أن نعرف بشكل أكيد. لكن على أي جانب من الأفضل أن نخطئ؟»[21]. كلمات أخرى، إذا كنا لا نعرف هل يوجد تهديد أم لا، فمن الأفضل أن نهاجم على أية حال، من باب الاحتياط، أو: «حين ترتاب اضربْ!». لكن، ومثلما قال الكاتب الفرنسي ميشيل دو مونتان (عاش في القرن السادس عشر) عن محاكم التفتيش إنها «تضع الحدوس والتخمينات في مرتبة اليقين بحيث يمكن حرق إنسان حي اعتمادا على حجتها»[22]. وفيما يتعلق بالأزمة العراقية، قال وزير الخزانة بول اونيل فيما بعد إن سياسة الضربات الاستباقية التي جرى التشديد عليها مؤخرا أوجدت عبئا ثقيلا من المسؤولية التي تفرض عليك أن تكون مصيبا، لكن السياسة في الولايات المتحدة لم تعد تتعلق بالصواب: بل بالفوز[23]. لربما تكون الطريقة المثلى لنزع الشرعية عن شيء هي مساواته بآخر مريع فعلا، كالحرب النووية على سبيل المثال. وهذا بالضبط ما فعله بوش مع فكرة الدليل، حين أعلن في تشرين الأول/ أكتوبر 2002: «لا يمكننا انتظار الدليل الحاسم والنهائي، الدليل الدامغ، الذي يمكن أن يأتي على شكل سحابة الانفجار النووي»[24].

على أي حال، احتل الدليل المرتبة الثانية بعد ما "يمكن فعله". ذكر بوب ودوارد أن موقف ولفوفيتز كان في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر مباشرة:

يشير إلى أن مهاجمة أفغانستان ستكون أمرا محفوفا بالخطر وعدم اليقين. وأقلقته فكرة تورط مئة ألف جندي أمريكي في معارك جبلية في أفغانستان بعد ستة أشهر من الآن. وبالمقابل، كان العراق هشا، يحكمه نظام قمعي يمكن أن يتهاوى بسهولة. الأمر يمكن فعله. وتبعا لتقديراته فإن احتمال تورط صدام في هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية تتراوح نسبته بين 10-50% [25].

لا يعرف أحد كيف تم التوصل إلى هذه النسب والأرقام، نظرا لعدم وجود دليل يثبت صلة صدام بالحادي عشر من سبتمبر. مثل هذه القرارات القائمة على الحدس والتخمين لن تكون مقبولة على أساس معاقبة فرد، ناهيك عن شن حرب شاملة. وإذا كنا نتجادل حول النسب والأرقام، فلم لا نلفق احتمالا تتراوح نسبته بين 10- 90%أو حتى بين 0-100%؟ وهذه النسبة الأخيرة ستغطي الاحتمالات كافة!

إذا كانت فكرة إثبات الذنب خارج نطاق الشك (المعقول) تشكل ركيزة محورية للقانون، فإن إبطال مفهوم الدليل ينسجم مع رغبة الولايات المتحدة في تجاهل القانون الدولي، بغض النظر عما إذا تمثل ذلك في شن حرب عارضتها غالبية أعضاء مجلس الأمن، أو تجاهل معاهدات جنيف حول سجن ما سمي بأسرى «مقاتلي العدو» بدون محاكمة أو حرمانهم من الحق في استشارة محامين (في معسكرات غوانتانامو، أو قاعدة باغرام الجوية في أفغانستان، وفي داخل العراق). لقد كان اعتقال المسلمين المشتبه بضلوعهم في الإرهاب اعتباطيا وعشوائيا في أغلب الحالات: هذه الممارسة القائمة على الفعل التجريمي أولا ثم الانتظار أملا بظهور الدليل تجسد من جوانب عدة مبدأ العمل ذاته الذي استخدم لمهاجمة العراق[26].

يبدو أن الخطوة المتطرفة المتمثلة في تجاهل مفهوم الدليل قد غلفت بقشرة براقة من المصداقية الفكرية من قبل المسؤولين والمحللين الذين اعتمدوا على كتابات

ليو شتراوس أستاذ جامعة شيكاغو (بمن فيهم بول ولفوفيتز ووليام كريستول)[27].
فقد أصبح تلميذ شتراوس السابق ابرام شولسكي (حصل على الدكتوراه تحت إشرافه) مديرا لمكتب الخطط الخاصة التابع للبنتاغون، ونشر مع غاري شميت (أحد أعضاء مجموعة مشروع القرن الأمريكي الجديد) مقالة عام 1999 بعنوان: «ليو شتراوس وعالم المخابرات». يقول سيمور هيرش ملاحظا:

> انتقد شولسكي وشميت، مرددين صدى موضوعات شتراوس الرئيسة، مجتمع الاستخبارات الأمريكية بسبب فشله في تقدير الطبيعة المنافقة للأنظمة التي يتعامل معها: حساسيته تجاه مفاهيم علم الاجتماع حول الدليل، وعجزه عن التعامل بنجاح مع عمليات الإخفاء المتعمد[28].

ونقل هيرش عن خبير سابق في وكالة المخابرات المركزية (CIA)، شغلته طيلة سنوات العقد الماضي شؤون المنفيين العراقيين، قوله عن موظفي مكتب الخطط الخاصة: «يعتبرون أنفسهم لا منتمين. هنالك درجة مرتفعة من ذهان الارتياب بينهم. لقد أقنعوا أنفسهم بأنهم في صف الملائكة، وكل من عداهم في الحكومة عبارة عن حمقى»[29].

قدم ليو شتراوس الحجة على وجوب إعادة توكيد السياسيين الأخيار على القيم الأخلاقية المطلقة التي توحد المجتمع. وشعر بالقلق من النسبوية: فكرة عدم وجود حقيقة مطلقة أو موضوعية. وأكد على أن للدين وظيفة سياسية حيوية تتمثل في ضمان النظام الاجتماعي ــ أو ما دعاه أفلاطون «الكذبة النبيلة». وفي الحقيقة، مع أن شتراوس اعتبر ملحدا، إلا أنه وجد الدين مفيدا لأنه «يولد الإذعان والامتثال للطبقة الحاكمة»[30]. هذه الازدواجية تعكس مناقشة شتراوس لرأي ميكيافيللي القائل إن الأمير الحاكم لا يجب أن يكون متدينا، ولكن ينبغي أن يبدو كذلك في الظاهر، نظرا لأن الجماهير المتدينة ضرورية للنظام الاجتماعي[31]. ومن المهم أيضا

على ما يبدو بالنسبة لشتراوس وأولئك الذين أثر فيهم فكرة إخفاء الأشياء عن عامة الشعب غير القادرة على فهمها[32]. ولم يكن من الصعب تخيل كيف غذى هذا الأسلوب من التفكير الإعلاء من شأن «الإيمان» وتشويه البينة وتحريف الدليل. ولا رؤية التآزر بين أسلوب التفكير هذا و«ردة فعل» الجمهوريين ـ كما حللها توماس فرانك ـ التي حولت السخط الاقتصادي والاجتماعي إلى غضب على تشكيلة متنوعة من «القضايا الأخلاقية».

شجعت الإشارات الصادرة عن القمة إنتاج معلومات منحازة تفتقد الدقة والنزاهة. ومثلما قال بول اونيل، الذي طلب منه أن يستقيل من منصب وزير الخزانة في كانون الأول/ ديسمبر 2002:

> إذا اشتغلت بأسلوب معين ـ عبر القول هكذا أريد تبرير ما قررت مسبقا فعله، ولا يهمني كيف تنجزه ـ فإنك تضمن الحصول على معلومات خاطئة وأحادية الجانب.. ولست مضطرا لإصدار بيان، أو أن تُكره على شيء لا ترغبه، أو أن تكون صريحا[33].

إن استخدام إشارة عامة صادرة من القمة حول نوع الدليل المطلوب يشترك ببعض أوجه الشبه مع استخدام الإشارات المرسلة فيما يتعلق بالتعذيب والانتهاكات التي مارسها جنود التحالف: ينقل مارك دانر عن محام لأحد المتهمين بممارسة الانتهاكات في العراق، الرقيب ايفان فريدريكس، قوله:

> القصة لا تتعلق بالضرورة بوجود أوامر مباشرة. فالجميع أكثر حنكة ومراوغة وذكاء من ذلك.. واقعيا، هنالك وصف لنشاط، اقتراح ربما يكون مفيدا، تشجيع على أن ذلك ما نحتاجه بالضبط[34].

استخدم أيضا الضغط المباشر لتحريف الدليل على أسلحة الدمار الشامل. فقد اتهم كبير مفتشي الأسلحة هانس بليكس إدارة بوش بالضغط على أفراد فريقه

من أجل استعمال لغة أشد إدانة في تقاريرهم[35]. أما رئيس جهاز المخابرات البريطانية(MI6)، السير ريتشارد ديرلوف، فأبلغ الحاضرين في اجتماع عقد في مقر الحكومة البريطانية في تموز/ يوليو 2002 أن «الاستخبارات والحقائق تُبنت حول السياسة» في الولايات المتحدة[36]. وذكر روبرت دريفوس في كانون الأول/ ديسمبر 2002:

> إن البنتاغون يمارس ضغطا لا يلين لدفع الوكالة [المخابرات المركزية] إلى تقديم تقارير استخبارية أكثر دعما للحرب على العراق، وذلك وفقا لمسؤولين سابقين في الوكالة.. ويقال: إن الروح المعنوية داخل جهاز الأمن الوطني الأمريكي متدنية، حيث شعر الموظفون بثقل التهديد والترهيب والضغط لتبرير الاندفاع إلى الحرب[37].

لم تساعد الإخفاقات السابقة لوكالة المخابرات المركزية في مقاومة هذا الضغط. إذ فقدت مصداقيتها بسبب فشلها في توقع أو توقي هجمات الحادي عشر من سبتمبر. على سبيل المثال، لم تضع أسماء ناشطي «القاعدة» الذين تلاحقهم على قائمة المراقبة لدى سلطات الهجرة[38]. وكان ذلك مجرد خطأ واحد ضمن سلسلة طويلة من الأخطاء التي ارتكبتها ــ لم يقتصر الأمر على الفشل في توقع انهيار الاتحاد السوفييتي فقط، بل في التحذير من الهجمات الإرهابية على مركز التجارة العالمية (1993)، وعلى السفارتين الأمريكيتين في شرق إفريقيا (1998)، وعلى المدمرة «كول» (2000). ثم هنالك فشل الوكالة في ملاحظة التجربة النووية التي أجرتها الهند تحت الأرض عام 1998 [39]. وحيثما تكون المعلومات ضعيفة والتوقعات ناقصة، يكون من الأسلم ــ بيروقراطيا ــ المبالغة في حجم التهديدات لا التقليل من شأنها. ووفقا لما قاله ميل غودمان من «مركز السياسة الدولية»: منذ عام 1998، اتخذ تحليل وكالة المخابرات المركزية للبرامج الصاروخية في العالم الثالث نكهة السيناريو الأسوأ، مع المبالغة والتهويل من حجم التهديد للأمن القومي

الأمريكي، «وتسييس المعطيات والبيانات الاستخبارية في العملية»[40]. وعلى نحو مشابه إلى حد ما، يشير جون كامبفنر إلى أن الاستخبارات الأمريكية والبريطانية، بعد فشلها في تقديم تحذيرات محددة بما فيه الكفاية من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، لم ترغب بأن تتهم بالتقصير حول صدام حسين[41].

يبدو أيضا أن قدرة الوكالات الاستخبارية على قول الحقيقة قد ضعفت نتيجة التنافس بينها، وبتعبير أقل لباقة، إذا لم تقدم الجواب المطلوب فسيفعل ذلك غيرك! ويبدو أن إدارة بوش قد فضلت التحليل الذي قدمه المؤتمر الوطني العراقي (مجموعة معارضة في المنفى) حول العراق على ذلك الذي قدمته وكالة المخابرات المركزية. لكن قدرة «المؤتمر» على جمع المعلومات الاستخبارية كانت عند الحد الأدنى. وفي الحقيقة، قال المسؤول السابق في الوكالة وخبير مكافحة الإرهاب فينسنت كانيسترارو إن «المؤتمر الوطني العراقي» لم يميز بين الاستخبارات والدعاية، حيث استخدم المخبرين والمنشقين المزعومين ليقولوا ما أراد رئيسه أحمد الجلبي قوله[42].

الإفراط في الانتقائية في اختيار الحقائق ساعد على إثبات نظرية متبناة مسبقا. الرئيس بوش استشهد باللواء حسين كامل، المسؤول السابق عن برامج الأسلحة العراقية قبل أن يفر إلى الأردن مع شقيقه العقيد صدام كامل في آب/ أغسطس 1995، وبالأدلة التي قدماها على أساس أن ذلك يمثل اللحظة التي:

أجبر فيها]نظام صدام [على الاعتراف بإنتاج أكثر من ثلاثين ألف لتر من جراثيم الجمرة الخبيثة وغيرها من المواد البيولوجية المميتة.. إن ذلك يشكل مخزونا هائلا من الأسلحة الجرثومية لم يكن معروفا، وهو قادر على قتل الملايين[43].

هنالك بالتأكيد معلومات مرعبة. لكن السجل الكامل لمقابلة حسين كامل مع مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة يظهر أنه قال أيضا إن مخزون العراق من

الرؤوس الحربية الكيماوية والجرثومية، التي تم تصنيعها قبل حرب الخليج عام 1991، قد جرى تدميره، وكان ذلك في العديد من الحالات استجابة لعمليات التفتيش المستمرة[44].

في السابع من أيلول/ سبتمبر 2002، استشهد بوش بتقرير وكالة الطاقة الذرية الدولية حول الزيارة الأولى التي قام بها المفتشون إلى العراق، وقال إن التقرير لاحظ بأن العراق على بعد ستة أشهر من تطوير أسلحة نووية. وأضاف: «لا أعرف دليلا أقوى نحتاجه». لكن وكالة الطاقة ذاتها أوضحت أنها لم تصدر مثل هذا التقرير[45]. وفي خطابه أمام الأمم المتحدة (12/ 9/ 2002)، ذكر الرئيس الأمريكي أن العراق اشترى أنابيب من الألمنيوم وقال إنها: «استخدمت لتخصيب اليورانيوم وإنتاج أسلحة نووية». لكن وكالة الطاقة سارعت إلى التأكيد على أن حجم الأنابيب لا يناسب عملية تخصيب اليورانيوم، وأنها مماثلة لتلك التي استخدمها العراق سابقا لصنع صواريخ المدفعية التقليدية. وبالرغم من دحض وكالة الطاقة للتهمة في كانون الثاني/ يناير 2003، إلا أن كولن باول كررها في خطابه أمام الأمم المتحدة في الخامس من شباط / فبراير[46]. وكانت وكالة المخابرات المركزية قد حذرت في عام 2001 من أن الوثائق التي قصد منها إظهار أن العراق حاول شراء 500 طن من اليورانيوم من النيجر كانت مزيفة. ومع ذلك استشهد بوش بهذه الوثائق في خطابه عن حالة الاتحاد في ربيع عام 2003 [47]وفي السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2002، ألقى بوش خطابا حذر فيه من أن العراق يمتلك أسطولا متناميا من الطائرات التي تطير بدون طيار يمكن أن تجهز بأسلحة كيماوية أو جرثومية وتستخدم «في مهمات تستهدف الولايات المتحدة». لكن هذه الطائرات في الواقع لا يصل مداها إلى الولايات المتحدة[48].

ملف أسلحة الدمار الشامل العراقية الذي أعد في بريطانيا جرى التلاعب به بشكل كبير في أيلول/ سبتمبر 2002. فقد دُعيت المسودات المبكرة «برنامج العراق

لأسلحة الدمار الشامل»، لكن دعي الملف المنشور «أسلحة الدمار الشامل العراقية». أما مقدمة توني بلير فتشير إلى أن تخطيط صدام العسكري أتاح لبعض من أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها «أن تكون جاهزة في خلال 45 دقيقة من إصدار الأمر باستخدامها». لكن أوضحت المسودة الأولية أن صدام حسين لا يمكنه شن هجوم نووي على بريطانيا: فحذف التوضيح من الملف. ووفقا للاستخبارات فإن الأسلحة الكيماوية والبيولوجية لا يمكن استخدامها إلا في ساحة المعركة، لكن الملف أعطى انطباعا مفاده أن هذه الأسلحة بعيدة المدى، ولم تصحح التقارير الصحفية تبعا لذلك أبداً[49] واستشهد بوش مرتين بادعاء «الخمس وأربعين دقيقة» حسبما ورد في الملف البريطاني[50]، لكن مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت أشار سرا إلى «هراء الهجوم العراقي بخلال خمس وأربعين دقيقة»[51].

ملف الحكومة البريطانية الذي نشر في نهاية كانون الثاني/ يناير 2003، واستشهد به كولن باول في خطابه أمام مجلس الأمن الدولي في الخامس من شباط / فبراير 2003 باعتباره «وثيقة ممتازة»، انتحل معظمه في واقع الأمر عن ورقة بحث لطالب متخرج من الجامعة، اعتمدت إلى حد كبير على معلومات عمرها أكثر من عشر سنين[52]. ووفقا لتقرير أصدرته لجنة الشؤون الخارجية البريطانية (في تموز/ يوليو 2003)، فإن «من المرجح على ما يبدو أن بريطانيا لم تحصل إلا على معلومات استخبارية بشرية محدودة يمكن الوثوق بها في العراق، ونتيجة لذلك ربما اعتمدت اعتمادا شديدا على المعلومات الاستخبارية الأمريكية التقنية، وعلى المنشقين والمنفيين الذين يتبنون أجندة خاصة بهم»[53].

حين جرى اتباع الحدوس والتخمينات (بدلا من الإجراء القائم على الدليل)، وفر مبدأ «الدفاع الوقائي عن النفس» مجالا واسع النطاق. أما أعظم مزايا هذا المبدأ فهي أن العدو الذي يقع الاختيار عليه لا يجب بالضرورة أن يكون قد فعل

شيئا. دونالد رمسفيلد على وجه الخصوص قدم الحجة على أن القضاء على الأعداء التقليديين والتهديد الإرهابي الداهم يحتاج إلى نوع جديد من سياسة الأمن يعتمد، في صياغته الغامضة شبه الباطنية، على الحاجة إلى «ردع وهزيمة الأعداء الذين لم يظهروا ويتحدونا بعد»[54]. وعلى نحو مشابه، أبلغ الرئيس بوش طلاب كلية «ويست بوينت» الحربية في منتصف عام 2002 بأن «علينا نقل المعركة إلى العدو، وعرقلة خططه، ومواجهة أخطر التهديدات قبل أن تظهر»[55]. لقد جرى دمج الحاضر والمستقبل بشكل خطير حسبما أشار بريان ماسومي[56]. وحين سئل بوش على محطة «ايه بي سي» التلفزيونية عن «الحقيقة الثابتة حول وجود أسلحة دمار شامل، مقابل احتمال أن يمتلك [صدام] هذه الأسلحة»، أجاب: «ما الفرق؟»[57]. وأضاف رمسفيلد مزيدا من الغموض على قضية أسلحة الدمار الشامل حين قال عباراته التي لا تنسى:

> هنالك أشياء نعرف أننا نعرفها. وهناك مجاهيل معروفة. أي أشياء نعرف بأننا لا نعرفها. لكن هناك أيضا مجاهيل مجهولة. أشياء نجهل أننا نجهلها.. في كل سنة، نكتشف مزيدا من هذه المجاهيل المجهولة[58].

اعتبر رمسفيلد «المجاهيل المجهولة» قاتلة حقا وفعلا[59] نحن الآن نغوص عميقا في غيهب العالم الكئيب المظلم لفيلم ستيفن سبيلبرغ «تقرير الأقلية»، حيث تسعى شرطة «مكافحة الجريمة قبل وقوعها» للقضاء على المجرمين قبل أن يرتكبوا جرائمهم. ومن المهم في دلالته أن هناك خطوات إجرائية لتوسيع مبدأ الفعل الاستباقي ليشمل المجال المحلي، مثلما اقترح وزير الداخلية البريطاني السابق في أوائل عام 2004 بأن من المتوجب سجن أولئك الذين ربما يصبحون انتحاريين قبل أن يسببوا الأذى، وأن من الممكن محاكمتهم اعتمادا على معيار أدنى من الأدلة أمام محاكم سرية[60]. ويلح مبدأ الفعل الاستباقي الجديد على أننا سنكون في حال أفضل إذا استطعنا التدخل لوقف الاعتداء قبل وقوعه بدلا من التكتيك الحالي

"المتأخر جدا" والقائم على محاولة معاقبة المجرمين حال وقوع الجريمة (معروف أيضا باسم القانون!). وبالطبع يثير الأسلوب الجديد مشكلات صغيرة فيما يتعلق بكيفية معرفة ما هي الجرائم أو الاعتداءات التي ستحدث، ومن الذي سيرتكبها، ومن سيتخذ القرار بالتدخل و«منعها»، وكيفية التعامل مع مشاعر الغضب التي ستملأ أولئك الذين سيتهمون خطأ.

هنالك بعض المؤشرات الدالة على أن الهدف، بالنسبة لإدارة بوش، ليس دراسة الواقع (ثم تأسيس السلوك عليه) بقدر ما هو تلفيق الواقع. في صيف عام 2002، التقى الصحفي والكاتب رون سسكيند مع أحد كبار مستشاري الرئيس بوش، الذي عبر عن استيائه من مقالة كان سسكيند قد كتبها حول علاقات الإدارة مع وسائل الإعلام، وعلق المستشار بالقول:

> إن أشخاصا مثلي وجدوا في «ما نسميه المجتمع القائم على الواقع»، الذي عرفه بأنه مجموعة أشخاص «يؤمنون بأن الحلول تخرج من دراستك الحكيمة للواقع الملموس». أومأت برأسي موافقا وتمتمت شيئا عن المبادئ التنويرية والتجريبية. قاطعني قائلا: «لم يعد العالم يعمل فعلا بهذه الطريقة. نحن إمبراطورية الآن، وحين نتصرف نبتكر واقعنا الحقيقي الخاص بنا. وبينما تدرس أنت ذلك الواقع ـ بفطنة وحكمة ـ سوف نتصرف مرة أخرى، لنبتكر وقائع حقيقية جديدة، يمكنك دراستها أيضا، وهكذا سوف تُفرز الأشياء. نحن لاعبو التاريخ.. وأنتم، كلكم ستتركون لدراسة ما نفعله»[61].

ارتبط بالاستخفاف بالبينة والاستهزاء بالدليل والاحتفاء بـ«الواقع» المفبرك ذاتيا ميلٌ لدى القادة إلى تقديس «فطرتهم»، أو ما دعاه أحد الكتاب «الغريزة القديرة»[62]. ويبدو أن فضلة مبادئ الحرب الباردة وما أحاط بأحداث الحادي عشر

من سبتمبر من تشوش وارتباك وخوف قد ساعدا على الإعلاء من شأن «الفطرة» كمعيار مرجعي جديد للسياسة. تحدث جورج بوش مرارا وتكرارا عن فطرته السليمة: «أنا لست لاعبا تدفعه الكتب الدراسية، أنا لاعب تحركه غريزته الفطرية»[63]. وعلق بوب ودوارد قائلا: «من الواضح أن دور بوش كسياسي ورئيس وقائد عام يدفعه إيمان دنيوي بفطرته ــ أحكامه الطبيعية والتلقائية والعفوية. وهذه الفطرة تشكل دينه الثاني تقريبا»[64]. ويتذكر الرئيس الفلسطيني محمود عباس أن بوش أخبره (حين كان رئيسا للوزراء): «أمرني الله أن أضرب ــ القاعدة ــ فضربتها: ثم أوعز إلي بضرب صدام، وهذا ما فعلته: الآن أنا مصمم على حل المشكلة في الشرق الأوسط. فإذا ساعدتني سوف أتحرك»[65]. لو كان ذلك حديث سفاح قاتل (أو ربما ابن لادن نفسه)، لما فاتت على أحد أخطار التصرف تبعا «لمشورة الرب». ومثلما أشار الفيلسوف بيتر سينغر:

> إذا اعتمد كل شيء على الإيمان، فلم لا يؤمن الإرهابيون بأن تفسيرهم الخاص للإسلام هو الصحيح؟ لماذا لا «يتعلمون» من أي داعية بارز أن الله يريد منهم تدمير أعظم قوة تقف أمام أسلوب الحياة الإسلامية؟

من جانبه، أعلن توني بلير ببساطة: «القيادة تأتي بالفطرة»[66]. وبعد أن قضى الصحفي بيتر ستوثارد شهرا مع بلير، قال عن رئيس الوزراء: «لديه إيمان راسخ بقوى الحدس الشخصي التي يملكها»[67] ويبدو أيضا أنه أقنع الآخرين واستمالهم من خلال إبعاد الشك عن قدراته وثقته بنفسه. في منتصف شهر آذار/ مارس 2003، بذل كل ما بوسعه لإقناع مجلس العموم (وخصوصا أعضاء حزبه) بأن الحرب مبررة. علق ستوثارد قائلا:

> بعد التنقيحات والتعديلات والإعدادات كلها، لم يزد عن القول إن من المستحيل معرفة المستقبل مسبقا ــ وهذا ما يوافق عليه الجميع حتما.

لكنه عمل بأسلوب لا يعرف الرحمة على تكديس حجة فوق حجة. إلا أن المنطق لن يسعفه إلى هذا الحد. وأولئك الذين استمالهم إلى جانبه، استمالهم عبر إظهار ثقته القوية بأنه مصيب. ولكن بالنسبة للكثيرين من منتقديه فإن هذا اليقين كان عبارة عن نوع من الجنون[68].

شددت كلير شورت على أن أسلوب بلير في صنع القرار، المغالي في صبغته الشخصية، أضعف صياغة سياسة مدروسة ومتبصرة حول العراق[69]. وكان من المفروض باللجنة الحكومية المعروفة باسم «لجنة السياسة الخارجية والدفاع» أن تشرف على استراتيجية السياسة الخارجية، لكنها لم تجتمع أبدا حول الأزمة العراقية. علاوة على ذلك، جسدت الكارثة العراقية، بالنسبة لشورت، رمزا لانهيار أوسع أصاب عملية صنع القرار الجماعية[70]. وأكد روبن كوك (الراحل) هذه الصورة:

لم تقدم أي ورقة تعرض بدائل مختلفة أمام الحكومة لكي تختار منها. أما النتيجة فهي أن الحكومة البريطانية لم تعد منتدى تتخذ فيه القرارات، بل للمصادقة عليها.. المشكلة الحقيقية هي أن بلير أوضح دون لبس بأنه اتخذ القرار [بضرورة شن الحرب على العراق] وليس لدى حكومته خبرة جماعية في محاولة إقناع رئيس الوزراء بتغيير رأيه[71].

ومن المهم في دلالته أن بلير هو أول رئيس وزراء بريطاني لا يدين بفضل رئاسته للحزب إلى زملائه في البرلمان. ولأنه انتخب بأصوات أعضاء حزبه، فقد كان بمقدوره معاداة أعضاء البرلمان من حزبه[72] وأضاف ستوثارد:

جزم بعضهم بأنه معتوه، نتج عتهه عن طول مدة بقائه في السلطة، وعن كثرة المعجبين، وكثرة الأعداء، وقلة الإصغاء بعناية إلى الأصدقاء

والأعداء. أما العزلة في داوننغ ستريت، كما يقول حتى الأصدقاء، فقد غيرت عضو البرلمان والمحامي الشاب، الودود والمنفتح والمجامل، الذي عرفوه سابقا. الرجل الذي كان قادرا دوما على مناقشة أي قضية، يتبنى الآن رأيا واحدا ويتشبث به كأنه عقيدة إيمانية. ويشدد آخرون على شخصية الممثل في توني بلير، على المحامي الواعد فيه، ومحاكاته (الأقل نجاحا إلى حد ما) لنجوم الروك الشهيرة. ويقولون إنه يدعي يقينه المجنون الغريب، وإنه يحتاج غطاء لإخفاء خضوعه وطاعته للأوامر الأمريكية[73].

من المهم في دلالته أن ثقة بلير بنفسه كرجل قادر على إقناع زملائه لم تعادل قدرته على إقناع الزعماء والقادة الأجانب. فقد قلل من حجم القناعات الراسخة للروس والفرنسيين والألمان، كما تبين أن تأثيره ضئيل في جورج بوش(74)

لعب الدين دورا في هذا الإجلال التوقيري كله للفطرة. وبالرغم من أن توني بلير، كزعيم لحزب العمال، يعد حليفا طبيعيا للرئيس الديمقراطي بيل كلينتون، ولم يكن يجمعه في البداية سوى القليل من العوامل المشتركة مع الرئيس الجمهوري جورج بوش[75]، إلا أنه بدا متلهفا بشكل خاص على العثور على أرضية مشتركة معه [76]. وحين سئل بوش عن العوامل المشتركة التي تجمعه مع بلير، أجاب: «كلانا يستعمل معجون الأسنان ـ كولجيت ـ ويحب ممارسة التمارين الرياضية»[77]. ولربما لا يشكل ذلك أفضل ركيزة واعدة لتحالف يستهدف بناء نظام عالمي جديد! لكن من القواسم المهمة التي يشترك فيها الرجلان الإيمان القوي بالمسيحية[78]. إذ إن بوش يعزو شفاءه من «الإدمان على شيطان الكحول» إلى إيمانه الديني، وذكّر أنه قال خلال اجتماع خاص مع المزارعين من طائفة «الأميش» في لانكستر كاونتي (بولاية بنسلفانيا) عام 2004: «أثق بأن الله يتحدث من خلالي»[79]. ومن جانبه، امتلك بلير

حماسة تبشيرية واضحة لا لبس فيها[80]. ويبدو أن إبعاد الشك بواسطة الإيمان يتناسب مع بعض العناصر المصطفاة ـ والمحرفة كما قد يرى الكثيرون ـ من تعاليم المسيحية: المطالبة بالدليل البرهاني لن توصلك إلا إلى حد معين: وهنالك على الدوام حاجة للإيمان، للاعتقاد بالأمور الغيبية. وفي الحقيقة، قد يبدو الشك وكأنه دعوة إلى تجديد الإيمان. لكن، كركيزة للسياسة، يبدو ذلك كله سخيفا إلى درجة يرثى لها.

في النهاية، لا شك في أن القادة الذين يستشهدون بالمرجعية الربانية أو الموافقة الإلهية ملتزمون منطقيا بالزعم المشبوه الذي يؤكد أن ربهم متفوق أو أن سبيلهم للوصول إليه أكثر صفاء ونقاء وطهرا. قال بوش: إنه لم يعان من أي شك في صوابية ما يفعله. وإنه لا يقرأ افتتاحيات الصحف[81]. وذكر أن بلير أيضا لا يقرأ سوى القليل[82]. ويتذكر بوب ودوارد أنه قرب نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2001، حين بدا أن القصف الأمريكي لأفغانستان لم ينجح في إزاحة الطالبان عن الحكم:

> اعتقدت [كوندوليسا] رايس أن الرئيس مستعد لتحمل النقاش والجدل، والإصغاء، لكن من أراد الجدال عليه أن يمتلك حجة قوية، ويفضل أن تكون حلا أو على الأقل اقتراحا بحل. وبدا من الواضح أن أحدا من المجتمعين لم تكن لديه فكرة أفضل[83].

أظهر بوش تزمتاً متزايداً ولم يتساهل مع أي شخص في إدارته أو في الكونغرس عبّر عن الشك أو طلب منه تفسير مواقفه. وحتى السؤال عن الحقائق الضرورية لدعم حجة الإدارة يمكن أن يؤدي إلى اتهامات بعدم الولاء والغدر. واعتبر الجدل المفتوح بمثابة تشجيع للشك، الذي يضعف اليقين الإيماني[84].

ملاحظات ختامية

لا يتكشف التغطرس الهذائي لإدارة بوش في مجرد رفض الأدلة وتحريف وتشويه البينات فقط، بل في الرفض (المفاجئ في صراحته) للحاجة إلى أدلة أصلا. ونظرا لمحدودية قدرات بوش الفكرية فإن هذا النوع من المقاربة ربما كان مريحا ومواسيا. ذكر وزير الخزانة بول أونيل أن إدارة بوش خاضعة لهيمنة إيديولوجيات تعتمد على الفعل الاستباقي والقيمة المتأصلة للتخفيضات الضريبية [85]، وأضاف: «الإيديولوجيا أكثر سهولة، لأنها لا تضطرك لمعرفة كل شيء أو البحث عن أي شيء. لأنك تعرف الجواب عن الأشياء كلها. وهي كتيمة لا تخترقها الحقائق. فالإيديولوجيا إطلاقية»[86]. وبالتأكيد، أظهر جورج بوش مناعة عنيدة ضد الأدلة وحصانة فريدة ضد البينات. ففي أول مناظرة له مع جون كيري قبل الانتخابات (تشرين الأول/ أكتوبر 2004)، قال: «لم يكن لدى صدام نية في نزع سلاحه»، لكن كان من المعروف للرأي العام آنذاك أنه لم يتم العثور (ولا من المرجح العثور) على أسلحة دمار شامل. ومن الواضح أن بوش لم يواجه ـ حتى ذلك الحين ـ حقيقة أن العراق لم تكن لديه أسلحة دمار شامل.

في بعض الأحيان، بدا بوش مشوشا ومرتبكا فعلا. وهو يعطي الانطباع غالبا بأنه مفكر مشوش الذهن، ويسعى لاستبدال اليقينيات الزائفة بهذا التشوش والتحيّر. ولكن نظرا لأن هذه اليقينيات الزائفة تفتقد الحكمة والمعنى، أو لا تضاهي الوقائع والحقائق التجريبية في نهاية المطاف، يتضاعف التشوش وتتراكب الحيرة (وكذلك البحث عن يقين، كما يُفترض). في المناظرة ذاتها مع كيري، قال الرئيس معلقا: «نحن بالطبع نطارد صدام حسين، أعني ابن لادن». وحين سئل هل زادت / أم قلصت تجربة العراق احتمال أن يجر الولايات المتحدة إلى عمل عسكري استباقي آخر، أجاب: «آمل أن لا أفعل ذلك.. لكن العدو هاجمنا وعلي واجب جليل يفرض

حماية الشعب الأمريكي». ثم تحداه كيري حين أشار إلى أن أسامة ابن لادن هو الذي هاجم أمريكا وليس صدام حسين، فرد عليه قائلا: «أعرف بالطبع أن أسامة ابن لادن هو الذي هاجمنا. أعرف ذلك!». من المؤكد أن اليقينيات الزائفة يجب أن تدعم دوما بالفعل، وهو موضوع سنتطرق إليه في الفصل السابع.

أبلغ بوش وبلير ـ من قبل الذين تؤهلهم مواقعهم ليعرفوا ـ بأن مهاجمة العراق سترجح تزايد الإرهاب من خلال مراكمة مشاعر الغضب. وبالرغم من الأدلة والنصائح كلها، مضى الاثنان قدما في مهاجمة العراق: ومن هنا يمكن ـ جزئيا ـ استنتاج اعتناقهما لنوع من مجافاة المعقولية ومعاداة المنطق السليم. الرسالة التي تلقاها توني بلير من كبار مسؤولي محاربة المتطرفين الإسلاميين في «وايت هول»، أكدت أن هؤلاء يشكلون تهديدا أخطر بكثير من ذلك الذي يمثله صدام حسين، وأن هذا التهديد سيتكثف ويشتد حين تهاجم الولايات المتحدة وبريطانيا العراق[87]. كما أن لجنة الاستخبارات المشتركة في بريطانيا، التي أعدت ملف أيلول/ سبتمبر 2002) الذي هوّل وبالغ في حجم تهديد أسلحة الدمار الشامل)، أكدت في شباط / فبراير 2002أن التهديد القادم من «القاعدة» والجماعات المرتبطة بها سوف يشتد ويتعاظم ـ تبعا لتقديراتها ـ نتيجة العمل العسكري ضد العراق[88].

في الولايات المتحدة، قال برنت سكوكروفت، مستشار الأمن القومي للرئيس بوش الأب خلال حرب الخليج عام 1991، في مقابلة تلفازية بثت في شهر آب/ أغسطس 2002، إن مهاجمة العراق يمكن أن تحول الشرق الأوسط إلى «مرجل يغلي، وتدمر بالتالي الحرب على الإرهاب»[89]. ومن أبرز المحذرين من مغبة ردة الفعل ضد «الحرب على الإرهاب» كولن باول. ويذكر بوب ودوارد أن باول أبلغ بوش ورايس في اجتماع عقد في مقر إقامة الرئيس:

أنه مع محاولة فهم المسألة العراقية، يحتاج إلى التفكير بالقضايا

الأوسع نطاقا، أي تبعات وعواقب الحرب كلها.. وقال إن على الرئيس أن يفكر بتأثير العملية العسكرية ضد العراق في العالم العربي. المرجل الفائر هي العبارة المناسبة. وتعامل مع زعماء ووزراء خارجية هذه البلدان كوزير للخارجية. يمكن أن تعم حالة عدم الاستقرار المنطقة برمتها ـ ويمكن أن تتعرض الأنظمة الصديقة.. للخطر أو تسقط. وتتصاعد مشاعر الإحباط والغضب على أمريكا. قد تغير الحرب كل شيء في الشرق الأوسط[90].

لم تعتبر الهجمات الإرهابية المتلاحقة دليلا يثبت خطأ السبيل الذي اتخذته الولايات المتحدة. وفي الحقيقة، أظهر ولفوفيتز أنه قادر تماما على استخدامها لاستخلاص النتيجة النقيضة: إثبات الصلة الغامضة والمراوغة دوما وأبدا بين العراق و«القاعدة». ويذكر ودوارد أن ولفوفيتز «حسب أنها أكثر من مجرد مصادفة أن تعاود ـ القاعدة ـ نشاطها (بما في ذلك تفجيرات بالي)، بعد أن بقيت غير ناشطة نسبيا منذ الحادي عشر من سبتمبر، في أعقاب خطاب الرئيس أمام الأمم المتحدة وتهديده بعمل عسكري أحادي الجانب ضد العراق»[91]. تقدير «نجاح» الحرب على الإرهاب شهد أيضا استبعاد التفكير القائم على الدليل والبينة. على سبيل المثال، كبتت الحكومة الأمريكية معطيات المستشارين والخبراء المزعجة حول نجاعة «الحرب على الإرهاب»[92].

يبدو أن العبرة المستخلصة هي: حين يتشبث المرء بالإيمان اليقيني، سوف يثبت الدليل البرهاني ما يريده. لكن الإيمان الديني لا يؤدي بالضرورة إلى هذه الوجهة المضللة. اعتاد المؤلف والناشط المسيحي جيم واليس تلقي الدعوات باستمرار إلى البيت الأبيض خلال الأيام المبكرة من ولاية بوش. وأبلغ رون ساسكند:

حين تريد التوبة ولا تكون انتصاريا، يمكننا أن نتقدم نحو التوبة

والمسؤولية ونصل إلى شيء أسمى من أنفسنا.. الإيمان الحقيقي يقودنا إلى تأمل أعمق، لا إلى شيء نرغبه بلهف كبشر.

وعندما سئل عن هذا الشيء أجاب: «اليقين السهل»[93].

آخر ملمح لانقطاع الصلة بين المشكلة والحل المختار يستحق أن نذكره. لربما جرت رعاية انطباع الجنون وتنمية السلوك العشوائي عن قصد إلى حد ما. توماس فريدمان، الصحفي البارز في «نيويورك تايمز»، قال إن المشكلة الأساسية هي أن الإرهابيين والذين يقدمون لهم المأوى والملاذ حسبوا أن الأمريكيين يعانون من الضعف واللين، مضيفا إن فريق بوش كان على صواب حين أظهر «أننا بمثل جنون أعدائنا»[94]. السلوك العشوائي يمكن أن يرهب أطرافا ثالثا أيضا، وفهم صدام حسين نفسه أن عشوائية العنف الرسمي يمكن أن تفيد في تعزيز شعور الرعب والروع لدى أولئك الذين يرغب بترهيبهم[95]. وفي حين ظهر العديد من تفسيرات الأسباب الدافعة لمهاجمة العراق، إلا أن الكاتب المسرحي البريطاني ديفيد هير تطرق إلى حقيقة مهمة عندما علق قائلا:

> نية تدمير مصداقية الأمم المتحدة وحقها في نزع فتيل الأزمات التي تهدد حياة البشر، ليست نتاجا فرعيا للسياسة الأمريكية الراهنة. بل هي غرضها الأصلي. لقد اختار بوش العراق لا لأن ذلك يحمل معنى منطقيا بل لأنه يفتقد المعنى والمنطق.. إن ضعف العذر التبريري الواهي لهذه الحرب هو في الواقع النقطة الرئيسة فيها. تماما كالعشوائية والاعتباطية في اختيار الهدف[96].

في التاسع عشر من كانون الأول/ ديسمبر 2001، كتب رويل مارك غيرشت، وهو من المحافظين المقربين من ريتشارد بيرل والمؤتمر الوطني العراقي[97]، في «وول ستريت جورنال»:

إذا كنا ننوي حقا القضاء على الأمل الذي شجع نهوض «القاعدة» وفاقم العنف ضد أمريكا في شتى أرجاء الشرق الأوسط، فليس لدينا من خيار سوى أن نغرس في نفوس أعدائنا وأصدقائنا ما يرتبط بأي قوة عظمى من خوف ورهبة واحترام.. وحدها الحرب على صدام حسين سوف تستعيد بشكل حاسم الرهبة التي تحمي المصالح الأمريكية في الخارج والمواطنين الأمريكيين في الداخل. لقد بقينا نهرب من هذه المعركة عشر سنين[98].

وكما يلاحظ ستانلي كوهين فيما يتعلق بالدول التي تمارس الإرهاب ضد شعوبها، فإن «ثقافة إرهاب الدولة ليست سرية تماما ولا معترفا بها جهارا.. فالخوف في الداخل يعتمد على اليقين واللايقين: من هو الشخص التالي الذي سيعتقل؟»[99]. وحيثما يكون استهداف الأفراد عشوائيا (مثل قتل الشاب البرازيلي جان شارل دي منزيس في محطة ستوكويل في مترو الأنفاق في الحادي والعشرين من تموز/ يوليو 2005 بعد تفجيرات لندن)، يتضاعف الخوف والذعر إلى الحد الأقصى. قد لا يكون ذلك مقصودا ومتعمدا، لكنه يوّتر أعصاب الجميع. أشار مونتيسكيو في كتابه «روح القانون» (نشر عام 1748) إلى أن الاتهامات بممارسة السحر تعتمد على السمعة لا على التصرف، «وبالتالي، يعيش المواطن في حالة من الخطر الدائم، نظرا لأن أفضل سلوك في العالم، وأنقى وأطهر الأخلاق، والتفاني في أداء الواجبات الاجتماعية كلها، لا يضمن أن لا يتعرض الفرد للاشتباه بارتكابه هذه الجرائم»[100].

إن إعلان اللامبالاة بالدليل إذن هو أكثر من مجرد حمق وبله: إنه توكيد على القوة الشاملة، ومحاولة ـ على مستوى ما ـ للترهيب والتهديد. الفصل الآتي يعاين كيف يوجد استخدام القوة العشوائية غطاء من المعقولية الظاهرة حول المعتقدات السخيفة والعقائد الخرقاء.

7
الفعل كدعاية

في «الحرب على الإرهاب»، استخدم العنف المتطرف واللامشروع لإضفاء الشرعية والضرورة عليه، وهذا مثال مقلق يجسد ما دعته هانا ارندت «الفعل كدعاية». وفي تفسيرها لهذا التعبير، أشارت أرندت إلى «مزايا الدعاية التي تضيف باستمرار قوة التنظيم» إلى صوت الحجة الضعيف وغير الموثوق، وبالتالي تحقق ـ إذا جاز التعبير ـ «كل ما تقوله بأسلوب ارتجالي»[1]. برأي ارندت، عملت الدعاية المستندة إلى الواقع بشكل أفضل حتى من خطاب جوزيف غوبلز البلاغي. وبالرغم من تركيز بؤرة اهتمامها على الأسلوب الذي يمكن أن يقنع فيه الفعل كدعاية الآخرين، إلا أن المفهوم يمكن أن يساعد أيضا في تفسير كيف تشرعن الانتهاكات التعسفية ذاتها أحيانا في عيون مرتكبيها.

لاحظنا آنفا مدى إغراء اليقين في أوقات هيمنة الغموض وعدم اليقين، والرغبة في الحلول البسيطة والأهداف الملموسة. ويمكن للفعل كدعاية أن يعزز الشعور المطمئن الغريب باليقين، ويساعد على لي الحقيقة لتساير الصورة المشوهة والمحرفة والدعائية للعالم. كما يشوه أيضا مدركاتنا عن الواقع بحيث تتضاءل الفجوة الفاصلة بين إدراك جماهير العامة والدعاية الرسمية. ويساعدنا مفهوم هانا ارندت على فهم كيف اعتمد المولعون بشن «الحرب على الإرهاب» على ركيزة تفتقد العقلانية في واقع الأمر (حل سحري لمشكلة الإرهاب) وجعلوها تبدو من خلال أفعالهم أمام العديد من الناس (والأهم، أمام شرائح واسعة من الناخبين الأمريكيين) عقلانية ومعقولة في آن معا.

في الحياة اليومية، تحل النوائب بالناس بمحض الصدفة، لكن الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي الهائل في الولايات المتحدة فاقم شعورا بانعدام الأمان وغياب اليقين ضاعفته أحداث الحادي عشر من سبتمبر. فهمت هانا ارندت كيف يمكن لرغبتنا في اليقين وتوقع الآتي أن تغذي وتدعم الإيديولوجيات التعسفية والعقائد الجائرة. كتبت تقول: «ما ترفض الجماهير الاعتراف به هو المصادفة العرضية التي تتخلل الواقع الحقيقي»[2]. ولذلك فإن الاتساق المتماسك، بأي طريقة شُيد بها، يحظى بجاذبية شديدة:

> أمام الاختيار بين مواجهة تنامي الفوضى والعشوائية الشاملة للانحطاط والفساد أو الركوع أمام اتساق أشد الإيديولوجيات تزمتا وتوهما وخرافة، سوف تفضل الجماهير على الأرجح البديل الثاني وتستعد لدفع الثمن بالتضحيات الفردية ـ ليس لأنها قوية أو شريرة، بل لأن سبيل النجاة هذا يكسبها في أوقات الكوارث العامة الحد الأدنى من احترام الذات[3].

رأت أرندت كيف يمكن لاحترام الذات هذا أن يأتي من تشويه سمعة «الآخر» أو حتى مهاجمته، وكيف يولد هذا العدوان، علاوة على ذلك، شرعية (زائفة) للذات. شكل جزءا من مصدر هذه «الشرعية» ما دعي بـ«الاعتقاد بعدالة العالم»، حيث يفترض الناس فعلا أن العقاب يتضمن وقوع جريمة، وحيث يستخدم هذا الافتراض لحمايتهم من الخوف من عالم تسوده العشوائية[4]. ومن المهم في دلالته أن «الاعتقاد بعدالة العالم» قد يكون أكثر إغراء حين يصبح العالم ـ والاتهامات ـ أكثر عشوائية: وبالتالي، كلما زادت لامعقولية وتهور أفعال إدارة بوش ـ مثلا ـ تعاظم الإحساس بالحاجة إلى طمأنة الذات والتوكيد لها بأنه «لابد من وجود سبب» لاختيار الضحايا (ولذلك «نحن» في أمان).

أشارت أرندت إلى وسائل أخرى يمكن من خلالها أن يولد العنف شرعيته الخاصة، ألا وهي السماح للزعماء بتحقيق تنبؤاتهم وتوقعاتهم: أولا، حين يشابه الناس صورة مشوهة ودعائية مرسومة لهم (كأن يعتبروا في مرتبة أدنى من البشر أو أن الأمراض تتفشى بينهم)؛ ثانيا، حين «تُكشف» القوانين التاريخية المزعومة حول انتصار جماعة معينة أو فكرة محددة باعتبارها دقيقة وصحيحة؛ ثالثا، حين «تكشف» على نحو مشابه أيضا المُثل الإنسانية باعتبارها غير واقعية وغير ذات صلة. مرة أخرى، سوف تثبت هذه الأفكار صلتها بـ«الحرب على الإرهاب».

«الاعتقاد بعدالة العالم»: القوة حق

في الحالة النمطية، تولد جزء من «الدليل» الذي يشرعن مطاردة الساحرات من المطاردة ذاتها. إذ يساعد الاعتراف تحت التهديد والمعاناة على جعل الاضطهاد أكثر معقولية مثلما رأينا. لكن العقاب يمكن بحد ذاته أن يتضمن الذنب. وكما لاحظت هانا ارندت في سياق المحرقة النازية فإن «المنطق البدهي السليم رد على فظائع بوكنوالد* واوشفيتز** بحجة معقولة: ـ أي جريمة فظيعة ارتكبها هؤلاء الناس لكي يتعرضوا لمثل هذه المعاناة!»[5] قد يبدو أخذ الأدلة الأخلاقية من نظام العقوبة موقفا خاضعا ومتذللا، لكنه جزء أيضا من كيفية نمو وتربية أي إنسان وتعلمه لـ«الصواب» و «الخطأ» ـ عبر ملاحظة الفعل الذي يعاقب عليه وذلك الذي لا يعاقب عليه.

كيف عرف الأمريكيون والبريطانيون في ربيع عام 2003 أن العراق هو العدو؟ إنه العدو بالتأكيد، والدليل دخولنا في حرب معه! وبمعنى من المعاني، «أثبتت» ذنب

* قرية في وسط ألمانيا (قرب فيمار) أقام فيها النازيون معسكر اعتقال خلال الحرب العالمية الثانية. (م)

** مدينة في جنوب بولندا أقام فيها النازيون أكبر معسكر للاعتقال خلال الحرب العالمية الثانية. (م)

العراق حقيقة أنه وسم بعلامة فارقة من أجل معاقبته. وعلى نحو أكثر عمومية، ربما اتخذ تطرف وعنف «مكافحة الإرهاب» (تجاهل الأمم المتحدة، غزو العراق، انتهاك حقوق الإنسان في غوانتانامو والقواعد العسكرية الأمريكية الأخرى..) كدليل يثبت ـ على مستوى ما ـ حجم الذنب الذي اقترفته الأهداف.

لاحظ عالم الاجتماع ستانلي كوهين في عام 2001 أنه وفقا لـ«الاعتقاد بعدالة العالم»، «يستحق [الضحايا] المعاناة بسبب ما فعلوه، أو لابد أنهم فعلوه، أو دعموا وأيدوا فعله (أو سيفعلونه يوما ما إذا لم نتصرف الآن)»[6]. وهذه صيغة تنبأت بشكل غريب بالتبريرات التي قدمت لمهاجمة العراق عام 2003 أما النزعة العامة للاستدلال على الذنب من العقاب فيبدو أنها ساعدت إدارة بوش على تجاهل لا القانون الدولي فقط، بل الركن المحوري للقانون عموما: يجب إثبات الذنب قبل إنزال العقاب بالمذنب.

المستويات المرتفعة من الإذعان لأحكام الحكومة حظيت بأهمية هنا، خصوصا في الولايات المتحدة: شعور بأن «إدارتنا تعرف حتما ما تفعله»[7]. فقد أبلغ الأمريكيون مرارا وتكرارا بالصلات الجامعة بين العراق وهجمات الحادي عشر من سبتمبر. لم تكن الأدلة دامغة، لكن اللغة المستخدمة لحث الناس على القبول والاقتناع نجحت على أية حال. فقد أظهر استطلاع للرأي أجري في تشرين الأول/ أكتوبر 2002، أن 66% من الأمريكيين قالوا إنهم يعتقدون بأن صدام حسين متورط في هجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، وأن 79% منهم يعتقدون بأن لدى العراق، أو كان قريبا من امتلاك، أسلحة نووية[8]. وأشار استطلاع آخر أجري في شباط / فبراير 2003إلى أن 72% من الأمريكيين يعتقدون أن صدام حسين متورط شخصيا على الأرجح في هجمات الحادي عشر من سبتمبر[9].

يبدو أن إدارة بوش قد فهمت جيدا الفضائل المريبة لمقاربة «الفعل كدعاية»، حيث اعتقد كبار المسؤولين بأن إظهار القوة في حد ذاته يمكن أن يشكل دعاية كامنة

قوية، وأن «القوة» سرعان ما تصبح «حقا» وصوابا في واقع الأمر. ولذلك، قال كارل روف، المستشار المقرب من بوش، عن الحرب على الإرهاب: «كل شيء سيقاس وفقا لنتائجه، فالمنتصر دوما على حق. والتاريخ ينسب إلى المنتصر سمات وصفات ربما لم يمتلكها. وكذلك للمهزوم»[10] (عبر هتلر عن رأي مماثل حين قال: «سوف أقدم سببا دعائيا لبدء الحرب، بغض النظر هل هو معقول أم لا. فلن يسأل أحد المنتصر بعد انتصاره هل كان صادقا أم لا. وعند بدء وشن الحرب لا يعود الحق مهما، بل النصر»)[11]. وفيما يتعلق بالهجوم على العراق عام 2003، علق أحد كبار مستشاري البيت الأبيض قائلا: «السبيل إلى كسب القبول الدولي هو الفوز. هذه هي الديبلوماسية: الفوز»[12]. وقال بوش نفسه:

> أومن بالنتائج.. أعرف أن العالم يراقبنا عن كثب، وسيتأثر بالنتائج المتحققة.. لن نستطيع إقناع الناس جميعا بالموافقة على القوة واستخدام القوة.. لكن الفعل ـ الفعل الواثق الذي يعطي نتائج إيجابية سوف يوفر نوعا من القوة المساعدة التي تدفع الدول والقادة المترددين للحاق بالركب[13].

لنتذكر أيضا الاقتراح المفزع الذي قدمه مستشار بوش أمام الصحفي رون سسكيند: «نحن إمبراطورية الآن، وحين نتصرف نوجد واقعنا الخاص. وبينما تدرس أنت ذلك الواقع ـ بحكمة وفطنة ـ سوف نتصرف من جديد، لنوجد وقائع جديدة، يمكنك دراستها أيضا». إنه سبيل يفضي إلى الجنون، لكنه مقنع، وفاسد وملتو في آن.

في مدة الاستعداد للحرب، أقلق رئيس الوزراء الإيطالي بيرلسكوني الرأيَ العام الإيطالي. لكن بوش قال له في كانون الثاني/ يناير 2003: «راقب الأمر، سوف يتغير الرأي العام. نحن نقود جمهور العامة في بلادنا»[14]ومن بين اللاعبين الدوليين، لم يكن الاستعداد لاتباع خطى بوش مقتصرا على بلير وبيرلسكوني وأزنار. على سبيل

بل ربما يتحولون إلى ضحايا. وأصدر بوش نسخته الشهيرة عن هذا التهديد حين قال بإصرار «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا في المعركة ضد الإرهاب».

في حين أن رئيس الوزراء البريطاني الأسبق هارولد ولسون تجنب إرسال الجنود البريطانيين إلى فيتنام، إلا أن توني بلير بدا مستعدا للسقوط في فخ «القوة المساعدة» التي أشار إليها بوش. وبالتوافق مع تحليل كولن باول آنذاك، أبلغ بلير مجلس العموم في تشرين الثاني/ نوفمبر 2000: «نعتقد أن نظام العقوبات نجح بصورة فعالة في احتواء صدام حسين»[21]. لكن يبدو أن بلير قد اقتنع أيضا بحتمية الحرب. وأتت اللحظة المفتاحية في لقائه مع بوش في تكساس (نيسان/ أبريل 2002) الذي ساعد في إقناع رئيس الوزراء بأن بوش مصمم على شن الحرب ضد العراق[22]. وعاد ملتزما بدعم العمل العسكري من أجل تغيير النظام في العراق (اعتماداً ـ كما ذُكر ـ على فهم مفاده أن الجهود ستبذل أولا لإزالة أسلحة الدمار الشامل بواسطة عمليات التفتيش عن الأسلحة، ومن ثم لتشكيل تحالف يؤثر في الرأي العام ويحصل على تأييده)[23]. وشملت استعدادات بلير غداة العودة إلى بريطانيا إبلاغ وزير الخزانة بإعادة إعداد حسابات الميزانية لدفع تكاليف الحرب[24]. لكن كان لـ«الحتمية» وجهان مختلفان بالنسبة لبلير: يعلق جون كامبفنر في كتابه «حروب بلير»، بالقول أن رئيس الوزراء شرع في أداء مهمته الفورية في تحضير الرأي العام للعمل العسكري، مع الاحتفاظ بواجهة تشير إلى أن الحرب «ليست حتمية»[25]. ففي المرحلة المبكرة من الاستعدادات للحرب، سيبدو إعلان أن الحرب حتمية ويتعذر تجنبها إذعانا ذليلا بدون شك لواشنطن. لكن من المهم في دلالته أنه حالما توجه الجنود الأمريكيون إلى العراق، كان بلير على أتم الاستعداد لتغيير المسار واستخدام فكرة الحتمية وزخم الأحداث كوسيلة أداتية لإقناع جمهوره وحزبه. وشمل خطابه أمام مجلس العموم في آذار/ مارس 2003 الفقرة الآتية: «هذا خيار صعب. لكنه واضح تماما: إما سحب الجنود البريطانيين والتراجع: أو التشبث

بالمسار الذي وضعناه»[26]. وشعر بلير بالقلق من الضرر الذي قد يصيب العالم نتيجة الانتصار الأمريكي الأحادي: واعتمادا على هذا المنطق، يتوجب على بريطانيا الذهاب إلى الحرب لتجنب ذهاب أمريكا إلى الحرب بمفردها[27]. وفي هذه الأثناء، عزز بلير ثقة بوش وكارل روف بأن النصر سوف يولد مؤيديه وأنصاره. تذكر روبن كوك أن بلير «افترض دوما في العديد من المناقشات التي دارت بيننا خلال الفترة السابقة على الحرب، أن حرب [العراق] ستنتهي بالنصر، وأن النصر العسكري سوف يسكت المنتقدين»[28].

على الصعيد الداخلي، ثبت أن «الفوز» أداة مفيدة في الحث والإقناع والترهيب والتهديد. وجرى كبت وقمع الأصوات المنشقة داخل حزب العمال: أولا، من أجل التفوق على المحافظين ثم من أجل الشرعية التي يمنحها الفوز. لاحظ كامبفنر أن بلير «هيمن على حزبه طيلة عقد من السنين، وأتاحت له سلطته الحصول بسرعة على الموافقة على سياساته الخارجية والداخلية حتى حين يختلف مع النواب والناشطين من أعضاء حزبه ــ بل حتى مع أعضاء حكومته»[29]. وعلى حد تعبير الكاتبة البريطانية بياتريكس كامبل: «استسلم الحزب لـ خيميائيين زعموا أنهم، دون غيرهم، يملكون قوى الفوز»[30]. وبالطبع، فإن إيديولوجيا السوق الحر التي اعتنقها بوش، وبلير إلى حد كبير، تشكل في حد ذاتها نوعا من التوقير والاحترام لـ«الفائزين والرابحين»: البقاء للأصلح فقط، والنجاح يثبت ضمنا نشاطك وحيويتك وفضيلتك. بالنسبة لجورج سوروس، مثلت "الداروينية الاجتماعية" للأصولية السوقية حليفا طبيعيا للأصولية الدينية، وجرى تعزيز الاثنتين معا بشكل خطير اعتمادا على الثقة المتولدة عن انهيار النظام السوفييتي وتقدم العولمة.

من المتوقع أحيانا أن يذعن القانون الدولي ذاته لـ«العمل الواثق» الذي شعر بوش بأنه سيولد الإذعان والامتثال. لاحظ ديفيد فروم وريتشارد بيرل أنه «إذا كانت

الأمم المتحدة لا تستطيع أن / أو لن تراجع وتعدل قواعدها وأنظمتها بطرائق تصادق بدون مساءلة قانونية على الإجراءات التي يجب على الولايات المتحدة اتخاذها لحماية الشعب الأمريكي، فعلينا إذن أن نرفض بشكل صريح وبدون خجل سلطة هذه القواعد والأنظمة»[31]. هذا مفهوم غريب للقانون الدولي، على أقل تقدير. وبعيد بدء الهجوم على العراق، توقع بيرل بحماس: «حين نكنس ركام الحرب لتحرير العراق ونتمعن بنتائجها، سيكون من المهم أن نحافظ على/ ومن الأفضل أن نفهم الحطام الفكري للزهو الليبرالي بالأمان من خلال القانون الدولي الذي تديره المؤسسات الدولية»[32]. وفي حين وسم مسؤولو إدارة بوش الأمم المتحدة بالضعف و«الخروج عن السياق»، لعبت سياسة الولايات المتحدة دورا حاسما في إضعاف الأمم المتحدة ـ لا فيما يتعلق بالعراق فقط، بل قبل ذلك أيضا. فخلال الحرب الباردة، استخدمت الولايات المتحدة بكل عناد حق النقض لإحباط قرارات مجلس الأمن[33]. كما نكثت مرارا بالتزاماتها التمويلية، وأنكرت وتجاهلت بأسلوب مشين عمليات الإبادة الجماعية في رواندا عام 1994 ولربما غلّ إضعاف الأمم المتحدة من خلال «العمل الواثق» بعض الثمار: هبوط مستوى ثقة الناس بالأمم المتحدة بشكل حاد في أعقاب الهجوم على العراق: لا داخل الولايات المتحدة فقط، بل في بريطانيا وفرنسا وألمانيا أيضاً[34]: ولا نعرف كم سيدوم هذا التأثير، لكن العمل الأحادي الجانب أدى من جوانب عديدة (ولربما كان ذلك جزءا من القصد) إلى الاعتقاد بأن «حقوق الإنسان» و«القانون الدولي» يمثلان ذروة السذاجة. مرة أخرى نشير إلى أن ارندت رأت ذلك بوضوح لا لبس فيه، حيث قدمت الحجة على أن الدعاية المستندة إلى الأمر الواقع نجحت جزئيا لأن:

> المحنة اللامعقولة التي حلت بجماعة من الأبرياء الذين يتكاثر عددهم باطراد شابهت تمظهرا عمليا لمزاعم الحركات التوتاليتارية ـ التي تسخر من البشر ـ بعدم وجود شيء ثابت مثل حقوق الإنسان، وأن توكيدات

الديمقراطيات على عكس ذلك ليست سوى تحيز، ونفاق، وجبن في وجه الجلالة القاسية للعالم الجديد. وأصبحت عبارة «حقوق الإنسان» ذاتها بالنسبة للمعنيين جميعا ـ ضحايا ومضطهدين ومتفرجين على حد سواء ـ دليلا على المثالية اليائسة أو على النفاق العاجز الضعيف[35].

ما إن بدأ احتلال العراق، حتى جرى التعبير عن الأمل «بأن تعتبر القوة بمثابة حق» فيما يتعلق بالتمرد أيضا. أحد الضباط الأمريكيين الذي شارك في الهجمات على الفلوجة شدد على أن دور العدوان المتبوع بـ«العمليات النفسية»*، «يعود دوما إلى موضوع حتمية القبيلة المتفوقة»[36]. أما الصحفي روبرت كابلان فقال معلقا من العراق: «ينجذب الناس من جميع الثقافات نحو القوة.. إذ تسود في العراق على نحو خاص ذهنية زعيم القبيلة»[37].

تحقيق التوقعات والتوكيدات

اعتبرت هانا ارندت أن الرغبة في التوقع والاتساق توجد الفرص المناسبة للأنظمة التوتاليتارية لتثبيت وتعزيز سلطتها من خلال تحقيق تنبؤاتها وتوقعاتها. ولربما يبدو هذا خيارا مغريا لبعض البلدان الديمقراطية أيضا؛ ومع تهميش الحريات المدنية على نحو متزايد وإذعان وسائل الإعلام الجماهيرية، لا يتضح على الدوام الفارق المميز بين التوتاليتارية والديمقراطية كما قد نأمل. قال نورمان ميلر عن الولايات المتحدة: «أعتقد أننا نمر الآن بمرحلة ما قبل التوتاليتارية»[38].

الخضوع للقوانين

لاحظت هانا ارندت أن كتلة واسعة من الجماهير«تميل إلى الإيديولوجيات كلها لأنها تفسر الحقائق باعتبارها مجرد أمثلة على القوانين وتلغي المصادفات الاتفاقية

* «العمليات النفسية» (psyops) تشمل استخدام وسائل الإعلام ضد العدو/الخصم بهدف تشكيك أفراده بعدالة قضيتهم وثقتهم بقدراتهم، وقد توجه إلى حلفائهم للتخلي عن مساندتهم. (م)

عبر ابتكار قوة كلية القدرة تشمل الجميع وتشكل أصل كل حادث كما يفترض»[39].
علاوة على ذلك، يرجح أن ينجذب الناس في الفترات التي يسودها الغموض وعدم اليقين نحو إيديولوجية تزعم أنها تعمل على صياغة التاريخ؛ ليتماشى مع قوانين تاريخية طويلة الأجل، وبالتالي تعيد ترسيخ بعض الشعور بالسيطرة والتحكم. في حالة النازيين، كان القانون التاريخي طويل الأجل نوعا من الداروينية العرقية؛ وبالنسبة للحكومات السوفييتية، انتصارا محتوما ومتوقعا بأسلوب علمي لطبقة البروليتاريا[40]. وأشارت أرندت إلى أن النازيين تحدثوا عن أعراق سرعان ما ستتعرض للانقراض، وأن النظام السوفييتي تحدث عن الطبقات المحتضرة، وأن الأعمال الإجرامية لهذين النظامين الشموليين ساعدت على تثبيت أركان سلطة كل منهما وعلمه الكلي عبر تحقيق هذه التوقعات والتنبؤات[41]. لم يستطع جورج بوش مجاراة هذه الأعمال المنكرة السابقة؛ لكنه حرص بالتأكيد على التشديد بأنه يشكل مع الولايات المتحدة جزءا من خطة ربانية جليلة تتماشى مع مشيئة الله ونواميسه. في خطاب القسم لولايته الثانية الذي ألقاه في شهر كانون الثاني/ يناير 2005، أشار إلى الحرية باعتبارها «قوة التاريخ»، وأضاف «إن بمقدورنا التقدم إلى الأمام واثقين كل الثقة بالانتصار النهائي للحرية.. التاريخ شهد مد وجزر العدالة، لكن له أيضا وجهة مرئية، وضعتها الحرية وخالق الحرية»[42]. وقال في مناسبة أخرى: [الحرية هي] «خطة سماوية للبشرية وأفضل أمل للتقدم هنا على الأرض»[43]. وهذا يتجاوز إلى حد ما القول «الله معنا»: فهو إصرار ملح على أن وجهة التاريخ إلى جانبنا، وأن بمقدورنا ـ من خلال «الفعل الواثق» الذي نادى به بوش سابقا ـ إثبات ذلك. وبالرغم من أن هذا الموقف يزعم إجلال وتوقير الخالق، إلا أنه يعبر في نهاية المطاف عن إجلال وتوقير الذات: الذات التي ستحرز بثقتها وعنفها النصر النهائي، الذي سيضمن الموافقة والقبول من الأمم الأخرى ويعيد التوكيد في الوقت ذاته على المباركة الإلهية للمشروع التغييري طويل الأجل. ولا ريب أن هذه القدرة على «كشف

المباركة الإلهية» تشير إلى أن العنف «الناجح» يمكن أن يخدم كوظيفة لا كثروة بالنسبة لبروتستانت ماكس فيبر.

شعور مشابه بالثقة عبر عنه أحيانا الأصوليون الإسلاميون، الذين يعتبرون انتصار الإسلام «حتميا»، تماما كانتصار الاشتراكية بالنسبة للاشتراكيين[44]. وإلى المدى الذي ترى عنده المنظومات الاعتقادية الأصولية الله كقوة تتدخل بفاعلية في العالم، سوف يظهر دوما إغراء رؤية أي فعل يتخذه البشر باعتباره متمتعا بمباركته تعالى أو عملا من أعماله[45]. الأمر لا يقتصر على مجرد سؤال من الذي يقف الله في صفه بل من يستطيع إظهار ذلك من خلال الانتصار. ولذلك، اعتبر عنف مكافحة الإرهاب من قبل ممارسيه أنه لا يحظى بمباركة الله فقط بل ينقض اعتقاد الإرهابيين بأن الله والتاريخ إلى جانبهم. في أيلول / سبتمبر 2003، لاحظ بوش أن الإرهابيين قبل الحادي عشر من سبتمبر «اقتنعوا بأن الأمم الحرة في حالة من الانحلال والفساد والضعف. فتنامت جسارتهم، معتقدين أن التاريخ يقف إلى جانبهم». وأضاف إن الحرب على الإرهاب عكست هذا النمط[46].

امتزج مع فكرة الخطة (الربانية) الجليلة الاعتقاد بأن الحرب تقرّب يوم القيامة المتوقعة والعودة الثانية للمسيح، وهي فكرة شاع التعبير عنها لدى اليمين التبشيري في أمريكا[47]حتى بلير «غازل» هذه الصورة الرؤيوية: «كان الحادي عشر من سبتمبر بالنسبة لي وحيا كاشفا ملهما. فما بدا بدائيا وعماء مشتتا تجمعت أجزاؤه معا.. ها هم الإرهابيون يعدون المشهد لمعركة ارماجدون»[48]*أما النسخة الأكثر دنيوية من أطروحة «القيامة الآتية» فوجدت التعبير عنها في توقع صمويل هنتنغتون لـ«صراع الحضارات" المحتوم (بالنسبة لهذه الأطروحة: انظر الفصل العاشر). وحرص بوش وبلير على القول إن "الحرب على الإرهاب" ليست صدام ثقافات أو

* المعركة النهائية بين قوى الخير والشر التي ستقع حسب النبوءة الإنجيلية قبيل يوم القيامة. (م)

صدام أديان على نحو محدد. لكن أعمالهما العدوانية ساعدت على إضفاء المعقولية على توقع هنتنغتون.

ما إن أعلنت الحرب حتى أصبح انتقاد إدارتي بوش وبلير أكثر صعوبة (انظر أيضا الفصل العاشر). إذ أصبحت ضرورة «دعم جنودنا» هي المهيمنة. كما كان انتقاد المؤسسة العسكرية أمرا محظورا ومحرما على نحو خاص، في حين أن سقوط القتلى من الجنود الأمريكيين ضاعف صعوبة معارضة الحرب. ومثلما قال مايكل مان: «أي انتقاد للحرب [في العراق] اعتبر على نطاق واسع لا مجرد تخلي عن الوطنية بل عدم احترام لموتانا»[49]. وبعد مقتل جوناثان كيبهارت (21سنة) في العراق، قال راعي الكنيسة المعمدانية المحلية ديفيد فوت: «حين أسمع أي شيء سلبي [حول الحرب على العراق] أعتبره موجها إلي شخصيا. أشعر أنهم يقولون ذلك بحق جون. فهو يبطل التضحية التي قدمها»[50]. في حزيران/ يونيو 2005، ومع تصاعد حدة العنف في العراق وارتفاع عدد القتلى من الجنود الأمريكيين باطراد، كتب مايكل ايغناتيف في «نيويورك تايمز»: «لا بد أن ينجح حلم توماس جيفرسون [الحرية للأمم جميعا]. إن من المهمات الأساسية في الحياة الأمريكية التعويض عن الخسارة، وإنقاذ التضحية من التجاهل والعبثية وإعطائها غاية وضيئة»[51]. بكلمات أخرى، يجب أن نجعل تضحية الجنود الأمريكيين ـ التي كان يؤيدها ـ هادفة وذات مغزى. تتردد هنا أصداء مزعجة للطريقة التي ساعد عبرها العنف السابق على تغذية الدعاية لمزيد من العنف اللاحق. وبعد أن لاحظ الحجة الشائعة على أن الجنود الأمريكيين في فيتنام تعرضوا لخيانة النخبة الليبرالية، كتب توماس فرانك عام 2004 يقول:

ربما يكون هذا أكثر انتصار ثقافي حققته النزعة المحافظة إدهاشا: فالروح الوطنية السائدة في الخمسينيات التي اعتبرت ذات مرة أنها حولت جيل فيتنام إلى

ضحايا، تعتبر اليوم قضية أضفى عليها الموت والمعاناة هالة القداسة. دماء الضحايا من الجنود لا تدعو إلى التشكك والريبة بل إلى الوطنية العمياء[52].

تجدد الحرب اللانهائية ذاتها بمثل هذه الآليات. ومن المهم في دلالته أن جون كيري اختار ألا يجعل فضيحة «أبو غريب» جزءا من حملته الرئاسية عام 2004 [53] إذ يمكن لانتقادات حرب العراق أن تعتبر بمثابة «إضعاف الروح المعنوية» للجنود. وحتى انتقادات كيري المترددة لحرب العراق استحثت بوش على التعليق (في المناظرة الأولى التي سبقت الانتخابات) بالقول: «أي نوع من الرسائل سيبعثها القول لجنودنا المعرضين للخطر: حرب خاطئة، في المكان الخطأ، والزمان الخطأ؟ هذه ليست رسالة يبعثها القائد العام».

وصل كولن باول إلى حد تبني جزءاً من هذا المنطق في مرحلة ما قبل الحرب. فحين علم في منتصف شهر كانون الثاني/ يناير 2003من بوش أنه مصمم على الحرب، قال إن الابتعاد سيكون بمثابة غدر بالرئيس، والجيش، والآلاف الذين سيذهبون إلى الحرب[54]. مرة أخرى نرى المنطق الغريب المتولد عن «الحتمية»: انطلاقا من ولائنا لجنودنا، يجب أن ندعم السياسة التي عرضتهم للخطر دون سبب وجيه. لا بد أن هذا النوع من المنطق المقلوب رأسا على عقب قد ساعد على توكيد اعتقاد بوش بأن المعارضة سوف تتراخى في وجه «الفعل الواثق» الجريء.

إذا استطاعت الحرب كبح الانشقاق وكتم المعارضة، فإن الحرب الدينية المقدسة قادرة على ذلك بدرجة أعلى. المعلق السياسي جورج مونبيوت أشار إلى أن إحساس الحكومة الأمريكية الملون بصبغة دينية بأنها تحمل «رسالة» كان يعني أن الخلاف معها ليس مجرد انشقاق: بل هرطقة. وبالطبع قد تعزز الحرب أيضا المشاعر الدينية. وحين تكون المعركة مستعرة، فمن المطمئن (والمشجع أيضا) الاعتقاد بأن الله معنا. وهذا بدوره يمكن أن يدعم شرعية الحرب:

جعل الناس يشبهون الدعاية

نقدم هنا مثالا آخر على الفعل كدعاية مستمدا من هانا ارندت:

الصحيفة الرسمية الناطقة باسم الشرطة السرية النازية «شوارتز كوربس»، ذكرت بصراحة عام 1938 أنه إذا لم يقتنع العالم بعد بأن اليهود هم حثالة الأرض، فسوف يقتنع بسرعة حين يعبر متسولون بدون هوية، وبدون جنسية، وبدون مال، وبدون جوازات سفر، حدوده.. وذكرت رسالة وزعتها وزارة الخارجية إلى جميع السلطات الألمانية في الخارج بعد وقت قصير من مذابح نوفمبر 1938 أن «تهجير عدد لا يزيد عن مائة ألف يهودي يعتبر كافيا لإثارة اهتمام العديد من البلدان بالخطر اليهودي.. ألمانيا مهتمة جدا بالحفاظ على تشتت اليهود.. فدفعهم إلى جميع أرجاء العالم يستدعي معارضة السكان المحليين ويشكل بالتالي أفضل دعاية للسياسة الألمانية تجاه اليهود»[55].

أما كيف يطبق ذلك عمليا فمسألة أخرى، لكن نية الشرطة السرية النازية واضحة هنا. بل إن اضطهاد اليهود ـ محاصرتهم في «غيتوات» تتفشى فيها الأوبئة، وتمييزهم بأرقامهم، وجمعهم كالقطعان وراء الجدران والأسيجة في معسكرات الاعتقال، وتجويعهم وذبحهم بالجملة ـ كان عملية استهدفت نزع معظم التمظهرات المميزة للحياة البشرية العادية، مع المساعدة على رسم صورة جردت من الصفات الإنسانية تناسب لغة النازيين التي نزعت عنها الصفات الإنسانية.

يسهل بالطبع رؤية الفوارق المميزة بين الأحداث التي تناقشها هانا ارندت والانهيار الكارثي الراهن. وحتى في هذه الحالة، تعتبر «الحرب على الإرهاب» مثالا تقليديا على تحويل "الآخر" إلى صورة ذهنية سلبية ومسبقة التكوين رسمها (ونشرها وأذاعها) الذين يمارسون العنف. وهذا ينطبق على طرفي النزاع كليهما،

نظرا لأنهما يشتركان على ما يبدو في اهتمام واحد يتمثل في «إثبات» أن العدو وحشي وعنيف بالقدر الذي أصر كل منهما عليه دوما. في الحروب الأهلية والعالمية، ينزع العنف إلى اختلاق الأعداء الذين يزعم أنه أضعفهم أو قضى عليهم (انظر الفصل الثاني)، ويولد بالتالي شرعيته (الزائفة). فهم فرانتز فانون (وبعده ابن لادن) كيف يستفيد الإرهابيون من ظاهرة «الفعل كدعاية»: لاسيما باستخدام العنف لإظهار الوحشية الكامنة والمخبأة جزئيا التي يتصف بها عدوهم / مضطهدهم. «الشهيد» بالعربية هو «شاهد» على الحق أيضا ـ أي يوضح بأفعاله أو أقواله حقيقة خفيت عن الجمهور[56]. قال مارك يورغنزماير عن الإرهاب الدولي:

> ما يتوقعه مرتكبو أعمال الإرهاب هذه ـ ويرحبون به في الحقيقة ـ هو رد شنيع يعادل فظاعة أعمالهم. وعبر تحفيز السلطات الدنيوية للرد على الإرهاب بالإرهاب، يأملون بتحقيق هدفين اثنين: أولا، الحصول على دليل ملموس يثبت زعمهم بأن العدو الدنيوي (العلماني) وحش لا يعرف الرحمة: ثانيا، رفع الحرب الكبرى إلى السطح: الحرب التي قالوا لأنصارهم ومؤيديهم أنها خفية، لكن حقيقية[57].

أحد الأسس المنطقية للإرهاب هو: إذا لم تكن أمريكا تمثل تماما الإمبراطورية الشريرة التي روجنا لها في دعايتنا ومخيلتنا، فلنجعلها كذلك. هذا المنطق يستخدم من قبل الطرف الآخر أيضا: في الظروف التي صور فيها الإرهابيون بأنهم يحيطون بنا من كل حدب وصوب وعازمون على تدميرنا، فإن الأفعال التي تنتج تأثيرا عكسيا وتؤدي إلى تكاثر الأعداء الغاضبين، توفر على الأقل، وهي تقودنا نحو حياة الخوف، شعورا بالرضى المعرفي الزائف (خصوصا للزعماء الذين اختاروا هذا السبيل) على ما نعرفه: «أجل نحن على صواب، العدو قوي ومنتشر ومتغلغل وخطر فعلا، تماما كما صورناه: يجب مضاعفة جهودنا». يصعب تخيل أن بوش وبلير يرغبان عن قصد

بجعل الأمور أكثر سوءا: وحتى في هذه الحالة، فهما يسكنان عالما تولد فيه الحلول الجنونية شرعية (زائفة) لها ولهما. وفي الحقيقة، يبدو أن «الطرفين كليهما» في «الحرب على الإرهاب» منشغلان بهاجس رعاية وتغذية ما يفضلانه من كوابيس. على مستوى الحروب الأهلية، رأينا كيف يمكن لاتهام المتمردين بأنهم من «الأصوليين الإسلاميين» أن يكتسب بمرور الوقت درجة متزايدة من الحقيقة، كما في الشيشان والفليبين. فالمشاعر المعادية لأمريكا في معظم أرجاء العالم غالبا ما تعتبر «حقيقة واقعة»: لكنها، كما لاحظنا، ليست طبيعية ولا راسخة الجذور[58].

اعتبر العراق خطأ مصدرا رئيسا للإرهاب قبل الحرب، وأصبح كذلك بالفعل بعدها ـ وهذا تطور أعطى مصداقية زائفة للاتهام الأولي. الدعاية تحققت، والثمن كثير من التشويه والتحريف والعديد من الأرواح. ومثلما قال جون كيري في المناظرة مع بوش: «الرئيس تحدث لتوه عن العراق بوصفه مركزا للحرب على الإرهاب. لكن العراق لم يكن حتى قريبا من مركز هذه الحرب قبل أن يغزوه الرئيس»[59]. وحتى الهجمات على قوات الاحتلال سرعان ما وسمت بأنها «إرهابية»، والتهمة الشائعة لدى القيادة الأمريكية في العراق هي أن المقاتلين العراقيين يستخدمون التكتيكات الإرهابية[60]. لكن الهجمات على جنود الاحتلال ليست إرهابا: حتى تعريف وزارة الخارجية الأمريكية للإرهاب يتمحور على استخدام العنف ضد المدنيين[61]. فكيف يمكن تبرير تدمير مدينة بأكملها ـ مثل الفلوجة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004؟ أولا، يجب إعلان أنها تأوي «إرهابيين»: ثم إعلان المدينة ـ بعد أن يفر معظم سكانها مذعورين ـ منطقة حربية كل من فيها معرض للقتل على أساس أن من بقي من السكان لا بد أن يكونوا إرهابيين[62].

إضافة إلى تصنيع وتكثير الأعداء من خلال تعميق مشاعر الغضب، يمكن للعنف أن يسبب النزوح، وبالتالي «يلوث» «أهدافا» جديدة بعدوى جماعات العدو. وتفسر حالة ذهان الارتياب حتى النزوح الناجم عن عنفها بوصفه مؤامرة من قبل

حكومـات شـريرة عـازمـة على «إيواء» الإرهابيين. على سـبـيل المثـال، يبـدو أن أهم الصلات المزعومة بين صدام وابن لادن جسدها الأردني أبو مصعب الزرقاوي (دعاه بوش بـ«أفضل دليل» على الصلة الجامعة بين العراق و«القاعدة»)[63] الذي لجأ إلى بغداد هـربا من الهجـوم الذي قادته الولايات المتحدة على أفغانسـتان[64]. وهكذا، يساعد هجوم سابق في تبرير هجوم لاحق. وبعد سقوط بغداد، قيل إن الزرقاوي لجأ إلى الفلوجة، واستخدم ذلك كذريعة لتبرير تدمير المدينة في تشرين الثاني/ نوفمبر 2004 وقبل ذلك، في أيار/ مايو 2003، كثف المسؤولون الأمريكيون الضغط والانتقاد لإيران بحجة أنها تؤوي قيادات «القاعدة» والموالين لصدام حسين. سورية أيضا اتهمت بإيواء البعثيين العراقيين. لكن كان من الطبيعي أن يؤدي الهجوم على أفغانستان ثم العراق إلى نزوح العديد من أولئك الذين استهدفوا علنا إلى البلدان المجاورة. علق السير اندرو غرين، السفير البريطاني في سورية بين عامي 1991-1994 قائلا: «لا يمكن للسلطات السورية منع العراقيين من عبور الحدود الصحراوية البالغ طولها 400 ميل»[65]. وفي الحقيقة، أصبحت سورية مصدرا للجهاديين المشاركين في التمرد داخل العراق[66]، لكن هذه الحالة «المارقة» ليست سوى عاقبة متوقعة للهجوم على العراق، وليست دليلا يؤكد أن سورية دولة يتأصل فيها العداء لأمريكا أو هي جزء من «محور الشر» المتوسع. في عام 2005، كان المسؤولون الأمريكيون يتوقعون أن تشكل «الأماكن الشاسعة التي لا تخضع لسلطة أي حكومة» في القرن الإفريقي حاضنا لمقاتلي «القاعدة» العائدين من العراق[67] وهو توجه (أو إدراك) يمكن أن يفاقم المشكلات في تلك المنطقة. وبغض النظر عن تأثيرات النزوح، فإن التمرد في بلد محتل يوجد الفرص السانحة لاتهام البلدان المجاورة بالتآمر والتواطؤ، والرغبة في فصل التمرد عن «العراقيين العاديين»، التي توجد بحد ذاتها باعثا محفزا لتسليط الضوء على التدخل الخارجي. وبقيت الاتهامات الموجهة لسورية بتسهيل تدفق المقاتلين إلى العراق مستمرة وملحة طبعاً[68].

هنالك طريقة أخرى يمكن للعنف من خلالها أن يجعل الناس يشبهون الصورة المرسومة لهم في الدعاية، وذلك عبر إيجاد المناخ الملائم لجعل الصور التي تنزع الصفات الإنسانية عن العدو تبدو مشروعة وحتى ضرورية. عند ذروة الهجوم على العراق عام 2003، انضم مايكل سافاج إلى محطة «MSNBC» (مايكروسوفت ـ ان بي سي) التلفازية. وفي مراجعة شاملة ومفيدة لتحريف وتشويه المعلومات من قبل وسائل الإعلام، علق شيلدون رامبتون وجون ستوبر على سافاج بالقول:

> كان يشير بشكل روتيني إلى البلدان غير البيضاء باسم «أمم العالم المنحط»، ويقول إن الولايات المتحدة «استولى عليها المسوخ والعاجزون والمنحرفون والمصابون بعاهات عقلية». وفي أحد البرامج برر الطعن في الأعراق الأخرى باعتباره أداة للأمن القومي: «نحن بحاجة الآن لنماذج عنصرية منمطة لعدونا لكي نشجع محاربينا على قتل هذا العدو»[69].

وهكذا، قد تساعد الحرب ذاتها في إيجاد شعور بوجود عدو عديم الرحمة وعديم الإنسانية. وفي الوقت ذاته، عملت انتهاكات قوات التحالف داخل العراق على نزع الصفات الإنسانية عن العدو، لا من خلال تأجيج الغضب والعنف فقط، بل عبر تجريد الناس من كرامتهم الإنسانية. لاحظ تقرير أعده الجنرال جورج فاي أن الممارسات العامة، مثل المبالغة في تعرية المساجين، «يرجح أن تسهم في تصعيد ـ نزع الصفات الإنسانية ـ عن المعتقلين وتهيئ المسرح لحدوث مزيد من الانتهاكات الأشد فظاعة»[70]. إن العنف في الغالب عبارة عن عملية نسقية، توجد فيها الانتهاكات الأولية شرعية زائفة لفظائع تالية أشد قسوة[71]. علاوة على أن جزءا من وظيفة العنف المتطرف يتمثل في إقناع الضحايا أنفسهم بأنهم لا يستحقون التمتع بالحقوق: فإذا كانت لديهم حقوق، فلم إذن يتعرضون بشكل منهجي للهجوم والتجريد من الصفات الإنسانية؟ الجنرال جانيس كاربنسكي، التي أوقفت عن العمل

كقائد وحدة لإدارة السجون بسبب فضيحة «أبو غريب»، قالت إن الجنرال جيفري ميللر، القائد السابق لمعتقل غوانتانامو، أبلغها: «يجب تحويل هذا المكان» [أبو غريب] إلى غوانتانامو.. إنهم كالكلاب. إذا سمحنا لهم بالاعتقاد بأنهم أعلى مرتبة من الكلاب فلسوف نفقد السيطرة عليهم»[72]

ملاحظات ختامية

الاعتماد على «النصر» لتوليد الشرعية سيف ذو حدين بالطبع. فربما توجد حدود لمعقولية عمل لا ينجح بصورة واضحة، وانتقاد خيارات الحكومة الأمريكية يظهر على السطح ثم يشتد مع تزايد الصعوبات التي تواجه احتلال العراق. لاحظت هانا ارندت أن النازية انهارت فجأة كإيديولوجية حين عنت الهزيمة أنها لم تعد قادرة على دعم دعايتها بأعمال مؤثرة وناجحة. علاوة على ذلك، فإن أولئك الذين يزعمون أن الله يقف في صفهم ربما يكونون عرضة على نحو خاص لخسارة شعبيتهم ومكانتهم حين تعني الهزيمة أو الفشل ضمنا أن الله لا يؤيدهم[73]. ومع تباطؤ زخم الحرب في العراق وامتدادها أكثر من اللازم، تتحول الحماسة الأمريكية الشعبية إلى إحباط يحرر الناس من الأوهام المضللة والآمال الكاذبة. فاعتبار تطرف ووجهة الرد دليلا يثبت حدة ومصدر المشكلة آلية قد لا تنجح إلى الأبد.

لكن، يمكن التعويض عن ذلك كله بطريقتين اثنتين.أولا، من الممكن الحفاظ على مظهر النصر لمدة طويلة حتى حين يصبح الواقع يائسا. إذ إن للتقديم والعرض أهمية كبيرة (وهذه نقطة سوف نناقشها بمزيد التفصيل في الفصل العاشر). ولربما تكون الانتصارات الملحوظة والقصيرة الأمد أكثر أهمية من تحقيق تأثير إيجابي فعلي في المشكلة بالنسبة لمن يقوم بالتدخل. أما فوائد «الفعل كدعاية» فلا تستمد من تحقيق الفوز بل من التظاهر بتحقيقه. على سبيل المثال، ربما استطاعت الانتخابات في أفغانستان والعراق، لبعض الوقت على الأقل، تحقيق شيء من النجاح

المعقول ظاهريا انطلاقا من الكارثة التي حلت بالبلدين ـ الأمر الذي ساعد مؤقتا على تقنيع التأثيرات ذات النتائج العكسية الأكثر عمقا للهجوم عليهما والمشكلات البعيدة المدى لوضع الأمن والحكم فيهما.

ثانيا، حتى الإخفاق يمكن أن يضفي الشرعية على الرأي القائل إن على أمريكا وحلفائها تكريس طاقة أكبر لهزيمة الإرهاب. وفي الحقيقة، يبدو أن لأولئك الذين يشنون الحرب على الإرهاب مصلحة في الإصرار على أنهم يكسبون ويخسرون في آن معا. ومن المؤكد أن تلك رسالة مربكة ومشوشة، لكن الرسالة المختلطة تحظى بميزة مهمة هي تعذر دحضها. ويمكن توجيه أي نوع من الأدلة، وأي تحول إيجابي أو سلبي للأحداث، لصالح الخط الرسمي (المبهم). كل نصر يخلف وراءه فظائع جديدة ويستثير صراعا جديداً: «إسقاط طالبان تبعته تفجيرات بالي»؛ وإسقاط صدام تبعته تفجيرات مدريد: انتخابات أجريت في العراق، لكن تفجيرات وقعت لندن. يبدو أن المهمة لن تنجز أبداً: وكما قال مارك دفيلد بأسلوبه البليغ: «القضية تتعلق دوما بارتكاب مذبحة أخرى، والفوز بهذه الحرب التي ليست لها نهاية، وبعد ذلك سنصبح أحراراً». وما إن نتنفس الصعداء حتى نواجه قلقا جديدا يمسك بخناقنا. تقترب الحرب على الإرهاب من نهايتها: تعيش الحرب على الإرهاب!



8
درء عار العجز

النزعة إلى تحميل مجموعة صغيرة ومحددة ضمنا من الأشرار مسؤولية الأعمال السيئة والمؤذية لم تلق الدعم والتشجيع من الرغبة في الأمان واليقين فقط، بل من الرغبة في درء مشاعر الخزي والعار أيضا. ويبدو أن تمني تقليص حدة تهديد العار قد ساعد على تشكل الإرهاب إضافة إلى مكافحته (مثلما اعتبرت المقاومة العراقية أنها تغسل عار ما حصل في الفلوجة، أو حين صور ابن لادن العنف الإرهابي بأنه يغسل عار الهيمنة الغربية).

أشار الطبيب النفساني جيمس غيليغان إلى أن الناس سيلجؤون إلى أقصى مدى من العنف لدرء مشاعر العار والمهانة[1]. وأقنعه العمل مع / والإصغاء إلى بعض من أخطر وأعنف المجرمين في أمريكا بأن التجارب الماضية لهؤلاء الأفراد قد أصابتهم بحساسية مفرطة تجاه مشاعر العار والمهانة والمذلة، وحين يدفع الحظ العاثر شخصا لإثارة أو إيقاظ هذه المشاعر فإنه يخاطر بحياته. ومن خلال القتل (بما في ذلك الهجوم على العيون التي ترى والألسن التي تتكلم)، يمكن للمجرم القضاء مؤقتا على تهديد الشعور بالعار. ومن المهم في دلالته أن العنف لم يستهدف في العادة مصدر الإذلال الأصلي. الأمر الذي يشير إلى انقطاع جذري في الصلة بين «الحل» و«المشكلة» ـ وهذا عامل مفتاحي في التفكير السحري عموما. وقدم غيليغان الحجة على أن الرغبة في القضاء على مصدر الشعور بالعار وبالتالي الاحتفاظ بإحساس من القيمة الشخصية، شكلت على الدوام باعثا أقوى حتى من غريزة البقاء، مما يدفع المجرمين العنيفين إلى السلوك المدمر للذات وإساءة معاملة الآخرين.

يبدو أن فظائع الحادي عشر من سبتمبر وعواقبها قد استحضرت ثلاثة تهديدات مهمة بالعار للولايات المتحدة، دفعت المسؤولين المعنيين إلى الذهاب إلى أبعد مدى ـ واستخدام حتى العنف ـ لدرء هذه التهديدات. التهديد الأول (سنناقشه في هذا الفصل) نجم عن العجز المطلق تجاه مأساة الحادي عشر من سبتمبر (ثم بالتوسع، نشر القوات الأمريكية ردا على ذلك).

يمكن اعتبار هجمات الحادي عشر من سبتمبر ردا على الإذلال، استجابة مذلة في حد ذاتها. أما الرد الذي قادته الولايات المتحدة فشمل نقل مشاعر العجز والعار إلى الآخرين من خلال توكيد مشهود على القوة العسكرية الأمريكية. ومثلما هي الحال مع المجرمين الذين تحدث عنهم غيليغان، كان مصدر الإذلال الأصلي غير متاح ويصعب الوصول إليه (على الأقل بسبب انتحار الإرهابيين الذين نفذوا الهجمات)، الأمر الذي أعدّ المشهد لانقطاع الصلة بين «الحل» و«المشكلة»، تماما مثل عملية إزاحة العنف التي بينها غيليغان. الحلقة مفرغة، كما لاحظنا، ولا نهاية لها، نظرا لأن أولئك الذين نقلت إليهم «حمولة» العجز والعار سوف يتعرضون (وهم معرضون) لإغراء معالجة ضعفهم ومداراة عارهم من خلال شعورهم بالقوة عبر استخدام العنف، وذلك حين يلجؤون إلى شن الهجمات الإرهابية ومقاومة الاحتلال. وكما كتب إيريك هوبزبوم في دراسته حول قطاع الطرق والمتمردين: القتل والتعذيب هما أشد التوكيدات بدائية وشخصية على القوة المطلقة، وكلما زاد شعور المتمرد بضعفه في قرارة نفسه، تعاظم ـ كما نفترض ـ إغراء توكيده على القوة[2].

استحضرت الهجمات تهديدا ثانيا بالعار أشد إيذاء وأفدح ضررا: التهديد الناجم عن الاشتباه (مهما كان مبهما وتردد الناس في استشعاره) بأن أولئك المستهدفين (أي الأمريكيين) قد فعلوا شيئا أو امتنعوا عن فعله. ويبدو أن تحديد مصدر العنف باعتباره «شراً» خارجيا معينا، قد قدم بديلا أكثر معقولية وقبولا (سنناقش هذه العملية في الفصل التاسع).

التهديد الثالث بالعار (سنتطرق إليه أيضا في الفصل التاسع) انبثق من ردة الفعل العنيفة على هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وهي ردة فعل استحثت إدانة واسعة النطاق للولايات المتحدة (وبريطانيا إلى حد كبير) من مختلف بلدان العالم، إضافة إلى عداء شديد للجنود المنتشرين على الأرض في أفغانستان والعراق. ورد المسؤولون المعنيون بعمليات مكافحة الإرهاب على هذا التهديد الإضافي بالعار عبر توسيع دائرة أعدائهم بالتزامن مع تضييق دائرة حلفائهم الموثوقين. أما الانتقاد المسيء لـ«الأصدقاء» فيمكن تجنبه بطريقة لبقة ـ لكن خطرة ـ عبر استبعادهم، أو في الحد المتطرف، إعادة تعريفهم بوصفهم «أعداء». تساعد هذه العملية في تفسير حماسة الهجوم العدائي على المنتقدين المحليين والأجانب لـ«الحرب على الإرهاب»، وضد المدنيين في البلدان التي تعرضت للهجوم العسكري.

العنف باعتباره قوة

حين تسربت أنباء الانتهاكات في «أبو غريب»، استنكر المسؤولون الأمريكيون عمليات الإذلال المفتضحة باعتبارها استثنائية ولا تمثل الولايات المتحدة. واحتدم أيضا جدل عام حول التعذيب، حيث قدم بعضهم الحجة على إمكانية تبرير درجة معينة من التعذيب إذا استهدف الحصول على معلومات يمكن أن تمنع هجوما إرهابيا وشيكا أو تساعد في «الحرب على الإرهاب». لكن ماذا لو لم تكن الانتهاكات مجرد انحراف أو محاولة وحشية لـ«الفوز»، بل هي هدف مركزي؟ ماذا لو لم يكن الإذلال استثناء ولا حتى وسيلة، بل القاعدة والغاية؟

في حين يقدم العنف عادة كوسيلة تخدم غاية تتجاوزه (مثلا: جعل العالم أكثر أمنا أو عدلا)، فإننا نعرف من العديد من الدراسات والأبحاث عن الحرب في شتى أرجاء العالم أن العنف يغل ثماره في كثير من الأحيان: خصوصا الشعور الفوري بالرضى نتيجة فرض الإرادة وعكس الشعور السابق بالعجز والمهانة. وبهذا المعنى

يصبح العنف بحد ذاته الهدف من العنف. وبينما يميل الخطاب البلاغي للعنف الجماعي إلى التمحور حول «العدالة»، و«الوقاية»، وهزيمة العدو، فإن الغرض منه ربما يكون مباشرا وفوريا بدرجة أكبر. الأمر الذي يعني في دلالته أن من غير المهم اختيار الهدف الصحيح أو هزيمة العدو المعلن.

أظهرت الحروب المعاصرة في غرب إفريقيا الوظائف الفورية والمباشرة للعنف. على سبيل المثال، أكد المحللون الذين درسوا الحرب الأهلية في ليبيريا على أهمية الإثارة المصاحبة لممارسة القوة من خلال فوهة البندقية[3]في سيراليون المجاورة، كل من يفسر العنف كوسيلة لغاية بعيدة المدى يناقض المفارقة المتمثلة في استعداء المتمردين والجنود على حد سواء للمدنيين من خلال الهجمات ضدهم (انظر الفصل الثالث). لكن إذا اعتبرنا العنف توكيدا مباشرا للقوة وردا فوريا على العجز، تأخذ غالبية الممارسات العنيفة هذه معنى دلاليا أكثر عمقا. وبالتوافق مع رؤى هوبزبوم حول وظائف «اللصوصية الاجتماعية» المتمثلة في «المساواة بين الناس» عموما[4]، يشكل العنف في سيراليون غالبا طريقة لتحقيق المساواة الفجة والفورية في المجتمع عبر تدميره وتسويته بالأرض. وبمعنى من المعاني، يقلب العنف المكانة والرؤية رأسا على عقب: يمكن أن يتحول الفقراء والحقراء إلى أغنياء وأجلاء: والمهمشون والمهملون إلى نجوم لامعة تحتل أخبارهم الصفحات الأولى. ومن العوامل الأساسية المهمة أن العديد من الشباب يعيشون قبل اندلاع الحرب الأهلية السافرة في حالة فظيعة من الحرمان (من المكانة، والعمل، والكلام، وحتى الزواج)[5]. وفي الوقت ذاته، يميل جنود الحكومة ـ المعرضون لخطر جماعات المتمردين المتمتعين بالذكاء والدهاء والقدرة على المراوغة، بالتزامن مع إهمال وتجاهل رؤسائهم ـ إلى التنفيس عن غضبهم وإحباطهم باضطهاد أولئك الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم: المدنيين [6]وبالرغم من أن الزعماء الذين لا يتمتعون بالشعبية يتعرضون أحيانا للهجوم من قبل المتمردين، إلا أن هناك استعدادا ملحوظا لدى الجنود والمتمردين

على حد سواء ـ مثلهم مثل المجرمين الذين أشار إليهم غيليغان ـ لممارسة العنف وإلحاق العار بأولئك الذين لا يعتبرون مصدرا أساسيا لمظالمهم وشكاواهم وإذلالهم.

في تحليلها للحروب التي عصفت بالصين في بدايات القرن العشرين، اكتشفت المؤرخة ديانا لاري ديناميات مشابهة إلى حد غريب. وقدمت الحجة على أن الأعمال الوحشية التي انتشرت على نطاق واسع واستهدفت المدنيين لم تنجم عن «شر» فطري متأصل في الجنود، بل عن إحساسهم بالعجز: الضرب الذي تعرضوا له، الإهمال الذي عانوا منه، الأمراض التي أصابتهم في ظروف مرعبة، العجز الذي شعروا به في الحياة المدنية[7]. ويبدو أن الانتقام من أولئك الأقل قوة كان بمثابة رد على هذا الإحساس المتراكم بالعجز[8].

حين يتعلق الأمر بأمريكا والجنود الأمريكيين في السنوات الأخيرة، يتبدى إحساس بالعجز على المستويين الكلي والجزئي كليهما. فعندما فوجئت في الحادي عشر من سبتمبر 2001، بدا بكل وضوح أن أغنى حكومات الأرض وأكثرها تسلحا عاجزة تماما عن حماية آلاف من مواطنيها: ودمرت الطائرات المخطوفة الرمز الشاهق للثروة الأمريكية قبل أن تحدث فجوة هائلة في المؤسسة المسؤولة عن الدفاع عن الوطن (البنتاغون)[9]. تباهى أسامة ابن لادن في شريط فيديو بثته قناة الجزيرة، قائلا: «.. فها هي أمريكا قد أصابها الله في مقتل من مقاتلها فدمر أعظم مبانيها فلله الحمد والمنة»[10].

يمكن معاناة العجز على عدة مستويات مختلفة، وقد يغذي العنف حتى على المستوى المحلي. مرة أخرى نقول إن مراوغة عدو مستعد لتنفيذ هجمات إرهابية تعد عاملا مهما. كما أن نقص الموارد أمر مهم أيضا. على سبيل المثال، نعلم أنه في «أبو غريب»، أسهمت رغبة إدارة بوش في تحديد التزامات الجنود في الافتقار الحاد إلى الموارد، مع نقص في عدد المترجمين والمحققين وحراس المساجين (بلغت النسبة 75 إلى واحد). وتعرض السجن إلى هجمات يومية بقذائف الهاون. ويبدو أن الشعور

بالحصار الناجم عن ذلك كله قد شجع الانتهاكات التي ارتكبت هناك، بما فيها التعذيب السافر(11).

مثلما هي الحال مع العنف في زمن الحرب عموما، لا يمكن تفسير التعذيب فقط كوسيلة لغاية بعيدة المدى، ومن المؤكد أن جزءا من الغرض المعلن للتعذيب هو الحصول على المعلومات. لكن رأينا كم عدد السجناء الذين عذبوا على أيدي الجنود الأمريكيين ولم تكن لهم أي صلة بالمقاومة العراقية. وعلى أية حال، يحرض التعذيب بشكل طبيعي على العداء والعنف. يلاحظ فواز جرجس من مقابلاته المطولة والشاملة مع الجهاديين في الشرق الأوسط أن «السجون في البلدان العربية / الإسلامية، خصوصا غرف التعذيب فيها، شكلت حاضنات لتفريخ أجيال من الجهاديين»(12)وأي «ميزة» فيما يتعلق بجمع المعلومات تتضاءل أهميتها نتيجة عاملين اثنين: أولا، مضاعفة عدد الأعداء: ثانيا، نقص متوقع في الحصول على المعلومات من المواطنين العراقيين العاديين وغيرهم في العالمين العربي والإسلامي(13). ولا ريب في أن المعلومات المستخلصة تحت التعذيب لن تكون موثوقة على أية حال. ولاحظ أستاذ علم النفس روبرت ليفتون، الذي درس حالات ضحايا التعذيب الذين خرجوا من الصين الشيوعية في الخمسينيات، أن التعذيب يدفع الضحايا لقول ما يريد المحققون سماعه: لسوف يعترف الضحايا بأي شيء يخطر على البال(14). يبقى هذا الرأي صحيحا حتى اليوم. ومثلما أكدت منظمة حقوق الإنسان: «كتيب التحقيق الذي أصدره الجيش الأمريكي يوضح أن سوء المعاملة يضعف المسعى للحصول على معلومات موثوقة. وتقول القيادة العسكرية الأمريكية في العراق إن المعتقلين العراقيين يقدمون معلومات استخبارية أكثر فائدة حين لا يخضعون للإكراه والإجبار»(15). وأبلغ أحد كبار القادة الأمريكيين صحيفة «نيويورك تايمز» في السابع والعشرين من أيار/ مايو 2004، بأنهم لم يعرفوا «سوى القليل عن التمرد» من التحقيقات التي جرت في «أبو غريب»(16).

نعود مرة أخرى إلى حملات مطاردة الساحرات. تقول آن بارستو، في معرض تعليقها على هذه الحملات في أوروبا القرن السادس عشر: «يبدو أن السجانين، وصائدي الساحرات، والجلادين، والقضاة، كانوا يحصلون على متعهم السادية من السجينات [المتهمات بممارسة السحر]. وأراد الرجال المعنيون من مطاردة الساحرات أكثر من مجرد إدانتهن: أي، سلطة جنسية لا يمكن تحديها على النساء»(17). وتضيف بارستو: «الحقيقة الأساسية للسلطة القضائية المطلقة على النساء ربما أججت النزعة إلى العنف». اليوم، تبدو إغراءات ممارسة القوة المتطرفة على شكل تعذيب عظيمة جدا في سياق: أولا، العجز المطلق أمام هجمات الحادي عشر من سبتمبر: ثانيا، الخوف والإحساس بالعجز لدى جنود الاحتلال الذين يعيشون بين سكان يتنامى عداؤهم باطراد (خصوصا في العراق): ثالثا، فرص السيطرة والتحكم والمناعة التي يتيحها تطبيق «الحرب على الإرهاب». التجربة المستخلصة من عدد لا يحصى من الحروب إضافة إلى ميدان العنف الإجرامي تخبرنا بعدم وجود ما هو أخطر من هيمنة شعور على فرد (أو جماعة) بأنه ضحية بالتزامن مع إحساس بالحصانة (والقدرة على الإفلات من العقاب)(18). الأمر الذي لا يفسر موقف العديد من الأفراد العسكريين على الأرض فقط، بل الولايات المتحدة ككل (حصانتها مستمدة إلى درجة كبيرة من غياب قوة عظمى أخرى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي).

الانتهاكات التي ارتكبت في «أبو غريب» وغيره من المعتقلات الأمريكية، بما فيها تلك الموجودة في أفغانستان، قصد منها على ما يبدو إلحاق أكبر قدر من العجز والعار بالضحايا، بينما خدمت الصور هدف إلحاق نوع من «العار المضاعف»، حسب تعبير مارك دانر(19). يبدو أن الانتهاكات في هذه السجون قد أخذت بعين الاعتبار المشاعر والحساسيات المحلية بشكل متعمد، واستخدمتها ضد الضحايا. الكتيب الإرشادي / التدريبي لمشاة البحرية يشمل النصح بأخذ الثقافة العراقية بعين الاعتبار:

لا تلحق العار برجل أو تهينه علنا. فهذا يجعله هو وأسرته معادين للتحالف.. قد يتمثل العار في وضع قلنسوة فوق رأس المعتقل. تجنب هذه الممارسة. أما تمديد المعتقل على الأرض أو وضع القدم فوقه فيعني أنك ربّه - هذا من أسوأ الأشياء التي يمكن أن نفعلها[20].

لكن إغراء «إلحاق العار» بالآخرين كان لا يقاوم. ويبدو أن الإحساس الفوري بالعجز نتيجة أحداث الحادي عشر من سبتمبر كان أشد تأثيرا نظرا لحقيقة اعتياد أمريكا ممارسة قوتها العظيمة ونفوذها الواسع وسلطتها المهيمنة: ومثل صبي اعتاد منذ نشأته الحصول على كل ما يريد بطريقته الخاصة، اعتادت أمريكا فرض إرادتها على الآخرين، لا الخضوع لإرادتهم. علاوة على أن صدمة الحادي عشر من سبتمبر فاقمت على ما يبدو شعورا أوسع بالقلق: قلق جماعي من فقدان أمريكا لتفوقها الاقتصادي. وفي هذا السياق المزدوج، بدت أوهام تجديد القدرة الكلية شديدة الإغراء: وساعدت في إعادة التوكيد على بعض الشعور بالسيطرة والتحكم. واتضحت هذه الرغبة في التوكيد على التحكم والسيطرة حتى في التفاصيل الصغيرة، كما حدث حين أصر بوش على أن الولايات المتحدة سوف ترد على الحادي عشر من سبتمبر «في الوقت الذي تختاره».

الرغبة في الانتقام ترتبط ارتباطا وثيقا أيضا بإبطال الشعور بعار العجز. وضحايا هذا الانتقام تحددوا بواسطة التعريفات على أعلى مستوى للعدو. مرة أخرى نؤكد أن ذلك كله ليست له سوى صلة واهية بكسب «الحرب على الإرهاب»، بل هو يعرقل الانتصار فيها. في الرابع من شباط / فبراير 2002، تجمع حوالي خمسة وعشرين رجلا من القوات الأمريكية الخاصة وثلاث جماعات شبه عسكرية من وكالة المخابرات المركزية قرب الحدود الباكستانية مع أفغانستان. ووضعت كومة من الصخور على شكل شاهدة قبر فوق صورة مدفونة لمركز التجارة العالمية المدمر.

تلا أحد الرجال الصلاة وأعلن: «نحن نقدس هذه البقعة كنصب تذكاري أبدي للأمريكان البواسل الذين قضوا في الحادي عشر من سبتمبر، وسيعلم كل من تسول له نفسه إلحاق الأذى بأمريكا أنها لن تقف مكتوفة الأيدي لتشاهد انتصار الإرهاب»[21]. ذلك هو أسلوب بوش دون ريب لكن قد يتجاوز الجنود حتى الرئيس في الإعراب عن الرغبة في العنف. تابع الجندي صلاته ليقول: «لسوف نحمل الموت والعنف إلى أركان الأرض الأربعة دفاعا عن أمتنا العظيمة». يمكن العثور على مشاعر مشابهة لدى بعض الجنود الأمريكيين الذين يخدمون في العراق. العريف مايكل ريتشاردسون (22سنة) علق قائلا:

> هنالك صورة لمركز التجارة العالمية معلقة قرب سريري وأحتفظ بأخرى في جيب سترتي (المضادة للرصاص). في كل مرة أنظر إليها، أشعر بالأسف لهؤلاء الناس. أفكر: «وجهوا لنا ضربة داخل الوطن، والآن حان دورنا». لا أريد القول أننا ننتقم، لكنه انتقام بالفعل[22].

أحد الضباط البريطانيين السابقين ممن كانت لهم علاقة مع الجنود الأمريكيين في العراق، قال إن الشعور السائد هو «يجب الانتقام بدون تردد» وأضاف: «العديد منهم ما زالوا يعتقدون بأنهم يتعاملون مع المسؤولين عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر»[23].

الاتكالية والقدرة الكلية

لا يوجد من هو أضعف من الطفل الرضيع، لكن المغني ومؤلف الأغنيات الكندي نيل يونغ قال (في أيار/ مايو 2003) إن «الولايات المتحدة تشبه وليدا يحمل قنبلة!»[24]. لا ريب في أن المقارنة سوف تسبب القلق للعديد من الناس: تماما مثل محاولات المسؤولين والمراقبين الأمريكيين اتهام فرنسا بالطفولية بسبب عدم عدوانيتها تجاه العراق (الفصل التاسع)، أو زعيم كوريا الشمالية كيم جونغ ايل

(الفصل الثاني). لكن قد تكون كلمات الموسيقي أكثر من مجرد عبارة استفزازية. تلاحظ المحللة النفسية البريطانية جوان ريفيير، في كتاب ألفته مع ميلاني كلاين المتخصصة في التحليل النفسي للأطفال، أن «الوليد لا يميز وجود أحد سوى نفسه.. ويتوقع تلبية كل ما يريد»[25]. وحين يدرك أنه معتمد على الآخرين، يرجح أن يصبح عدوانيا جداً. تتابع ريفيير: «لا يستطيع الوليد أن يميز بين ـ أنا ـ و ما ـ ليس أنا ـ: فاحساساته هي عالمه: العالم بالنسبة له: لذلك حين يشعر بالجوع أو البرد أو الوحدة يفقد العالم الحليب أو الرعاية أو المتعة[26]قد يشكل هذا الإدراك بالعجز في حد ذاته مصدرا أوليا للعار[27]. وكانت باربرا أهرنرايك قد كتبت تقول: «نحن الأمريكيون كنا [قبل الحادي عشر من سبتمبر] كسالى، ومتشبثين بجهلنا بكل عناد، ومنشغلين بالذات إلى درجة الاعتقاد بأنها الموجود الوحيد. فإذا ما كان هناك عالم خارجي، لم نكن نريد أن نعرف شيئا عنه، إلا إذا ماتت فيه أميرة جميلة»[28]. كم مرة قيل للعالم إن الحادي عشر من سبتمبر هو «اليوم الذي غيّر العالم»، وإن «إحساسنا بالأمن تلاشى في ذلك اليوم»، و«لا شيء سيبقى على حاله أبداً»؟ هنالك شيء من الصحة والحقيقة في هذه العبارات، ومن خلال طبيعتها التحفيزية، ساعدت على تغذية ردة فعل (ومبدأ الفعل الاستباقي) غيرت في حد ذاتها العالم تغييرا جذريا. لكن هناك استغراقا في شؤون الذات وعمى في البصيرة أيضا. فإذا حاولت تقديم الحجة على أن السادس من نيسان/ أبريل 1994 هو «اليوم الذي غير العالم»، فسوف تقابلك نظرات خالية من المعنى في شوارع نيويورك (أو لندن). وتكون محظوظا في الواقع إذا صادفت شخصا مثقفا ومدركا بما يكفي لكي يتذكر بالكاد ويقول: «أجل، ألم تبدأ في ذلك اليوم عمليات الإبادة الجماعية التي راح ضحيتها 800ألف شخص في رواندا؟».

الولايات المتحدة ليست في مرحلة الطفولة بل أمة مبدعة ومتقدمة تقانيا تتمتع بثقافة غنية ومتنوعة: لكن في بلد يعاني من عجز غير مسبوق في الميزان التجاري

بينما يشن حروبا باهظة التكاليف ويطبق تخفيضات ضريبية مقدارها 350 مليار دولار، ألا يوجد شيء من سمات هذا الوليد الذي يتوقع «تلبية كل ما يريد». ألا يوجد شيء طفولي أو شيء من التهور على الأقل في التفكير السحري الذي يعتبر الحروب التكنولوجية المتقدمة بدون تكلفة بالنسبة للضحايا والمعتدين، وفي الاعتقاد بأن من المفيد الرد على الإرهاب بزيادة الإنفاق، وفي الرأي القائل إن من الممكن بطريقة ما فصل الأشرار عن بقية الناس، وفي الإيمان بأنك إذا أغمضت عينيك وتمنيت شيئا صعب التحقق (تدمير بعض أسلحة الدمار الشامل في عيد الميلاد أو عيد الفصح!) سوف تتحقق أمنيتك بشكل سحري؟[29].

تبدو السياسة الأمريكية من جوانب عديدة قائمة على أساس الحفاظ على «جنة الحمقى والبله» في التو واللحظة، بينما تصدر المشكلات إما إلى مناطق جغرافية أخرى (تصدير العنف، امتصاص رأس المال لتمويل العجز في الميزانية) أو إلى مراحل زمنية أخرى (مستقبل ينوء بمشكلات التغيرات المناخية والتلوث، مستقبل سيشهد تعويض العجز الحالي في الميزانية وتكاليف حرب العراق من خلال تخفيض نفقات الرعاية الصحية، والحصول على الأدوية، والضمان الاجتماعي.. الخ)[30]. الخبير الاقتصادي ديفيد غولد لاحظ في عام 2004 أن «برنامج بوش الدفاعي إجمالا سوف يتطلب زيادات إضافية هائلة في الإنفاق الاتحادي، إذا نفذت الخطط الراهنة. ومع التخفيضات الضريبية ونمو الإنفاق في المجالات الأخرى، فإن هذه وصفة تقليدية لتحطم قطار الميزانية»[31]. فإن تبدى هنا تفكير يتعلل بالأماني، فلا يمكن تحميله كله على عاتق السياسيين. في صحيفة «هيرالد تريبيون إنترناشيونال»، أثار بوب هيربرت الاهتمام والقلق من حقيقة أنه في الانتخابات الأمريكية المعاصرة «لا يستطيع المرشحون إبلاغ الناخبين بالحقيقة ومع ذلك يحققون الفوز»، وأضاف: «نحن الأمريكيون.. نريد من زعمائنا التلاعب بالحقيقة لتصبح كما نشتهي»[32].

يصف الروائي جوستين كارترايت رحلة إلى مدينة بوفالو بولاية نيويورك فيقول:

> توقفت في مطعم لتناول الفطور، كان الجميع يأكلون وجبات سخية من طعام الأطفال: فطائر محلاة مغطسة بشراب مركز، بيض مع أطباق جانبية، عصير، حليب، حليب ممزوج بمنكهات أخرى. وحين قالت النادلة عبارات مشجعة خطر على بالي فجأة أنهم يعاملوننا كأننا أطفال ضخام الأجسام. وكلما نظرت إلى التلفزيون، بدا مقدمو البرامج ـ بشعورهم المصففة البراقة ـ وكأنهم يخاطبون أطفالا، تملؤهم البهجة والحبور لتشجيع المشاهدين، ثم تظهر على قسماتهم ملامح الجدية أحيانا حين ينقلون خبرا جديدا مثل عدم ظهور أسلحة دمار شامل[33].

يقدم كارترايت الحجة على أن الأصولية الدينية «تقدم جوابا بسيطا وطفوليا لمشكلات العالم»:

> المشكلة تكمن في مجتمع يفتقد الثقة في نسبة القيمة: من هنا يأتي اللجوء إلى الانشغال بشؤون الذات والسلوك الطفولي: والحلول السياسية الطفولية والوعود التجارية الطفولية. إنه نوع من التظاهر والادعاء لأننا لا نعرف ماهية قيمتنا.

يشكل التلهف على استعادة القيم المفقودة بالتأكيد جزءا من الخطاب البلاغي لليمين الأمريكي. وعلى وجه العموم، ربما تلقى البالغون التشجيع على التصابي من خلال الشعور بأن الطفولة ـ والبراءة ـ قد اختطفت منهم. كتاب توماس فرانك يبين كيف غذى الحنين إلى «جنة الشباب المفقودة» «ردة الفعل» المحافظة في الولايات المتحدة، حيث تفجع كتّاب مثل جي. غوردون ليدي على خسارة الحريات المرتبطة بالشباب الأمريكي: الطريقة التي اختطف عبرها مجتمع مبالغ في الالتزام بالقواعد المتع البسيطة مثل حرق أوراق الشجر، أو قطع الأشجار، أو اصطياد الطيور ببندقية

(وما فيه من براءة مفقودة!). إن فرض الإرادة ـ وحتى العنف ـ على الطبيعة برز بقوة في التاريخ والفلكلور الأمريكيين، وإحدى أهم التوليفات الفكرية تتهم الليبراليين في واشنطن باختطاف هذه الجنة المفقودة للشباب الأمريكي (وجنتها أيضا).

لكن جزءا من النضج يتمثل في إدراك أن العالم لا يمكن أن يخضع دوما لإرادتنا. ويبدو أن بوش ـ الذي توقى العديد من الحقائق الواقعية بواسطة المال أولا، ثم المسكرات لاحقا ـ يفتقد بشكل خاص هذا المنظور الناضج. كما يبدو أنه يعادي بشدة لا تلين فكرة أن هناك قوة مؤثرة خارج أمريكا يجب أن تؤخذ بالحسبان عند رسم السياسة. جون كيري قال في المناظرة مع بوش قبل انتخابات 2004:

> يستخدم أسامة بن لادن غزو العراق ليقول للناس: «أمريكا أعلنت الحرب على الإسلام». نحن بحاجة لأن نكون أكثر ذكاء في شن الحرب على الإرهاب. نحن بحاجة إلى حرمانهم من المجندين.

يقودنا هذا إلى لب القضية، ويسلط الضوء بأسلوب بلاغي على الطبيعة ذات النتائج العكسية لمقاربة بوش. لكن رد الرئيس لم يكن اعتذاريا، بل كاشفا: «منافسي قال شيئا مدهشا»، وأردف:

> قال إن أسامة بن لادن يستخدم غزو العراق كذريعة لنشر كراهية أمريكا. ابن لادن لا يقرر كيف ندافع عن أنفسنا. ابن لادن ليس هو من يقرر. الشعب الأمريكي يقرر. أنا أقرر. العمل الصحيح كان في العراق.

لاحظنا حجة هانا ارندت على أن النقطة المهمة في رسم السياسة ليست بالضرورة أن تكون على صواب، بل أن تكون متأكدا ومتيقنا. هنا، يصرح بوش بعبارة ذات صلة: ليس المهم أن تكون على صواب، بل أن تكون مستقلا ذاتيا. وهذا في واقع الأمر استحضار ضمني للحرية الطفولية: لأن الحرية عُرفت فعليا بوصفها حرية

اتخاذ القرارات بشكل مستقل عن القيود التي قد يفرضها عالم مربك ومحرج. الأمر الذي يفرض قدرا معينا من المعنى النفسي على عالم معقد وخطر أحيانا: وهو جنون أيضا. لنتخيل أن بوش يعبر شارعا. فهل يقف أمام سيارة مسرعة ليعلن: «السائق لا يجب أن يقرر متى أمشي. الشعب الأمريكي يقرر. أنا أقرر؟». ألا توجد حقائق واقعية خارجية معينة لا تستطيع السياسة مغالبتها بمجرد قوة الرغبة والتعلل بالأماني؟

هنالك نوع من الغطرسة الثقافية غذى نظرة إدارة بوش المركزة على الذات للعالم، مثلما غذى مقاربات الإدارات السابقة. قبيل وفاة إدوارد سعيد في أيلول/ سبتمبر 2003، كتب يقول:

> ما يبدو أن الزعماء الأمريكيين وأتباعهم من المفكرين غير قادرين على فهمه هو أن التاريخ لا يمكن مسحه كما نفعل بلوح الكتابة، بحيث نقوم "نحن" بحفر مستقبلنا عليه وفرض أساليبنا الحياتية ليتبعها أولئك الأدنى مرتبة. فمن الشائع سماع كبار المسؤولين في واشنطن وغيرها يتحدثون عن تغيير خريطة الشرق الأوسط، كأنما المجتمعات والتجمعات السكانية يمكن هزها مثل حبات الفستق في جرة[34].

أضاف إدوارد سعيد قائلا: إن فكرة «وجوب قيام البشر بصنع تاريخهم قد استبدلت بأفكار تجريدية تحتفي بالاستثنائية الأمريكية أو الغربية المتفوقة، وتسخر من السياق ذي الصلة، وتزدري الثقافات الأخرى». علاوة على أنه «لولا وجود إحساس منظم يؤكد على أن الناس هناك ليسوا ـ مثلنا ـ ولا يقدرون قيمنا ـ أي جوهر العقيدة الاستشراقية التقليدية ـ لما اندلعت الحروب»[35]. في هذا البعث الجديد للاستشراق لا يوجد مكان لـ«الكرم» حسب تعبير إدوارد سعيد، وللعقول التي تفسح مجالا لـ«الآخر» الأجنبي وتحاول فهمه حسب شروطه هو.

ما تضيفه هذه العادات والمثالب والنقائص هو نوع من الانطواء السياسي على الذات: إخفاق ذريع وعميق الجذور في تقدير حقيقة وجود بشر أحياء من لحم ودم يتخذون قرارهم «هناك» خارج إطار المرجعية الذاتية لعالم الزعماء والقادة الغربيين[36]. يبدو أن قلة من الأفراد على استعداد للتفكير خارج إطار هذا الصندوق المغلق المركز على الذات. أحدهم وزير الخارجية السابق كولن باول، الذي كان ـ ربما بسبب بشرته السمراء ـ أكثر وعيا من غيره بالوجه الآخر للإمبريالية والاستعمار. يلاحظ بوب ودوارد أن باول شعر في اجتماع ضم كبار المسؤولين الأمريكيين في التاسع والعشرين من تشرين الأول /أكتوبر 2001 «بالقلق من أن الولايات المتحدة تلعب دور القوة العظمى المستأسدة، وتحاول تحريك قوى المعارضة [الأفغانية]، والتحالف الشمالي، ومختلف أمراء الحرب كأحجار الشطرنج، كأنما ليست لهم علاقة بهذه الحرب». كما سأل: «هل لديهم أية أفكار حول ما يريدون فعله، مقابل ما نعتقد نحن بأن عليهم فعله؟»[37]. لكن حتى باول يبدو عرضة للمركزانية الأمريكية وتحريفاتها وتشويهاتها للحقائق، كما حدث عندما ساعد على تعبيد الطريق للحرب على العراق عبر الإعلان أمام مجلس الأمن الدولي (وعلى الهواء مباشرة) أن «الطموح والكراهية كافيان لوحدهما لجمع العراق والقاعدة معا»[38]. بكلمات أخرى، «يكرهنا الطرفان، لذلك لا بد أن يشكلوا عصبة واحدة». ومن الأمور الحاسمة في أهميتها أنه طالما ينقسم العالم بين «الأنا» و«الآخر»، يرجع عدم فهم العلاقات داخل فئة «الآخر»[39]. وردد بوش صدى «تحليل» كولن باول في خطاب ألقاه في قاعدة «فورت براغ» العسكرية (كارولينا الشمالية) في حزيران/ يوليو 2005، حيث أشار إلى أن المتمردين العراقيين يشتركون مع «القاعدة» في تبني «إيديولوجية توتاليتارية»، وإذا لم تلحق بهم الهزيمة هناك فسوف يستخدمون البلد كركيزة لشن هجمات إرهابية على الولايات المتحدة ذاتها[40].

إذا عدنا إلى الصلة التي رسمتها ميلاني كلاين وجوان ريفيير بين العدوانية والاتكالية، نجد أن من المثير للاهتمام التفكير بالنفط ـ وبالديون. وكما تحاجج ايمانويل تود، فإن أمريكا انتقت أهدافا ضعيفة حتى مع تضاؤل قوتها الاقتصادية الحقيقية وزيادة اتكاليتها الاقتصادية (خصوصا نتيجة العجز التجاري)[41]. فالولايات المتحدة تعتمد على جذب المدخرات من شتى أرجاء العالم وعلى مغريات الاستثمارات الدولارية؛ لكن قوة الدولار تضعف، وأصبح وضعه كعملة احتياطية مغلفا بالغموض وعدم اليقين، حيث حول العراق ذاته أسعار النفط إلى اليورو في تشرين الثاني/ نوفمبر 2000 [42] ومع تحول اعتماد أمريكا على النفط إلى خوف مشروع من هذا الاعتماد ـ جزء من سياق القلق يأتي من الاعتماد المفرط على النفط السعودي والاهتمام بتأمين قواعد بديلة والسيطرة الكاملة على واردات النفط العراقية[43]. العجز المالي الهائل في ميزانية الولايات المتحدة يعني في واقع الأمر أنها أصبحت هي أيضا معتمدة على استمرار تدفق رؤوس الأموال (من شرق آسيا على وجه الخصوص) لاستدامة استهلاكها المفرط. مرة أخرى، نحن نرى مدى الاتكالية الغريبة للقوة العظمى الوحيدة في العالم. أشارت هانا أرندت إلى أن العنف يزداد مع تزايد شعور أولئك الممسكين بزمام السلطة بأنه يفلت من أيديهم (وهي نقطة ربما تتلقى دعما إضافيا من حجة فواز جرجس التي تؤكد أن تركيز الجهاديين بؤرة الاهتمام على «العدو البعيد» انبثق من الضعف والانقسامات في صفوف الجهاديين الذين ركزوا تقليديا على محاربة «العدو القريب»)[44].

في مراسم أقيمت في البنتاغون لتخليد ذكرى ضحايا الحادي عشر من سبتمبر بعد شهر واحد من الهجمات، شبه رمسفيلد الإرهابيين بالأنظمة التوتاليتارية المهزومة في القرن العشرين التي سعت لتحكم وتقمع وتضطهد، وأضاف معلقا:

> الرغبة في القوة والسلطة، والباعث الملح للهيمنة على الآخرين.. لا يجعلان الإرهابي مؤمنا بلاهوت الله، بل بلاهوت الذات وكلمات الغواية

المهموسة: «ستصبحون كالآلهة». في استهداف هذا المكان، وأولئك الذين عملوا هنا، أصاب المهاجمون الأشرار في استشعار حقيقة أن من أقاموا هنا يشكلون النقيض لهم ولكل ما يمثلونه[45].

لكن رمسفيلد بالغ في اعتراضاته بالتأكيد. إذ يبدو أن هذه الكلمات المهموسة قد أغرت المسؤولين الأمريكيين الرئيسين أنفسهم: وازدهرت «الرغبة في القوة» لديهم و«لاهوت الذات» في سياق الاتكالية الاقتصادية والعجز الذي تبدى في الحادي عشر من سبتمبر. صحيح أن الإرهابيين رفعوا أنفسهم بطريقة ما إلى مرتبة الله: حيث يزعمون أنهم يمثلون سلطانه ويستمدون مرجعيتهم منه، ويتصرفون كما لو أنهم يملكون قدرته، ويعتدون على الأبرياء. لكن ما يخفق السياسيون الأمريكيون في إدراكه دوما أن الآخرين يعتبرونهم أيضا يتصرفون كأنهم يملكون قدرة الله، ويزعمون تمثيل سلطته، ويعتدون على الأبرياء، ويتجاهلون القانون بدلا من الالتزام به. كما أن مشروع «تصدير الحرية» العنيف والصاخب يعطي الانطباع بأن أمريكا تسعى إلى «إعادة تشكيل العالم على صورتها»، حسب تعبير جون فيفر: وهو مشروع نسبه الكتاب المقدس بالأصل إلى رب الخليقة[46]. عبر سائق سيارة أجرة في جوهانسبورغ (بجنوب إفريقيا) عن رأي شائع حين قال لي: «يمتلك بوش قدرا من القوة جعله يظن أنه الله». أما ثقة المحافظين الجدد بقدرتهم على تغيير العالم فتدين بشيء من الفضل على ما يبدو إلى الاعتقاد بأنهم استطاعوا هزيمة الاتحاد السوفييتي (وهو إنجاز نسبه العديد من إرهابيي «القاعدة» إلى أنفسهم، وساعد في إعطائهم نوعا من الثقة المبالغ بها بالنفس)[47]. وحين أطلقت الإدارة الأمريكية في البداية اسم «عملية العدالة المطلقة» على الهجوم على أفغانستان، أشار اختيار الاسم إلى أن الولايات المتحدة وضعت نفسها في مرتبة الله، وفي الحقيقة جرى التراجع عن الاسم حين تأكد أن الله وحده في الإسلام قادر على أن يقيم «العدالة المطلقة». وتخطر على البال قصيدة بيرسي شيللي «قناع الفوضى» التي كتبها في أعقاب مذبحة بيترلو عام 1819 في مانشستر بإنكلترا:

الفوضى أتت أخيرا،

على حصان أبيض، ملطخة بالدم:

كانت شاحبة، حتى الشفتين،

كالموت يوم القيامة.

ووضعت تاجا ملكيا؛

ولمع في قبضتها صولجان:

وعلى جبينها رأيت هذه العبارة ـ

«أنا الله، والملك، والقانون»[48].

على مستوى من المستويات، يعتبر أولئك الذين يروجون للحرب الدائمة حلفاء طبيعيين: ويبدو أن التطرف يدخل في حالة عشق غريب مع نظيره المقابل[49]. وعلى مستوى آخر، يبدو أن من المقدر على هؤلاء الأعداء أن يتبادلوا سوء الفهم، ربما لأنهم يشبهون بعضهم بعضا ولا يستطيعون الاعتراف بهذه الحقيقة. فالإصرار على وجود نقيض لك قد ينمو ويزداد قوة كلما ازددت شبها بالنقيض: وفي الحقيقة، أشارت الأبحاث التي تناولت القومية إلى أهمية «نرجسية الاختلافات الصغرى»: كلما بهت الاختلاف الحقيقي بين الناس (كما في يوغسلافيا السابقة)، تعاظم شبحه في مخيلتهم[50]. ويبدو أن الجذور المشتركة لليهودية والمسيحية والإسلام لا تشكل مصدرا خاصا للتناغم والانسجام، والمزيد من التمظهرات المتطرفة للأصولية المرتبطة بهذه الديانات تحرص على إنكار واستبعاد أي عوامل مشتركة بينها. يدعونا ذلك كله لاتباع نصيحة كارين أرمسترونغ: «يجب أن نربي أنفسنا على رؤية ما يكمن في أساس مختلف الأصوليات الدينية من كرب ومعاناة وعجز وخوف، وغضب أيضا»[51].

الاعتماد على القوة الأمريكية (الركوب على أكتافها!).

عانى البريطانيون بالطبع من شعور أطول بالارتباك والتشوش وخسارة القوة مقارنة بالأمريكيين. ففي لحظات أعظم انتصار حققته بريطانيا (نهاية الحرب العالمية الثانية)، خسر البريطانيون ـ بتشجيع من أصدقائهم الأمريكيين ـ إمبراطورية بأكملها. وعلى شاكلة العضوية في مجلس الأمن الدولي وما يسمى بـ«النادي النووي»، يبدو أن الركوب على أكتاف القوة الأمريكية يوفر بعض التعويض، طاقة نجاة من عار هذا الانهيار الدراماتيكي للنفوذ والقيادة. ولأن الولايات المتحدة ما تزال إلى حد ما تأخذ شكل «صنيعة الإنكليز» ـ برغم كل شيء، فإن الأمريكيين يتحدثون الإنكليزية، ولا يتحدث البريطانيون «الأمريكية» ـ يمكن كبت حقيقة الخضوع والتبعية والحفاظ بطريقة سحرية على مكانة «القوة العظمى»[52]. (من المثير للاهتمام أن إحساسا بالإحباط العنيف نتيجة «نهاية الإمبراطورية» قد نسب أيضا إلى المتطرفين الإسلاميين الذين يستحضرون دوما أمجاد الخلافة العثمانية)[53]. أوهام العظمة المسيطرة على توني بلير واضحة بما فيه الكفاية، خصوصا حين أعلن في عام 1997:

ظل قدر بريطانيا، قرنا وراء قرن من الزمان، أن تقود الأمم الأخرى. هذه القيادة يجب ألا تكون جزءا من تاريخنا السالف، بل من مستقبلنا الآتي. فإما أن نقود الأمم أو نفنى[54].

التبعية للولايات المتحدة ليست أمرا جديدا: بل هي امتداد وتنوع لأنماط ظهرت خلال الحرب الباردة. لكنها بلغت الآن حدودا جديدة. ولربما تكون ترقية بلير إلى مرتبة البطل الأمريكي بعد الحادي عشر من سبتمبر شديدة الإغراء كما ثبت لاحقا.[55]. وزير الدفاع البريطاني جون هون قال في خطاب ألقاه أمام المعهد الملكي للخدمات المتحدة (حزيران/ يونيو 2003) إن «من المستبعد أن تنخرط المملكة المتحدة

في عمليات قتالية واسعة النطاق بدون الولايات المتحدة»، ولذلك يتوجب الآن «بناء وتجهيز وإعداد» القوات المسلحة البريطانية لتلبية مطالب الحروب التي تخوضها الولايات المتحدة[56]. بالنسبة لمنتقدي توني بلير، لا يمكن للخضوع الذليل المقيت أن يكون أكثر وضوحا، وهذا يحصر بريطانيا في دور الشريك التابع الصغير: مجرد طفيلي تافه، لكن شديد الحماس، يعتاش على ثروة وقوة الولايات المتحدة. لقد تعرضت بريطانيا للسخرية باعتبارها مستعمرة لمستعمرتها السابقة، وأطلق المنتقدون على بلير ألقابا هجائية وتحقيرية مثل «كلب بوش» أو «طفل بوش»، أو «صغيري توني»[57].

لا ريب في أن قراءة «ثلاثون يوما» (عنوان كتاب بيتر ستوثارد حول بلير)، بعد قراءة كتاب ودوارد «بوش في الحرب»، تعتبر تجربة كئيبة ومثبطة. صحيح أن العديد من الأحاديث المسجلة في كتاب «بوش في الحرب» تثير الرعب والذعر فعلا: لكنك تشعر ببعض الإثارة على أقل تقدير، بإحساس بوجود شيء من القوة، وإن استخدمت بشكل سيئ جدا. أما كتاب ستوثارد (وعنوانه الفرعي: «شهر في قلب حرب بلير»)، فيصف عالما مصغرا تهيمن عليه قضايا التقديم والعرض حيث يحاول بلير وكامبل إقناع عامة الناس وحزب العمال (وربما إقناع الذات) بعدالة حرب بوش في واقع الأمر لا حرب بلير[58].

في حين أن بعض البريطانيين يجدون هذه «العلاقة الخاصة» الأحادية الجانب ترفع الشأن أو تسلي النفس، إلا أن غيرهم يرونها خطرة ومذلة. بلير يشعر إلى حد ما بالإذلال عموما: في تشرين الأول/ أكتوبر 2003 قال: إنه ما كان بمقدوره أن يترك صدام حسين في مكانه «وقد امتلأ جرأة» بينما «تتعرض ديمقراطيات العالم للمذلة»[59]: لكنه عمي بكل عناد عن الإذلال الذي تعرض له من قبل بوش. فقد أضعف أسلوب بوش الأحادي الجانب مرارا وتكرارا (حول قضايا مثل التعرفة على

الفولاذ، والأسرى البريطانيين في غوانتانامو، إضافة إلى حرب العراق ذاتها) محاولات بلير إظهار أن العلاقة الخاصة تغل أرباحا ومكاسب. وحين سُمح لاريل شارون بعرقلة "خارطة الطريق" والتشبث بخطته للحفاظ على عدد من المستوطنات اليهودية المختارة في الضفة الغربية، كان ذلك بمثابة ضربة لقيام أي دولة فلسطينية متماسكة ولطمة لبلير في الوقت ذاته.

في هذه الأثناء، عبرت الصحف البريطانية اليمينية والسياسيون المنتمون إلى اليمين عن القلق على السيادة حين وضع بضع مئات من الجنود المرابطين في مقدونيا تحت قيادة الاتحاد الأوروبي مثلا، ولم يمثل تآكل السيادة في العلاقة مع الولايات المتحدة هاجسا مقلقا بالنسبة لهذه الصحف وأولئك السياسيين. طرح جورج مونبيوت سؤالا وثيق الصلة حين قال: «لماذا استبدل الشعار الرجعي القديم ـ موطني، انصره ظالما أو مظلوما ـ بشعار آخر: ـ وطنهم، انصره ظالما أو مظلوما؟». وأشار: «الوطنيون المزيفون عندنا يعرفون أين تكمن القوة. وبعد أن حددوا موقعها، يريدون استرضاءها. لن يقفوا في وجهها أبدا، للسبب ذاته الذي يجعل من الولايات المتحدة تهديدا أكبر لسيادتنا من الاتحاد الأوروبي»[60]. وهذا تنويع، بكلمات أخرى، على مبدأ «القوة حق».

9
العار والنقاء والعنف

إذا كان العجز الذي تبدى في الحادي عشر من سبتمبر قد غذى إحساسا بالعار واستحث ردا عنيفا، فإن التهديد الثاني بالعار انبثق من الاشتباه بأن الحادي عشر من سبتمبر مرتبط بما فعله الأمريكيون (من سيئات) أو ما امتنعوا عن فعله (من صالحات). قال الكثيرون إن أمريكا أظهرت قدرا كبيرا من الضعف (انظر فقرة «أمريكا تتراخى» لاحقا)، بينما أشارت قلة إلى أنها بالغت في استعراض عدوانيتها وغالت في تشوقها للحرب والتدخل (انظر فقرة «مقاومة من يلومون أمريكا على الحادي عشر من سبتمبر»). التهديد الثالث بالعار ـ الذي ينبثق من الاستجابة العنيفة للحادي عشر من سبتمبر ـ سوف نتناوله في فقرة «مكافحة الإرهاب وتكاثر الأعداء».

أمريكا «تتراخى»: الضعف، والخصاء، والتلوث

أدت كوارث عديدة ـ شهدتها ثقافات متنوعة في مراحل زمنية مختلفة ـ إلى ظهور دعوات تطالب بالتفسيرات وما يرتبط بها من «تطهر» وعودة إلى النقاء. ولاحظ العالم الأنثروبولوجي تيم الن، اعتمادا على عمله الميداني في شمال أوغندا، أن كبار السن سعوا مرارا لتفسير النكبات والبلايا (مثلا: مرض يصيب جنديا سابقا) عبر ربطها بالسلوك المعادي للمجتمع في الماضي ـ أي بالمبادئ الأخلاقية التي عملوا على ترويجها[1]. في الحروب الأهلية الإفريقية، جرى امتداح التعفف عن ممارسة الجنس وتناول الكحول باعتباره يوفر مناعة للعنف[2]. في حضارة المايا القديمة في أمريكا الوسطى، استحث الجفاف إقامة طقوس شعائرية تشمل تشويه

الأعضاء التناسلية في محاولة على ما يبدو لتهدئة غضبة الآلهة وعودة المطر من جديد. في العصر الحديث، وجه النازيون انتقاداتهم الهجائية إلى النزعة المادية في ألمانيا وحملوها مسؤولية تحويل الوطن إلى بلد ضعيف وأنثوي ورخو و«برجوازي»[3]. وشدد كتاب مثل كلاوس ثيويليت على أن معظم جنود قوات العاصفة الأوائل كانوا من المعادين للقوى والجماعات ـ «الثورة»، «اليهود»، «الفساد»، حتى «النساء» ـ التي اعتبرت مسؤولة عن إضعاف قوة ورجولة وعزة ونقاء ألمانيا، وعبدت الطريق لإذلالها ومهانتها نتيجة معاهدة فرساي (1919). كتاب اومر بارتوف «مرايا الدمار»، يجلب الانتباه ـ عبر حجة ذات صلة بحجج ارندت وثيويليت ـ إلى الميل نحو توجيه اللوم على الكارثة العسكرية التي حلت بألمانيا في الحرب العالمية الأولى إلى أولئك الذين زعم أنهم أضعفوا المجهود الحربي وغدروا بالجنود الألمان. وفي الواقع، أدت الحاجة إلى تفسير ـ وتمجيد ـ المعاناة إلى تحويل الأعداء من جنود «هناك» إلى مدنيين «هنا»: من الجنود البريطانيين والفرنسيين إلى اليهود[4]. يشدد جيمس غيليغان وتوماس شيف على الروابط الجامعة بين «عار» ألمانيا في معاهدة فرساي والبحث عن كبش فداء بلغ ذروته في عمليات القتل الجماعي لليهود. وحتى في فرنسا، التي أصيبت هي أيضا بصدمة عميقة في الحرب العالمية الأولى، وجدت جماعات كبيرة من الناس أن من المغري الترحيب بالنازية كحل لحالات الضعف والتلوث والفساد الداخلية. ويلاحظ بارتوف أن الكثيرين في فرنسا المحتلة اعتبروا الاحتلال النازي توكيدا على الانحلال الأخلاقي الذي أصاب فرنسا وانجرافها نحو العلمانية، ووجدوا فيه ـ في الوقت ذاته ـ فرصة سانحة لعكس هذه التوجهات والنزعات عبر إقامة تحالف بين الكنيسة ورئيس نظام فيشي (الموالي للألمان) المارشال هنري بيتان[5].

بعد الحرب العالمية الثانية، استمرت الانقلابات العسكرية في تغذية مختلف أنواع «التطهر». في منتصف السبعينيات، شجعت حملات القصف العنيف التي شنتها الولايات المتحدة على كمبوديا على بحث منحرف وعنيف عن «النقاء والطهر»،

والتخلص من «الاستعمار» و«الإمبريالية» عبر قيام نظام الخمير الحمر باجتثاث السكان من المدن وقتل الفيتناميين، و«المتعاطفين» معهم، والجواسيس و«المتواطئين» المزعومين[6]. وبعد أن عانى الجيش الرواندي من «الإذلال والمهانة» نتيجة اتفاقية السلام في اروشا عام 1993، شجع البحث عن مصادر الضعف و«التلوث» على ارتكاب جرائم الإبادة الجماعية في رواندا عام 1994 [7].

ظهرت توليفة فكرية قوية النفوذ في الولايات المتحدة أكدت على أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت ـ جزئيا ـ نتيجة ضعف أمريكا وتهتكها وانغماسها في الملذات. الأمر الذي شجع نوعين مقلقين من رد الفعل أفرزا في نهاية المطاف نتائج عكسية. تمثل الأول في العدوانية تجاه مختلف أعداء الخارج. وجاء الثاني على شكل مضاعفة المسعى لـ«النقاء والطهر» و«إحياء مكارم الأخلاق» في الداخل: كأنما لإعادة إنعاش مجتمع تراخى ولان وأصبح عرضة للهجوم. ونزع الحزب الجمهوري واليمين الديني إلى تبني وجهة نظر فصامية (شيزوفرانية) للدولة، توجب عليها التدخل في الأخلاق الشخصية وتوجيهها بعيدا عن السوق (باستثناء الإنفاق الدفاعي). تعززت هذه المقاربة على ما يبدو نتيجة هجمات الحادي عشر من سبتمبر: لقد شجعت الحاجة إلى إعادة إنعاش وتنشيط «القيم الأمريكية» مزيدا من التدخل في الأخلاق الشخصية وفي الليبرالية الاقتصادية بدرجة أكبر، من خلال التخفيضات الضريبية على وجه الخصوص. لكن الإنفاق العمومي مال إلى الارتفاع ـ وفي هذا مفارقة واضحة ـ خصوصا الإنفاق على شؤون الدفاع.

تمثل جزء من إذلال ومهانة الحادي عشر من سبتمبر في الشعور بأن الولايات المتحدة لم تكن قوية، أو ذكورية فيه الكفاية، لمنع الهجمات عليها. أما الرأي القائل إن الرد الضعيف على الحادي عشر من سبتمبر سيغري بهجوم أسوأ فقد عبر عنه بعض المعلقين المتظاهرين بالليبرالية. ففي معرض التحذير من مغبة الفشل في تمييز الإرهابيين عن غير الإرهابيين، كتب الصحفي توماس فريدمان في «نيويورك

تايمز» بعد الحادي عشر من سبتمبر بوقت قصير: «إن عدم الرد بأسلوب شرس وضار على هذا الهجوم الذي استهدف شعبنا سوف يغري بشن هجوم أسوأ غدا ويؤدي إلى حرب بلا نهاية مع الإرهابيين»[8]. وبالنسبة للعديد من المسؤولين والمحللين، تطلبت الصورة الذهنية الذاتية للولايات المتحدة كقوة عظمى «عملا قاسيا وعنيفا». ومثلما قال نائب الرئيس ديك تشيني حين واجه الهجوم على أفغانستان مقاومة شديدة: «يجب أن نشجع التحالف الشمالي على احتلال كابول. نحن كقوة عظمى لا يجب أن تفشل»[9]. ومن المهم في دلالته أن بوش والعديد من أعضاء فريق الأمن القومي اعتبروا رد إدارة كلينتون على ابن لادن والإرهاب الدولي ضعيفا إلى حد أنه مثل دعوة فعلية لضرب الولايات المتحدة مرة أخرى. وكان انتقاد كلينتون حادا على نحو خاص فيما يتعلق بإطلاق ستة وستين صاروخا (من طراز كروز) على معسكرات التدريب التابعة لـ«القاعدة» في أفغانستان ردا على تفجير السفارتين الأمريكيتين في شرق إفريقيا عام 1998 [10]. وعلق بوش قائلا بعد الحادي عشر من سبتمبر:

> إن فكرة إطلاق صاروخ «كروز» على خيمة عبارة عن دعابة بالفعل. أعني أن الناس يعتبرون ذلك [دليلا] على عجز أمريكا.. أسلوب لين، نوع من الكفاءة التقنية، لكن البلد الصلب لا يكتفي بإطلاق صاروخ من غواصة وانتهى الأمر. أعتقد جازما بأن هناك صورة ذهنية لأمريكا تقدمها بوصفها مغالية في المادية. في الانغماس في الملذات، وأننا شعب ليست له قيم، وحين نتعرض لضربة لا نستطيع الرد. من الواضح أن ابن لادن امتلأ بالجرأة والجسارة ولم يشعر بتهديد الولايات المتحدة[11].

سيكون هذا موضوعا ثابتا ومتكررا. في حزيران/ يونيو 2005، أبلغ بوش مجموعة من الجنود الأمريكيين في قاعدة «فورت براغ» (بولاية كارولينا الشمالية) بأن «الإرهابيين يعتقدون أن المجتمعات الحرة ينخر فيها الفساد والانحلال، وإنهم

ببضع ضربات قوية يستطيعون إجبارنا على التراجع»[12]. يشير هذا النوع من التحليل إلى اتجاه فكري أوسع نطاقا ظل سنوات عديدة يصور أمريكا الليبرالية دولة مترددة ولينة. في معرض الإشارة إلى عداء بول ولفوفيتز القديم لصدام حسين، لاحظ الأستاذ الجامعي ستيفن هولمز أن «غضب ولفوفيتز هو في الجوهر غضب على ضعف الليبرالية الأمريكية.. مصدر الوهن، ومنبع الفساد والانحلال، والنسبوية التي ظلت تعرض المجتمع الأمريكي للتآكل طيلة عقود من السنين»[13].

إذا أصبحت أمريكا «لينة ورخوة» و«متهتكة ومنغمسة في الملذات»، وفقدت «قيمها»، فإن المطلوب نوع من الإحياء الأخلاقي على ما يبدو لدرء مزيد من التهديدات في المستقبل. ولربما يشكل ذلك جزءا من تفسير سبب التشديد المتزايد على «القضايا الأخلاقية» ـ خصوصا معارضة الإجهاض وزواج المثليين ـ في انتخابات عام 2004، حيث أعيد انتخاب بوش بأغلبية مريحة، وقام اليمين الديني بتنظيم واستنهاض وحث الناخبين على دعمه وتأييده[14]. ويبدو أيضا أن المخاوف من أن تصبح أمريكا ضعيفة ومادية قد شجعت سياسة خارجية تتبنى ردة فعل عنيفة نبذت الشكوك حول القيم والنشاط والحيوية. قال نورمان ميلر عن أمريكا عام 2004: «أصبحنا أمة مذنبة. هنالك في مكان ما من الضمير الوطني المشوش، شعور بأننا محاصرون في شراك تناقض صغير بين حب المسيح يوم الأحد، والشهوة الشبقة للمال في بقية أيام الأسبوع. فكيف لا نكون بحاجة إلى من يخبرنا بأننا أخيار وأطهار، ويسعى لجعلنا آمنين؟». وتبعا لهذا المنطق، ربما نتوقع أن تعزز المصالح الاقتصادية في الحرب (النفط، السلاح) الحماس الشديد للأجندة الأخلاقية التي تنتحلها الذات. علاوة على ذلك، ومثلما لاحظ ميلر، لربما يحتاج بوش نفسه بعد أن تعافى من الإدمان على الكحول لمثل هذا الرداء الأخلاقي: «تحولت تقوى جورج بوش إلى مرهم معطر يغطي على روائح جنون السكر المكبوتة التي مازالت تهيج الجو داخل نفسه»[15].

لنقارن هذه الديناميات (المجتمعية أو الفردية) مع وصف قدمه المفكر السويسري المسلم طارق رمضان، للعملية التي تم من خلالها تجنيد الشباب المسلم في المنظمات الإرهابية:

> يقال للشباب: ما تفعلونه خطأ كله ـ تتركون الصلاة وتشربون الخمر، وتبتعدون عن الاعتدال والتواضع، وتخرجون على آداب السلوك. ويؤكد لهم أن السبيل الوحيد ليكونوا مسلمين صالحين هو العيش في مجتمع إسلامي. ونظرا لعدم قدرتهم على ذلك، يتعاظم إحساسهم بالعجز ويعانون من أزمة هوية. مثل هؤلاء الشباب هم فريسة سهلة لمن يأتي ويقول لهم: «هنالك سبيل لتطهير النفس». بل إن بعض التنظيمات تشجعهم على تناول المسكرات لزيادة شعورهم بالذنب وتسهيل استغلالهم وتجنيدهم(16).

وعلى نحو مشابه، يلاحظ الصحفي المحنك روبرت فيسك أن بعض المسلمين تمتعوا بالحريات والملذات في الغرب، لكنهم يشعرون بأن «الفساد» أصابهم نوعا ما جراء ذلك. وبالنسبة لقلة خطيرة منهم، تمثل الهجمات الإرهابية سبيلا لا للتخلص من هذا الشعور بالذنب فقط، بل للرد على المجتمع الذي «أفسدهم»(17). إن جزءاً من إغراء العنف، كما فهم العديد من النازيين جيدا على ما يبدو، قد يكمن في عرض طوق النجاة من المادية والمفاسد اليومية لأوقات السلم.

اقترب بوش بين الحين والآخر من تصوير أحداث الحادي عشر من سبتمبر باعتبارها فرصة سانحة للتجديد الأخلاقي وحتى الشخصي. في شباط / فبراير 2002، أعلن:

> لا يرغب أحد منا بأن تواجه أي دولة ما حدث في ذلك اليوم [9/11]. لكن، مثلما هي حال حياة كل منا، يمكن للأحزان التي لا نختارها أن

تكسبنا الحكمة والقوة بطريقة لا تستطيع أخرى تحقيقها. هذه الرؤية محورية بالنسبة للعديد من الأديان وبالتأكيد للدين الذي يجد الأمل والراحة في الصليب[18].

فكرة أن المعاناة الدنيوية تمثل نوعا من الرسالة أو الاستمالة الإلهية للأخلاق لها تاريخ طويل: في القرن التاسع عشر، فسر العديد من صناع الرأي العام البريطانيين المجاعة الكبرى التي عصفت بايرلندا، كآية تثبت رفض الله لقوانين الذرة في بريطانيا (التي اعتبرت معيقة لاستيراد المواد الغذائية)[19]: وفيما بعد، أسهم الرأي القائل إن فيروس عوز المناعة المكتسبة / الإيدز ينزل العقاب بالسلوك الذي لا يرضاه الله في التناقض والازدواجية والتأخير في معالجة الوباء[20].

فكرة المعاناة كوسيلة تصحيحية للزلات الأخلاقية محفورة في عمق نزعة قوية في الفكر الديني الأمريكي. حين لاحظ كليفورد لونغلي أن نموذج «الشعب المختار» مأخوذ من العهد القديم، كتب معلقا:

> متلازمة الشعب المختار، كما نعرّفها، تشير إلى أن الأمم التي يخضع تاريخها لذلك النمط سوف تمر بحلقة دائرية. الإيمان والإخلاص سيتبعهما التراخي والتهاون، ثم الوثنية والكفر (بالمعنى الديني على الأقل): وسيؤدي ذلك إلى المعاناة والبلايا مع تدخل العناية الإلهية لتطبيق العقاب التصحيحي (هذا لا يجعل الله مسؤولا عن تسبيب النوائب والبلايا: فكل ما يفعله هو رفع حمايته). وسيأتي الأنبياء لتفسير ما حدث من أخطاء وذنوب وحث الشعب المختار على العودة إلى الطاعة السابقة: وحين يفعلون ذلك يعيدون الناس (أي ينقذونهم من العقاب) إلى حالة النعم الإلهية المباركة[21].

بالرغم من هذا السياق، يعتبر ربط بوش لأحداث الحادي عشر من سبتمبر مع

صورة أمريكا كدولة ضعيفة تفتقد القيم أمرا شاذا وغريبا من عدة جوانب. أولا، هذا يفترض، على شاكلة العديد من البيانات حول دوافع الإرهابيين، معرفة ما يدور في خلد أفراد جماعة على درجة كبيرة من المراوغة والغموض والتنوع (بعد كل هجوم إرهابي نسمع أن مسارا معينا للعمل ـ لا يفضله مروجوه ـ سوف «يعطي الإرهابيين ما يريدونه»[22].

هنالك جانب آخر للغرابة في تصريح بوش: كأنما الإرهابيين قد أصبحوا «الناطق» المعبر عن مخاوف وأهواء ونزعات بوش نفسه واليمين الديني عموما بما تتصف به من تعصب وتحيز. في واقع الأمر، ينسب إلى الإرهابيين بشكل غريب فضل التشخيص الصائب والدقيق لشرور وآفات المجتمع الأمريكي، والتشخيص ينسجم بشكل غريب أيضا مع القضايا الأخلاقية لسياسة «ردة الفعل العنيفة» كما شرحها توماس فرانك. ويبدو أن هذا التناغم، إلى حد ما على الأقل، يعكس نوعا من «التطابق الأخلاقي» بين الأصوليات الدينية المتنافسة، خصوصا في العداء المعلن تجاه البحث عن المتع الدنيوية: وكما لاحظ المحلل النفسي أوتو كيرنبرغ، تميل الإيديولوجيات الأصولية إلى عدم الاكتفاء بالتقسيم الحاد بين المؤمن والكافر فقط، بل إلى تبني مبادئ أخلاقية تقيد السلوك الجنسي للمختارين: العداء للعلمنة سمة أخرى مشتركة بينها[23]. المبشر الأمريكي جيري فالويل دفع مناورة بوش المبطنة مسافة أبعد حين صور أحداث الحادي عشر من سبتمبر باعتبارها عقابا إلهيا على الإجهاض والمثلية والعلمنة[24] (تفسير ردد صداه بعض الزعماء الدينيين عام 2005 حين جرى تصوير إعصار كاترينا بأنه عقاب على الإجهاض واحتفال المثليين في نيو اورليانز الذي عطلته العاصفة)[25]. في الواقع، كان فالويل يصور الله والإرهابيين باعتبارهم يتكلمون بصوت واحد (وهو ما ادعاه الإرهابيون أنفسهم بشكل أكثر وضوحا ـ على سبيل المثال، حين قال ابن لادن إن الحادي عشر من سبتمبر هو ضربة أصاب بها الله أمريكا في مقتل من مقاتلها[26].

من المثير مقارنة الترحيب الذي أبداه عدد من الزعماء الكاثوليك في فرنسا للاحتلال النازي باعتباره سبيلا لوقف عملية فصل الكنيسة عن الدولة التي زعم أنها استمدت إلهامها من اليهود والماسونيين. علق و . د . هال قائلا: يبدو وكأن الله قد وقف إلى جانب النازيين من أجل تطهير فرنسا[27]. ومن اللافت أن الدراسة الكلاسيكية التي أعدها ريتشارد هوفستادتر عام 1965 حول ذهان الارتياب في السياسة الأمريكية قد لاحظت وجود «مفارقة جوهرية في الذهان الارتيابي تتمثل في محاكاة العدو» ـ أعضاء منظمة «كوكلوكس كلان» العنصرية يرتدون أثواب الرهبان ويمارسون طقوسا شعائرية معقدة ويتبنون تراتبيات متقنة: وأعضاء «جمعية جون بيرش» يقلدون أعداءهم الشيوعيين عبر جماعات «الواجهة» والتشبث بالحرب الإيديولوجية التي لا تعرف الرحمة[28].

الشذوذ الثالث في محاولة بوش دحض وعكس الصورة التي رسمها المهاجمون لأمريكا أنها تتناقض تناقضا حادا مع تشديده على الحاجة للاستقلالية ـ إصراره (كما لاحظنا في الفصل الثامن) على أن «أسامة بن لادن لا يقرر كيف ندافع عن أنفسنا». لكن ما يكمن ضمنا في عمل بوش العلاجي/ التقويمي هو أن ابن لادن يقرر فعلا جزءاً مهما من الرد: في الحقيقة، تمارس نظرة الإرهابيين المفترضة للعالم تأثيرا نافذا لا في السياسة الخارجية الأمريكية (التي تزداد عدوانية باطراد) فقط، بل في جدول الأعمال الذي تتبناه الحكومة على الصعيد المحلي أيضا (الإصلاح الأخلاقي).

من الواضح أن رأي القس فالويل مرتبط بوجهة النظر الشائعة في المسيحية التي تؤكد أن الله كلي القدرة وكلي العلم: لا يمكن للأحداث أن تحدث بدون علمه أو إرادته، وتفلت من ثوابه وعقابه. وضمن هذا الإطار، تحمل كوارث ونكبات مثل الحادي عشر من سبتمبر تهديدا كامنا بالعار، نظرا لأن من الطبيعي أن يسأل

الناس: عقاب على أي ذنب؟ يضاف إلى هذا التهديد بالعار التقليد التراثي البروتستانتي الذي يميل إلى اعتبار الازدهار (الاقتصادي) علامة دالة على الفضيلة[29] فالعديد من الأمريكيين يعتبرون القوة والثروة الواضحة في «أرض الله» آية تثبت رضاه وفضله ونعمته وتأييده. بعد وقت قصير من اعتلاء بوش الرئاسة، رفض السكرتير الصحفي للبيت الأبيض اري فليتشر الدعوات للسائقين لتخفيض استهلاك الوقود، قائلا: «يعتقد الرئيس أن هذا هو أسلوب الحياة الأمريكية.. أسلوب الحياة الأمريكية مبارك»[30]. وبحسب تعبير كليفورد لونغلي في دراسته «الشعب المختار»، فإن «الأمة التي تتمتع بالنجاح يمكن بسهولة أن تقنع نفسها بأنها ترتع في نعم الله وخيراته»[31]. ووفقا للمنطق ذاته، يمكن للهجوم على القوة والثروة البادية للعيان أن يستحضر الفكرة المهددة بأن الله لم يعد راضيا على الشعب الفاضل والمختار. وبالتالي، يجب الحفاظ على القوة والثروة لا لفوائدها فقط بل كعلامة على استمرارية رضى الله على عباده.

في تفسير بوش لآراء الإرهابيين حول أمريكا، ينبهنا استخدامه لكلمتي «العجز» و«التراخي» لكي نقلق من أن الولايات المتحدة لم تعد ذكورية أو رجولية بما فيه الكفاية. وبدا بوش أنه يستحضر لغة أزمة منتصف العمر حين «أعرب عن قلقه من أن الولايات المتحدة قد فقدت تفوقها وأفضليتها»[32] ولربما يكون من المهم في دلالته أن بوش فضل استعمال لغة الفحولة الجسورة (بنكهة إسبانية غالبا) حين يمتدح أصدقاءه. فقد أبلغ مساعد بلير الستير كامبل: «رجلك يمتلك فحولة جسورة»*[33] وفي بعض الأحيان دعا اريل شارون «تورو» أو «الثور»[34] ولربما شعر هو حاشيته بالحاجة إلى إظهار الصلابة ونفي الضعف الداخلي: أولئك الذين استطاعوا التهرب من الخدمة العسكرية في فيتنام، مثل جورج بوش وجون اشكروفت وريتشارد بيرل وديك تشيني، هم من الشخصيات النافذة التي وصفها الكاتب المسرحي ديفيد هير بالقول: «رجال على استعداد لإرسال الآخرين

لفعل ما لم ولن يفعلوه هم أنفسهم»[35]. وظهر بكل جلاء ارتباك وحرج هؤلاء «الصقور الرعاديد» في هجمات الجمهوريين على سجل شخص بدا بوضوح لا لبس فيه أنه اختار المشاركة في الحرب الفيتنامية: جون كيري[36]. وعند المقارنة بين وش وكيري، لاحظ نورمان ميلر بأسلوب جامع بليغ أن «بوش ممثل أكثر شطارة. فقد انتحل شخصية أكثر رجولة منه طيلة العديد من السنين»[37]. وإذا أمكن لهذه الفحولة الذكورية كلها أن توظف للدفاع عن النساء المضطهدات في أفغانستان (وتلك أولوية منشطة، وإن مفاجئة، بالنسبة للجمهوريين) فلا بأس في ذلك.

ليس من الصعب رؤية التوكيد والتشديد على الفضائل «الذكورية» في العديد من الاستجابات الأخرى للحادي عشر من سبتمبر. على سبيل المثال، أصبح ديفيد هالبرستام، أبرز منتقدي حرب فيتنام، مداحا لـ«ذكورية المجتمع الأمريكي واستعراضه لعضلاته»: «لا يمكن أبدا التقليل من شأن قوانا، حين تستحضر وتركز، حين يستثار جسد السياسة ويوصل بالعملية السياسية»[38]. وبالمقابل، فإن أولئك الذين عارضوا حرب العراق كثيرا ما تعرضوا للسخرية والهزء باعتبارهم يفتقدون الرجولة. عشية الحرب، علق تيموثي آش قائلا:

من السهل إيجاز النمط الراهن للأوروبيين: جبناء. فهم ضعاف، نكدون، منافقون، متفرقون، مراؤون، معادون للسامية حينا ومعادون لأمريكا ويحاولون استرضاءها أحيانا.. ينفقون أموالهم على الخمر، والعطلات، ودولة الرعاية الاجتماعية المتورمة بدلا من الإنفاق على الدفاع.. وإذا اعتبر الأوروبيون المعادون لأمريكا «الأمريكيين» رعاة بقر مستأسدين، فإن الأمريكيين المعادين لأوروبا يرون «الأوروبيين» مخنثين وأشباه رجال. الأمريكي رجل مليء بالفحولة، والأوروبي أنثى، أو عنين، أو مخصي.. الخصيان، كما اكتشفتُ، كلمة تدل على الأوروبيين[39].

في حين قد يكون في هذا التقسيم الكثير من المبالغة، إلا أنه يعكس بالتأكيد العبارة الشائعة التي قالها روبرت كيغن: «الأمريكيون من المريخ، والأوروبيون من الزهرة»[40] وضمن هذا الإطار، تعتبر وزارة الخارجية، التي يجدها الكثير من اليمينيين مغالية في حذرها فيما يتعلق بحروب مكافحة الإرهاب، «مخفر أمامي للزهرة»[41]، بينما اعتبر توني بلير في واشنطن استثناء متألقا للقاعدة التي تؤكد أن الأوروبيين جبناء رعاديد[42]. أما السخرية من الديمقراطيين بوصفهم مخنثين فكانت منعكسا استخدم مدة طويلة. في كتابه «الإتاحة اللامحدودة»، أشار غاري الدريتش (عميل مكتب التحقيقات الفيدرالي المعين في البيت الأبيض خلال ولاية كلينتون) إلى رجال الرئيس باعتبارهم «فتيات»، والعبارة المبتذلة توسعت لتشمل الليبراليين الذين لم يتمكنوا من فهم لماذا حدثت هجمات الحادي عشر من سبتمبر مع أنهم على هذه الدرجة من «اللطف والرقة» مع الإرهابيين[43]. بالنسبة لفريق كلينتون، قال ملاحظا:

> هنالك خاصية ثنائية الجنس تميز موظفي كلينتون عن موظفي إدارة بوش [الأب] تبدت مثلا في شكل أجسامهم. في إدارة كلينتون، بهتت الخطوط الفاصلة بين الجنسين، حيث ترتدي النساء، بمناكبهن العريضة، السراويل، في حين أخذت أجساد الرجال شكل الأجاصة الأنثوي. كنت قبل ذلك معتادا على الأجساد الرياضية، على الرجال المتمتعين باللياقة البدنية، الذين يتباهون بعضلاتهم المفتولة وصحتهم السليمة[44].

وفقا لهذا الرأي، أضعفت الليبرالية حتى أسس التمايزات التقليدية الجندرية (تبعا للنوع الاجتماعي) بين الجنسين. وهي مشكلة استقطبت اهتماما خاصا نتيجة زواج المثليين. وبالطبع، واجه كلينتون عاصفة سياسية حين حاول رفع الحظر

المفروض منذ مدة طويلة على تجنيد المثليين في الجيش الأمريكي. ومهما كانت الحقيقة حول كلينتون (ويبدو أنه فعل ما بوسعه ـ تحت الطاولة ـ لتوكيد رجولته)، فإن بوش يبدو قد انحاز كلية إلى معسكر المتباهين بأجسادهم الرجولية الرياضية. على المستوى الشخصي، يستحضر كتاب بوب ودوارد «بوش في الحرب» اهتمام الرئيس وانشغاله بقدرته الجسدية: «أرفع في أحد التمارين ثقلا وزنه 92 كغ». ويضيف بحماسة صبيانية: «أليس هذا أثقل حمل استطاع رئيس [أمريكي] رفعه؟»[45]. ومن يستطيع أن ينسى مشهد انتقال بوش بسهولة من ضرب الأشرار إلى ضرب كرات الغولف في فيلم مايكل مور «فهرنهايت» 9 /11 «أدعو الأمم جميعا لتبذل قصارى جهدها لإيقاف هؤلاء القتلة الإرهابيين عند حدهم ـ الآن راقبوا هذه الضربة!». في تلك الأثناء في لندن، اهتم زملاء بوش من لاعبي الغولف ومساعديهم بالحفاظ على لياقة أجسامهم. وواظب توني بلير على ممارسة التمارين الرياضية وأنظمة الحمية الغذائية[46]. بينما كان مساعده الستير كامبل يتدرب للمشاركة في سباق لندن للماراثون[47]. وفي حين أن فريق بوش استخدم التشبيهات المجازية الرياضية لوصف الحرب[48]، فإن فريق بلير انشغل باستعمال تشبيهات الحرب المجازية لوصف الرياضة[49].

ضاهى هذه الفحولة الذكورية دافع لإخصاء العدو. وبدا أن بعض اللغة المحيطة بالحادي عشر من سبتمبر مصممة لنفي أي ادعاء بالرجولة التقليدية عن المهاجمين، كما حدث حين وسموا بـ«الجبناء»، أو حين ذكرت مجلة «ناشيونال انكوايرر» أن «إرهابي مركز التجارة العالمية محمد عطا وعددا من زملائه الملاعين مارسوا الشذوذ الجنسي في السر سنين طويلة»[50]. ومن غير المفاجئ أن تكون الثقافة السائدة بين الجنود الأمريكيين في العراق ذكورية إلى حد التطرف[51]. واستخدمت المجندات الأمريكيات في العراق وأفغانستان لإذلال وإهانة الأسرى الرجال (وصورت إحداهن تفعل ذلك في «أبو غريب»): ويشير الن فيلدمان بطريقة

يحاول إضفاء المعقولية عليها إلى أن ذلك مصمم خصيصا لاستخلاص الهوية الذكورية والقوة الجنسية من «الإرهابيين» العراقيين ونقلهما إلى الجنود الأمريكيين (الرجال)[52]. وهذا لا يقتصر على استغلال المعايير الثقافية الإسلامية فقط: بل يتعلق أيضا بالشعور بانعدام الأمان لدى الجنود الغربيين أيضا، الذي يعكس ما يتعرضون له من استئساد وإهانات خلال التدريب العسكري. ومثلما لاحظ اريك هوفر ذات مرة: «يمكن أن تكتشف أشد ما يخوف عدوك عبر مراقبة الوسائل التي يستخدمها لتخويفك». في تشرين الأول/ أكتوبر 2005، ذكر برنامج التحقيقات الأسترالي «ديتلاين» أن الجنود الأمريكيين في أفغانستان وجهوا جثتي مقاتلين من طالبان نحو القبلة وأحرقوهما، قبل أن يعلنوا عبر مكبرات الصوت باللهجة المحلية:

> انتباه! أنتم كلاب جبناء يا طالبان. تقبلون بأن يمدد مقاتلوكم باتجاه القبلة ويحرقون. تخافون من أن تأتوا وتستعيدوا جثتيهما. هذا يثبت أنكم نساء كما اعتقدنا دوما[53].

مخاوف بوش من اعتبار الولايات المتحدة عاجزة ومتراخية يمكن رؤيتها أيضا في سياق مخاوف أوسع نطاقا داخل البلاد، متمحورة حول فكرة الخصاء[54]. وعبر عنها بأقوى أسلوب اليمين المتطرف. في «يوميات تيرنر»، وهو كتاب يبدو أنه وضع المخطط التفصيلي لتفجيرات اوكلاهوما عام 1995 [55]، صورت الحكومة الليبرالية باعتبارها تتوقع خضوعا «أنثويا» و«طفوليا»[56] أما المؤلف وليام بيرس، فقد اعتنق نسخة عنصرية من الأصولية المسيحية، التي أثرت في منفذ التفجيرات تيموثي مكفي والميليشيات المسيحية في الولايات المتحدة. يلاحظ مارك يورغنزماير، في دراسته المقارنة للإرهاب والأصولية الدينية، أن هذه الميليشيات المسيحية قد أحدقت بها:

> مخاوف لا من العُنة فقط، بل من دور الحكومة في عملية الخصاء أيضا. لذلك عمل الرجال الذين شعروا بهذه المخاوف على حماية

أنفسهم، لا من خلال وضع دفاعات محتجبة ضد تهديدات النساء القويات والرجال المخنثين وحسب، بل عبر محاولة إعادة التوكيد على السيطرة على عالم شعروا بأنه انحرف أخلاقيا وسياسيا[57].

يرى يورغنزماير أن هذه المخاوف تؤجج التطرف لدى جماعات متنوعة ومختلفة: بدءا بالميليشيات المسيحية في الولايات المتحدة، وانتهاء بالمتطرفين القوميين الهندوس في الهند. وبالنسبة لإحدى جماعات الضغط النافذة في الولايات المتحدة، تعتبر حيازة السلاح حرية ديمقراطية مهمة، وتجريد الناس من الأسلحة يعد من قبل اليمين المتطرف تهديدا للرجولة، بل تمهيدا لإخضاع الشعب الأمريكي لدولة مستبدة أو تدخلية[58]. بالنسبة لهذه الشريحة من الناخبين، يبدو إغراء وجود حكومة «ذكورية» شرسة في ميدان السياسة الخارجية، تقاوم «التأنيث» المتأصل في الليبرالية، شديد الجاذبية.

فيما يتعلق بالكادر الوظيفي، تبقى ساحة السياسة الخارجية حكرا على الرجال. فهم يشكلون الأغلبية الساحقة من العاملين والمشاركين في المؤسسات الاستشارية الحسنة التنظيم واليمينية التوجه في الولايات المتحدة، التي ساعدت في صياغة وشرعنة سياستها الخارجية الجديدة والراديكالية[59]. وهذا يصدق أيضا على المؤسسات الاستشارية النافذة في بريطانيا، مثل المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية (حيث كنت أعمل). أما بالنسبة للنساء اللاتي يحاولن العمل في (وربما لإصلاح حال) مناخ رسمي يهيمن عليه الرجال، وأحيانا الفحولة الذكورية، حيث يعتبر «الضعف» شبهة، فقد كان من الصعب عليهن تقديم بديل واضح أو رؤية غير حربية. ومع أن هانز بليكس رئيس فريق التفتيش عن الأسلحة امتدح كوندوليزا رايس، أقوى امرأة في إدارة بوش، بسبب مقاربتها الصريحة والمباشرة لأسلحة الدمار الشامل، إلا أنها أيدت الحرب على العراق. ولا يبدو أن تفاصيل حياتها

المهينة والشخصية ـ إطلاق اسمها على ناقلة نفط بحمولة 136 ألف طن تكريما لها، وتحديها تيم هينان البريطاني في لعب التنس ـ توحي بأنها تحاول بفاعلية النأي بنفسها عن ثقافة الرجولة.

وصف بيتر ستوثارد لبلير وحاشيته يملأ النفس بشعور مغث تجاه مجموعة من الصبيان يتحدثون بسعادة غامرة عن كرة القدم والتكتيكات الحربية، بينما تسمع في الخلفية بعض عبارات الانزعاج ونفاذ الصبر تطلقها وزيرة التنمية كلير شورت ذات الشخصية الأمومية. حيث وصفها ستوثارد بأنها تحظى «بموقع غير رسمي باعتبارها ضمير الحزب»[60]. وإذا كان الوصف صحيحا، فإنه على ما يبدو يحرر الآخرين (وغالبيتهم من الرجال) من المسؤولية بأسلوب غريب. وحتى شورت رفضت عالم التعاطف «اللين» حين استنكرت دعوات منظمات الغوث إلى وقف قصف أفغانستان لفترة محدودة لإتاحة إيتاء المعونات الإنسانية، بوصفها (الدعوات) «عاطفية انفعالية»[61]. لقد شاع مساواة السلم باللين والتراخي في وسائل الإعلام البريطانية في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر. وبعد الهجمات، رسم بوللي توينبي، وهو صحفي بريطاني بارز وثاقب البصيرة (ربما يتوقع المرء منه تجنب مثل هذه اللغة التحريضية والمثقلة بالحمولة الجنسية)، فارقا مميزا بين «الليبراليين المتراخين» الذين لن يدافعوا عن أعمق القيم وبين «الليبراليين الأشداء» الذين «يعتبرون حقوق الإنسان الأساسية غير قابلة للتفاوض وتستحق القتال من أجلها»[62]. ومثلما يلاحظ جيمس غيليغان، فإن العنف يصبح مرجحا حين يعتبر اللاعنف أسلوب المخنثين وبالتالي عارا يجلب الخزي[63].

مقاومة من «يلومون أمريكا» على الحادي عشر من سبتمبر

عند النهاية المقابلة من الطيف السياسي لتفسير القس فالويل لهجمات الحادي عشر من سبتمبر باعتبارها تصحيحا للأخلاق، يقف أولئك الذين يشددون على أن

الولايات المتحدة صنعت وكثّرت أعداءها نتيجة سياستها الخارجية العدوانية. فقد زعم بعضهم أن الإرهاب هو عقاب، وأثاروا بالتالي سؤالا يستحيل طمسه ومحوه كلية من الوعي: عقاب على أي ذنب؟ نعرف من دراسات الكوارث، مثل الحروب والمجاعات، أن الضحايا يلومون أنفسهم غالبا. يعتبر ذلك، من جوانب عديدة، تنويعا على مبدأ «الاعتقاد بعدالة العالم» الذي ناقشناه في الفصل السابع: الاعتقاد بأن العقاب يقتضي ضمنا وجود جريمة[64]. وثمة بديل واضح لانتقاد الذات وعار المسؤولية هو توجيه إصبع الاتهام إلى الآخرين ـ بكلمات أخرى، لومهم على العار، بأسلوب عنيف ربما.

بدءاً من عام 1996، أعطى ابن لادن بشكل متسق ثلاثة أسباب لمهاجمة الولايات المتحدة: التواجد العسكري الأمريكي في السعودية: دعم الولايات المتحدة لإسرائيل / «الصهاينة» / «اليهود»: مهاجمة العراق عام 1991 وقصفه وتجويع شعبه لاحقا. وأضاف بعد ذلك الهجوم على أفغانستان عام 2001، وغزو العراق عام 2003 [65]. وفي الحقيقة يتطلب هذا التحليل (= لوم «الآخر») أخذه على محمل الجد. فهو يحمل بوضوح نوعا من التهديد بإلحاق العار بالغرب. لقد كان من الأكثر قبولا توجيه اللوم ببساطة إلى «شر» خارجي مستطير وتحميله مسؤولية الكارثة برمتها ـ مثلما ربط بلير تفجيرات لندن عام 2005مع «إيديولوجية شريرة» ـ وإلصاق تهمة العدو الداخلي أو المتعاطف مع الإرهابيين بكل من يضع هذا التفسير التبسيطي موضع المساءلة.

أدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر فعلا إلى ظهور قدر معين من تفحص الذات فيما يتعلق بالسياسة الخارجية، وذلك مع شعور بعض الأمريكيين بباعث يستحثهم على التساؤل عما فعلوه ـ كأمة ـ بحيث عجل أو استفز مثل هذا الهجوم الغادر الأثيم. بعد الهجمات مباشرة، بلغت الروائية باربرا كينغزولفر حد تسليط الضوء على أوجه الشبه بين «نحن» و«هم»:

> قبل عشر سنين، في وقت مبكر من صباح أحد أيام يناير، أمطرت السماء قنابل على مدينة بغداد فسوّت مبانيها بالأرض ـ فنادق، مشافي، قصور، أبنية فيها جنود وأمهات ـ وهنا، في المكان الذي أريد عشقه، كان علي مشاهدة الناس يهللون لما حدث. في بغداد، لوح الناجون بقبضاتهم وقالوا كلمة «شر»[66].

لكن حتى المفكرين الليبراليين وجدوا صعوبة بالغة في الإصغاء لرسالة كينغزولفر[67]، وأي انتقادات للسياسة الخارجية الأمريكية كانت تستدعي رد فعل عدائي. يتذكر مايكل مور الآن كيف قام ناشر روايته الرائجة «رجال بيض بله» بعد الحادي عشر من سبتمبر بإخفاء الكتاب (الذي ينتقد السياسة الخارجية الأمريكية). أما موقع الجمعية التربوية الوطنية، أكبر اتحاد للمدرسين في أمريكا، على الويب «في ذكرى الحادي عشر من سبتمبر»، فقد أدين على نطاق واسع بسبب مقاربة «توجيه اللوم إلى أمريكا» التي زُعم أنه تبناها؛ وكتب جورج ويل في صحيفة «واشنطن بوست» يقول إن الموقع أظهر «تهوسا صحيحا من الناحية السياسية بالتنوع، وبخطايا أمريكا، وكان مرعبا، بطريقته، كأي تهديد خارجي»[68]. وأشار ديفيد هوروفيتز، الذي كان ماركسيا في الستينيات، إلى أن «من يصفون أنفسهم بالتقدميين» قد تحالفوا مع «الفاشيين العرب والمتعصبين الإسلاميين في حربهم ضد أمريكا والغرب» ـ وتلك على ما يظهر «نسخة محدثة من الوفاق النازي ـ السوفييتي»[69]. وأضاف إن الحادي عشر من سبتمبر والحرب ضد العراق وفرا فرصة لظهور حركة راديكالية «أجندتها الدائمة الحرب ضد أمريكا وهيمنتها العولمية»[70]، وإن الهجمات على الإدارة أعطت التشجيع للقوى الإرهابية[71]. وفي كتيبه المعنون «فن الحرب السياسية» الذي وزع على الأعضاء الجمهوريين في الكونغرس خلال انتخابات عام 2000، قدم هوروفيتز الحجة على أن «السياسة حرب تمارس بوسائل أخرى»[72]. أما شيلدون رامبتون وجون ستوبر فقد أشارا إلى أن

ذلك يجعل الحرب هي المعيار: وحين تصبح الحرب هي المعيار، لن تعود هناك حاجة للانشغال بسؤال هل نشعل حربا أم لا[73].

على وجه العموم، جعلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر الوعي بالذات أقل (وليس أكثر) احتمالا، وأظهرت أن العديد من الأمريكيين اعتبروا أنفسهم ضحايا في غالبيتهم الساحقة. وأي مشاعر أولية بأن العار لحق بالسياسة الخارجية ـ أو أي محاولة للتعبير عن هذه المشاعر ـ تعرضت بسرعة للكبت والقمع لصالح التركيز على «الآخر الشرير». ومن المهم في دلالته ربط العالم النفساني جيمس غيليغان العنف لا بتهديد العار فقط بل بالعجز عن التعبير عن الشعور بالعار أو الشك الذاتي أيضا (شيء يمكن تمييزه أكثر لدى الرجال، الجنس الأشد عنفا في أغلبيتهم الساحقة): ومع بعض الاستثناءات المهمة، يبدو أن العجز عن التعبير عن العار أو الشك بالذات أو عدم الرغبة في ذلك شكلا معلما بارزا للخطاب العام والجدل العمومي في الولايات المتحدة.

تفسير فالويل للحادي عشر من سبتمبر باعتباره علامة على غضب الله على أمريكا أوقعه في مشكلة عويصة واضطر إلى التراجع: فقد تبين أن التشديد على «شر» خارجي يحظى بقبول أكثر. ومن وجهة نظر مسيحية، لربما يخدم ذلك إعفاء الله من المسؤولية، وبالتوسع، تخليص الأمريكيين من عار استفزاز غضبه. «الشر» يستحضر الشيطان، ومثلما لاحظ الفيلسوف ليسليك كولاكوفسكي (مؤلف كتاب «أحاديث مع الشيطان»)، فإن «الشيطان يخدم هدف تحديد ماهية الشر، وأصبح كيانا مسؤولا عن الشر لرفع المسؤولية عن الله وعن أنفسنا. تلك كانت وظيفة الشيطان في التاريخ»[74].

ساعد على تجنب أي تفحص حقيقي للذات التوكيد المتكرر على أن المهاجمين تملؤهم الغيرة أو الخشية من «أسلوبنا» في الحياة، كما أبلغ بوش الكونغرس في

العشرين من أيلول/ سبتمبر 2001: «يكرهون حرياتنا ـ حريتنا الدينية، حريتنا في الكلام، حريتنا في التصويت والتجمع والاختلاف مع بعضنا بعضا». بكلمات أخرى، جرى ربط العنف بالفضائل الأمريكية لا بالرذائل الأمريكية. مرة أخرى يتبدى تناقض صارخ بين العجز عن العثور على العدو، والاستعداد للزعم بامتلاك معرفة تفصيلية بأهداف العدو وكراهيته ودوافعه.

إذا أصاب سولجنتسين في أن «الخط الفاصل بين الخير والشر يخترق قلب كل كائن بشري»، فإن محاولة عزل المجموعة الشريرة والقضاء عليها ليس لها معنى منطقي بل معنى نفسي: فهي تساعد على درء تهديد العار[75]. والأشد تهديدا كما يبدو وجود أي صدى لرسالة كينغزولفر بأن في الإرهابيين شيئا مشتركا «معنا»، وهي فكرة رفضها رمسفيلد بشدة في تعليقه على الحادي عشر من سبتمبر: «في استهداف هذا المكان، وأولئك الذين عملوا هنا، أصاب المهاجمون الأشرار في استشعار حقيقة أن من أقاموا هنا يشكلون النقيض لهم ولكل ما يمثلونه». لكن هذا الإحساس بالإرهابيين باعتبارهم النقيض المقابل لنا ينزع إلى تدمير احتمال فهم دوافع وبواعث الإرهابيين، لأنه ـ بالضبط ـ «يستثنينا» من الصورة. أولا، يستثني أفعالنا التاريخية الماضية، بما فيها تأثيرات التدخلات العسكرية مدة طويلة من الزمن، والدعم الغربي للأنظمة القمعية التعسفية على مختلف أنواعها: ونتيجة لذلك، وضعنا غالبا في موقع لا يمكننا من فهم عملية صيرورة الإرهابي. ثانيا، التوكيد على أن الإرهاب هو النقيض الكلي يميل إلى إقصاء وعينا وإدراكنا لردود أفعالنا العنيفة على الشعور بأننا ضحايا، الأمر الذي يمكن أن يجعلنا نعرف الكثير عن الأسباب التي تدفع البشر الآخرين (الإرهابيين في هذه الحالة) إلى اللجوء للعنف. لنلاحظ أن الإرهابي ـ مثل الذي يكافح الإرهاب ـ لا يستجيب عادة لشعوره هو بأنه ضحية فقط، بل للضحايا الذين يعرف (ويتلقى التشجيع غالبا على معرفة) أن معاناتهم مذلة ومهينة ولا تحتمل.

يقولون: إن التاريخ يكتبه المنتصرون: لكن يبدو أن من يتذكره بشكل أفضل هم المهزومون. للولايات المتحدة وحليفتها الرئيسة بريطانيا تراث طويل من عدم الاعتراف بالضرر الذي أحدثته سياستهما الخارجية. ليس من السهل ربط فظائع الحادي عشر من سبتمبر بالانتهاكات السابقة التي ارتكبتها الولايات المتحدة. لكن المشاعر المعادية لأمريكا تأججت بدون شك نتيجة نمط تخريبي من الدعم غير المشروط لإسرائيل. ثم هنالك الدعم الغربي لعدد من الأنظمة الاستبدادية، خصوصا في العالم العربي.. وكثيرا ما أدى ذلك إلى أن يصبح المسجد المكان الوحيد الذي يمكن فيه للناس التعبير عن غضبهم وسخطهم ومعارضتهم. والمثال التقليدي في هذا السياق تجسده إيران، حيث أسقط الانقلاب الذي دعمته وكالة المخابرات المركزية (CIA) عام 1953 حكومة منتخبة ديمقراطيا أممت الصناعة النفطية: ومهد الانقلاب لعقدين من السنين من الحكم الديكتاتوري الشاهنشاي، وساعد بالتالي على تعبيد الطريق لثورة الخميني الإسلامية[76]. ومن الطبيعي أن إدانات الولايات المتحدة لانتهاكات حقوق الإنسان لا تصدر الرنة الفاضلة ذاتها حين تسمع في البلدان التي دعمت فيها الولايات المتحدة العنف والديكتاتورية.

ومثلما أشار نعوم تشومسكي، فإن أعمال الولايات المتحدة الإرهابية لا تعد إرهابا بل «مكافحة للإرهاب» أو حتى «حربا عادلة»[77]. وتاريخها في قتل المدنيين يشمل إلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناغازاكي ـ الاستخدام الوحيد حتى الآن للسلاح الذري في الحرب. كما يشمل الحرب الفيتنامية، حيث قتل حوالي 5,1 مليون فيتنامي، إضافة إلى قصف مناطق شاسعة من كمبوديا (وهذا غُيب عموما عن الذاكرة الأمريكية بسبب فظائع الخمير الحمر، التي نتجت بدورها ـ جزئيا ـ عن الجنون الجماعي الذي استحثه القصف الأمريكي). وبعد فيتنام، يبدو أن الانشغال المبالغ فيه بتجنب الخسائر الأمريكية في الأرواح قد غذى توكيدا جديدا على النشاط الإرهابي الذي رعته الولايات المتحدة (قتل المدنيين لنشر الرعب) في بلدان

جنوب إفريقيا ثم في أمريكا الوسطى[78]. كما اتخذ قتل المدنيين شكل تأجيج الحروب والإبادة الجماعية في أمريكا الوسطى: حيث يشار إليها أحيانا، بأسلوب يكشف الكثير، باسم: «الصراع ذو الدرجة المنخفضة من الحدة». لا يتذكر معظم المواطنين الأمريكيين دعم حكومتهم قمع تركيا لسكانها الأكراد، وسوهارتو (في إندونيسيا)، وموبوتو (في الكونغو)، وسياد بري (في الصومال)، وصمويل دو (في ليبيريا).. الخ. صادرات الأسلحة الأمريكية تمثل حوالي نصف صادرات العالم من السلاح[79]. كما أن لدى الولايات المتحدة مخزونا ضخما من أسلحة الدمار الشامل.

لنفكر أيضا بقصة أفغانستان ـ التي تشكل «نقطة عمياء» أخرى. فبالرغم من صدور عدد من التقارير التي كشفت القصة في وسائل الإعلام، إلا أن قلة من الناس (نسبيا) في الغرب تعرف كيف أججت الولايات المتحدة نار الإرهاب عبر أسلوبها في التدخل في (والانسحاب من) أفغانستان في الثمانينيات. فقد أدت مساعدة المجاهدين على قتال الاتحاد السوفييتي إلى تشكل جماعات ناشطة ثبت فيما بعد أنها تمثل مصدر مهما للإرهاب، خصوصا نتيجة الغضب الذي فجره انسحاب الغرب من أفغانستان حين ناشد شعبها العالم مساعدته على إعادة الإعمار. وكانت وكالة المخابرات المركزية قد تسللت إلى مراكز التدريب التابعة للمجاهدين ومعسكرات اللاجئين المرتبطة بها داخل باكستان وزودتها بكميات ضخمة من الأسلحة الخفيفة، تحول معظمها إلى السوق الباكستانية. وكانت الشاحنات المحملة بالسلاح إلى أفغانستان تعود محملة بالهيروين، واستخدمت تجارة المخدرات الوليدة (والقائمة على الأفيون أساسا) من قبل المجاهدين كـ«ضريبة ثورية» ساعدت على استدامة الكفاح ضد الاتحاد السوفييتي إضافة إلى الأنشطة الجهادية اللاحقة[80]. وعلى شاكلة غزو العراق عام 2003، قدمت استراتيجية الولايات المتحدة القديمة في أفغانستان بشكل غريب باعتبارها «عديمة التكلفة»: الجهاد الأفغاني ضد السوفييت كان، كما أشار غيلز كيبل، جذابا على نحو خاص بالنسبة للحكومة الأمريكية، لأن

«الجهاديين سيخوضون المعركة ضد الاتحاد السوفييتي، موفرين العناء على الجنود الأمريكيين، بينما تدفع بلدان الخليج النفطية الفاتورة، موفرة المال على دافعي الضرائب الأمريكيين»[81]. واعتبرت الحرب الأفغانية أيضا منفذا يفرغ طاقات الناشطين الإسلاميين المتطرفين (السنة) الذين شكلوا تهديدا لدول الخليج المحافظة والمدعومة من قبل الولايات المتحدة.

في عام 1989 أجبر السوفييت على الانسحاب من أفغانستان. كانت الشيوعية تنهار، وتوفي الخميني في العام نفسه: في هذه الظروف، أعيد بسرعة تعريف الأعداء. وتم التخلي لا عن الجهاد الأفغاني فقط بل عن أفغانستان ذاتها وذلك مع وقوعها تحت سيطرة أمراء الحرب حسب الأسلوب السائد في أعقاب الحرب الباردة.[82]. أما إهمال اللاجئين الأفغان فأسهم في نجاح الطالبان، خصوصا وأن العديد من أفقر أسر اللاجئين كانت ترسل أبناءها للتعلم في المدارس الدينية[83]. وأدى الانقطاع عن الداعمين السابقين، ثم الغضب من استخدام السعودية قاعدة للقوات الأمريكية لطرد الجيش العراقي من الكويت عام 1991، إلى تحول اللواء «الدولي» من قدامى الجهاديين الذين تمركزوا سابقا في أفغانستان ومناطق الحدود الباكستانية إلى فرقة «مستعدة لخدمة القضايا الإسلامية الراديكالية في أي مكان من العالم»، حسب تعبير كيبل. وأضاف ملاحظا:

> تكثف الجهاد عام 1992 في البوسنة والجزائر ومصر، حالما بدأ قدامى الجهاديين المشاركين في الحرب الأفغانية في الوصول إلى أوطانهم عائدين من بيشاور [الباكستانية، قرب الحدود الأفغانية]. في مصر، كما في الجزائر، كان المقاتلون من المواطنين المحليين الذين هاجروا إلى المعسكرات الأفغانية في منتصف الثمانينيات بتشجيع سري من الحكومة، التي أسعدها التخلص من هؤلاء المتمردين والساخطين

ومثيري الشغب والمشاكل. في البوسنة، كان الجهاديون من الأجانب كلهم، معظمهم من العرب وخصوصا السعوديين. في طاجيكستان ـ والشيشان بعد عام 1995 ـ لعب غيرهم من المتطوعين العرب دورا مهما في محاولة تحويل الصراع المحلي إلى حرب جهادية سافرة. أما انتشار قدامى المحاربين من الجهاديين (الذين تركزوا سابقا في كابول وبيشاور) في شتى أنحاء العالم فيفسر أكثر من أي شيء آخر التوسع المفاجئ والسريع للإسلاموية الراديكالية في البلدان الإسلامية والغرب[84].

النقطة العمياء الأمريكية الأخرى كانت بالطبع العراق ذاته. فمع اعتلاء آية الله الخميني سدة السلطة في إيران عام 1979، اعتبر صدام حصنا واقيا من التطرف الشيعي والسقوط المحتمل للأنظمة العربية الممالئة للولايات المتحدة[85]. في عام 1982، لم يعد العراق فعليا على لائحة واشنطن الرسمية للدول الداعمة للإرهاب [86]. وساندت الولايات المتحدة العراق في حربه مع إيران، وأجاز المسؤولون في إدارتي ريغان وبوش الأب بيع العراق العديد من السلع التي يمكن استخدامها عسكريا ومدنيا، بما فيها المواد الكيماوية السامة والمواد البيولوجية المهلكة، مثل الجمرة الخبيثة والطاعون الدبْلي[87]. لم تظهر الحكومة الأمريكية اهتماما كبيرا باستخدام الأسلحة الكيماوية آنذاك. وبدت أمارات «الوداعة» حتى على الصحافة، حيث كتبت صحيفة «واشنطن بوست» عام 1984 تقول: «ليس من المفاجئ» أن يستخدم العراق الغازات نظرا لشراسة العدو الإيراني، وأضافت: «حين تأخذ بالاعتبار جميع الطرق التي ابتكرها الناس لممارسة العنف ضد بعضهم بعضا، فإن من المستغرب أن تشعر بالقلق من طريقة واحدة بعينها»[88].

ليس ثمة شك في عنف الانتهاكات التي ارتكبها صدام حسين، ليس أقلها استخدام الغازات ضد الكرد في حلبجه عام 1988 حيث قتل حوالي 5 آلاف شخص

على أقل تقدير. لكن يصعب استعمال مثل هذه الانتهاكات كتفسير معقول للهجوم على العراق عام 2003. مرة أخرى، يساعدنا هنا بعض الإحساس بالتاريخ. ففي أوائل السبعينيات حين كان العراق حليفا للاتحاد السوفييتي ويشكل تهديدا لشاه إيران المدعوم من قبل الولايات المتحدة، وعد هنري كيسنجر وريتشارد نيكسون بدعم ثورة كردية مستمرة ضد صدام. لكن حين تنازل صدام عن بعض الأراضي لإيران، سحب كيسنجر ونيكسون المستشارين من شمال العراق واكتفيا بالمراقبة عندما أغلق الحدود وذبح الأكراد[89]. وساعدت الشركات الغربية صدام حسين على تجميع ترسانة مرعبة من السلاح، شملت الأسلحة الكيماوية[90]. كما شجع الدعم الأمريكي لصدام على سكوت الغرب تجاه الهجمات اللاحقة على الأكراد، خصوصا عام 1988. وأدت الهجمات التي شنتها القوات العراقية على الأكراد بين عامي 1987-1989 (التي شكلت حلبجه جزءا واحدا منها) إلى مقتل حوالي خمسين ألفا من القرويين الكرد، وذلك تبعا حتى للتقديرات المحافظة[91].

وفي عام 1991، تلقى الكرد في شمال العراق والشيعة في جنوبه التشجيع للقيام بثورة ضد صدام في أعقاب حرب الخليج. ولم يتدخل الغرب لوقف الرد العسكري العراقي ضدهم (لكن بذلت جهود مهمة لتوفير ملاذ آمن للأكراد حين تعرضوا للهجوم وفروا إلى إيران وتركيا، وهذه الأخيرة تعتبر حليفا رئيسا للغرب)[92]. وبعد أن اختفت حلبجه فعليا عن الأخبار الأمريكية بدءا من عام 1989، أخذت في الظهور على نحو متزايد منذ أيلول/ سبتمبر 2002. حين بدأت إدارة بوش حملة إقناع الرأي العام بالحرب على العراق[93].

لبريطانيا نقاطها العمياء أيضا ـ على الأقل نتيجة تغذية الوهم بأنها ما تزال قوة عظمى ورفض الاعتراف بأنها انحدرت إلى مرتبة تقع بين المساعد الثانوي والضعيف الذي يسهل استهدافه. أما سنوات الإنكار الطويلة لزوال الإمبراطورية

البريطانية فيصعب أن تشكل أساس واعدا. وكما علق سيوماس ميلن في صحيفة «الغارديان»، يبدو أن الذاكرة الانتقائية للاستعمار القديم تشكل جزءا من تبرير الإمبريالية الجديدة[94]. ولاحظ الروائي الألماني غونتر غراس: «أعجب أحيانا كيف لا يعرف الشباب الذين ترعرعوا في بريطانيا سوى القليل عن التاريخ الطويل للجرائم التي ارتكبت خلال الحقبة الاستعمارية. فهذا من الموضوعات المحرمة في إنكلترا»[95]. ومن المعترف به أن الإمبراطورية موضوع مهمل في المدارس البريطانية [96]. كم عدد الراشدين البريطانيين الذين يعرفون شيئا عن المجاعة التي أودت بحياة ثلاثة ملايين شخص في البنغال إبان الحكم البريطاني (حدثت عام 1943)؟ إدراكي للنقاط العمياء في وطني، بريطانيا، تحسن نتيجة حديث تبادلته مع صديق نيجيري، اسمه اديكي اديباجو، الذي قال إن سجل البريطانيين في جرائم الإبادة الجماعية ضد سكان أمريكا وأستراليا الأصليين مخز ومخجل. لكنني اعترضت قائلا إن هذه الفظائع ارتكبها الأستراليون والأمريكيون. فاضطر صديقي للتأكيد على أن معظم مرتكبي هذه الأعمال أتوا من بريطانيا. وظهرت مجموعة أخرى من النقاط العمياء: كم عدد الذين يفهمون الإحساس بخيبة الأمل الذي انبثق حين تناقض تشجيع بريطانيا للقومية العربية (كمهماز يستحث الثورة على الأتراك في الحرب العالمية الأولى) مع الوعد بإنشاء وطن قومي لليهود (في فلسطين) والرغبة في توسيع ومد السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية حالما تنتهي الحرب؟ حتى أفضل اللحظات في التاريخ البريطاني يمكن أن تعزز النقاط العمياء المعاصرة: خصوصا وأن «الحرب العادلة» ضد النازية قد استخدمت لتبرير الحروب اللاحقة كلها باسم الديمقراطية ضد أي «هتلر جديد»[97].

العراق بذاته صناعة بريطانية، حيث جمعت أجزاؤه بعد الحرب العالمية الأولى من ثلاث ولايات تابعة للسلطنة العثمانية المنهارة. أراد البريطانيون تجنب إنشاء حكومة تمثيلية في العراق، نظرا لاعتبار غالبية السكان الشيعة من المتشددين

والمتعصبين، بينما اعتبر سنة بغداد ـ الذين بقيت هيمنتهم السياسية حتى حقبة صدام ـ أكثر ليونة وخضوعا للبريطانيين[98]. وبالطبع لم يذكر مبدأ «فرق تسد» الاستعماري التقليدي هذا حين اعتبر «المثلث السني» المصدر الرئيس لمعارضة الاحتلال الأمريكي ـ البريطاني للعراق بدءاً من عام .2003المرجعية التي استخدمتها بريطانيا والولايات المتحدة لتبرير الهجوم على العراق عام 2003 لها علاقة بهذه البنية الكولونيالية المصطنعة تماثل العلاقة بشخصية صدام حسين التي ركز الغرب عليها بهذا الشكل الحصري. علاوة على ذلك، كم عدد الذين يعرفون شيئا عن قصف بريطانيا لشمال وجنوب العراق طيلة العشرينيات، حين كانت هي الدولة المنتدبة من قبل عصبة الأمم لحكم العراق، القصف الذي قتل حوالي تسعة آلاف عراقي في صيف عام 1920 وحده؟ لقد استخدم الجيش البريطاني الغازات السامة في تلك السنة، وقال بطل بريطانيا القومي ونستون تشرشل الذي كان وزير دولة في وزارة الحرب آنذاك: «أؤيد بشدة استخدام الغاز السام ضد القبائل الهمجية.. [من أجل] نشر نوع من الرعب الحيوي»[99]

مكافحة الإرهاب وتكاثر الأعداء

تعاظم التهديد بالعار حين أدت ردة الفعل العنيفة واللاشرعية للتحالف عبر الأطلسي على الحادي عشر من سبتمبر إلى إدانة عالمية واسعة النطاق. ومن أساليب درء ذلك التعامل مع كل انتهاك تعسفي باعتباره استثناء، مثلما قال بوش عن صور «أبو غريب» إنها «لا تمثل أمريكا». الممثل الكوميدي روب كوردراي انتقد هذه المقاربة حين قال: «مبادئنا هي المهمة، أفكارنا النظرية الملهمة. تذكروا: لمجرد أننا قمنا بتعذيب الأسرى في السابق، لا يعني أننا يمكن أن نقوم به الآن»[100].

من المهم أيضا لدرء العار الناجم عن مكافحة الإرهاب (إضافة إلى الحفاظ على تأييد جمهور العامة) وسائل الإعلام المتعاونة والمذعنة. فمن المعروف أن

الحقيقة هي الضحية الأولى للحرب[101]. وأظهرت فيتنام أهمية السيطرة على وسائل الإعلام، وطبق الدرس بحماس في حرب الخليج عام 1991. وحين لاح في الأفق شبح الهجوم على العراق عام 2003، لم ينتبه الصحفيون الأمريكيون كثيرا لقلق الأوساط الاستخبارية في الولايات المتحدة من كيفية استخدام بوش للمعطيات المتعلقة بالعراق. وبعد تحقيقات تفصيلية، قال مايكل ماسينغ عن الصحفيين في واشنطن: «في مدينة يمثل فيها الوصول إلى مصادر المعلومات كل شيء، لم ترغب سوى قلة قليلة بالمخاطرة بخسارتها»[102]. وخلال الغزو، شجعت ممارسة مرافقة الصحفيين لوحدات التحالف العسكرية «المراسلين على التطابق والتماهي مع الجنود الذين كانوا يغطون أخبارهم.. فقد شهد الصحفيون المرافقون للجنود الأسلحة وهي تطلق نيرانها، لكن نادرا ما شاهدوا ماذا حدث للأهداف التي تتلقى القصف»، كما لاحظ شيلدون رامبتون وجون ستوبر[103]. حظر نشر صور التوابيت المكفنة بالعلم الأمريكي وهي تعود إلى الوطن، وكانت الرقابة الذاتية واسعة الانتشار في الصحافة ـ فيما يتعلق مثلا بصور الجنود الأمريكيين أو الأطفال العراقيين القتلى[104].

الأسلوب الثالث الذي ساعد على درء العار مثلته إستراتيجية الاستئساد والترهيب للحصول على الموافقة والقبول بواسطة الضغوط السياسية والاقتصادية، خصوصا تجاه مختلف أعضاء مجلس الأمن الدولي خلال محاولات المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين التوصل إلى اتفاق يجيز شن هجوم على العراق[105].

لكن هذه الأساليب الثلاثة لم تصادف سوى نجاح محدود. فمن المهم أيضا لدرء الشعور بالعار الناجم عن الاستجابة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر استمرارية إعادة تعريف "الأصدقاء" و"الأعداء". ولعب بوش وبلير الدور الرائد في النزعة إلى التصدي للنقد عبر تضييق دائرة الأصدقاء الموثوقين وتوسيع دائرة الأعداء. فالحلفاء الذين اعتبروا غير ميالين إلى العدوان والحرب بما يكفي أصبحوا هدفا

لغضب جامح وشديد، وشملت فئة الأعداء عددا متزايدا من المنتقدين في الداخل، كما ضمت - في الممارسة إن لم يكن في النظرية ـ العديد من المدنيين في البلدان المستهدفة (لاسيما العراق).

إيمان بوش وبلير الراسخ بأنهما يجلبان الحرية إلى المضطهدين، شكل عاملا مساهما في تأجيج مشاعر الغضب لديهما على أولئك الذين عارضوا هذا المشروع المضلل(106). ورأينا مرارا وتكرارا حجم الترهيب والتهديد الذي يتعرض له كل من يهدد بالعار العالم الخالي من الشعور به (تقريبا) الذي شيده الزعيمان حولهما. إن درء الشعور بالعار شكل أيضا عاملا أثر في جنود التحالف على الأرض، ورد بعضهم بغضب شديد على «جحود» المدنيين العاديين ونكرانهم جميل «تحريرهم».

تقليص دائرة الحلفاء الموثوقين

لاحظ وزير الخزانة بول اونيل أن بوش، خصوصا بعد الحادي عشر من سبتمبر، حوصر في «غرفة معزولة» صنعها بنفسه، حلقة تضيق باستمرار من المستشارين الذين حجبوا عنه الواقع الحقيقي(107): ومن المهم في دلالته أن الاعتماد على هذه الحلقة الضيقة من المستشارين المحليين استمر على الأغلب في الولاية الثانية لإدارة بوش، حاملا في ركابه النزعة المتحررة من الشعور بالعار(108). قسم آخر من منطقة بوش المتحررة من العار أتى بفضل توني بلير. فالمستأسدون نادرا ما يقفون لوحدهم: إنهم بحاجة إلى آخرين للمصادقة على سلوكهم وتقديم «الاحترام» الذي يتلهفون عليه. في فيتنام، وجد الجندي الأمريكي مايكل بيرنهاردت أنه حين حاول التدخل لوقف الانتهاكات التي يرتكبها الجنود الأمريكيون بحق المدنيين، تراجع الجنود بشكل سريع نسبيا:

> كانوا في الحقيقة مستأسدين على الضعفاء، وجبناء، جبناء فعلا. وجودهم هناك لفترة وجيزة كان كافيا. لا لأنهم خافوا مني ـ فلا أعتقد

أنني خطر إلى تلك الدرجة، لا الآن ولا حينذاك. أظن أنني كنت كأم تنظر بعين القلق إلى أطفالها[109].

يبدو أن دعم بلير قد ألغى بالضبط احتمال أن ينظر الوطن الأم بعين القلق والسخط إلى الرئيس ـ هنا، علا صوت ملحاح يطمئن بوش الابن بأن العنف والاستئساد أمر مطلوب ومرغوب[110]. علاوة على ذلك، وكما لاحظ الصحفي تيموثي غارتون آش، فإن «استطلاعات الرأي الأمريكية أظهرت أن بوش بحاجة إلى حليف بارز ليتأكد من الدعم الشعبي للحرب على العراق. كان بحاجة إلى بريطانيا»[111].

في هذه الأثناء، كان بلير ذاته يشيد منطقته الخالية من الشعور بالعار، ليوصد الباب على نفسه ويصم أذنيه عن الآراء المناهضة للحرب بين أعضاء حزبه وغالبية الشعب البريطاني[112]. الأمر الحاسم في الأهمية هنا كان اعتماده على العلاقات مع مجموعة صغيرة من المؤيدين للحرب. ولاحظ جون كامبفنر في كتابه «حروب بلير» أن رئيس الوزراء أصبح يعتمد على حلقة داخلية محلية ضيقة «من أجل كل وأي قرار.. كانت حاشيته تعني كل شيء بالنسبة له». ومن أهم الشخصيات في الحلقة الداخلية السير ديفيد مانينغ، وكبير الموظفين جوناثان باول، ومدير الاتصالات الستير كامبل، والمستشارة السياسية سالي مورغان[113]. وجرى تهميش مسؤولي وزارة الخارجية. وأضاف كامبفنز أن «تركز السلطة في أيدي مسؤولين غير منتخبين، بعضهم يتمتع بخبرة واسعة في الشؤون الدولية، وبعضهم الآخر ليس له سوى خبرة محدودة، أغضب العديد من الديبلوماسيين البريطانيين»[114]. على الصعيد الدولي، كان بلير يحافظ على رابطته الوثيقة مع بوش (والعكس صحيح). وأصبح رئيس الوزراء الإسباني خوسيه ماريا ازنار واحدا من أكثر الذين تكرر اتصالهم هاتفيا مع بلير، ومع اتجاهه بشكل متزايد نحو بطانته المؤيدة للحرب، عزل أصدقاءه ومؤيديه الآخرين. لاحظ كامبفنر قائلا:

كان بليـر ينطق اسم «خـوسيـه مـاريا» بالمودة ذاتها التـي ينطق بها اسـم «سـالي» [مورغـان] أو «السـتيـر» [كامـبل]. بعض أصدقـائه وجدوا هذا الانجذاب نحـو رجل ينتمي إلى اليمين الأوروبي أمرا يصعب تحمله تماما كعلاقته الوثيقة مع جورج بوش.

يمكن للاسـتنكار الرافض بحد ذاتـه أن يصبح عـلامة دالة على الإيمان الراسخ والكرامـة. لاحظ بيتـر ستوثارد أن بوش وبليـر «رجلان اعتـادا تبـادل الحكايات حـول ضعف التـأييد الشعبي لهما». وبعد الوصول إلى السلطة بغريزة تبـحث عن الشعبية، وجد بليـر الآن الطاقة والمواسـاة في حلقة متقلصـة من الأصدقـاء والمساعدين تبادله الموافقـة والقبـول. لم يكن أول من يفعل ذلك، ولا أول من يغـرق في الوهم والتـفكيـر غيـر الواقعي نتـيجـة لذلـك. في مناقشـة أكثـر عـموميـة، كـتب المحلل النفـسي اوتو كيرنبرغ يقول:

> يحـتـاج الـزعيم المبـالغ في نـرجسـيتـه إلى الحب والإعـجـاب، ويميل إلى إحـاطة نفسـه بالرجـال المذعنين دون مسـاءلة، مما يؤدي إلى انشقـاق في القيـادة المتوسطة: «جـماعة داخليـة» تحميه بإذعانها وخضوعها وتملقها ومداهنتها من انتقاد وسخط «الجـماعـة الخارجيـة» المرفوضـة، وتحافظ على توازنه النـرجسـي، والثمن حـرمـانه من النقـد والتـغـذية المرتجـعة من الواقع[115].

تسـاعـد هذه الآليـة في تفسيـر كيف تمكن بوش وبليـر من الحفـاظ على بعض عوامل الاعتقـاد الصـادق بأن أعمـالهـما مرغوبة ومطلوبة رغم أن نتـائجـها العكسيـة المتـوقعـة لاحظهـا الخبـراء ومسؤولو الاسـتـخبـارات. كمـا أن المكاسب السيـاسيـة والاقـتـصـادية النـاجـمـة عن «الحـرب الدائمـة» لـعبت على الأرجح دورا في دعم مـا أصاب كلا منهما من وهم ضلالي ذاتي.

أعداء الداخل

رأينا كيف أظهر جيمس غيليغان ورينيه جيرارد (كل بطريقته المختلفة) أن العنف يمارس عادة ضد أولئك الضعفاء الذين يمكن الوصول إليهم، وليس بالضرورة ضد المسؤولين عن الأعمال التي استفزت العنف أصلا. كما رأينا كيف قدم السعي للنقاء والطهر ـ ماضيا وحاضراً ـ نوعا من الحل أو التعويض عن الهزيمة والمذلة، ونوعا من الحصانة السحرية ضد أعداء الخارج. وهذا يشمل، على الأقل جزئيا، نقل التهديد من الخارج إلى الداخل. نحن نعرف أن تحديد هوية «شر» موجود هناك يتلاحم نمطيا في نقطة ما مع تحديد شر يتصل به، مع «طابور خامس» موجود هنا . في الولايات المتحدة ذاتها، جسد المثال التقليدي في هذا المجال السيناتور جوزيف مكارثي ومعاداته للشيوعية في الخمسينيات[116]. وقبل ذلك، جرت عمليات تجميع واحتجاز وإبعاد للمهاجرين من أوروبا الشرقية في الولايات المتحدة إبان قيام الثورة الروسية عام 1917 . أما البحث عن التجديد الأخلاقي في أعقاب الكوارث فقد توسع ليشمل التعصب العرقي أو الديني، والتعريف العرقي أو الديني لـ«الطهر والنقاء»[117]. في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، خصوصا بعد خطأ بوش الفاحش عندما تحدث عن «حملة صليبية»، أظهر هو وبلير حرصا فائقا عند الخوض في المجال الديني، مع التشديد على الطبيعة المسالمة لغالبية المسلمين. لكن بعد الحادي عشر من سبتمبر، تعرض المسلمون والأمريكيون من ذوي الأصول العربية في الولايات المتحدة إلى التمييز والعديد من حوادث العنف نتيجة الكراهية والعنصرية[118]. وفي بريطانيا، قال كبار زعماء الجالية المسلمة إن المسلمين اعتبروا «عدوا داخليا» بعد الحادي عشر من سبتمبر[119]. ونشرت صحيفة «صنداي تلغراف» عام 2004 مقالة تبين لاحقا أنها لمسؤول في المجلس الثقافي البريطاني اسمه هاري كومينز، قال فيها: «تجمع المسلمين كلهم، كالكلاب، سمات مشتركة معينة». وقال في مقالة أخرى: «القلب الأسود للإسلام، لا وجهه الأسود، هو الذي

تعترض عليه الملايين»[120]. وكتب المراسل الأوروبي لصحيفة «تايمز» اللندنية، انتوني براون، يقول: «الإسلام يريد فعلا غزو العالم»، مضيفا بنبرة تهديدية:

> في القرن الماضي، برر المسيحيون اضطهاد اليهود وعمليات القتل الجماعي التي تعرضوا لها بزعم أن اليهود أرادوا الاستيلاء على العالم. لكن هذه الأوهام الخيالية الفاشية كانت تعتمد على أكاذيب متعمدة، مثل الكتاب المزيف السيئ الذكر «بروتوكولات حكماء صهيون». أما الآن، فإن الكثيرين في العالم الإسلامي يعبرون بصراحة عن رغبتهم في أن يغزو الإسلام الغرب[121].

ظهر هذا النقد اللاذع كله قبل الهجمات الانتحارية التي شنها مسلمون يعيشون في بريطانيا في تموز/ يوليو 2005 [122]وأعقبت تفجيرات لندن بسرعة هجمات على المساجد في بريطانيا.

النزعة إلى توسيع تعريف العدو تسبب القلق على وجه الخصوص في ضوء ما نعرفه عن «المسار المهني» لعدد من الإرهابيين المعروفين وشعورهم بالتعرض للنبذ والإقصاء من قبل المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها. وإلى المدى الذي يتفاقم فيه هذا النبذ بواسطة إجراءات «مكافحة الإرهاب»، والخطاب البلاغي المعادي للهجرة، كذلك الذي تبناه حزب المحافظين في بريطانيا، أو العبارات التحقيرية والملاحظات المهينة التي أطلقها الصحفيون الأمريكيون عندما تحدثوا عن «لندنستان» بعد تفجيرات لندن، يمكننا أن نتوقع (مجدداً) ظهور مزيد من الإرهابيين.

ليس المسلمون وحدهم من يمكن اعتبارهم أعداء الداخل. فصفوف الذين شوهت سمعتهم وتعرضوا للأبلسة تتوسع بسرعة وذلك حين تقود لامعقولية الاضطهاد الأصلي إلى التصميم العنيد على الدفاع عنه بوصفه عقلانيا ومعقولا. فهؤلاء الذين يضعون تعريف «العدو» موضع المساءلة والتشكيك ربما يوسمون بسرعة

بهذه الصفة. والخشية من التصنيف في خانة العدو الداخلي يمكن أن تساعد في الحفاظ على النظام السياسي وتقليص حالات الانشقاق إلى أقصى حد ـ خصوصا حين نأخذ بالاعتبار عشوائية واعتباطية اختيار الأعداء. وليام بينيت، وزير التربية السابق في عهد ريغان، الذي ألف كتابا بعنوان «لماذا نقاتل: الوضوح الأخلاقي والحرب على الإرهاب» (2002)، كتب في «نيويورك تايمز» (آذار/ مارس 2002) يقول:

> التهديدات التي نواجهها اليوم خارجية وداخلية في آن: خارجية تتمثل في جماعات ودول تريد مهاجمة الولايات المتحدة؛ وداخلية تتجسد في أولئك الذين يحاولون استغلال هذه الفرصة لإشاعة ونشر أجندتهم القائمة على مبدأ «وجه اللوم إلى أمريكا أولا». وينبع التهديدان كليهما إما من الكراهية لُمثل أمريكا في الحرية والمساواة أو من سوء فهم هذه الأفكار وممارستها[123].

خاف العديد من الديمقراطيين، خصوصا في مجلس الشيوخ، من بوش وكارل روف، اللذين صادقا عام 2002على إعلانات دعائية تظهر وجوه الأعضاء الديمقراطيين إلى جانب ابن لادن وصدام حسين[124]. أما معارضة «قانون الوطنية»، الذي وسع السلطات الحكومية لتشمل التنصت على المكالمات الهاتفية واعتقال أو ترحيل المهاجرين بأمر من المدعي العام، فتعني أنك تخاطر باتهامك بافتقاد الحس الوطني. كما أن الصحفيين الذين يتساءلون عن السبب وراء الاندفاع المتهور إلى الحرب على العراق يمكن أن يصبحوا بسرعة جزءا من «العدو». ومثلما لاحظ ماسينغ: «وقفت ـ فوكس نيوز ـ، و ـ روش ليمبو ـ و ـ ويكلي ستاندارد ـ وغيرها، على أهمية الاستعداد للانقضاض على الصحفيين الذين يحيدون عن الطريق المرسوم، ونعتهم بالليبراليين أو الخونة ـ وهي من الصفات التشهيرية التي يمكن أن تدمر مستقبلهم المهني إلى الأبد»[125]. كتب وليام كريستول في خريف عام

2002حول «محور الاسترضاء» ـ الممتد من الرياض إلى بروكسل إلى فوغي بوتوم [الحي الذي تقع فيه وزارة الخارجية في واشنطن](126) وفي هذه الأثناء، لعبت زوجة ديك تشيني، لين، دورا بارزا في مجلس الأمناء والخريجين الأمريكيين، الذي حدد أساتذة الجامعات الذين اعتبروا غير وطنيين بما فيه الكفاية(127). في الوسط الأكاديمي، ظهرت محاولات لربط التمويل الاتحادي بتجنب النقد المتطرف للسياسة الخارجية الأمريكية(128). بعض الأساليب التهديدية ارتدت إلى نحر إدارة بوش. خصوصا فضيحة «بليم غيت» الضارة سياسيا، حين تركزت التحقيقات على من سرب هوية عميلة وكالة المخابرات المركزية، فاليري بليم، إلى الصحفيين: على ما يبدو لتلطيخ سمعة زوجها، جوزيف ولسون، الذي انتقد الاستعداد للحرب(129).

بعد تفجيرات لندن في تموز/ يوليو 2005، شعر السياسيون البريطانيون مرة أخرى بأنهم أحرار في الإدلاء بجميع أنواع التصريحات حول ما «يريده» الإرهابيون. وكان الموضوع المتكرر هو أنهم يريدون «إيقاع الفرقة بيننا»: والمعنى الضمني هنا هو أن انتقاد سياسة الحكومة سيعطي نصرا للإرهابيين. في آب / أغسطس 2005، أعلن توني بلير عن نيته تجريم كل من «يسامح، أو يمجد، أو يبرر» الإرهاب في أي مكان من العالم ـ وتلك صيغة واسعة وخطرة تهدد حرية الكلام وربما لن تمثل خبرا سارا لزوجته تشيري التي قالت ذات مرة في حفلة غداء عن نداء أطلقته منظمة خيرية طبية فلسطينية: «لن يتحقق أي تقدم طالما يشعر الشباب بأن لا أمل لهم إلا بتفجير أنفسهم»(130). وفي خطوة خرقاء مجنونة، قال وزير الداخلية تشارلز كلارك إنه يعد قائمة بأعمال الإرهابيين السابقة التي سيعتبر الاحتفاء بها عملا جنائيا، وسارع إلى ذكر ايرلندا بوصفها استثناء.

لاحظ ارثر ميللر (مؤلف مسرحية «البوتقة») أن هناك منطقا مرعبا في حملات مطاردة الساحرات في مدينة سالم بأمريكا الشمالية. فقد أشار الكتاب المقدس إلى وجود الساحرات لذلك إذا نفيت وجودهم فأنت تنكر تعاليم الإنجيل،

وهذا دليل يثبت بحد ذاته أنك ساحر ويجب قتلك. ويبدو في هذه الأيام أيضا أنك إذا رفضت مفهوم «الشر» كتفسير (لهجمات الحادي عشر من سبتمبر على وجه الخصوص)، فقد يعتبر ذلك دليلا يثبت أنك من أصحاب الشيطان. تنزع هذه الآلية إلى «قفل» النقاش العام داخل قالب من الافتقار الدائم إلى الفهم. وعلى حد تعبير جوان ديديون: «استقصاء طبيعة العدو الذي نواجهه.. كان يفسر باعتباره تعاطفا مع ذلك العدو»[131].

حتى الوقوف على الحياد فسر على نحو متزايد بوصفه موقفا خطرا. في معرض تعليقه على الحرب القذرة في الأرجنتين في السبعينيات، قدم أنطونيوس روبن الحجة على أن العسكر ورجال حرب العصابات على حد سواء شعروا بنوع من الخوف من المحايدين[132]. وأولئك الذين رفضوا الانضمام إلى أحد المعسكرين تعرضوا غالبا للهجوم، معنويا وماديا. شرح روبن الأمر قائلا:

> لم يشكل الحياديون والجبناء والمذعورون تهديدا عسكريا أو سياسيا، بل تهديدا مفهوميا وأخلاقيا، تهديدا للمعنى المتعارض للعداوة وأخلاقية الموالاة التي يستدعيها ـ فهم يظهرون أن العنف ليس قدرا محتوما بل هو نتاج لخيار البشر ومن صنعهم.

إذا مثلت «حتمية» العنف مفتاح شرعنته وتأمين الدعم له (انظر الفصل السابع)، فإن كل من يتحدى هذه الحتمية سيعتبر بمثابة تهديد. في بريطانيا، أظهر النزاع بين هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) والحكومة كيف تصبح الحيادية تهديدا. إذ إن توسيع دائرة الأعداء لتشمل هيئة الإذاعة البريطانية ذاتها ساعد على درء الشعور بالعار وقدم أداة مفيدة لتشتيت الانتباه عن كذب الحكومة البريطانية. كان الأمر أيضا استئسادا مجردا: قال ريتشارد سامبروك مدير الأخبار في الهيئة: «رأينا الراسخ أن الحكومة حاولت ترهيب الهيئة لبث روايتها عن الأحداث المفضية إلى الحرب وخلال

مسار الحرب نفسها»[133]. وتعرض مراسل «بي بي سي» اندرو غيليغان للتشهير والتنديد بسبب إشارته (الصائبة) إلى أن الحكومة علمت باستحالة إطلاق أسلحة الدمار الشامل بخلال 45 دقيقة من تلقي الأمر بذلك، بينما تركز الهجوم على غيليغان على تفصيلات صغيرة نسبيا مثل اتهامه الموظف البريطاني والخبير في الأسلحة ديفيد كيلي بأنه يعمل في الاستخبارات، وقراره بعدم تدوين رسائله التي تبث على الهواء[134]. إحدى الرسائل التي نشرت في صحيفة «الغارديان» لخصت ازدواجية معايير الحكومة بشكل بليغ: «يتوقع [مدير الاتصالات]السير كامبل من هيئة الإذاعة البريطانية أن تمتلك دليلا أقوى قبل أن تنشر أي قصة من الدليل الذي يتوقع أن تمتلكه الحكومة قبل أن تشن الحرب»[135]. إن أي حكومة أقل حساسية تجاه النقد لا بد أن تشعر بالرضى على هيئة الإذاعة البريطانية: فوفقا لدراسة أجرتها جامعة كارديف، كانت الهيئة تستخدم نسبة مرتفعة من المصادر الحكومية أو العسكرية التابعة للتحالف، مقارنة بغيرها من القنوات التلفزيونية، وكانت لا تركز كثيرا على الخسائر العراقية في الأرواح[136]. أما الطعن والتشهير باندرو غيليغان واتهامه ديفيد كيللي بالعمل في الاستخبارات فقد أظهرت جميعا أن الشهية لمطاردة الساحرات ـ والبحث عن هدف سهل يبعد الانتقاد ويجنب التفكر بالذات ـ قابله للتوسع والامتداد إلى ما لا نهاية. وحتى تحقيق لجنة هوتون (في موت كيللي) كان من جوانب عديدة وسيلة لتشتيت الانتباه عن القضية المحورية، ألا وهي الاندفاع القائم على الكذب والخداع إلى الحرب على العراق. في الولايات المتحدة، ساعد تحويل وكالة المخابرات المركزية إلى كبش فداء على إبعاد بعض الضغوط عن بوش[137].

حلفاء يخطئون

أي دولة في العالم تضع التحليل السائد أو «الحل» المفضل موضع المساءلة توسم بسرعة بالخيانة. كان غضب الولايات المتحدة على روسيا وألمانيا وفرنسا

(خصوصاً) عارما وشديدا. فموقف هذه الدول لخصته كوندوليزا رايس بعبارة «non-nein-nyet لا»، (باللغات الفرنسية والألمانية والروسية) (وهذا يعني ضمنا أن هؤلاء لا يتحدثون حتى بالإنكليزية). الكثيرون في واشنطن اعتبروا أن المستشار الألماني غيرهارد شرودر قد أعيد انتخابه في أيلول/ سبتمبر 2002 نتيجة استغلال المشاعر المعادية لأمريكا[138]. أما بالنسبة للعداء لفرنسا، فقد أطلق على «البطاطا المقلية» الفرنسية اسم «الحرية المقلية»، وكان ذلك بمثابة أحد تمظهرات هذا العداء. إذ نشرت صحيفة «نيويورك بوست» على صدر صفحتها الأولى صورة لمقبرة لجنود أمريكيين قتلوا في فرنسا في الحرب العالمية الثانية، برفقة عنوان يقول: «التضحية: ماتوا من أجل فرنسا لكن فرنسا نسيت»[139]. وفي مقالة تطالب بطرد فرنسا من مجلس الأمن الدولي، كتب الصحفي الليبرالي (كما يزعم) توماس فريدمان يقول: «لو لم تتدخل أمريكا واضطرت أوروبا للاعتماد على فرنسا لكان معظم الأوروبيين اليوم يتكلمون إما بالألمانية أو الروسية»[140].

وفي مناورة «اورويلية» (نسبة إلى جورج أورويل)، جرى توجيه اللوم إلى البلدان المطالبة بضبط النفس وعدم اللجوء إلى القوة العسكرية وحملت مسؤولية التسبب بالحرب. وعشية الحرب على العراق قال بلير: «يجب أن يكون العامل الجوهري هو: الرسالة القوية والموحدة لبغداد من بقية العالم تعني السلم. أما الرسالة الضعيفة فتعني الحرب»[141]. وردد هذا المنطق توماس فريدمان، بعد إضافة اتهام فرنسا بالطفولية: «الطريقة الوحيدة الممكنة لإجبار صدام على الامتثال ـ بدون حرب ـ هي أن يرص العالم كله صفوفه، كتفا إلى كتف، ضد سوء سلوكه، دون أي فجوات، لكن فرنسا، كما يقال في حضانات الأطفال، لا تلعب بشكل جماعي مع الآخرين»[142]. وثبت أن المشاعر المعادية لفرنسا ملحة وعنيدة: ففي أيلول/ سبتمبر 2004، ألقى السيناتور الديمقراطي «المارق» زيل ميللر خطابا أمام مؤتمر الحزب الجمهوري زعم فيه أن كيري ربما يأخذ أوامره من باريس[143].

المدنيون في البلدان المستهدفة

في سياقات أخرى، اعتبرت الفصائل العسكرية المدنيين غادرين وجاحدين ـ وتهديداً أيضا لأمن المقاتلين. ومن الطبيعي أن يؤدي تصاعد الانتهاكات ضد المدنيين إلى مزيد من الإحباط وخيبة الأمل بينهم، ولربما تتجدد الحلقة المفرغة وتتعمق. وكثيرا ما تغذى الغضب والخوف على بعضهما بعضا. على سبيل المثال، في الحرب الأهلية في سيراليون، كان من الممكن تفسير عنف المتمردين وجنود الحكومة ـ في جزء منه ـ بواسطة الأجندات الاقتصادية التي تبناها الطرفان، لكن الاستقصاءات التي أجريتها بنفسي (إضافة إلى قسوة وفظاعة العنف) أشارت إلى أهمية العوامل العاطفية / الانفعالية، وعلى وجه الخصوص، العداء المشترك بين المقاتلين تجاه المدنيين، وهو عداء ينمو ويستفحل حين يبدأ هؤلاء بإظهار «جحودهم» عبر توجيه «إصبع الاتهام» إلى المتمرد أو الجندي بسبب جشعه وانتهاكاته. وبالتالي يغذي إحساس المقاتلين بأنفسهم كعناصر أخلاقية غضبهم وانتهاكاتهم فعلا، وتميل إدانة المدنيين للمقاتلين إلى تفاقم حدة العنف. هذه العملية تتصل اتصالا وثيقا بظاهرة لاحظها العالم النفساني جيمس غيليغان: يمكن لإحساس الأفراد بأنفسهم كعناصر أخلاقية أن يغذي العدوانية فيهم حين يحاولون بأسلوب عنيف درء الشعور بالعار. وعلق أحد الناشطين في مجال حقوق الإنسان في سيراليون بالقول: «حين أدركنا أنها حرب ضد المدنيين أصبح المتمردون أعداؤنا. ولأن المدنيين يوجهون الإدانة إليهم الآن، تضاعف استهدافهم للمدنيين». ومن المهم في دلالته أن متمردي «الجبهة المتحدة الثورية» (في سيراليون) كثيراً ما ارتكبوا الفظائع بينما كانوا يجبرون أقارب الضحايا على التهليل للانتهاكات ـ كأنما يجبرون الآخرين بالقوة على الاعتراف بدورهم الجديد كـ«رجال عظام» وإزالة أي شعور بالعار من بيئتهم المحيطة.

الحرب الأهلية المريرة في غواتيمالا أظهرت أيضا كيف يمكن للعار الناجم عن العنف أن يغذي ويشجع مزيدا من العنف، وكيف يمكن للإدانة أن توسع دائرة

الأعـداء: على سـبـيل المثـال، أظهـرت دراسـة جـوديث زور حـول أرامل الحـرب في غواتيمالا أن قادة دوريات الميليشيا المدنية التي ترتكب الانتهاكات شعروا بخوف قوي من كـلام الأرامل (أرامل الحـرب على وجـه الخصـوص) فقـد خـافوا من السـخـرية والهـزء والعقـاب البـدني والعقـاب القـانوني. وشـجع ذلك كله على استـمـرار العنف، لاسيمـا ضـد النسـاء. أمـا مـحـاولات نقل الشـعـور بالعـار من الضـحيـة إلى الجـلاد ـ مثلا: في المراسم الشعائرية المصممة «لإعادة أنسنة» ضحايا العنف ـ فقد دفعت من ارتكب الانتهاكات إما إلى رد عنيف وأثيم، أو إلى الانهيار العصبي[144].

في حـالة العـراق على وجـه الخـصـوص، مـالت دائرة الأعـداء إلى التـوسـع أيضـا لتشـمل العديد من المدنيين العـراقيين، ومـرة أخـرى، شكل تجنب العـار آليـة مـهـمـة. ويبـدو أن عـادة فـصل الأشـرار «عنا» قـد سـاعـدت على إيجـاد حـالـة من الصـدمـة الدائمـة حين فشل هـؤلاء الذين تم إنقاذهم من الشـر في إظهـار امتنانهم المرتقب لمن اعـتـبـروا أنفسـهم «أخـيـاراً». وهـذا يعكس أنمـاطـا مـشـابهـة ظهـرت أيضـا في حـرب فيتنام[145]. في واشنطن ولندن، ظل السـياسـيـون والجنود وخبـراء الشؤون الخارجية يتـوقـعـون طيلة شـهـور بأن اعـتـقـال أو قـتل صـدام حـسين سـوف يؤدي إلى تهـدئة الصراع. وحـسب المحللون أن مقتل ابني صدام، عدي وقصـي، سوف يضعف التمرد، لكنه قـوي وتصـاعـد[146]. وكان من المتوقع (خطأ) أيضـا أن يمثل تشكيل حكومـة إياد عـلاوي المؤقـتـة (في حـزيران/ يونيـو 2004)، ثم الانتـخـابات الوطنيـة (كـانون الثـاني/ ينـاير (2005، بداية لتراجع التمرد.

في العـراق، بدا العديد من الجنود الأمـريكيين الذين استـهـدفتـهـم هـجـمـات رجـال المقـاومـة غير قـادرين على فـهم السـبـب وراء غـضـب هـذا العـدد الكبـيـر من العـراقيين [148]. أليس مـا يـقـومـون به حـربـا ضـد الشـر، بـرغم كل شـيء؟ ونتـيـجـة الخـوف والغضب، لم يميـز الجنود الأمريكيون أحيـانـا بين مقـاتلي العدو والمدنيين[149]. ونقل مـراسـل «صنداي تايمز» مارك فرانشيتي عن العريف في الجيش الأمريكي ريان دوبر

قوله: «العراقيون قوم مرضى ونحن العلاج الكيماوي. بدأت أكره هذا البلد. انتظر حتى أمسك عراقي حقير. لا لن أمسك بواحد بل سأقتله» [150]. وعلق أحد كبار المسؤولين المدنيين في وزارة الدفاع في منتصف عام 2003 بالقول: «العديد من جنودنا هناك بدؤوا يكرهون العراقيين»[151]. والإحباط الذي شعر به الجنود انعكس لدى عائلاتهم. ففي مدينة هينسفيل (بولاية جورجيا)، حيث تتمركز فرقة المشاة الثالثة، غضب السكان من عدم الاعتراف بتضحيات الجنود بصورة أكثر صخبا من قبل المستفيدين منها[152]. وقالت امرأة يعمل زوجها سائق شاحنة في هذه الفرقة التي فقدت حتى الآن خمسا وثلاثين من جنودها: «حسبت أنهم [العراقيين] سيكونون أكثر حماسا، أعني، من لا يرغب بالعيش مثل الأمريكيين، في ظل الديمقراطية، وإرسال أبنائهم إلى المدارس؟ فاجأني مدى سذاجة العراقيين»[153].

بالنسبة للمؤسسة العسكرية الأمريكية، يمكن درء العار الناجم عن معارضة الاحتلال عبر توجيه اللوم إلى «الإرهابيين»، أو «الصداميين»، أو المتسللين الأجانب [154]. سمة أخرى ألصقت بأولئك الذين يعارضون الاحتلال هي «القوى المعادية للعراق» (عبارة رددتها محطة «سي ان ان»)[155]. لكن المقاومة المنتشرة والعنيدة أضعفت بشكل متكرر محاولة فصل المعارضة عن المدنيين. والحساسية البالغة تجاه النقد الموجه من العراقيين، تبدت بصورة واضحة حين أصدر بول بريمر، رئيس سلطة التحالف في العراق آنذاك قرارا في حزيران/ يونيو عام 2003 يحظر أي «تجمعات، أو بيانات، أو منشورات» تدعو إلى معارضة الاحتلال الأمريكي[156]. وفي داخل العراق، كانت السيطرة على وسائل الإعلام تصل إلى درجة مفضوحة وعنيفة، كما حدث عندما هاجم الجنود الأمريكيون المركز الإخباري التابع للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق. وبالنسبة للجنود الأمريكيين أنفسهم، يبدو أن الغضب على «جحود» السكان المحليين قد توالف بشكل خطر مع إحساس بأن القادة العسكريين والزعماء السياسيين قد خذلوهم (وهذا شعور مألوف في حرب فيتنام

والعديد من الصراعات في البلدان الأخرى، بما فيها سيراليون)[157]. علاوة على ذلك، ما إن تبدأ بقتل المدنيين حتى تنطلق دينامية جديدة ومدمرة. أشار اومر بارتوف في كتابه «جيش هتلر» إلى زيادة الطلب على الدعاية العنصرية في الجبهة الروسية ـ لاسيما لمحو عار الفظائع التي ارتكبت. وينقل جوناثان غلوفر عن جندي روسي هاجم المدنيين بالقنابل اليدوية في أفغانستان قوله: «يجب أن تجد نوعا من الذريعة التبريرية لمنع نفسك من الجنون»[158].

خاتمة

قد يعمل الشعور بالعار بطرائق غامضة. ومثلما قالت الكاتبة الأمريكية نعومي وولف:

> كنا على استعدادا للقبول بازدراء أولئك الضفادع المخنثين ـ في «القارة العجوز» ـ حين كنا ثملين بانجازاتنا وبأنفسنا: عزلتنا جعلت ذلك أمرا سهلا. لكن الآن [بعد إعصار كاترينا على وجه الخصوص] نشعر فعلا بالخجل من أنفسنا في الوطن، ولا يمكن أن نتحمل ازدراء العالم بالطريقة ذاتها. فهو يجرح ويؤلم الآن[159].

قبل هذا التأمل في الذات، كان من الممكن التصدي للشعور بالعار عبر إعادة تعريف العدو. وقيل أحيانا: إن بوش رد على الحادي عشر من سبتمبر بالهجوم على أفغانستان والعراق. هذا صحيح، لكنه لا يفيدنا كثيرا. نحن بحاجة إلى فهم التهديد الداهم بالعار الناجم عن أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ثم تفاقمه واستفحاله نتيجة الرد العنيف عليها. الأمر الذي يساعدنا على فهم سبب تكاثر الأعداء ـ والانتهاكات ضد المدنيين ـ في مكافحة الإرهاب؛ وتفسير التضيق المستمر في دائرة الحلفاء الموثوقين: والأهم أنه يساعدنا على تفسير العامل العشوائي القوي في اختيار الأهداف ضمن عمليات «مكافحة الإرهاب». ونظرا لأهمية إبطال وعكس

الشعور بالعجز والعار (كنقيض للشعور بـ «الفوز والنصر»)، تمثلت الأولوية في مهاجمة أهداف مؤبلسة ضعيفة لا يمكن أن ترد الضربة وقمع أي معارضة لهذا المشروع المضلل. الأمر الذي يقربنا أكثر إلى التفكير بالسبب وراء حاجتنا إلى فهم محورية الشعور بالعار: فإذا كان محو الشعور بالعجز والعار هو الدافع الرئيس للولايات المتحدة وحلفائها، فسوف يكون أيضا باعثا مفتاحيا لأولئك الذين أغضبتهم هذه الهجمات. ولن يرجح أن يكونوا أكثر تمييزا في انتقائهم للأهداف، لأنهم أيضا لا يبالون بإغضاب معارضيهم وأعدائهم (بل كثيرا ما يحبذونه).

يمكن تقسيم معظم النقاش حول الحرب على الإرهاب إلى خطاب أولئك الذين يفترضون حسن النية والمقصد في الولايات المتحدة وبريطانيا والمؤسستين العسكريتين فيهما (وإن شابت النوايا الحسنة بعض الأخطاء والانتهاكات بين الحين والآخر)، وخطاب أولئك يفترضون وجود نوايا سيئة مبيتة (الأمر الذي أدى إلى ارتكاب انتهاكات بالجملة). لكن إذا أصاب جيمس غيليغان في أن العنف المتطرف مرتبط برغبة في الحفاظ على «احترام الذات»، فإن الإحساس المكثف برسالة الذات الأخلاقية قد يؤدي إلى تفاقم حدة العنف حين يتعرض مصدر احترام الذات هذا للتهديد.

ثبت أن حزب العمال الجديد بزعامة بلير هو حليف طبيعي لبوش ومشروع الاستئساد والترهيب للحصول على الموافقة والقبول، مع درء تهديد العار بالعدوانية المتجددة. أولا، كان حزب العمال الجديد حذرا على الدوام من اتهامه بـ«الضعف في شؤون الدفاع»، خصوصا منذ أن تعرض الزعيمان العماليان السابقان نيل كينوك ومايكل فوت للذم والطعن والتشنيع بسبب مواقفهما الأكثر راديكالية (مثلا: حول الأسلحة النووية). ثانيا، منذ مستهل ولاية بوش، صمم بلير ـ الذي بنى سمعته على الترويج لحزب العمال باعتباره آمنا ومحافظا على الصعيد المالي ـ على إثبات أن بمقدوره الانسجام مع رئيس جمهوري مثلما فعل مع كلينتون الديمقراطي[160]. ثالثا،

تشير إيديولوجية حزب العمال الجديد («الفوز / الفوز») إلى أن بإمكانك (بالسحر!) مساعدة أفقر المواطنين دون زيادة الضرائب على أغناهم، وتوافقت هذه المنظومة الاعتقادية (بمساعدة النمو الاقتصادي، كما ينبغي علينا أن نقول) بكل سهولة مع إيديولوجية «الفوز / الفوز» القائمة على مبدأ «لا ضرائب جديدة، وخسائر الحد الأدنى في الحرب» الذي يسمح لك ظاهريا بالترويج لحقوق الإنسان والعدالة بثمن زهيد لا يذكر بالنسبة لك أو لغيرك. رابعا، شدد حزب العمال الجديد بكل عناد على الحاجة إلى العقاب والردع فيما يتعلق بالقانون والنظام على الصعيد الداخلي. وأعلن الحاجة إلى «الشدة في مواجهة الجريمة، ومواجهة أسبابها»، وسرعان ما ترجم ذلك إلى «الشدة في مواجهة الإرهاب، ومواجهة أسبابه» (رغم أن هذه الأسباب، خصوصا القضية الفلسطينية، همشت عموما من قبل بوش). خامسا، لحزب العمال الجديد نزعة واضحة نحو الاستئساد والترهيب: وهي مصممة للفوز، كما وصلت قيادته إلى السلطة حاملة رأيا مفاده أن الحرب ضد المحافظين تبرر الانضباط الداخلي الصارم والاستئساد على أعضاء البرلمان المخطئين. وليس من الصعب رؤية كيف لقيت الكارثة العراقية التشجيع من قبل رأي حزب العمال الجديد الراسخ بأن الفوز أهم من كل شيء، وأن التهديد والترهيب وسيلة شرعية للوصول إلى الغاية، وأن النصر بحد ذاته يبرر جميع التسويات والتنازلات المقدمة على طريق بلوغه. أما الحساسية تجاه الانتقاد فشكلت على الدوام سمة بارزة لحكومات بلير، واعتاد هو وكامبل لعب دور «الشرطي الصالح، والشرطي السيئ». سادسا، (وهذا يتصل بالاهتمام بالفوز)، اتضحت أهمية استغلال وسائل الإعلام والتلفيق ـ وتزايدت هذه الأهمية عند تجميع بعض الدعم لحرب العراق ـ بالنسبة لحزب العمال الجديد منذ البداية. وكان ذلك من جوانب عديدة بمثابة ردة فعل على بروز دور الصحافة في إضعاف الزعيم العمالي نيل كينوك في انتخابات عام 1992. وجسد تنسيق الدعم للحرب مجرد مثال مبالغ في تطرفه ولاأخلاقيته. أخيرا، ركز

بلير بؤرة الاهتمام، عبر سلسلة من المجالات السياسية، على النتائج والإيتاء، بدلا من النسق والعملية. لكن، وكما يلاحظ مايكل كوينلان، فإن العملية النسقية تعني الشمول والدقة، والتشاور والاستنصاح، والتشارك في الملكية، والشرعية ـ وكثيرا ما تفرز تأثيرا بالغا في النتائج[161].

وحتى في حالة اعتبار الدعم البريطاني قد ساعد في تقليص الشعور الأمريكي بالعار، فإن الشعور البريطاني بالعار تقلص نتيجة الشعور التقليدي بالاستعلاء والتفوق على «العم سام». وبالنسبة للعديد من البريطانيين، قدم التحالف مع الولايات المتحدة لا مجرد دفء القبول والاستحسان الأمريكي فقط، بل أتاح الفرصة أيضا لتقليص الشعور بالعار عبر مغايرة السلوك البريطاني مع السلوك الأمريكي. ومثلما لاحظت الصحفية جاكي اشلي، فإن وسائل الإعلام البريطانية صورت مرارا وتكرارا الجنود البريطانيين في العراق باعتبارهم أكثر ذكاء وفطنة من الأمريكيين، حيث بدا أنهم يتنزهون إلى الأبد بين العراقيين ـ على العكس من رعاة البقر الأمريكيين الذين يطلقون النار لأي استفزاز ويربضون خائفين مذعورين داخل عرباتهم المدرعة. وكما قال ضابط بريطاني: «خلافا للأمريكان، نحن نخلع خوذاتنا ونظاراتنا الواقية وننظر إلى العراقيين وجها لوجه»[162]. يمكن أن نرى في الموقف البريطاني سمتين تقليديتين لتجنب العار.أولا، نحن نطيع الأوامر فقط (من قادتنا، الأمريكان). ثانيا، نحن لا نصادق كلية على هذه التعليمات ونبذل ما بوسعنا لتقليص أضرارها. وكما يؤكد عالم الاجتماع ستانلي كوهين، يمكن للمبررات المتناقضة للعنف أن تتعايش جنبا إلى جنب[163].



10
الثقافة والسحر

لا يمكن تفسير النتائج المعاكسة التي أفرزتها مكافحة الإرهاب بمجرد التركيز على لاعبين رئيسيين مثل بوش وبلير. فهذه المقاربة التبسيطية معرضة لاختطار تقديم كبش فداء بأسلوب جديد، وقد يتحول المحافظون في الولايات المتحدة فجأة إلى الهجوم على بوش (الذي يتعرض لضربات عنيفة نتيجة إعصار كاترينا ومصفوفة من الفضائح الأخرى) في محاولة للحفاظ على سياسة اليمين على مسارها المرسوم[1]. يجب التوكيد هنا على أن الرد الذي قادته الولايات المتحدة على هجمات الحادي عشر من سبتمبر ـ خصوصا ما تضمنه من «تفكير سحري» ـ لم يأت من فراغ. بل انبثق من القوى والتقاليد التي تساعد في تشكيل حتى إدارة ديمقراطية، لا إدارة جمهورية وحسب[2]. يوجز هذا الفصل بعضا من السياق التاريخي والثقافي والفكري الذي أصبح فيه جنون «الحرب على الإرهاب» (بالنسبة لبعضهم) فكرة معقولة وحتى جليلة. ليس من الضروري أن تتمثل ردة فعل بلد على هجوم تعرض له في استهداف عدو خارجي أو القبول بتنصل حكومته من مسؤوليتها، وتحويلها إليه. لنأخذ إسبانيا على سبيل المثال. فقد حدثت تفجيرات مدريد (آذار/ مارس 2004) عشية الانتخابات العامة، وتسرع الحكومة الإسبانية في الإشارة إلى أن منظمة «ايتا» الباسكية الانفصالية الإرهابية هي التي تقف وراء الهجمات، أثر تأثيرا سيئا في معظم الناخبين، الذين هاجموا حكومتهم، واتهم الكثيرون رئيس الوزراء أزنار بأنه جلب الإرهاب إلى مدريد بدعمه الحرب على العراق.

تاريخ الولايات المتحدة والإحساس بحمل الرسالة

ثبت أن فكرة دعوة أمريكا الخاصة لإعادة تشكيل العالم ظلت مستمرة وملحة منذ إنشاء الولايات المتحدة، ومنذ أن انتقد توماس بين بأسلوب مسرحي بليغ للطغيان والاستبداد في كتابة «المنطق السليم»(1773) الذي أعلن فيه: «نستطيع بقوتنا أن نبدأ تشكيل العالم مرة أخرى»[3]. أما جذور الولايات المتحدة الحالية فقد تناسجت مع فكرة «القدر المحتوم»: الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تحمل رسالة سماوية مقدسة تدعوها للتوسع، خدم كذريعة إيديولوجية بررت ضم تكساس وكاليفورنيا واوريغون إضافة إلى تسريع عمليات تدمير وإبادة سكان أمريكا الأصليين. وعند المشاركة في الحرب العظمى عام 1917، أعلن الرئيس ودرو ولسون في خطبته الشهيرة:

> أؤمن بأن الله زرع فينا رؤية الحرية.. لا أستطيع أن أحرم نفسي من الأمل بأننا شعب مختار، اختيارا مشهودا، لنظهر لأمم العالم كيف تسير على سبل الحرية[4].

وفي حين ينبغي عدم التقليل من شأن النزعة التقليدية الانعزالية في أمريكا، إلا أن فكرة دعوة الولايات المتحدة لإعادة تشكيل العالم مازالت تحظى بقوة كبيرة وطاقة مؤثرة، وتساعد في تدعيم مشروع المحافظين الجدد في نشر الحرية في شتى أرجاء العالم (وفي الشرق الأوسط على وجه الخصوص). ويبدو أن الانتصار على الاتحاد السوفييتي في الحرب الباردة قد شجع الأمل المنتظر بقدرة أمريكا على نشر نسختها من الديمقراطية والرأسمالية في مختلف أصقاع الأرض[5]. في عام 2004، عبر أحد منظري المحافظين الجدد، مايكل لدين، عن الطريقة التي جرى فيها توجيه فعل انعكاسي قديم مناهض للاستبداد والطغيان نحو أجندة أمنية جديدة: «فليسقط الطغيان.. نعتقد أن أمريكا ستكون أفضل حالا في عالم تحتشد

فيه البلدان الحرة.. نعتقد أن العالم برمته حين يكون بهذا الشكل، سنكون في أمان أكبر»[6]. وعلى الطرف الآخر من الأطلسي، يبدو أن توني بلير أيضا قد تأثر بشيء من روح توماس بين ـ حين أعلن مثلا في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر: «دعونا نعيد ترتيب هذا العالم من حولنا»[7].

تعايشت المثالية والتفاؤل في أمريكا إلى جانب قدر من ذهان الارتياب والعنصرية في أحيان كثيرة، وهو أمر يبدو أنه غذى تكاثر الأعداء والطبيعة العشوائية للرد في الوقت الراهن (الانتقال من الحادي عشر من سبتمبر إلى العراق يعكس بالتأكيد ـ على مستوى معين ـ فكرة «أنهم جميعا من العرب»)[8]. أشار الكاتب المسرحي الراحل ارثر ميللر في مقدمة مسرحيته «البوتقة» إلى أن ذهان الارتياب الذي هيمن على مطاردة الساحرات في مدينة سالم (في القرن السابع عشر بأمريكا الشمالية) كان يصعب فصله عن الشعور السائد بين المستوطنين (الذين فروا هم أيضا من الاضطهاد الديني) بأنهم يعيشون على شفا الفوضى، وأنهم محاصرون بقوى مهددة أخذت شكل هنود حمر وثنيين في الغابات المحيطة. وحين توسع «الشعب المختار» غربا، فعل ذلك تحت غطاء إيديولوجيا مريحة تعتبر من هم خارج هذا المجتمع المحلي أقل من مرتبة البشر[9]. ولاحظ ريتشارد هوفستادتر وجود أسلوب ارتيابي ثابت في السياسة الأمريكية، عادة متبعة في رؤية شبكة تآمرية (الكاثوليك أو الماسونيين في حقبة سابقة) تروج للشر وتشجعه[10]. كان ذلك هو السياق الذي جرى فيه اعتبار الاتحاد السوفييتي «إمبراطورية للشر»، إضافة إلى «حملة مطاردة السحرة» التي شنها جون مكارثي ضد «الطابور الخامس» الشيوعي داخل الولايات المتحدة. وما يزال اجتثاث الشر الشغل الشاغل للعديد من الأمريكيين، خصوصا المتدينين منهم. ووجد استطلاع أجرته مجلة «تايم» أن 53% من الأمريكيين «ينتظرون العودة الوشيكة ليسوع المسيح، مترافقة بتحقق النبوءات الإنجيلية / التوراتية المتعلقة بالدمار الكارثي لكل ما هو شرير»[11].

إلى جانب النزعة الانعزالية التي خففت ـ تقليديا ـ حدة الإحساس بحمل الرسالة العالمية، هنالك تراث من مناهضة الاستعمار ترجع جذوره إلى حرب الاستقلال عن بريطانيا، وألهم فيما بعد تشجيع الولايات المتحدة للقوى الأوروبية على التخلص من إمبراطورياتها. ثمة تقليد تراثي آخر وثيق الصلة ما زال حيا ومنتشرا بين الكثيرين الذين لا يتحدث باسمهم بوش ـ يشدد على أن العداء للطغيان يجب أن يتضمن أيضا معاداة الطغيان الاستبدادي الأمريكي. ولسوء الحظ، يبدو أن الإمبريالية الأمريكية الجديدة توالفت مع تراث «مناهضة الاستعمار والإمبراطورية» القديم لتشجيع تجاهل أهمية كسب «القلوب والعقول». لم تكتسب الولايات المتحدة أي معرفة تفصيلية عن مشكلة «القلوب والعقول» من تجربة مباشرة في إدارة الإمبراطوريات. علاوة على أن المعرفة البريطانية بأفضل الطرق للتصدي للمقاومة والإرهاب (مثلا: فيما يتعلق بايرلندا الشمالية) اعتبرها بعض الزملاء الأمريكيين ملوثة بالكولونيالية، وذلك وفقا لأحد كبار المسؤولين البريطانيين في العراق: وبهذا المعنى فإنها «معرفة قذرة».

ألهم «الحرب على الإرهاب» أيضا تراث معاد للمفكرين والمثقفين في الولايات المتحدة، وهذا عامل شجع التراجع عن التفكير المؤسس على الدليل. في جورج بوش نفسه نزعة قوية تعادي الفكر والمفكرين(12)، وشكلت في بعض الأحيان ميزة سياسية نافعة. في أواخر عام 2002، انتقد مارك مكينون، المستشار الإعلامي الذي عمل مدة طويلة مع بوش، بأسلوب توبيخي لاذع الكاتب رون سسكيند وزملاءه المفكرين على الساحلين الشرقي والغربي للولايات المتحدة، مقدما الحجة على أن تصوير بوش كأحمق هو حمق في حد ذاته. وفي معرض إشارته إلى مناطق «وسط أمريكا الكبيرة والعريضة، حيث لا يقرأ الناس المجدون المنهمكون في عملهم صحيفة ـ نيويورك تايمز» ـ، قال مكينون:

> تعجبهم مشيته [بوش] وإشاراته، والثقة التي تنضح منه. فهم يؤمنون به. وحين تهاجمه أنت بسبب كلماته أو تصرفاته غير المناسبة، أو تركيباته اللغوية المشوشة، فهذا ليس بالأمر السيئ لنا. أتعلم من الذي لا يعجب هؤلاء الناس؟ أنت![13].

يلاحظ توماس فرانك في دراسته حول كنساس أن «معاداة الفكر والمفكرين تجسد أحد الموضوعات التوحيدية الجليلة لردة الفعل [المحافظة] العنيفة، سليلة الحرب الطبقية المتغيرة، التي تشكل أساس العديد من مظالم وشكاوى كنساس التي تبدو عشوائية لولاها»[14]. في أوائل عام 2004، ظهر إعلان تلفازي لـ«نادي النمو» المحافظ، نصح المرشح الديمقراطي هوارد دين حاكم فيرمونت السابق أن «يأخذ ضرائبه المرتفعة، وحكومته المتوسعة، وقهوته الممزوجة بالحليب، وطعامه الياباني (سوشي)، وسيارته ـ الفولفو ـ، وـ نيويورك تايمز ـ التي يقرؤها، وعشقه لهوليود، واستعراض اليسار الشاذ، ويرجع عائدا إلى فيرمونت، حيث ينتمي»[15]. جون كيري نفسه صور كمثقف غني ومنعزل ومنافق أتى من الساحل الشرقي[16]. العداء لسكان المدن يمكن أن يشكل جزءا من ذلك كله. أما معارضة المفكرين داخل الحزب الجمهوري فشملت أولئك الذين صمموا «البرنامج الجديد»* في ثلاثينيات القرن العشرين. وفي الخمسينيات، استهدف جو مكارثي المثقفين والمفكرين الذين «باعوا» الولايات المتحدة كما زعم. بينما تمثلت أوضح «خيانة» سافرة للمفكرين والمثقفين في حرب فيتنام حسبما يقال. يعلق فرانك قائلا:

> ما تسمعه اليوم.. هو أن الجنود كانوا ضحايا الخيانة، أولا من قبل الليبراليين في الحكومة ثم قبل حركة مناهضة الحرب.. الخطأ لم يكمن في أخذ الجانب الخطأ في حرب خاطئة: بل في السماح لهؤلاء المثقفين ـ الذين تحولوا الآن من عمالقة الشركات المعروفين ببرودهم إلى نخبة ليبرالية خائنة ـ بمنعنا من الانتصار، من إطلاق العنان لقوتنا

الفتاكة بشكل كاف ضد الأرياف الفيتنامية. لقد قدم محافظون مثل باري غولدووتر هذه الحجة آنذاك بالطبع، لكن تطلبت الفكرة عقودا من السنين كي تكسب جمهورا غالبا كما هي الحال اليوم[17].

هنالك نوع من التقديس للفردانية يجعل توجه بوش الأحادي الجانب يبدو عاديا ومقبولا بشكل أكبر. فقد أدين مرات عديدة باعتباره «راعي بقر»، لكنه يستمتع بالصورة على ما يظهر. ومن الحبكات الشائعة في روايات الغرب الضاري قيام راعي بقر متوحد بتطبيق القانون بنفسه حين يكون «العمدة» (الشريف) الملتزم بالقانون ضعيفا إلى حد يصعب عليه تمييز الأشرار ومواجهتهم[18]. ونحن نشاهد مزيدا من النسخ الحديثة لهذا الموضوع في أفلام سينمائية مثل سلسلة «هاري القذر» (من بطولة كلينت إيستوود)، إضافة إلى أفلام مثل «كوبراً» وثلاثية «رامبو» (بطولة سيلفستر ستالون)[19]. ليس من الصعب رؤية كيف توضع الأمم المتحدة في القالب المنمط للحامي الضعيف الذي تكبله القوانين والروتين بحيث لا يجدي أي نفع حقيقي. ولا من الصعب رؤية كيف يناسب بوش ومرؤوسه قاموس الأفلام السينمائية التي تدور حول شريكين مغامرين (البطل وصديقه/تابعه). في الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفازية المعاصرة، أصبح الجلاد ـ البطل الذي يمارس التعذيب شخصية شائعة إلى حد مقلق[20]. ومثلما أشار العديد من المراقبين، تزايدت صعوبة رسم خط فاصل بين أفلام هوليود المسلية وسياسة الولايات المتحدة. وليس من المفاجئ أن يأتي في أعقاب الممثل السينمائي الذي أصبح رئيسا ممثل أصبح حاكما (أرنولد شوارزنغر حاكم كاليفورنيا) ليعدنا بأن «يُبيد» (نسبة إلى فلمه السينمائي الشهير «المُبيد») كل شيء، بدءا بالعجز في ميزانية الولاية وانتهاء بأزمة الطاقة. كتب نورمان ميلر يقول إن بوش ربما «استشعر بشكل أفضل من أي شخص آخر كيف ستشبع الحرب على العراق إدماننا على العيش مع المغامرة على شاشات التلفاز»[21].

السحر والاستهلاك والإعلان الدعائي

يصبح التفكير السحري في «الحرب على الإرهاب» أسهل فهما حين نتذكر التفكير السحري الذي يدعم النزعة الاستهلاكية والدعاية. إذ تخصص للإعلانات الدعائية 22 دقيقة تقريبا في كل ساعة بث على التلفاز الأمريكي. واعتاد الناس أن تباع لهم سلع وخدمات مع وعد بالسعادة المطلقة إذا رضخوا وخضعوا. ويمكن أن تتوسع العملية ـ بشكل سلس يثير الاهتمام من عدة جوانب ـ لتشمل بيع (وشراء) حرب!

في بعض الأحيان كان مسؤولو إدارة بوش على درجة كبيرة من الصراحة حول الحاجة إلى إقناع الناس «بشراء» «الحرب على الإرهاب». وقال اندي كارد، كبير موظفي بوش، إن الإدارة لم تطلب من الكونغرس في آب/ أغسطس 2002 تفويضا باستخدام القوة العسكرية ضد العراق، لأنك «من وجهة نظر استهلاكية لا تقدم منتجات جديدة في شهر أغسطس»[23]. وحين عيّن كولن باول نجمة الإعلانات الدعائية (في جادة ماديسون)، شارلوت بيرز نائب وزير دولة لشؤون الدبلوماسية والعلاقات العامة، شرح القرار في السادس من أيلول/ سبتمبر 2001 بالقول: «أردت واحدة من أعظم خبراء الدعاية في العالم. هل تعلمون ما نفعله؟ نحن نبيع. نحن نبيع منتجا.. ديمقراطية.. نظام المشروع الحر، منظومة القيم الأمريكية»[24] كان باول أقل صراحة من اندي كارد. لكن يمكن للمرء أن يضيف بكل سهولة سلعة «الحرب» إلى لائحة البضائع، لأن الحرب ـ خصوصا بعد الكارثة التي ستحل بأمريكا في خلال خمسة أيام ـ كانت طريقة مفضلة لتحقيق المكاسب والفوائد[25]. علق جون ستوبر وشيلدون رامبتون بالقول: «بدلا من تغيير الأسلوب الذي نتصل عبره فعليا بالناس في الشرق الأوسط، ما يزال [المسؤولون الأمريكيون] يحلمون بتلميع صورتهم من خلال حملة تسويق جديدة طبخت في هوليود أو جادة ماديسون»[26].

لكن ما هي الأساليب التي تستخدمها حين «تبيع حربا»؟ يبدو أن القواعد المعتادة في الإعلانات الدعائية قدمت هنا خدمة ممتازة. القاعدة الأولى هي: كرر ما تقول بشكل كاف ولسوف يصدقه الناس. كان ادولف هتلر قد نقل هذه الرؤية إلى المجال السياسي: «قدرة الجماهير العريضة على التلقي ضئيلة جدا، ذكاؤها محدود، لكن مقدرتها على النسيان هائلة.. يجب [على الدعاية] أن تنحصر في نطاق بضع نقاط وتعيدها مرارا وتكراراً»[27] في الحقيقة، أوضح هتلر بجلاء الصلة مع الإعلانات الدعائية التجارية: «الإعلانات الدعائية كلها، في مجال الأعمال التجارية أو الأعمال السياسية، تحقق النجاح من خلال استمرارية واستدامة تناسق واطراد تطبيقها»[28]. وفي حين أن الازدراء المرضي الذي أظهره النازيون لذكاء عامة الناس مقيت ومتخم بالتحيز والأحكام المسبقة كما هو واضح، إلا أن النقاط المتعلقة بالتكرار والنسيان مترعة بالرؤى الثاقبة، وأكدت هانا ارندت ذاتها على أهمية تكرار الأكاذيب[29]. بعد الحادي عشر من سبتمبر، كرر المسؤولون الحكوميون التوكيد على الصلات الجامعة بين العراق وهجمات سبتمبر، ورأينا كيف صدق حوالي ثلثي الأمريكيين هذه المناورة الخادعة. كما ربط بوش مرارا ابن لادن مع صدام حسين بالطريقة ذاتها، رغم أنه استخدم أسلوبا تضليليا احتياليا وبارعا في انتقاء الألفاظ، مما يوحي بأنه كان يعرف أنها كذبة ماكرة ملفقة[30].

القاعدة الثانية للإعلانات الدعائية هي: حاول العثور على بعض العبارات الشعارية السهلة التذكر. بعد أن استخدم بوش عبارة «محور الشر» في خطاب ألقاه في كانون الثاني/ يناير 2002، «أدرك [بول]ولفوفيتز مرة أخرى مدى أهمية الاستحواذ على عناوين الأخبار، وجرى تذكيره بأن الأكاديميين لا يفهمون ذلك: فالمبالغة في البساطة أمر مطلوب في ثقافة العبارة السريعة البليغة اللاذعة» حسبما يذكر بوب ودوارد[31]. وعندما اقترح رمسفيلد مفهوم «الصدمة والرعب» قال بوش: إنه مستساغ وسهل التذكر (ورغم أنه تساءل هل الفكرة «حيلة لجلب الانتباه»، لكن تم تبنيها).

القاعدة الثالثة للإعلان الدعائي واضحة لا لبس فيها: الوعد بجني فوائد عظمى ومنافع كبرى من منتجك. لقد ظل الإعلان الدعائي على الدوام يتمحور حول تحقيق الرغبات: نوع منتشر ونافذ وقوي من التفكير السحري. في الحالة النمطية، يصور المنتج باعتباره يمتلك سمات سحرية ستجلب لك الحب أو الجنس أو الاحترام أو الأمن أو توليفة من نوع ما تجمعها كلها. قدم ريموند ليامز الحجة على أن مشكلة المجتمع الاستهلاكي لا تكمن في أننا مغالين في ماديتنا، بل في كوننا غير ماديين بشكل كاف: فإذا كنا ماديين بحكمة وبوعي، وحصرنا اهتمامنا بفائدة المنتجات، سنجد معظم الإعلانات الدعائية غير ذات صلة وجنونية[33].

يعني الوعد بالمنافع والفوائد الكبرى بيع لا مجرد المنتج فقط بل النقص الذي يزعم أنه يسده. بكلمات أخرى، من أجل بيع منظف للحمام عليك أن تبيع الجراثيم أيضا. وحين يتعلق الأمر ببيع «الحرب على الإرهاب»، عليك أن تبيع التهديد. وبالطبع لا يمكن الشك في عوامل التهديد: كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر حقيقة مريعة ومرعبة فعلا. لكن التهديد من العراق على وجه الخصوص كان مبالغا فيه إلى حد كبير.

الرغبة المتحققة في الإعلانات أصبحت تعني على نحو متزايد الرغبة في التخلص من الأشخاص. إذ يتم اختيار المنتج بشكل يفضله على الشخص، في حين يصور الإعلان مرغوبية الأشياء وتفوقها على الناس[34] (لم نشاهد حتى الآن إعلانا يدعونا لاختيار التحرر على حساب المتحررين ـ أو على الأقل لم تكن الدعوة ظاهرة وجلية). هذا التوجه الإعلاني يتماشى مع عدد لا يحصى من البرامج التلفازية الواقعية التي تتمحور حول الرفض والنبذ: على سبيل المثال، أسلوب «الأخ الكبير» القائم على مبدأ «من يبقى؟ من يرحل؟ ـ أنت تقرر». الوهم الخيالي ـ في الإعلانات، في العروض الواقعية، وإلى حد ما في «الحرب على الإرهاب» ـ يتمتع

بالسلطة والسطوة والسيطرة. أنت تقرر. يمكنك أن تختار ـ بالطبع على أساس نسخة معدة بعناية عن «الواقع» ـ التخلص من الأشرار أو المزعجين. دعونا نصوت على طرد صدام حسين من المنزل!

القاعدة الرابعة في الإعلان أساسية أيضا: التوكيد على أن المنتج لن يكلف كثيرا. بوش شدد على هذا الوعد في حالة «الحرب على الإرهاب» عبر تقديم تخفيضات ضريبية في مرحلة الاستعداد للحرب. وفي الحقيقة، يبدو أن الاعتقاد بإمكانية حل المشكلات الكبرى ـ الخارجية والداخلية ـ بأسلوب سحري بدون فرض ضرائب جديدة قد وحد بوش الجمهوري وبلير العمالي. قال رمسفيلد وولفوفيتز إن أموال النفط والدول الحليفة سوف تقلص العبء المالي على الأمريكيين إلى الحد الأقصى(35). وأبلغ ولفوفيتز الكونغرس بأن «هناك الكثير من المال لدفعه من أجل هذه [الحرب على العراق]. وليس بالضرورة أن يكون من مال دافع الضرائب الأمريكي. نحن نتحدث عن بلد يمكن أن يمول بنفسه إعادة إعماره وفي وقت قريب نسبيا»(36). وفوق ذلك كله، أخفى المسؤولون الأمريكيون كلفة استمرار احتلال العراق زاعمين أن من المتعذر تضمينها في الميزانية ليصادق عليها الكونغرس ـ لأنها «مجهولة»(37) (فهي إذن من «المجاهيل المعروفة» التي تضاف إلى لائحة رمسفيلد. أو ربما هي من «المجاهيل المجهولة»). وقدر هانس بليكس رئيس فريق التفتيش الدولي عن الأسلحة تكلفة شن حرب على العراق بحوالي 80 مليار دولار في السنة (مقارنة بتكلفة سياسة الاحتواء السابقة التي لا تتجاوز 80مليون دولار في السنة)(38). وبحلول منتصف عام 2005، بلغت تكلفة حرب العراق فعليا حوالي 300 مليار دولار (علاوة على الميزانية السنوية لوزارة الدفاع الأمريكية البالغة 400 مليار دولار)، إضافة إلى عشرات المليارات المخصصة لعملية إعادة الإعمار الخرقاء(39). شمل الوعد بالتكاليف المنخفضة أيضا الوعد بإرسال أقل عدد من الجنود المطلوبين وأقل قدر من الخسائر في الأرواح (خصوصا «من جانبنا»)، وهذا الشق الأخير يعكس

التشديد على «التقدم» التقاني في أسلحة مثل صواريخ «كروز». وروج رمسفيلد على وجه الخصوص لفكرة الحلول العسكرية السريعة والزهيدة التكلفة نسبيا. مرة أخرى نؤكد أن هذا النمط الخداعي والمشعوذ من السحر يصعب أن يحتمل التدقيق والتمحيص والسبر. فحجم قوة غزو العراق بلغت ثلاثة أضعاف ما أراده رمسفيلد قبل ستة أشهر من بدئه[40]. أما بالنسبة للخسائر، فنحن نعرف أنها مرتفعة لدى الجانبين. فالموت والحرب صنوان تجمعهما رابطة الدم ولا يرغبان بفصم عراها: وما افترض أن يكون «نوعا جديداً من الحرب» تحول إلى نوع قديم بطرائق عديدة، مع بروز دور الدبابات[41]. في هذه الأثناء، تعرضت فكرة أن الخسائر "هناك" لن تماثل الخسائر «هنا» إلى التحدي ـ ودفعت لتبدو كتتويع على التفكير السحري ـ من قبل الإرهابيين في مدريد ولندن وغيرهما.

لا بأس بهذه الأساليب التسويقية كلها، لكن الغش المتأصل في الإعلان الدعائي يفجر مشكلة كامنة، في عالم الاستهلاك أو في عالم الحرب. كيف يمكن للنزعة الاستهلاكية مثلا أن تبقى مستدامة في وجه الفشل المتواصل والذريع في تحقيق السعادة عبر ثوب جديد أو سيارة أو معطر للجسم أو منظف للأرضية.. ؟ من الأمور الحاسمة في أهميتها في النظام الرأسمالي أن السخط الناجم عن وعود الإعلانات الدعائية الكاذبة لا يمثل مشكلة كبيرة بقدر ما هو حل: فهو يؤدي إلى استمرار الطلب. هذا هو النبوغ المنحرف والمعاند للرأسمالية، وجرى الاحتفال به ضمنيا عبر حملة صريحة إلى حد غير عادي عام 2004 داخل المتجر اللندني الشهير المتعدد الأقسام «سيلفريدج»، حيث ذكرتْ الزبائن: «تريده، ابتعه، تَنْسه». يمكن للرغبات المحبطة إذا استغلت بمهارة وبراعة أن تشجع التوجه نحو منتج جديد، يقدم وعدا جديدا يرجح ألا يتحقق أيضا، ومن الواضح أن أحدا لن يشعر بالخجل أو العار نتيجة العملية الدائرية برمتها.

الشيء ذاته ينطبق على الحروب التي لا تنتهي لكي «نعيش في أمان» (و«الحرب على الإرهاب» أحدث نسخة منها). في عام 1996، لقي الطالبان ترحيبا من الديبلوماسيين الغربيين باعتبارهم بديلا مقبولا وأكثر مرونة نسبيا عن أمراء الحرب الذين يروعون أفغانستان. لكن ضاع ذلك بسرعة في غياهب النسيان مع احتلال «القاعدة» مركز الصدارة واعتبار طالبان أحد أهم داعميها. لم يكن إسقاط حكمهم هدفا في البداية للحرب التي قادتها الولايات المتحدة: فالغرض المعلن كان إحضار أولئك المسؤولين عن هجمات الحادي عشر من سبتمبر إلى العدالة وتدمير قواعدهم. لكن سرعان ما وضع ذلك جانبا أيضا[42]. ولم يجلب غزو أفغانستان عام 2001 السلام لا إلى البلد ولا إلى العالم. وكما نعرف، لم يمثل ذلك مشكلة بالضرورة طالما غابت أطقم المحطات التلفازية وأمكن عرض فصول أزمة جديدة على شاشات التلفزيونات الغربية. فإذا فشلت الحرب على أفغانستان في التخلص من الإرهابيين فكذلك هي حال الحرب على العراق. خبر عاجل: ما يزال بعض الأشرار هناك! لكن نكرر القول إن هذا الفشل لا يمثل مشكلة بالضرورة أمام «بيع» حرب بلا نهاية. وفي الحقيقة، لا يتجسد «الجمال» الشاذ لـ«الحرب على الإرهاب» في فشلها في معالجة الخلل الأمني: فهي توجد الطلب وتنشطه بشكل فعال! أولا، تنتج مزيدا من الإرهابيين الجدد. ثانيا، تعزز شعورا عاما بالخوف والرهبة حتى في الغرب ـ بكلمات أخرى: تبتكر إرهابا يفيض عن الحاجة إلى التصدي له (ومثلما أشار كاتب الغموض ريتشارد دويل، فإن شن «الحرب على الإرهاب» يعني شن الحرب على «نزعة عاطفية»، و«حين تشن حربا على نزعة عاطفية سوف تصبح لا نهائية»)[43]. من حيث الاحتمال، يمكن لرغبة الغربيين المحبطة في الأمن أن توجه دوما إلى وعد جديد، إلى حرب جديدة، إلى تهديد جديد: سورية أو إيران أو كوريا الشمالية. وبالنسبة لأولئك الباحثين عن الأمان واليقين، تمتلك الحرب مزايا (وقيود) عقار أو «علاج على جرعات»: كل حرب جديدة نستوعبها أو «تباع» لنا يمكن أن تجلب بعض

الارتياح المؤقت في سياق عجز عام بدون قيود: لكن ذلك يبهت ويبلى حتما وقبل مضي وقت طويل أنت بحاجة إلى جرعة أخرى لتشعر بتحسن الحال. كل ما يتطلبه الأمر للحفاظ على استمرار عمل النظام المختل الوظيفة هو أن ننسى بسرعة وعن طيب خاطر كم كان «الحل» السابق رديئا وسيئا وفاشلا، وأن نمحو من ذاكرتنا مدى السرعة التي تحولت فيها الرحلة الممتعة إلى أخرى كئيبة ومحزنة، وأن نقبل التعريف الجديد للشر بالجاهزية التي أبدتها «البروليتاريا» المستسلمة لهيمنة وسائل الإعلام في رواية جورج أورويل «1984»، وأن نكبت إحباطنا ونكتم خيبة أملنا بواسطة رغبة محمومة جديدة: باختصار، علينا أن نقبل شعار متجر «سليفريدج» وندعه يغرينا بدعم أي حرب تعرض علينا: «تريدها، ابتعها، تنسها»![44].

قال رمسفيلد نفسه عن الصحفيين وأمارات السعادة بادية عليه: «لم يتجاوزا ـ البرغش ـ فيما أثاروه من انتباه»[45]، وتبدو المحطات التلفازية وسيلة مثالية هنا. فقد وجدت عملية مسح أجراها في الولايات المتحدة فريق من جامعة ماساتشوستس خلال الحرب على العراق عام 1991أنه «كلما طالت مدة مشاهدة الناس للتلفاز تضاءلت معرفتهم بما يحدث.. وبالرغم من التغطية الإعلامية التي استمرت شهورا، فإن معظم الأمريكيين لا يعرفون الحقائق الأساسية حول الوضع السياسي في الشرق الأوسط، أو التاريخ القريب للسياسة الأمريكية تجاه العراق»[46]. في مدة الاستعداد للهجوم على العراق عام 2003، تبنت وسائل الإعلام التي يملكها روبرت مردوخ ـ بما فيها «شبكة فوكس الإخبارية» في الولايات المتحدة وحوالي 140صحيفة شعبية في مختلف أرجاء العالم ـ مواقف مؤيدة للحرب. ودعت شبكة «فوكس» الحرب «عملية حرية العراق»، مصدرة بذلك حكما مسبقا حول هدف الحرب: وسرعان ما اقتفت شبكة «إم إس إن بي سي» أثرها[47]. ومن الأمور التي تكشف الكثير أنه كلما شاهد الناس شبكة «فوكس» مدة أطول تضاعف احتمال اقتناعهم بامتلاك العراق أسلحة دمار شامل وصلته «بالقاعدة»[48]. وفوق هذا كله،

انخفض حجم التغطية الإعلامية، على الأقل في حالة أفغانستان، بشكل حاد وفوري حالما انتهى الهجوم. فقد استحوذت أفغانستان في شبكات «إن بي سي» و «سي بي إس» و «أيه بي سي» على 306 دقائق من حجم التغطية خلال الحرب في تشرين الثاني/ نوفمبر 2001: لكن منذ بداية مارس/ آذار 2003، لم يتجاوز الحجم الإجمالي دقيقة واحدة[49]. أما حقيقة أن الصراع استمر بالرغم من «النصر» الأمريكي فقد ضاعت غالبا في غيهب النسيان، الأمر الذي ساعد في تعبيد الطريق للحرب التالية على العراق (الذي «رفض» أن يختفي بتلك السرعة من على شاشاتنا). وفي معرض التعليق على شعبية الأفلام التي تدور حول النسيان، لاحظت ناتاشا والتر عام 2004 أن العديد من السياسيين يتنزهون على ما يبدو، دون أن يثقل الماضي كواهلهم، تحت أشعة الشمس الساطعة والأبدية للأذهان النقية والضمائر المرتاحة [50].

نحن نميل إلى افتراض أن تقليص قوى العدو هو نجاح للسياسة، لكن ذلك ليس صحيحا بالضرورة. فخلال الهجوم على أفغانستان عام 2001، «اعترف [المسؤولون الأمريكيون] سراً أن الأهداف التي تستحق القصف سوف تنفذ قريبا ــ وسوف يعانون بالتالي من نقص في أفلام الفيديو للحفاظ على دعم عامة الناس للحرب» [51] (مثلما هي الحال في مبيعات الأغاني والأفلام، حيث يمكن لشريط فيديو أن يجترح المعجزات!). لاحظ بوب ودوارد أن «[نائب وزير الدفاع] ولفوفيتز قال إن الطالبان يحصلون على تعزيزات لكن الجنرال تومي فرانكس [رئيس القيادة المركزية] اعتقد أن لذلك جانبا يمثل خبراً ساراً ــ سوف يوجد مزيدا من الأهداف»![52] مرة أخرى نرى هنا المنطق المغلف الذي يميز أيضا النزعة الاستهلاكية: حين لا ينجح الحل في التغلب على المشكلة، يمكن أن يكون ذلك أمرا إيجابيا لأنه يزيد الطلب على المنتج.

وطيلة هذا الوقت كله، لا يكتفي المتعطشون لشن الحروب ببيع الحرب فقط بل أدواتها أيضا. لأن كل «قسط» جديد من الحرب الدائمة ـ على الأقل في «الحرب على الإرهاب» ـ يمنح فرصة للدعاية لحروب التقانة المتقدمة الفتاكة. وبهذا المعنى، تعتبر الحرب دعاية إعلانية[53]. وعلى شاكلة الجوانب الأخرى من «الحرب على الإرهاب»، يجد التآزر بين العنف والدعاية نسخته المشابهة في «الجانب الآخر». المتمردون في العراق لجؤوا بشكل روتيني إلى تصوير هجماتهم، لأن ذلك يخدم، من ناحية، كدعاية على المحطات التلفازية الفضائية، ولأن خلايا التمرد تعمل ـ من ناحية أخرى ـ بشكل مستقل وتبيع خدماتها لزعماء «القاعدة» مستخدمة أفلام الفيديو كدليل يثبت قدراتها[54] ووصف الاستشهاد في الهجمات الانتحارية ذاتها بأنه «شكل مرعب من الدعاية، يستمد معناه من كون وسائل الإعلام شاهدة عليه[55].

من مظاهر «الجمال» الأخرى للنزعة الاستهلاكية أنك تطلق العديد من المنتجات في السوق في وقت واحد بحيث لا يعرف الناس أي منتج يحملونه مسؤولية شعورهم المستمر بالسخط. وهذا يساعد كثيراً في عملية النسيان الضرورية. بعض المسؤولين الأمريكيين يمتلكون فهما وثيق الصلة بذلك لـ«الحرب على الإرهاب». ففي اجتماع لمجلس الأمن القومي عقد في الخامس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 2001، قال دونالد رمسفيلد: «ألا يجب علينا، كجزء من الحرب على الإرهاب، أن ننشط في منطقة أخرى غير أفغانستان، بحيث لا يقاس النجاح أو الفشل أو التقدم بما يحدث في أفغانستان فقط؟»[56]. ووفقا لهذا المنطق، فإن إطلاق "منتج" تحتمه المشكلات المتوقعة لمنتج آخر على صلة بالأول.

غريزة حل كل مشكلة من خلال منظور النزعة الاستهلاكية تتجاوز هذا الميل الولوع بالتفكير السحري واستيعاب الفشل. ومن المهم في دلالته أن حمى الاستهلاك اشتدت وتكثفت في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر. وفي حين أن دخول الولايات

المتحدة الحرب العالمية الثانية أدى إلى بذل جهود متناغمة لإعادة تجديد ومعالجة الموارد وإلى تقنين استهلاك البترول/ البنزين والطعام، فإن الحادي عشر من سبتمبر لم يؤد إلا دعوات للمستهلكين الأمريكيين للحفاظ على مستوى إنفاقهم باعتبار ذلك واجبا وطنيا: كان هناك عيد حقيقي في أعقابه[57]. في السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، أعلن بوش: «يريدون منا أن نتوقف عن ركوب الطائرات وأن نمتنع عن الشراء، لكن هذه الأمة العظيمة لن يرهبها الأشرار»[58]. ومن الواضح أن القلق الذي عبر عنه بوش من اعتبار الولايات المتحدة «مغالية في ماديتها» لم يسمح له بإعاقة الإنفاق السخي. فالاستهلاك هو، بمعنى من المعاني، رمز يمثل أمريكا: علاوة على أن عددا كبيرا من الأمريكيين كانوا متلهفين بشكل واضح على استهلاك هذه الرؤية لأمريكا[59]. ولأن الإرهابيين يحسدون (ويسعون إلى تدمير) أسلوب أمريكا في الحياة، كما قيل لنا: فإن الحفاظ على مستوى محموم من الاستهلاك سوف يحرمهم من «النصر». وعلى نحو أعم، ترتبط الحرب والاستهلاك بصلة قرابة على المستوى الإيديولوجي: الحرب من أجل الديمقراطية والحرية هي حرب أيضا من أجل الأسواق الحرة والنزعة الاستهلاكية، وحذر بعضهم من مغبة الإحباط والوعود الكاذبة التي قد تجلبها النزعة الاستهلاكية[60].

لا تساعد الرأسمالية و«الحرب على الإرهاب» في استدامة بعضهما بعضا فقط، بل يجمعهما أيضا العامل المشترك التالي: الاثنتان تعبدان النجاح لكن يغذيهما الفشل. وبوصفنا أطفالا نجباء ومطيعين للرأسمالية، يجب أن نربت على أكتافنا ونفخر بمستويات المعيشة المرتفعة التي نرتع فيها، ومع ذلك لا يمكن أن نعترف أبدا بأن ما تحقق لنا كان كافيا. نحن نحتفل بانتصارنا الاقتصادي (كأفراد، وكـ«غرب» وكدول «متقدمة»)، والمستويات المرتفعة من الاستهلاك في أمريكا على وجه الخصوص تعتبر أحيانا آية تثبت الرضى الغيبي على «أرض الله». لكن في الوقت ذاته، يذكروننا باستمرار، في كل ساعة، بما لا نملكه، وبجميع الرغبات المادية

والجسدية (كثيرا ما يعاد تعريفها باسم «حاجات») التي ما تزال غير متحققة. «الحرب على الإرهاب» تعمل بطريقة مشابهة. نحن نحتفل بكل انتصار عسكري (عابر)، يراه بعضنا آية تثبت رضا الله على هذا المسعى. لكنهم ـ الحكومة، الشرطة، الصحفيون ـ يذكروننا باستمرار بما لا نمتلكه، وبكل الطرائق التي تبقى فيها حاجتنا إلى الأمن واليقين مزمنة وغير متحققة. بكلمات أخرى، نحن نفوز إلى الأبد في معارك «الحرب على الإرهاب»، لكن لا يسمح لنا أبدا بالشعور بأننا ربحنا الحرب. ففي يوم يقف بوش على سطح السفينة الحربية «ابراهام لنكون» بعد سقوط صدام ويعلن تحت راية تزعم أن «المهمة أنجزت»: «لا نعرف متى يأتي النصر النهائي، لكننا رأينا تحولا في المد»[61]. وبعد اثني عشر يوما، حدثت تفجيرات في الرياض، وفي تغطية خاصة لـ«الحرب على الإرهاب»، كان على مجلة «تايم» أن تورد خبراً عاجلا لقرائها: «لا، لم تنته الحرب»[62]. فكل هجوم إرهابي يفيد في تذكيرنا بحاجتنا المستدامة والمزمنة لأولئك الذين نعلم (لكننا نستمر بطريقة ما، في نسيان) أنهم يفاقمون المشكلة ويزيدونها سوءاً.

في هذه الرقصة المهولة للمسؤولين الرسميين ووسائل الإعلام، يمجد النصر والفشل في آن معا، وكل فشل (في نمط ظل فترة طويلة يميز عمليات الإغاثة الإنسانية، مثلا) يعاد تعريفه بوصفه «حاجة» و«فرصة». هل تتضاءل الحاجة إلى مبدأ الردع في وجه الهجمات الإرهابية؟ إذن، يجب علينا تجديد التزامنا به عبر ردع الدول عن دعم الإرهابيين الذين لا تدعمهم أصلا! هل ارتدت تقانة الغرب إلى نحره في الحادي عشر من سبتمبر بواسطة مجموعة مهاجمين مسلحين بالمدى والقضبان والرغبة في الموت؟ إذن، يجب أن نمتلك مزيداً من التقانة: مزيدا من الأسلحة المتطورة، والذكية، وذاتية الحركة! هل الجماعات الجهادية غاضبة على تدخلنا في الشرق الأوسط؟ إذن، يجب أن نضاعف تدخلنا في شؤونه! أخيراً، هل هناك مشكلة ناجمة عن الإفراط في الاستهلاك والإفراط في الاعتماد على نفط

الشرق الأوسط؟ إذن، دعونا نستهلك مزيداً من الوقود في السيارات والطائرات لنعالج المشكلة!

تبنت حاشية بلير نسخا خاصة بها عن هذه العلاجات القائمة على مبدأ «وداوها بالتي كانت هي الداء». فقد أشار روبرت كوبر، مستشار وزارة الخارجية النافذ والمقرب من بلير، إلى أن المشكلة المعاصرة الأساسية هي أن الإمبراطوريات الأوروبية خلفت تركة من الدول الفاشلة التي تشكل مصادر للمخدرات والجريمة والإرهاب الدولي. أما الحل الذي اقترحه فهو: نحن بحاجة إلى مزيد من الإمبراطوريات للقضاء على المشكلة! كلام كوبر لاذع طنان: لكن دعوته لـ«الإمبراطورية الطوعية» تشابه الهراء السخيف الذي يغلف الهجوم على أفغانستان والعراق بغطاء الإجماع الزائف والغموض المبهم الذي لفقه توني بلير(63).

في حين أن هذه «العلاجات» المختلفة تشبع شهواتنا التي أدمنا عليها (بما فيها إحساسنا بأهمية الذات)، إلا أن إنجاز خدعة الحرب الدائمة يواجه بعض الصعوبات. فبرغم أفضل مساعي وجهود ثقافة العبارات الطنانة البليغة المقتطفة من خطب السياسيين، إلا أن الأكاذيب لا يمكن أن تنسى بين عشية وضحاها، وغالبا ما كانت ردة فعل المؤسسة العسكرية سيئة على الوعد الكاذب بتقديم حل سريع وسهل للرغبة في الأمن(64). ساد انطباع لدى العديد من الجنود الأمريكيين وأسرهم بأن الاستيلاء على بغداد ـ مثلا ـ سيكون بمثابة تذكرة عودة إلى أرض الوطن. ومثلما كتب جوليان بورغر في تموز/ يوليو 2003 حول القاعدة التي تتمركز فيها فرقة المشاة الثالثة في ولاية جورجيا: «تشعر [بلدة] هينسفيل بألم حرب ترفض أن تنتهي بالأسلوب الأنيق الذي استخدم للترويج الدعائي لها»(65). ولخص الدبلوماسي السويدي ومفتش الأسلحة هانس بليكس الكارثة العراقية بأسلوب بليغ. فبعد أن لاحظ إدعاء الحكومتين الأمريكية والبريطانية بأنهما على يقين تام

بوجود الأسلحة من أجل الحصول على مصادقة السلطات التشريعية في البلدين وموافقة مجلس الأمن الدولي، قال معلقا إن الحكومات «يجب أن لا تتصرف كباعة جوالين يبيعون بضاعتهم في السوق، بل كقادة حكماء مطلوب منهم الإخلاص والصدق والأمانة حين يمارسون مسؤولياتهم فيما يتعلق بالحرب والسلم في العالم»[66]. لكن البائع الشاطر يعرف بدهائه شيئا يجهله الكثيرون منا: منتجه لن يجلب لنا المنافع الموعودة؛ لكن إذا جرى التعامل مع رغباتنا المحبطة بذكاء وإدارتها بنجاح، فلسوف يزيد طلبنا على المنتجات.

المفكرون والمثقفون

التماس الجهل ونقص الفهم

لـ«لحرب على الإرهاب» ذراع فكرية، والعديد من أهم المساهمين في دعمها «ليبراليون». يتجسد جزء من المشكلة في أن أولئك الذين حاولوا فهم الأسباب جرى تصويرهم بأنهم السبب وراء الحادي عشر من سبتمبر. والمثال الصارخ على ذلك آراء الن ديرشوفيتز، أستاذ القانون في جامعة هارفارد المعروف بموافقة الليبرالية تجاه الحريات المدنية. بالنسبة لديرشوفيتز، تعتبر محاولة فهم وإزالة الأسباب الجذرية للإرهاب «المقاربة الخاطئة بالضبط»[67]، وساعدت في الواقع ـ برأيه ـ على تفسير لماذا حدثت هجمات الحادي عشر من سبتمبر أصلا. وقدم الحجة على أن الإرهابيين كانوا يحاولون بواسطة الإرهاب جلب الانتباه إلى هذه «الأسباب الجذرية». وبالتالي فإن محاولة التعامل معها ومعالجتها تعتبر مكافأة للإرهاب. لأن «السبب الجذري الحقيقي للإرهاب هو نجاحه ـ حيث استفاد الإرهابيون باستمرار من أعمالهم الإرهابية»[68]. واستشهد ديرشوفيتز بحالة منظمة التحرير الفلسطينية، والحصول على وطن لها في فلسطين. وأضاف: «المجتمع الدولي ـ خصوصا الحكومات الأوروبية والأمم المتحدة، وأحيانا حكومتنا الأمريكية ـ جعل من

المحتم علينا معاناة يوم مريع مثل الحادي عشر من سبتمبر 2001 فعل ذلك من خلال الإذعان لمطالب الإرهابيين والاعتراف بقادتهم وقضاياهم». وبالنسبة له، فإن الجواب المنطقي على الإرهاب هو الرسالة الآتية: «سوف نطاردكم وندمر قدرتكم على الانخراط في الإرهاب»[69]. النقطة المهمة المتمثلة في أن التعامل مع مطالب الإرهابيين ينزع إلى مكافأة إرهابهم لا يمكن تجاهلها بسهولة. وما يقلق هنا هو التعامي العنيد والمقصود عن الأسباب الجذرية، بالإضافة إلى الوهم الخيالي القديم الذي يؤكد أن الإرهابيين عبارة عن مجموعة محددة من الأفراد يمكن مطاردتهم وتدميرهم بالقوة المادية. إمي إيالون ـ رئيس جهاز «الشاباك» (المخابرات الإسرائيلية العامة) بين عامي 1996-2000 هو الذي قال: «أولئك الذين يرغبون بالنصر» على الإرهاب بدون معالجة المظالم والشكاوى المؤسسة له، «يريدون في الحقيقة حربا لا تنتهي»[70].

الفوضى وازدواجية المعايير

ثمة تنويع حديث لافت على ذهان الارتياب القائم على «العيش على حافة الفوضى» (الذي ألهم على ما يبدو حملات مطاردة الساحرات في مدينة سالم) يشرحه روبرت كابلان في مقالة له بعنوان «الفوضى القادمة»، وزعت على السفارات الأمريكية بعد نشرها في شباط / فبراير 1994، قبيل بدء عمليات الإبادة الجماعية في رواندا في نيسان/ أبريل من تلك السنة. أوضحت المقالة إحساسا بالتهديد وذهان الارتياب كان موجودا عند وقوع هجمات سبتمبر. فقد صور كابلان «التهديدات» العالمية المتمثلة في زيادة عدد السكان، والمخدرات، والأمراض، واللاجئين كنوع من أعمال السحر والشعوذة تهدد بالانتشار في العالم الغربي الأكثر تنظيما وعقلانية. وغالبا ما نسب لهذا التفسير فضل المساعدة في تعزيز عزلة الولايات المتحدة في منتصف التسعينيات. كما غذى تشديد كابلان على الصراع

كنوع من الشر اللاعقلاني إحساسا بالعجز في مواجهة المعاناة في العالم الخارجي، مع اعتبار مناطق برمتها منه معرضة لاختطار استحالة مساعدتها. أحداث الحادي عشر من سبتمبر جمعت هذه المخاوف الموجودة من الفوضى والعنف اللاعقلاني. واستخدمت الفوضى الحاصلة فيما وراء حدود العالم الغربي من قبل كابلان لتبرير تجاهل القوانين والإجراءات الدولية:

تستدعي الشؤون الخارجية أخلاقية منفصلة وأشد إثارة للحزن من النوع الذي نطبقه في السياسة الداخلية وحياتنا اليومية. لأننا نشتغل على الصعيد الداخلي في ظل حكم القانون، بينما العالم الأوسع عالم فوضوي يضطرنا لتطبيق القانون بأيدينا.

ردد هذا التحليل مستشار توني بلير روبرت كوبر. ففي عام 2005، اختارت مجلة «بروسبكت» كوبر واحدا من أهم مائة «مفكر» في العالم، لكن آراءه تسلط ضوءا يثير القلق على ما اعتبره الكثيرون تحليلا محترما. قال كوبر في نيسان/ أبريل 2002:

> ينبغي على عالم ما بعد الحداثة أن يبدأ بالتعود على ازدواجية المعايير. فنحن نتعامل مع بعضنا بعضا على أسس قانونية وقواعد أمنية تعاونية مفتوحة. لكن عند التعامل مع الدول العتيقة الطراز خارج قارة أوروبا مابعد الحداثية، نحن بحاجة إلى العودة إلى الأساليب الأشد قسوة التي استخدمت في الحقبة السالفة ـ القوة، الهجوم الاستباقي، الخداع، وكل ما هو ضروري.. نحن نحافظ فيما بيننا على القانون، لكن حين نشتغل في الغابة، يجب أن نستخدم قوانين الغاب[71].

لا يقتصر هذا البيان على كونه يكرر ويؤكد المواقف التي سادت خلال الحرب الباردة (السلام والديمقراطية في الوطن، ودعم الانقلابات وسياسة الأرض المحروقة

خارجه)، بل ازدواجية المعايير التي تمأسست في الديمقراطيات القائمة على العبودية التي أدارها اليونان والرومان (وإلى حد كبير، الولايات المتحدة قبل عام 1865). الصحفي والكاتب النافذ روبرت كاغان قال إن فكرة كوبر حول ازدواجية المعايير الدولية للقوة تكمن على ما يبدو في صميم إستراتيجية بلير العالمية. قد يبدو ذلك كانتقاد، لكن كاغان قصد مدح لا هجاء رئيس الوزراء البريطاني: «حيث ينسب إلى بلير فضل المحاولة. فهو الزعيم الوحيد في العالم الذي يحاول فعلا العثور على التوليفة التي تجمع النظريتين الأمريكية والأوروبية للعالم»[72]. وقدم كاغان نفسه الحجة على أن الولايات المتحدة «يجب أن تعيش على معيار مزدوج»[73]، ونزع بأسلوب حاذق الشرعية عن الاهتمامات الأوروبية بالقانون الدولي، مشيرا إلى أنها:

> تعكس ضعف أوروبا عسكريا ـ وهي حالة على نقيض الوضع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين اشتكت الولايات المتحدة من أن القوى الأوروبية تتجاهل القانون الدولي والرأي العام الدولي[74].

لكن هذا الاحتفاء التمجيدي كله بازدواجية المعايير يمثل خطأ عمليا وخطيئة أخلاقية في آن معا: وكما تشير دراسة إيفلين ليندنر، فإن الحرمان لا يستدعي العنف بالضرورة: لكن حين تتعرض مُثل المساواة والكرامة للانتهاكات من قبل المعايير المزدوجة، يرجح أن يتفجر العنف.

في كتابه «تفتيت الأمم» (نشر عام 2003) ، لاحظ روبرت كوبر (المدير العام للشؤون الخارجية والسياسية ـ العسكرية في مجلس الاتحاد الأوروبي سابقا):

> سيكون من التهور اللامسؤول عدم فعل شيء إزاء بلد آخر يكتسب قدرة نووية. وليس من المناسب أيضا الانتظار حتى يمتلك القنبلة. فبحلول ذلك الوقت قد تصبح تكاليف العمل العسكري باهظة جداً. ومن هنا أتى مبدأ العمل الوقائي في إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة[75].

تأتي بعد ذلك ملاحظة تحذيرية معقولة: «إذا تبنى الجميع مبدأ العمل الوقائي سيتحول العالم إلى فوضى.. وذلك في محاولة كل بلد التنبؤ بنوايا جيرانه وانتقادهم والرد عليهم مسبقا»[76] لكن يأتي بعد ذلك حل مشين فظيع لمشكلة الفوضى المعممة:

النظام المطلوب فيه العمل الوقائي لن يكون مستقرا إلا بشرط أن تهيمن عليه قوة وحيدة أو قوى متناغمة. لذلك، يحتاج مبدأ الوقاية لأن يستكمل بمبدأ التفوق الإستراتيجي الدائم ـ وهذا في الحقيقة هو الموضوع الرئيس لإستراتيجية الأمن القومي في الولايات المتحدة[77].

بكلمات أخرى، لأن من المتوجب أن نتبنى مبدأ الفعل الاستباقي الوقائي، نحن بحاجة إلى مبدأ «التفوق الإستراتيجي الدائم». وما هو السبيل للحفاظ على هذا التفوق؟ بالفعل الاستباقي الوقائي طبعا! تلك هي الحلقات المفرغة التي توجدها المبالغة في الخضوع والإذعان.

عبر الليبراليون الأمريكيون أيضا عن هذه الرؤية لعالم مقسم بين النظام والفوضى. الكاتب الصحفي في «نيويورك تايمز» توماس فريدمان قال عن القوتين العظميين في الحرب الباردة إنهما:

تمثلان نظامين مختلفين، لكنهما تمثلان معا النظام. إلا أن ذلك لم يعد قائما الآن. العالم اليوم مقسم أيضا، لكنه يزداد انقساما بين «عالم النظام» ـ تشكل الركائز الداعمة له أمريكا، والاتحاد الأوروبي، وروسيا، والهند، والصين، واليابان، ويضم عشرات الدول الأصغر حجما ـ و«عالم الفوضى». عالم الفوضى تهيمن عليه الأنظمة المارقة كتلك الحاكمة في العراق وكوريا الشمالية، إضافة إلى شبكات إرهابية عالمية متنوعة تستمد غذاءها من سلسلة من الدول المضطربة تمتد من الشرق الأوسط حتى إندونيسيا[78].

لا يبدو أن الضحايا في «عالم الفوضى» هذا على الدرجة ذاتها من الأهمية والمكانة كحالها في الولايات المتحدة. هنالك مقالة ضمها كتاب «عوالم تتصادم» (نشر في أيلول/ سبتمبر 2002)، حملت عنوان «من نقصف؟»[79]. تبدو المقالة وكأنها مناهضة للحرب، لكن الكاتب في الحقيقة يجيب عن السؤال بشكل مباشر وصريح. فبعد الاعتراف بأن حجة قصف العراق ضعيفة، يقدم الكاتب (باري بوزان) الدليل على أنه في حالة مثل أفغانستان، تجعل عسكرة المجتمع من الصعب جداً رسم خط فاصل بين المدنيين والجنود، بل إن «بعض الأفغان يستحقون فعلا الحكومة التي تحكمهم [الطالبان]». وتابع ليعقد مقارنة مع المدنيين في اليابان وألمانيا الذين تعرضوا للهجوم في الحرب العالمية الثانية وكانوا على ما يبدو واضحا «يستحقون الحكومة التي تحكمهم»، لأنها وصلت إلى السلطة من خلال «ثورة شعبية» أو تلقت «تأييدا جماهيريا كاسحا». مرة أخرى، دعونا نحاول تعميم هذه الحجة. لنفترض أننا نكره إدارة بوش (والكثيرون يشعرون بذلك). فهل يعني ذلك أن يصبح المدنيون الأمريكيون أهدافا مشروعة (للهجمات الإرهابية، مثلا) لأنهم «يستحقون الحكومة التي تحكمهم»؟ من الواضح أن الجواب لا. لنتذكر أن محمد صديق خان، أحد منفذي تفجيرات لندن (في تموز/ يوليو 2005)، هو الذي قدم الحجة ـ في شريط فيديو صور قبل التفجيرات الفظيعة ـ على أن المدنيين في الغرب «مسؤولون مسؤولية مباشرة» عن قتل المسلمين لأنهم دعموا الحكومات الديمقراطية التي ارتكبت الفظائع بحقهم[80].

مايكل اغناتيف، أحد أبرز الليبراليين، أدلى بدلوه في القضية من خلال اقتراحاته التي لا تفيدنا بشيء. إذ أعلن أن «التشبث الصارم بحكم القانون يتيح للإرهابيين حرية التصرف لاستغلال حرياتنا.. ومن أجل هزيمة الشيطان، ربما يجب أن نبادله الشر: احتجاز المشتبه بهم لمدة غير محدودة، استخدام الأساليب القسرية في الاستجواب، استهداف القتلة، وحتى الحرب الاستباقية»[81]. وبعد أن

يعين نفسه ناطقا باسم إجماع جديد، يضيف: «بإمكان كل واحد رؤية أنه بدلا من انتظار الإرهابيين لتوجيه ضربة لنا، فإن من المنطقي الرد عليهم مسبقا»[82]. وبالمقابل، يعلن في السطر الأخير من المقالة المنشورة في «نيويورك تايمز»: «علينا أن نظهر لأنفسنا وللسكان الذين نسعى لكسب ولائهم أن حكم القانون ليس قناعا أو وهما. إنه طبيعتنا الحقيقية»[83]. لكن كيف سنفعل ذلك بالضبط حين نمتنع عن «التشبث الصارم بحكم القانون»؟ أقل ما يمكن أن يقال بحق هذه المساهمة هو أن اغناتييف يعاني من التشوش والارتباك.

«صدام الحضارات»

أطروحة صمويل هنتنغتون المؤثرة حول «صدام الحضارات» ابتكرت جزءا من سياق أحداث الحادي عشر من سبتمبر والرد العنيف عليها[84]. كان هنتنغتون يستجيب لانهيار خط الانقسام بين الشرق والغرب والنموذج (البارادايم) الواقعي، وأيضا لنموذج الفوضى وأضراره المدركة: وبالتغاير مع هذين النموذجين، وجد جوهر الصراع المعاصر والمستقبلي في «حضارات» متنافسة، ورأى أن الغرب معرض لخطر خسارة موقعة كحضارة مهيمنة في وجه عدد من التهديدات الجديدة، التي تمثلها الصين، وأمريكا اللاتينية، والإسلام على وجه الخصوص. اعتبرت الهجرة أنها تجلب (حرفيا) هذه التهديدات إلى الغرب ـ لاسيما الهجرة من أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة ومن البلدان الإسلامية إلى أوروبا. في هذه الأثناء، اعتبرت التدخلات الإنسانية أنها تتبع الخطوط «الحضارية».

تعاني حجة هنتنغتون من عيوب تجريبية مهمة. أولا، لا تتمايز الحضارات بالقدر الذي زعمه هنتنغتون[85] ثانيا، لا ينتج معنى منطقي معقول بما يكفي من توكيد هنتنغتون على أن الإثنية هي بالقدر نفسه نتيجة وسبب للصراع[86] ثالثا، هنالك وفرة من "الأمثلة المضادة" لفرضية هنتنغتون حول خطوط التصدع الثقافي

للتدخلات. فالتدخلات التي قادتها الولايات المتحدة في البوسنة وكوسوفو قصد منها ـ على الأقل جزئيا ـ مساعدة المسلمين. وكذلك في الصومال (حيث يمكن تقديم الحجة على ذلك). وبالمقابل، حين تعرض المسلمون للقتل الجماعي، كانت الحكومات في العالم العربي هي المسؤولة غالبا، مثلما أشار بول بيرمان[87]، ويتحمل صدام حسين بالطبع مسؤولية قتل عدد كبير من المسلمين: كما تجسد أعمال الإبادة الجماعية التي ارتكبتها حكومة السودان ضد المسلمين في غرب البلاد مثالا آخر.

والأهم ربما حتى من هذه العيوب التجريبية الطبيعة الخطيرة لحجة هنتنغتون. أولا، التشديد على الصراع المستدام والمحتوم بين الغرب والإسلام يمكن اعتباره مناسبا جدا للمؤسسة العسكرية الأمريكية الباحثة عن عدو جديد في حقبة ما بعد الحرب الباردة، لأسباب ليس أقلها تبرير الإنفاق العسكري المستمر (بعض المصادر التي استشهد بها هنتنغتون حول قوة التهديد الإسلامي كانت من العاملين في المؤسسة العسكرية الأمريكية، وبالتالي هنالك حلقة دائرية مفرغة في الحجة). ثانيا، بلغ الكتاب ذروته مع الرفض التوكيدي والمتزمت للتعددية الثقافية في الولايات المتحدة باعتباره الطريقة الوحيدة للحفاظ على قوة «الحضارة الغربية»: وليس رعب هنتنغتون من التلوث الثقافي سوى صدى مقيت يرجع الرعب الذي عبر عنه المتطرفون في العالم الإسلامي[88]: كما أن للدفاع عن "النقاء" الثقافي كسبيل للقوة والأمان نبرة فاشية مميزة، ويتردد صداها بكل وضوح في آراء أولئك الذين يسعون (بغض النظر عن انتمائهم الأصولي الفكري) إلى «الإحياء الأخلاقي» لمعالجة مواطن الضعف أمام أعداء الخارج والداخل. الخطر الثالث الكامن في أطروحة هنتنغتون ـ والأهم ربما ـ هو أن تشخيصه / توقعه للصدام المحتوم بين الحضارات يشابه نبوءة تخريبية تحقق ذاتها. ومن المؤكد أن ابن لادن فضل فكرة "صدام الحضارات" هذه. وثبت أن نسخة هنتنغتون الاستشراقية مغرية إلى حد يثير القلق: إذ إن «غَرْبه» كيان نبوئي ينتظر التحقق، وبوش وبلير يساعدان في تحقيق النبوءة[89].

المصادقة على التعذيب

منذ أن عاد التحالف بقيادة الولايات المتحدة إلى أساليب مطاردي الساحرات وذهنية محققي محاكم التفتيش، لم يعد من المفاجئ أن يبدأ بالاحتفاء بعودة الوسيلة المفضلة لدى هؤلاء في تأمين المعلومات وضمان الامتثال والإذعان: التعذيب. في واحد من أكثر الكتب حول الإرهاب ومكافحته إثارة للذعر، يلاحظ أستاذ القانون ألن ديرشوفيتز بكل عناد أن «بإمكاننا بكل سهولة القضاء على الإرهاب الدولي تماما لو لم نكن مقيدين بالاعتبارات القانونية والأخلاقية والإنسانية» [90] من الصعب التفكير بعبارة أكثر تضليلا. وبعد أن ينتشل ذاته من حالة السعادة المطلقة هذه، يقترح «سلسلة من الخطوات التي يمكن أن تقلص بشكل فعال وتيرة وحدة الهجمات الإرهابية الدولية من خلال إقامة توازن مناسب بين الأمن والحرية» [91] هنا، يلوح التعذيب بوجهه القبيح. حيث يشير ديرشوفيتز إلى أن التعذيب يمكن أن يكون ردا مبررا على الإرهاب، مقدما مثالا لقنبلة على وشك الانفجار واستخلاص المعلومات بالقوة لوقف جهاز التوقيت فيها يمكن أن ينقذ عددا كبيرا من المدنيين [92]. كما يقدم الحجة على أنه من الأفضل، بعد أن مارست الولايات المتحدة التعذيب في سجون دول أخرى، أن تحصل على تفويض رسمي من رئيس المحكمة العليا: لكن، وكما أكد المدير التنفيذي لمنظمة حقوق الإنسان:

> فإن حقيقة انتهاك القوانين أحيانا لا تعني أنك تريد البدء بشرعنة الانتهاك عبر الحصول على تفويض من أحد القضاة. فإن فتحت الباب، وقبلت استثناء هنا وآخر هناك، فإنك ترسل إشارة مفادها أن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا بالضبط ما يعتقده أسامة بن لادن [93].

من المهم في دلالته أن ديرشوفيتز لا يكاد يفكر بالإرهاب الذي قد يطلقه ويفاقمه التعذيب [94]. فما تعرض له سيد قطب، الذي غذت مبادئه الراديكالية

الإرهاب، من تعذيب في السجون المصرية هو الذي دفعه إلى التطرف. وكذلك شريك ابن لادن أيمن الظواهري[95]. قال معظّم بيك، المسلم البريطاني الذي سجن في باغرام بأفغانستان ثم في غوانتانامو: «من العبارات التي سمعت السجناء يرددونها مرارا أمام الحراس هي أنهم لم يكونوا إرهابيين قبل مجيئهم إلى هنا، لكنهم سيكونون كذلك حتما عندما يغادرون»[96]. كما لا يعتبر التعذيب ـ مثلما رأينا ـ سبيلا موثوقا للحصول على المعلومات المفيدة.

لاحظ كثيرون إشارة مايكل اغناتييف إلى أن «الاستجواب القسري» قد يكون أسلوبا ضروريا. وكجزء من حجته على مبدأ «إما أن نحارب الشر بالشر أو نستسلم ونرضخ»[97]، يضيف بأن علينا الاستعداد للتفكير بضرورة «الاستجواب بدون هوادة» (وبدون تعذيب جسدي!)، استجواب ينتهك الكرامة الإنسانية حين يكون «أهون الشرين»، أي أقل ضررا من «ترك آلاف الناس يموتون» ـ وتلك مأساة يُزعم أن باستطاعة المعلومات المنتزعة بالتعذيب منع وقوعها[98]. ويتابع اغناتييف ليقول عن مثل هذا الاستجواب «إن ضرورته لن تغطي على حقيقة كونه أسلوبا خاطئا»[99]. ومن الواضح اهتمامه بالتشديد على أنه لا يحبذ الاستجواب الذي يتعدى على الكرامة الإنسانية، ولذلك يريد التشبث بوسم مثل هذه الأفعال بـ«الشر». لكن يصل به المطاف إلى منطقة بالغة الخطورة بالنسبة لليبرالي ومفكر بارز: علينا أن نرتكب أعمالا شريرة.

يقول اغناتييف إنه ضد التعذيب الجسدي: لكن حتى حين يغلق هذا الباب يبدو أنه يفتح الشباك. أولا، «الاستجواب بدون هوادة» يقترب كثيرا من التعذيب الجسدي، خصوصا حين يصبح «انتهاكا للكرامة» و«يدفع المتهمين إلى أقصى حدود تحملهم النفسي»[100] ثانيا، إذا كانت ضرورة البقاء تحتم «محاربة الشر بالشر»، فلا يوجد سبب منطقي للتوقف عند حدود التعذيب الجسدي. ولربما يشعر اغناتييف

أن ذلك يتجاوز الحدود المسموحة، لكن يمكن لآخرين التقاط شعاره (ربما لطمأنة أنفسهم بأن الشعار أتى من ليبرالي رائد وبارز وأستاذ لممارسة حقوق الإنسان في جامعة هارفارد)، وابتكار تعريفاتهم الخاصة بهم لتحديد حجم «الشر» الضروري لـ«محاربة الشر». وبالطبع تشكل عملية تعريف ـ وإعادة تعريف ـ حجم الشر «الضروري» جزءا من القصة المخزية في «أبو غريب». ومثلما لاحظ إغناتييف نفسه (وتشوشه يخترق عمق هذه القضايا): «إذا أردت صنع إرهابيين، فإن التعذيب طريقة مضمونة لذلك»[101].

لاحظ الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي ميشيل فوكو أهمية تغيير أساليب العقاب والمجال المناسب للتدخلات، والانتقال على وجه الخصوص من أسلوب التعامل مع جسد المجرم (مثلا: من خلال التعذيب والإعدام) إلى الاشتغال على عقله (مثلا: من خلال فترة الاعتقال)[102]. أما مواقف اغناتييف وديرشوفيتز من التعذيب (والأهم، التعذيب حتى قبل وقوع الجريمة) فتشير إلى نوع جديد من «الاحترام» للحلول المادية والجسدية لمشكلة العنف الدولي. وآراؤهما في هذا المجال تنسجم مع الافتراض العام بأن للشر تجسيدا محددا وماديا يمكن القضاء عليه ـ استجابة طبيعية ربما (وإن كانت لا أخلاقية وذات نتائج عكسية) لمراوغة الإرهابي الحديث. هذا التشديد الجديد على الجسد يغاير من جوانب عديدة النموذج القديم للردع، حيث كان التوكيد يتركز على التأثير في عقل العدو وفكر المنافس. كما يتناقض أيضا مع المقاربات التي تسعى لفهم كيف أصبح الإرهابيون إرهابيين. وسيكون من الحكمة أن نتذكر، في خضم هذه الحماسة الجديدة لأدوات الاستجواب والحكومة الاستبدادية، تحليل فوكو للسبب الذي جعل التعذيب والإعدام يتحولان إلى أساليب عتيقة الطراز عفا عليها الزمن. إذ لاحظ فوكو أن المجرم الذي يتعرض للتعذيب أو الإعدام على رؤوس الأشهاد يتحول غالبا، في عيون جماهير العامة التي ترقب المشهد، إلى بطل، في حين تأخذ الحكومة مظهر الشرير[103].

الوعد بـ«التدخل الإنساني»

ساعد مفهوم التدخل الإنساني في كسب دعم مهم لـ«الحرب على الإرهاب» من بعض اليساريين والليبراليين، بمن فيهم مايكل إغناتييف وبول بيرمان[104]. ويشير ستيفن هولمز إلى أن الليبراليين كثيرا ما انتقدوا وهاجموا الأمم المتحدة في التسعينيات (فيما يتعلق بموقفها من البوسنة وكوسوفو مثلا)، وسارعوا إلى التوكيد على القيود المحددة للعمل من خلال المنظمات المتعددة الأطراف. وعزز فشل الأمم المتحدة في رواندا هذا القلق، كما شجع الشعور بوجوب اتخاذ إجراء عملي أكثر جرأة في وقت مبكر، حتى وإن عنى ذلك العمل الأحادي الجانب على أساس المعلومات التي توقعت حدوث عمليات إبادة جماعية[105] في الحقيقة، تثير هذه النقاط القلق. فحين كنت أعمل في شمال العراق لصالح «صندوق إنقاذ الطفولة» عام 1993، كان التهجم على الأمم المتحدة نشاطا شائعا. ويعتبر هولمز أن مناصرة اليسار لـ«التدخل الإنساني» في التسعينيات قد عبدت الطريق للحرب على العراق: ومن المؤكد أن المحافظين استغلوا القضية بأساليبهم الانتهازية. ومن جانبه، رأى توني بلير نفسه مؤيدا متحمسا للتدخلات الإنسانية. يفصل جون كامبفنر الحروب الخمس التي تورط فيها. أولا، قصف العراق ضمن عملية «ثعلب الصحراء» عام 1998 ثم كوسوفو ـ التي جسدت مثالا مبكرا للتدخل الوقائي الذي استحثه أيضا. فحين تردد كلينتون في إرسال الجنود إلى كوسوفو عام 1999، اشتكى بلير من أن «الأمريكيين لا يرون حاجة للتورط في شؤون بقية العالم». واعتبرت مناشدته للتدخل الإنساني بمثابة عامل مؤثر في التطورات اللاحقة التي استغلها دعاة التدخل اليمينيين في الولايات المتحدة[106]. ثم سيراليون (حيث جعل بعض السكان المحليين توني بلير يشعر بأنه مسؤول لوحده عن حريتهم)[107]. وبعد ذلك أفغانستان. ويلاحظ كامبفنر أن «ثقة بلير بنفسه تعاظمت مع كل حرب»[106]. أخيراً (وربما ليس آخراً)، الهجوم على العراق عام 2003.

11
خاتمة

إذن، تعتمد «الحرب على الإرهاب» على افتراض زائف بوجود عدد محدد من الأشرار و«الدول الداعمة» لهم، وتتكئ على وعد كاذب بإمكانية القضاء ماديا على مصدر المشكلة. هذه المقاربة المؤذية تقلص فعليا الأنساق التاريخية المعقدة لتصبح مجرد لعبة «فيديو» فظة يمكن فيها ببساطة قتل عدو محدد ومعروف. نحن بحاجة إلى نماذج بديلة ولاعنفية إذا أردنا التوصل إلى حلول أقل فظاظة ونتائج عكسية. حتى ألعاب «الفيديو» ليست بالضرورة على هذا القدر من البساطة: في لعبة اسمها «سبتمبر 12»، يمكن للاعبين تدمير أهداف في قرية عربية، لكن نساءها الثكالى يندبن على أطفالهن القتلى، بينما يحمل مزيد من الإرهابيين بنادقهم للدفاع عن بيوتهم[1].

في الرياضة، يعتمد الخبراء التقنيون على الطريقة العملية الناجحة التالية: ما هو الشيء الذي لا يريد مني خصمي أن أفعله؟ من الواضح أن هذه المقاربة لم تتبع في «الحرب على الإرهاب». فقد رأينا كيف يمكن فهم هذه الحرب، كحال العديد من الحروب الأهلية، بشكل أفضل باعتبارها نظاما لا نزاعا. هذا النظام المستدام بواسطة التكتيكات التي تفرز نتائج عكسية وتولد مزيدا من الإرهابيين كما هو متوقع، يغل في آن معا سلسلة من المنافع السياسية والاقتصادية والنفسية لتشكيلة متنوعة من اللاعبين، خصوصا أولئك الذين ينضوون تحت لواء تحالف منوع يشارك في «مكافحة الإرهاب». ومثلما هي الحال في الحروب الأهلية، جرى ترشيح وتصفية هذه المنافع من خلال النظام: لم تتجمع هذه الفوائد السياسية والاقتصادية

لـ«الحرب على الإرهاب» عند «القمة» فقط (خصوصا في واشنطن) بل تراكمت لدى سلسلة واسعة من الأنظمة والجماعات ذات المصلحة التي تعاونت (أو بدا أنها تعاونت) في محاولة القضاء على «الشر» المعيَّن. الإرهابيون تبنوا أيضا تكتيكات تستعدي الناس وتعزز المعارضة كما هو متوقع. لربما تكون هذه الحرب بلا نهاية، لكنها ليست بلا هدف. ولمجرد أن يعطي أسلوب تكتيكي معين نتائج عكسية متوقعة لا يقتضي بالطبع أن هذه التأثيرات العكسية كلها قد جرى التنبؤ بها واعتناقها. ومع ذلك، فإن التشبث العنيد بها يعني ضمنا استيعاب الفشل الذي أصبح ممنهجا وطويل الأمد إلى حد يستحيل وسمه بـ«الفشل» بشكل واقعي بعد الآن.

يتمثل جزء من الوظيفة النفسية لهذه «الحرب على الإرهاب» في ما تجلبه من شعور باليقين وإحساس (عابر وزائل) بالأمن. وهي تجسد نوعا من الحملات المسعورة المتسلسلة (مطاردة الساحرات!) تجاهلت غالبا حكم القانون وممارسة التفكير القائم على البينة والدليل. من المفاجئ أن العملية لا تولد شعورا بالخجل أو العار، بل إن بعض كبار المسؤولين الأمريكيين تباهوا أحيانا باستعدادهم لوضع القانون والبينة والدليل جانبا. وعلى شاكلة الصراعات الأهلية، توفر الحرب الحصانة لتجاهل القانون ووضعه على الرف[2].

إن القوة، في نهاية المطاف، سوف تفعل ما تشاء، وقد تتصف بالوقاحة في كيفية اختيارها لأعدائها وتبرير أفعالها. في إحدى حكايا جين دولا فونتين الخيالية، يقترب ذئب من حمل يشرب من نهر. ويقول: «أنت تتدخل في الماء الذي أشربه». فيذعن الحمل ويطيع ويذهب للشرب من مكان آخر. لكن الذئب يظل ساخطا: «في السنة الماضية أطلقت الأكاذيب عني». فيؤكد الحمل أن عمره أقل من سنة. فيرد الذئب: «إما أنت أو أخوكش. وحين يشير الحمل إلى عدم وجود أشقاء له، يجيب الذئب: «لابد أنه واحد من جماعتك ـ أنت، أو رعيانكم، أو كلابكم»، ثم يقتل الحمل. أما العبرة فهي: «منطق الأقوى هو الحق دوما»[3].

كانت هذه الرسالة القائمة على أساس «القوة حق» (وليس الحق قوة!) جزءا لا يتجزأ من تطبيق مبدأ «الفعل كدعاية» من قبل المسؤولين الأمريكيين على وجه الخصوص، الأمر الذي ساعد على ضمان الإذعان والامتثال لـ«الحرب على الإرهاب»، لاسيما من شرائح واسعة من الناخبين الأمريكيين. كما استخدم جزء منها العقاب ليعني ضمنا حدوث جريمة، والعنف لتحقيق التوقعات والتنبؤات (مثلا: عبر توليد مزيد من الإرهابيين، وتصوير المؤسسات المجسدة للقانون الدولي، مثل الأمم المتحدة، بوصفها «غير ذات صلة»). لكن رد الفعل العنيف على الحادي عشر من سبتمبر، الذي كان ردا على العار والإذلال ــ أوجد تهديدا إضافيا بالخزي والعار: إذ إن قتل المدنيين ومقتل جنود التحالف يهددان دوما بجلب العار ليقتحم عالم الاحتفاء بالذات المسكون بأولئك الذين يقودون «الحرب على الإرهاب». وفي الحقيقة، فإن إيمانهم بصوابية الذات، القائم على أسس زائفة وركائز هشة، يضاعف في الواقع التهديد بالعار. وجرى درء هذا التهديد بالعار (عار الضعف أو عار المبالغة في استخدام القوة) عبر السعي لـ«النقاء» الأخلاقي في الداخل والخارج، والتشديد على الشر باعتباره كيانا خارجيا يمكن استئصاله، وتهديد وترهيب المنتقدين، وتوسيع دائرة الأعداء. مرة أخرى نقول إن توازيات مهمة تتبدى هنا مع ارتقاء وتطور الحروب الأهلية ــ خصوصا الطريقة التي يمكن أن تشجع فيها إدانة المدنيين للمقاتلين تغيير الأعداء واستهداف المدنيين.

ما هو نوع الدليل المطلوب لإقناع بوش وبلير بأنهما على خطأ؟ نظرا لأن موقفهما لا يعتمد على الدليل والبينة، فإن من الصعب عمليا تحديه بالدليل والبينة. ولأنه متهور وطائش ولا أخلاقي في تحديد فئة «الأعداء»، فإن أي تحد له سيبدو خطراً. إلا أن من الممكن مواجهتهما بمثل هذه التحديات: وهي بحاجة لأن تستكمل بتحليل للوظائف التي خدمتها هذه المعتقدات، وبتحليل آخر لكيفية انبثاقها واستدامتها.

الأوهام الضلالية المجنونة والمريحة لـ«الحرب على الإرهاب» تلقت الغذاء من تاريخ معين، والرعاية من ثقافة خاصة، والمؤازرة من مناخ فكري محدد. فكرة «القدر المحتوم» القديمة، والمطاردة المعتادة لمصادر «الشر»، والرأي القائل: إن الولايات أداة إلهية: شجعت وغذت جميعا «الحرب على الإرهاب». أما المعايير المزدوجة (الإجراءات القانونية «لنا»، التعذيب وشريعة الغاب «لهم») فقد جرى اعتناقها بكل حماس، حتى من قبل أولئك الذين يمتلكون سجلا حافلا من الليبرالية.

بيعت «الحرب على الإرهاب» للناخبين المعنيين ـ خصوصا في الولايات المتحدة ـ بواسطة العديد من الأساليب ذاتها التي استخدمت لبيع المنتجات الاستهلاكية. ومثلما هي الحال مع الإعلانات الدعائية والنزعة الاستهلاكية عموما، فإن الفشل في حل مشكلة الإرهاب يجلب فوائد ومنافع مخبأة من خلال تعزيز الطلب على مكافحة الإرهاب في المستقبل. وبدا النظام حصينا تقريبا أمام النقد: التقدم الذي تحقق اعتبر إثباتا يظهر «أننا» نفوز، بينما لا تظهر النكسات سوى «أننا» بحاجة إلى مضاعفة جهودنا. أما الحفاظ على استدامة هذا النظام المريح والمغلق في الفكر والعمل فيتطلب منا نحن الغربيين أن ننسى، لا أكثر ولا أقل، ونمحو من إدراكنا الواعي كم كانت أفعالنا تخريبية وتدميرية وعبثية وذات نتائج عكسية. لكن يجب علينا أن لا ننسى.

لربما هناك بصيص أمل في أنه بمرور الوقت، وانتشار وتكاثر الأعداء، وتراكم الأدلة والبينات على تصاعد الغضب واستفحال النقمة في العالمين العربي والإسلامي، لن يتمكن حتى المتحمسين لأشد أوهام بوش / رمسفيلد فظاظة وغموضا وتضليلا من تجنب نوع من الإدراك المبهم بأن سحر التقانة المتقدمة المشعوذ لن يقدم حلا ناجعا ولا جوابا مفيدا. لقد رأينا كيف مثلت مطاردة الساحرات في أوروبا وأمريكا الشمالية منظومات فكرية مغلقة، حيث اعتبر حتى

إنكار الذنب أو إنكار وجود الساحرات دليلا يثبت السحر والشعوذة. لكن ممارسات الاضطهاد هذه كُذبت وأسقطت مصداقيتها في نهاية المطاف، وغدت بربرية وحتى سخيفة. ومثلما أظهر كيث توماس، كان تقدم العلم جزءا من هذه العملية: خصوصا ظهور تفسيرات طبية بديلة للمرض. الأمر الذي يؤكد أهمية مقاومة الهجوم على العلم و«التفكير القائم على البينة والدليل» الذي شنته شرائح واسعة من اليمين في أمريكا: الهجوم على نظرية النشوء، وعلى أبحاث الخلايا الجذعية، وعلى وجه الخصوص أولئك الذين يسعون لمساءلة الأسس المنطقية والتجريبية الرابطة بين المشاكل والحلول في مكافحة الإرهاب[4]. وبهذا المعنى، يحتاج تشويه سمعة العلم إلى تخليصه من احترام وتقديس الأسلحة والتقانة: وفي الحقيقة، فإن العالم الذي تهيمن عليه التقانة بدون علم هو أسوأ العوالم. والكفاح الطويل من أجل القضاء على الإيمان بالسحر والسحرة وتقديم تفسيرات وحلول للمعاناة تكون أكثر اعتمادا على البينة والدليل يجب عدم تجاهله بسرعة وسهولة. في تحليله الكلاسيكي لحملات مطاردة الساحرات، لاحظ ماكس غلوكان:

> تظل مطاردة الساحرات مستمرة طالما وجد أشخاص يُلامون على نكبات وكوارث ليسوا مسؤولين عنها. ولربما تحل حملات المطاردة الصراعات مؤقتا، كما هي الحال في إفريقيا.. [لكن] لاعتقاد بالسحر والشعوذة يساعد في تشتيت الانتباه عن الأسباب الحقيقية للكوارث. كما يساعد أيضا في منع الناس من رؤية الطبيعة الحقيقية للصراع بين التحالفات الاجتماعية. لا نستطيع إلا أن نأمل بإمكانية إدارة شؤون المجتمع بدون أي نوع من الغموض المشتت للانتباه[5]

لا يمكن لهذه المشاعر أن تكون أكثر صلة بموضوعنا: ومثلما كان الهزل جزءا مما جعل مطاردة الساحرات في الماضي تبدو سخيفة وتبعث على السخرية (مثلا:

في كتابات فولتير)[6]. كذلك لعب مايكل مور وغيره من المنتقدين دورا ثمينا في هذا السياق.

أكدت هذه الدراسة على أن الفعل الوقائي الاستباقي لا يمكن الدفاع عنه بشكل معقول كمبدأ: أي، كنموذج للسلوك والتصرف يسعد المرء أن يتبناه الجميع. لقد انضمت الولايات المتحدة إلى الدول «التي تملك الحق في التدخل»، لكن أي اقتراح يشير إلى حق الآخرين في التدخل بشؤون الولايات المتحدة أو غيرها من البلدان بأسلوب مشابه، أحادي الجانب أو «وقائي واستباقي»، قد رفض باعتباره من المحرمات. وشمل ذلك حتى رفض فكرة مثول المواطنين الأمريكيين أمام محكمة الجنايات الدولية. لكن، ومثلما لاحظ ديفيد هيلد: «كان كانط على حق»: إذ إن استخدام العنف لإبطال مفعول القانون والعدالة في مكان يرتد وينتشر صداه في كل مكان[7]. أما حجة روبرت كوبر على أن فوضى الفعل الوقائي الاستباقي على مستوى العالم لا يمكن منعها إلا بضمان هيمنة الولايات المتحدة، فهي ضلالية وجبانة ويتعذر إثبات صحتها.

يعكس مبدأ الفعل الوقائي / الاستباقي الأحادي الجانب، والانتهاكات في غوانتانامو و«أبو غريب» وغيرهما العقيدة ـ النافذة في أجزاء من أمريكا اللاتينية مثلا ـ التي تزعم أن حقوق الإنسان يجب أن لا تضمن إلا لأولئك المنضوين تحت مظلة القانون، بينما يظل الحق في تقرير من يستحق التمتع بالحقوق ومن لا يستحق من اختصاص كيان يقبع ـ جزئيا ـ خارج حكم القانون (الجيش في غواتيمالا مثلا)[8]. وإلى أن يتم التوصل إلى إجراءات متفق عليها للتدخل في السيادة الوطنية للدول الأخرى، فإن سمة عشوائية مشابهة يمكن أن تتوسع لتشمل الفعل الوقائي الاستباقي وحتى «التدخل الإنساني».

بالنسبة لأولئك الذين يعبرون عن شكوكهم في استجابة بوش الحربية للحادي

عشر من سبتمبر، أجاب الرئيس الأمريكي بالفعل: «ما الذي كنتم ستفعلونه أنتم؟» [9]. إحدى الإجابات مألوفة لدى الأطباء: أولا وقبل كل شيء، لا تسبب مزيدا من الأذى والضر. إن جسم السياسة العالمية يمتلك على الأقل بعض القدرة على علاج نفسه، والناس العاديون يشعرون بتقزز طبيعي من الفظائع، خصوصا إذا لم يغضبهم رد عنيف لاحق. لاحظ جيسون بيرك أن «السبب الرئيس وراء فشل الثورة الإسلامية في الجزائر ومصر هو أن معظم الناس أرادوا قطع أي علاقة تربطهم بمن ذبحوا الأبرياء ومثلوا بجثثهم»[10]. ومثلما فهم غاندي، يمنح رد الفعل اللاعنفي على العنف والظلم الناس الفرصة لإدراك وفهم سبب العنف الأصلي، في حين تنزع ردة الفعل العنيفة إلى إخفاء الاستفزاز الأصلي عن عيون الناس. إن توسيع الحرب على الإرهاب لتشمل وتشرعن الصراعات القومية / الوطنية كلها يعتبر خطأ فادحا. وكما يلاحظ مايكل مان فإن «على الولايات المتحدة الابتعاد عن الصراعات التي يشارك فيها مقاتلون يحاربون من أجل التحرر الوطني»، بما فيها الصراعات في الشيشان وكشمير والفليبين وإندونيسيا. وينبغي أخذ العبرة من الأفعال الأمريكية التي بعثت الحياة في الجهاديين في الجزائر ومصر، بعد أن بدأ تأثيرهم يتراجع ويضمحل منذ منتصف التسعينيات تقريبا [11]باختصار، ينبغي على الولايات المتحدة أن تتجنب الأعمال التي تؤجج باستمرار المشاعر المعادية لأمريكا وتدمجها ضمن المظالم والشكاوى المحلية المتنوعة.

فيما يتعلق بالإجراءات العملية والمفيدة التي يمكن اتخاذها، هنالك الكثير لنفعله. فالحلول السحرية المفضلة حاليا لمشكلة الإرهاب لم تثبت نتائجها العكسية فقط: بل إنها أيضا ـ بالتوافق مع آراء ماكس غلوكمان حول «التشوش» الناجم عن الاعتقاد بالسحر والشعوذة ـ تشتت الانتباه عن العديد من المشكلات الملحة والضاغطة. ويمكن تبني مقاربة واقعية بديلة مؤسسة على التعامل مع الإرهابيين كمجرمين والتشبث بالقانون، وطنيا وعالميا. في الوقت الحاضر، تغذي سمة «الحرب

على الإرهاب» دعاية الإرهابيين، والصورة الذهنية الذاتية، وأوهام الذات الضلالية: على سبيل المثال، تجعل من الصعب نقض مزاعم محمد صديق خان (أحد منفذي تفجيرات لندن) بأن ما فعله في شهر تموز/ يوليو 2005 كان جزءا من «حرب» يُعتبر فيها الناخبون المدنيون أهدافا مشروعة. وبالطبع، تشرعن صفة «الحرب» على الإرهاب العنف الذي تمارسه الولايات المتحدة وحلفاؤها. إن تسميتها بالحرب تشرعن العنف أحادي الجانب ـ مثل تسمية مصارعة الثيران رياضة.

يكمن جزء من فائدة التعامل مع الإرهاب بوصفه جريمة في دمج الكفاح ضد الإرهاب مع مكافحة الجريمة المنظمة. فشبكات الجريمة (المرتبطة أحيانا بشبكات الإرهاب) تعلمت التفكير بأسلوب عابر للحدود الوطنية: لكن الحكومات التي ترد على الجريمة والإرهاب ما تزال في أغلب الحالات تفكر ضمن إطار الدولة الوطنية [12]. إن السيطرة على تدفق التمويلات يمكن أن يشكل مساهمة في هذا السياق [13]. ومن الحاجات العملية الملحة تفتيش السفن بشكل أفضل: في عام 2004، ذكر تقرير أن 2% فقط من السفن التي وصلت موانئ الولايات المتحدة قد خضعت للتفتيش (البشري)[14].

ويمكن مواجهة التنظيمات الإرهابية، مثل «القاعدة»، باستخدام العملاء والمخبرين. لكن العثور على أولئك الذين يقدمون معلومات حول المشتبه بصلتهم بالإرهاب سيكون على الدوام أشد صعوبة في الظروف التي تكون فيها مكافحة الإرهاب اعتباطية وعشوائية وتعسفية وجائرة. علاوة على ذلك، غالبا ما جرى تجاهل الإجراءات العملية البسيطة. يقول الخبير المتخصص في الاستخبارات جيمس بامفورد إن وكالة المخابرات المركزية لم تحاول أبدا التسلل إلى «القاعدة» واختراقها، بينما أدى التنافس على مطاردة ابن لادن واعتقاله مع مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى حجب المعلومات التي جمعتها الوكالة من الخارج[15]. وذكر جوليان

بيرغر في سبتمبر/ أيلول 2004 أن ما يزيد عن 120 ألف ساعة من الأحاديث التي شملت عددا كبيرا من المشتبه بصلتهم بالإرهاب منذ الحادي عشر من سبتمبر لم تترجم لأن مكتب التحقيقات الفيدرالي يفتقد العدد الكافي من المترجمين واللغويين[16]. وعلى أرض الواقع في العراق، قال القادة العسكريون الأمريكيون في الفلوجة إنهم يفتقرون إلى ما يكفي من المترجمين، وبالتالي القدرة على الاتصال بشكل فعال مع المجتمع المحلي[17].

حين يتعلق الأمر بالمقاربات البديلة اللاعنفية لمواجهة الإرهاب، لا يبدو سجل بوش جيدا. فقد أجهض مبادرة الاتحاد الأوروبي لاحتواء عمليات غسل الأموال في بلدان الملاذ الضريبي التي يفضلها الإرهابيون. ففي تموز/ يوليو 2001، رفض بوش الرصد العالمي للأسلحة الكيماوية والبيولوجية من قبل مفتشين مستقلين (الأمر الذي أغضب وزارة الخارجية البريطانية). وكانت الولايات المتحدة قد عارضت الرصد العالمي للأسلحة وإنشاء محكمة الجنايات الدولية (وهذا يتصل بالتعامل مع الإرهاب). وتبدو بريطانيا الآن مبالغة في «التهذيب» إلى حد الامتناع حتى عن ذكر هذه المبادرات أمام الولايات المتحدة[18].

تكتسب فكرة وجوب دمج وتكامل التنمية والأمن مزيدا من الأنصار والمؤيدين. وهي ليست فكرة سيئة من جوانب عدة. فالمعونة التي تساعد على بناء وتحسين الخدمات في الدول المعنية يمكن أن تمثل عاملا حيويا مهما في تقليص الفرص أمام الجماعات الإرهابية: وبالمقابل، كثيرا ما أسهمت برامج التعديل الهيكلي في انهيار خدمات التعليم والصحة والغذاء: في سيراليون، أدت البرامج بشكل مباشر إلى ظهور جماعات إرهابية: في باكستان، ساعدت البرامج على إنشاء المدارس الإسلامية في فراغ استخدمه بعضها للتبشير بالعنف والتطرف[19]: في فلسطين، ملأت الفجوات في الأمن وتوفير الخدمات منظمة حماس شبه العسكرية (والفائزة في انتخابات عام 2006)[20] يجب أن يكون حل الصراع جزءا من حملة منظمة ضد

الإرهاب، وهذه يجب أن تشمل مساعدة الدول الفاشلة أو الضعيفة. لكن قيمة المعونات الأمريكية الخارجية لم تتجاوز 16 مليار دولار، أي أقل من عشر المبلغ الذي أنفقته على الحرب على العراق واحتلاله حتى كانون الثاني / يناير 2005 [21] كما أن تكاليف الحرب على العراق اقتطعت جزءا من تمويل برنامج الحكومة البريطانية لمكافحة الفقر في أوروبا الشرقية، ووسط آسيا، وأمريكا اللاتينية[22]، ناهيك عن الاستعداد لمواجهة الكوارث الطبيعية في شتى أرجاء العالم (بما فيها الولايات المتحدة ذاتها)[23]. أما عمليات حفظ السلام فغالبا ما تكون عاملا حيويا في حل الصراعات: لكن في عام 1994، أكثر الأعوام تكلفة في تاريخ عمليات حفظ السلام، أنفقت الولايات المتحدة 290 دولاراً على الدفاع مقابل كل دولار أنفقته على عمليات حفظ السلام التي تقوم بها الأمم المتحدة[24].

يمكن لأموال المعونات أن تستخدم أيضا لتحسين أداء الحكومات في مجال حقوق الإنسان في البلدان التي ظهر فيها الإرهابيون ـ المساعدات الأمريكية لمصر والبالغة ملياري دولار تمنح الفرصة لممارسة مثل هذا الضغط. وعلى الولايات المتحدة التوقف عن دعم الأنظمة غير الديمقراطية في الشرق الأوسط عموما. وما يساعد على تعبيد هذا الطريق تقليص الاتكال على نفط الشرق الأوسط عبر برنامج لتشجيع فعالية الطاقة وتطوير مصادر بديلة قابلة للتجديد. إذا استطاع التركيز على قضايا التنمية الإسهام في الأمن، فإن هناك أخطارا كبرى في ربط الأمن مع التنمية[25]. يتمثل أحدها في احتمال أن تتعرض تلك البلدان التي تعد هامشية في «الحرب على الإرهاب» إلى الإهمال والتجاهل بشكل منهجي. ويتجسد الثاني في إعادة ابتكار أسلوب التمييز الذي ساد في حقبة الحرب الباردة ضد الأعداء والمبالغة في التسامح مع خطايا وأخطاء الأصدقاء. وينجم الثالث عن إخضاع جداول أعمال المنظمات الأهلية (NGOs)، والعديد منها يعتمد على التمويل الحكومي، إلى «أجندة» أمنية غربية[26]: وتلطيخ هذه المنظمات بعيوب السياسة

العسكرية الأمريكية هدد وأودى بحياة عمال الإغاثة في العراق وأفغانستان، وساعد على الحد من وجود المنظمات الإنسانية هناك.

إن «ضربة نووية على غرار الحادي عشر من سبتمبر» احتمال مروع فعلا: لكن مهاجمة العراق لا يبعد هذا الاحتمال. والأولوية هنا يجب أن تعطى لتأمين الترسانة النووية الروسية ـ وهي عملية تقدر كلفتها بحوالي 30 مليار دولار. هنالك أيضا حاجة ملحة لدفع الهند وباكستان وكوريا الشمالية وإسرائيل إلى الانضمام إلى معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية. ويجب التصدي لأسلحة الدمار الشامل الإسرائيلية (بما فيها الأسلحة النووية وبرنامج إنتاج الأسلحة الكيماوية) باعتبارها مسألة عاجلة لا تحتمل التأجيل. وثمة حاجة أيضا لربط الاستخبارات وشبكات مراقبة الصادرات مع الأجهزة الأمنية على الحدود وفي الموانئ والمطارات لمنع انتقال المواد والتقانة النووية[27]. ومن الطرق التي يمكن عبرها وقوع السلاح النووي في أيدي المتطرفين تغيير النظام الحاكم في باكستان: والإجراءات والأعمال التي تؤجج التطرف في باكستان لا تقدم عونا يذكر في هذا المجال. فضمان الاعتدال هناك أمر مهم أيضا من جوانب أخرى. إذ تبين أن عالما باكستانيا هو عبد القدير خان، كان في مركز سوق سوداء دولية تتاجر بالمواد النووية، وتبيع التقانة النووية إلى إيران وليبيا وكوريا الشمالية. كما تمسك باكستان بأحد مفاتيح الاستقرار في أفغانستان: المدارس الدينية الباكستانية التي أتاحت التعليم للفقراء ـ ومولتها السعودية والولايات المتحدة ـ خرجت العديد من اللاجئين الأفغان الذين شكلوا فيما بعد حركة طالبان: واليوم، ما تزال فلول الطالبان تستمد الدعم من / وتجد الملاذ لدى قبائل البشتون داخل باكستان (والطالبان معظمهم من البشتون).

في خضم التفكير حول الحد من التسلح «هناك»، يجب عدم نسيان الحد من التسلح «هنا». وبدون مزيد من نزع السلاح النووي في الغرب، فإن العديد من الدول

سوف تتمرد على معايير عدم انتشار أسلحة الدمار الشامل حين تعتبرها معايير مزدوجة[28]. الحد من انتشار الأسلحة النارية أمر مهم أيضا، على صعيدي التجارة الدولية والمبيعات المحلية (يقول كراس «متفائل» للقاعدة عثر عليه في أفغانستان إن التدريب على الأسلحة النارية متاح للعموم في الولايات المتحدة. «الدورات التدريبية المفيدة هي القنص وإطلاق النار عموما، والتدرب على الرمي بالبندقية. دورات القنابل اليدوية مفيدة لكن بعد التضلع من استعمال البندقية»)[29].

من الأمور الحاسمة في أهميتها أيضا معاينة وضع الأقليات الإثنية في الغرب بشكل جدي. وهذا يشمل فهما أفضل لمشكلات الفقر، والنبذ والإقصاء، والتمييز. أعمال الشغب التي انتشرت على نطاق واسع في فرنسا أثبتت الحاجة الملحة لذلك. وبعد تفجيرات لندن في تموز/ يوليو 2005، مال كبار المسؤولين البريطانيين إلى تحميل مسؤولية منع تكرار ما حدث على عاتق «الجالية المسلمة». ومن الواضح أن للمواطنين المسلمين العاديين دورا يلعبونه في منع الإرهاب (تماما كأولئك المنتمين إلى شرائح أخرى من المجتمع). لكن ينبغي التعامل مع هذه المسألة بحذر وحساسية، وإلا سيتفاقم الشعور القائم حاليا بالنبذ والتهميش والتمييز. ومثلما علقت تانيا لاو، التي حضرت لقاء عاما عقد في لندن عام 2005: «حينما تحدث مشكلة بسبب شاب أسود أو آسيوي أو مسلم، تصبح فجأة مشكلة الجالية. أما حين يفوز بميدالية فيصبح بريطانيا. لماذا تكون جنسيتنا البريطانية أكثر هشاشة من جنسية البيض؟»[30].

عندما نستخدم أي وسيلة يجب أن نتذكر أنها قد تأخذ مظهرا مختلفا جدا لدى «المتلقين». إن النظر بجدية إلى استقلالية المجتمعات الأخرى ومشاعر الأفراد الآخرين يتطلب إنهاء الطراز الحالي من الانطواء السياسي على الذات. وحتى حين يكون صناع السياسة في العالم الغربي في حالة مزاجية «متنورة»، فإنهم يميلون إلى اعتبار أنفسهم يستخدمون أسلوب العصا والجزرة لإنتاج عالم أفضل حالا: لو

نستطيع «نحن» العثور على التوليفة المناسبة التي تجمع الرشى والعقوبات والقصف بالقنابل، آنئذ سوف نصنع «نحن» عالما أفضل. يعني ذلك، ضمنيا على الأقل، أننا في مقام الآلهة، الأمر الذي يمكن أن يؤجج بسهولة الغضب والسخط وحتى الإرهاب. أسلوب العصا والجزرة يصلح مع الدواب، والناس «في الجانب المتلقي» يدركون غالبا أنهم يتعرضون للإهانة والتحقير. الناس يرغبون عموما في صنع تاريخهم بأيديهم: ولا يحبذون أن يعرضهم أحد لصدمة ارتجاجية ترنحهم وتهزهم «كحبات الفستق في جرة» على حد تعبير إدوارد سعيد. إن استخدام مبدأ الثواب والعقاب مرتبط ارتباطا وثيقا بعلم النفس السلوكي: الفكرة التي تقول بإمكانية التأثير في الناس (أو الفئران) عبر تغيير نظام الحوافز الذي يشتغلون وفقا له[31].

عندما تلعب دور الإله وتشوه سمعة الآخرين تواجه مشكلة صعبة خصوصا حين لا يعتبرك الآخرون نموذجا مقنعا للالتزام بحقوق الإنسان. وهذا يعني النظر إلى ازدواجية المعايير ـ في الضربات الوقائية الاستباقية، والتعذيب، والعلاقة مع إسرائيل، وقرارات مجلس الأمن الدولي، وعضوية مجلس الأمن الدولي. ويعني أيضا أن على الولايات المتحدة وبريطانيا على وجه الخصوص إثبات وقوفهما فعلا إلى جانب الديمقراطية والعدالة. إذ إن سجل الديمقراطية المستدامة في القرن العشرين نتيجة الغزو أو الاحتلال العسكري الأمريكي ليس جيدا، والنجاحات التي تحققت في اليابان وألمانيا لا يمكن تكرارها ونسخها بسهولة[32]. هنالك على الدوام ضغوط داخلية من أجل الديمقراطية، التي يمكن التأسيس عليها من خلال التمويل والتشجيع والإدماج في البنى الإقليمية حيث تسود الديمقراطية[33]. ومثلما لاحظ رونان بينيت:

> إذا تعلمنا شيئا من انهيار الحكومات الاستبدادية المعادية للديمقراطية في جنوب إفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية في أواخر

> الثمانينيات وأوائل التسعينيات، فهو أن مثل هذه الأنظمة الحاكمة لا يمكن أن تستمر. إذ إن مدة بقائها محدودة لأن من المستحيل ببساطة حتى بالنسبة لأقسى الديكتاتوريين إيقاف مظاهر الحياة السياسية جميعها[34].

إذا كانت أطروحة صمويل هنتنغتون حول «صدام الحضارات» نبوءة تحقق ذاتها، وإذا كان الفعل كدعاية يهدد بتشكيل العالم بالطريقة التي جعلت الدعاية الفاشية أكثر «معقولية» و«احتراما»، فإن من الممكن مقاومة هذه الأنساق والعمليات. ومثلما ذكر جوناثان ستيل في تقرير له من الأردن في نيسان/ إبريل 2003:

> العرب الذين يخشون أيضا من نهوض الأصولية الإسلامية، يستمدون الراحة والمواساة من المسيرات المؤيدة للسلام في أوروبا وأمريكا، والموقف المناهض للحرب الذي اتخذه شيراك وشرودر، وموقف الفاتيكان. لقد أظهرت الاحتجاجات أن ما يحدث ليس صدام حضارات، بل هي حرب غير شعبية يشنها تحالف صغير من الدول الراغبة[35].

الحاجة إلى تفحص الذات عالمية وشمولية ولا تقتصر على «الغرب». والدافع لدرء خطر العار يشكل عائقا رئيسا أمام فهم الذات وباعثا محفزا على العنف من قبل أطراف عديدة. وهذه تشمل قلة من المسلمين الذين ربما يتحولون إلى العنف، كما أكد طارق رمضان، لدرء عار التعرض لـ«الفساد» أو التلوث بالأساليب والطرق الغربية. هنالك العديد من المشكلات في العالم ـ بما فيه العالم الإسلامي ـ لا يمكن أن تعزى إلى «الإمبريالية الأمريكية». قدم بيخو باريخ، رئيس «لجنة مستقبل بريطانيا المتعددة الأعراق»، الحجة على وجوب أن «يوقف المسلمون لوم الغرب على جميع ما لديهم من شرور وآفات»[36]. أما رولا خلف، محررة شؤون الشرق الأوسط

في صحيفة «فايننشال تايمز»، فقدمت الحجة على أن البلاد العربية والإسلامية «انزلقت إلى فخ معاداة أمريكا السهل، وهذا يظهر محدودية فهم ما هي الولايات المتحدة فعلا كمجتمع»[37]. ويشير إدوارد سعيد إلى إحساس «بالفشل والإحباط» وإلى «إسلاموية مبنية على تعليم يعتمد الحفظ عن ظهر قلب وإلغاء لما اعتبرت أنها أشكال أخرى تنافسية من المعرفة العلمانية»[38]. ويضيف ملاحظا أن الهجوم الانتقادي العنيف على الولايات المتحدة خدم غالبا وظيفة مطلوبة تمثلت في تشتيت الانتباه عن العيوب والمساوئ في المجتمع[39]. أما إغراء وضع اللوم كله على "شر" خارجي فلم يكن مفيدا، بغض النظر عن الطرف الذي انبثق منه هذا الدافع. وفي إسهام مثير للاهتمام أثار حفيظة العديد من المسلمين كما هو متوقع، سلطت الكاتبة ومقدمة البرامج المسلمة إرشاد منجي الضوء على عدد من الحوادث والظواهر المقلقة التي قالت: إن العديد من المسلمين متلهفون وحريصون على تناسيها أو إنكارها: مذابح المسيحيين الأرمن على أيدي الأتراك عند نهاية الحرب العالمية الأولى: الافتقار إلى برامج التوطين للاجئين الفلسطينيين ومعاملتهم معاملة سيئة في العديد من البلدان العربية: المشاعر القوية المعادية للسامية: الكراهية للمرأة والنفور من المثلية في بعض أوساط العالم الإسلامي: وأخيرا، دور الإسلام في أحداث الحادي عشر من سبتمبر ذاتها. كما أن الدعوة لتفحص الذات بشكل صارم حتمها استخدام الإسلام لتبرير الانتهاكات الواسعة النطاق في السودان، وهي مأساة قمت باستقصائها مباشرة على أرض الواقع[40]. تسأل منجي بأسلوب مستفز: «ما الذي يجعلنا أخيارا متقين وكل ما عدانا عنصريين؟»، ثم تضيف: «تريدون التوكيد على أن ما أصفه ليس الإسلام ـ الحقيقي ـ آمل أن تكونوا على صواب.. [لكن] كل شيء رائع وبديع حين يكون فكرة مثالية»[41].

بالطبع، لا يساعد الهجوم على العراق وأفغانستان عملية تفحص الذات هذه. ومثلما تبين من ردود أفعال العديد من الأمريكيين على أحداث الحادي عشر من

سبتمبر ذاتها، فإن من الصعب أن تعين تجربة التعرض للهجوم على التفحص النقدي للذات. إن التحدي النهائي والحاسم هو استعادة طاقتنا على التفكير بأنفسنا بشكل مستقل، ومقاومة «حقنات» أولئك الزعماء الضالين الذين يهتمون بمصلحتهم غالبا، ويعرضون علينا التفكير نيابة عنا، ويقبلون الخسائر في أرواح المدنيين (والعسكريين) باعتبارها أمرا محتوما أو حتى مرغوبا. نحتاج إلى حوار مفتوح ـ خصوصا حول أسباب الإرهاب، التي كثيرا ما تبقى مناطق محرمة. وهذا ينطبق بشكل خاص على الولايات المتحدة، لكن حتى في بريطانيا شعر العديد من أعضاء البرلمان بالإحباط نتيجة الطبيعة المقيدة للنقاشات. وبدون حوار حقيقي، يصعب التعبير عن بديل متسق للسبيل المطروق حاليا. من الأفضل أن نترك الكلمة الأخيرة للراحل إدوارد سعيد، الذي كتب قائلا: «الفكر النقدي لا يخضع لأوامر الانضمام إلى صفوف السائرين ضد أي عدو تمت المصادقة عليه»[42].



هوامش

الفصل الأول: مقدمة

1- انظر:

Adrian Levy and Cathy Scott-Clark, "One huge US jail", Guardian Weekend, 19 March 2005.

2- انظر:

Mark Duffield, "Getting savages to fight barbarians", development, security and colonial present', Conflict, Development and Security, 2005, 5(2): 141-60; Clive Hall, personal communication.

3- Conetta, Strange Victory, pp. 33.

4- تبنينا هنا تعبير «الحرب الأهلية»، لكن العديد من النزاعات الأهلية المعاصرة ـ مثل تلك التي اندلعت في جمهورية الكونغو الديمقراطية وأفغانستان ـ مارست بالطبع تأثيرا مهما على الصعيد الدولي، أي من ناحية تورط الدول الأخرى فيها.

5- انظر:

Times Online, 3 June 2002, http://www.timesonline.co.uk/article/0``331525`00.html.

6- انظر:

George W. Bush, State of the Union address, 3 February 2005, www.whitehouse.gov.

7- Philip Webster, 'Blair hints at military action after Iran's "disgraceful" taunt', Times, 28 October 2005.

8- انظر:

Foucault, Power/Knowledge.

9- انظر:

Bartov, Mirrors of Destruction, p. 96.

10- Miller, Tell Me Lies, pp. 5-6.

11- أدين بالفضل هنا إلى التغذية المرتجعة على وجه الخصوص من كريس دولان، كريس كريمر، تيدي بريت، لوري ناثان.

12- انظر أيضا:

Clay and Schaffer, Room for Maneuver.

13- انظر على سبيل المثال:

Jane Mayer, 'Outsourcing torture', New Yorker, 14 February 2005, www.globalpolicy.org.

14- انظر:

Keen, The Benefits of Famine.

يمكن أن نرى هذا النمط أيضا في الحروب الأهلية التي اندلعت بعد الحرب الباردة. انظر مثلا:

Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

15- انظر مثلا:

Keen, The Benefits of Famine; Keen, The Kurds in Iraq; Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

الفصل الثاني: صب الزيت على النار: الأساليب التكتيكية ذات النتائج العكسية المتوقعة في «الحرب على الإرهاب»

1- انظر:

Oliver Burkeman, 'US says it will hunt down terrorists', Guardian, 14 May 2003.

2- Woodward, Bush at War, p. 67.

3- Ibid, p. 45.

4- انظر:

Singer, The President of Good and Evil, p. 2.

5- قال بوش عن ابن لادن: «سوف نخرجه [بالقوة] من كهفه» (انظر مثلا: www.dailyherald.co) المثال الاستثنائي على اللغة التحقيرية التي تنزع الصفة الإنسانية عن البشر جسدته الصحافة حين أشارت إلى الإرهاب الإسلامي وصورت الشرق الأوسط باعتباره «مزرعة لتوليد ورعاية هذا الصنف من الهمجية الضارية». انظر:

Max Boot, 'America's next move in the Middle East', Sunday Times, 18 May 2003.

6- Woodward, ibid, p. 224.

Ibid, p. 316. -7

8- انظر:

www.state.gov/r/ (accessed in 2004).

9- انظر:

Solzhenitsyn, The Gulag Archipelago.

10- انظر مثلا:

Faisal Body, 'Fear and loathing', Guardian, 21 January 2003; Fuad Nahdi, 'From peace marches to jihad', Guardian, 1 April 2003.

Bill Powell, 'Struggle for the soul of Islam', Time, 13 September -11 2004, p. 56.

12- مناظرة في ميامي (بولاية فلوريدا).

Richard Norton-Taylor, 'Terror crackdown has not reduced al- -13 Qaida threat, warns think tank', Guardian, 14 May 2003, citing International Institute of Strategic Studies report, 'Strategic Survey' by Jonathan Stevenson, www.guardian.co.uk/guardianpolitics/stor/ 0,3605,955333,00 .htmal.

Ibid -14

Peter Bergen, 'The long hunt for Osama', Atlantic Monthly, Octo- -15 ber 2004.

Institute for Policy Studies and Foreign Policy in Focus, 'A Failed -16 "Transition": The Mounting Costs of the Iraq War', September 2004, www.globalpolicy.org.

17- انظر مثلا:

Keen, The Economic Functions of Violence in Civil Wars. The price of a hand grenade at Al Kut in southern Iraq: US$ 1.50 (Scott Johnson, 'Inside an enemy cell', Newsweek, 18 August 2003, p. 17).

18- Global Witness, 'For a few dollars more: how al Qaida moved into the diamond trade', London, April 2003, available at www.globalwitness.org.

19- Burke, Al-Qaida; Jason Burke, 'Who did it - and what was their motive?', Observer, 10 July 2005; Peter Taylor, 'The new al-Qaida', BBC2, first broadcast 25 July 2005.

20- James Fallows, "Bush's lost year", Atlantic Monthly, October 2004.

21- انظر مثلا:

Kean and Hamilton, The 9/11 Report.

تبدى جزء من هذه المحاولة حين قالت واشنطن إن أردنيا «مساعداً لابن لادن»، هو أبو مصعب الزرقاوي، لجأ إلى بغداد هربا من هجوم التحالف بقيادة الولايات المتحدة على أفغانستان، لكن الرجل كان عضوا في جماعة أخرى منافسة لابن لادن («التوحيد»). وشددت واشنطن على الاتصالات بين نظام صدام وبن لادن داخل أفغانستان، لكن في حين أن ابن لادن أرسل فعلا ممثلين عنه للقاء مبعوث عراقي أرسل إلى أفغانستان عام 1998، إلا أنه رفض مثل هذه العروض العراقية. كما أكدت إدارة بوش على وجود صلات بين «أنصار الإسلام» (وهي جماعة عراقية متطرفة)

و«القاعدة». هذا صحيح، لكن الجماعة متمركزة في شمال العراق، أي المنطقة التي لم تكن تخضع لسيطرة بغداد. انظر:

Jason Burke, 'Ghost of al-Qaida left out of story', Observer, 27 July 2003.

وجرى تضخيم حجم الأسلحة التي تمتلكها هذه الجماعة. إذ أبلغ وزير الخارجية (السابق) كولن باول مجلس الأمن الدولي (5/2/2003) أن جماعة «أنصار الإسلام» «تملك مصنعا إرهابيا للأسلحة الكيماوية والسامة». انظر:

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 98.

لكن لوك هاردينغ من صحيفة «الأوبزرفر» زار الموقع بعد ثلاثة أيام ولم يجد أي دليل على الأسلحة الكيماوية، بل مجرد مجموعة من الأبنية المتهالكة:

Luke Harding, 'Revealed: truth behind "poison factory" claim', Observer, 9 February 2003.

أخيراً، قالت إدارة بوش الكثير عن لقاء المزعوم بين محمد عطا (قائد خاطفي الطائرات في الحادي عشر من سبتمبر) ومسؤولين عراقيين في براغ (في نيسان/أبريل 2001). لكن توصل تحقيق أجراه مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى نتيجة مفادها أن عطا كان في ولاية فرجينيا آنذاك. وأكد الرئيس التشيكي فاكلاف هافل على عدم وجود دليل يثبت اللقاء:

Rampton and Stauber, ibid, pp. 92-3.

Richard Norton-Taylor, 'A blindness that puts us all in danger', -22 Guardian, 23 January 2003.

White House press release, 17 September 2002, -23 www.whitehouse.gov/news/releases/2002/09/200317-7html.

Blix, Disarming Iraq, p. 269. -24

25- أخذ جزء كبير من الملف من مقالة كتبها ابراهيم المراشي، وهو طالب وباحث أمريكي، بدون ذكر اسم الكاتب أو موافقته.

26- انظر:

David Clark, 'Why wait for Hutton?', Guardian, 9 January 2004.

Richard Norton-Taylor, 'Axis of failure', Guardian, 3 November -27 2004.

'Struggle for the soul of Islam', Times, 13 September 2004, p. 5. -28

29- انظر:

'Iraq war may help al-Qaida, Mps report', Press Association, in: Guardian Unlimited, 31 July 2003, http://guardian.co.uk/iraq/story/0,12956,1009806,00.html.

Paul Wilkinson, Royal Institute of International Affairs paper, re- -30 ported in: Richard Norton-Taylor, 'Use and Abuse of Intelligence', Guardian, 19 July 2005.

Paul Rogers, 'A jewel for al-Qaida's crown', 11 August 2005, -31 www.opendemocracy.net. See also Gerges, The Far Enemy.

Paul Rogers, ibid. -32

Ewen MacAskill, 'The suicide Bomber is the smartest of smart -33 bombs', Guardian, 14 July 2005.

Hugh Robert, 'North African Islamism in the blinding light of 9- -34 11', working paper no 34, 2003, Crisis Stats Programme, www.crisisstates.com.

35- في الثاني عشر من أيار/مايو، وقعت تفجيرات في الرياض أدت إلى مقتل 34 شخصا على الأقل، وقال المسؤولون الأمريكيون إنها تحمل بصمات «القاعدة». وفي الخامس عشر منه انفجرت قنابل موقوتة في 21 محطة لتعبئة الوقود في كراتشي (باكستان). وفي السادس عشر من الشهر نفسه أودى تفجير انتحاري في الدار البيضاء (المغرب) بحياة 41 شخصا على الأقل. وخلف تفجيران انتحاريان في الشيشان أكثر من 70 قتيلا (ربما لم يكونا من عمل «القاعدة»). وفي تموز/يوليو 2002 قامت امرأتان بهجوم انتحاري على مهرجان موسيقي في موسكو (روسيا) أدى إلى مقتل 14 شخصا على الأقل. أما في إسرائيل فكانت التفجيرات عديدة، شارك في تنفيذها أشخاص أتوا حتى من بريطانيا. في الخامس من آب/أغسطس 2002، قبيل صدور أول حكم على منفذي تفجيرات بالي (تشرين الأول/أكتوبر 2002)، أدى تفجير فندق يديره أمريكيون في جاكرتا (إندونيسيا) إلى مقتل حوالي 16 شخصا. وخلف تفجير طائرتي ركاب (آب/أغسطس 2004)، يعتقد أنه من عمل انتحاريين من الشيشان، تسعين قتيلا. في الشهر التالي، قتل أكثر من 300 شخص، معظمهم من الأطفال، في مدرسة بيلسان (روسيا). كما وقعت تفجيرات أخرى في استنبول (تركيا) والرياض (السعودية) في تشرين الثاني/نوفمبر 2003. وتظل حقيقة ارتفاع عدد الهجمات الإرهابية فعلا منذ التسعينيات محل خلاف بين المحللين. انظر مثلا:

Justin Lewis, 'At the service of politicians', Guardian, 4 August 2004.

وحدثت تفجيرات أخرى في باكستان وتونس واليمن وكينيا والهند.

36- انظر:

Hugo Young, 'Once lost, these freedoms will be impossible to restore', Guardian, 11 December 2001.

37- Richard Norton-Taylor and Duncan Campbell, 'How real is terrorism threat today?', Guardian, 29 January 2005.

38- Jamie Wilson, 'Ten al-Qaida plots foiled since 9/11', Guardian, 7 October 2005.

39- Noam Chomsky, 'One man's just war is global terror', Sunday Independent [South Africa], 13 July 2003.

40- http://www.iraqbodycount.net/database.

41- انظر:

Les Robert, Riyadh Lafta, Richard Garfield, Jamal Khudhairi and Gilbert Burnham, 'Morality before and after the 2003 invasion of Iraq: cluster sample survey', The Lancet, 29 October 2004, www.thelancet.com.

بلغ عدد القتلى العراقيين، بمن فيهم أولئك الذين توفوا نتيجة تدهور حالتهم الصحية وترتدي أوضاع الإصحاح (sanitation) بحلول شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2005، 26457 شخصا على الأقل، وذلك وفقا لمنظمة «إحصاء أعداد القتلى العراقيين». انظر:

www.iraqbodycount.net/ .

42- 'Baghdad Burning', 7 April 2004, http://riverbend.blogspot.com/ .

43- 'Sabrina Tavernise', New York Times, 14 July 2005, www.nytimes.com.

44- CNN, ?Forces: US and coalition casualties?, http://edition.cnn.com/SPECIALS/2003/iraq/forces/casualties/.

45- Cf Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

46- Ian Traynor and Dan De Luce, 'UN watchdog presses Iran on nuclear inspections', Guardian, 16 June 2003.

47- Seumas Milne, 'Iraqis have paid the blood price for a fraudulent war', Guardian, 10 April 2003.

48- Isabel Hilton, 'Why Korea has returned to the cold', Guardian 11 February 2003.

49- Noam Chomsky, 'The reason to force' (excerpted from Hegemony of Survival, Metropolitan Books), http://www.chomsky.info/books/hegemony03.htm.

50- التصرف الأمريكي الأحادي الجانب فيما يتعلق بالعراق فاقم السياسات الأحادية الجانب التي تبنتها الولايات المتحدة سابقا، مثل انسحاب إدارة بوش عام 2002 من معاهدة الصواريخ المضادة للصواريخ البالستية (وسط مخاوف من أن تعيق البرامج الأمريكية الدفاعية المضادة للصواريخ)، ومن بروتوكول كيوتو حول ارتفاع درجة حرارة الأرض في السنة نفسها، ورفضها تعزيز المعاهدة المتعلقة بالأسلحة البيولوجية، وتراجعها عن الموافقة على محكمة الجنايات الدولية.

51- انظر:

Blix, Disarming Iraq, p. 274.

Ibid. -52

'The document and what it means', Guardian, 28 April 2005. -53

Chaloka Beyani, 'International law and the 'war on terror', in: -54 Joanna Macrae Harmer, 'Humanitarian action and the 'globa war on terror?', HPG Report 14, Overseas Development Institute, London.

Geoffrey Bindman, 'Tony Blair and the Iraq war: in the eye of the -55 law', 13 April 2005, www.opendemocracy.net.

Soros, The Bubble of American Supremacy, p. 59. -56

Peter W. Galbraith, 'Iraq: Bush's Islamic Republic', New York Re- -57 view of Books, 11 August 2005; ICG, 'Unmaking Iraq: a constitutional process gone awry', Amman/Brussels, 26 September 2005.

Woodward, Bush at war, p. 33. -58

59- قال بعضهم إن معظم معسكرات «القاعدة» كانت خالية. انظر مثلا:

Woodward, Bush at war, pp. 79, 174.

رغم أن ذلك يظل محل خلاف:

Burke, Al-Qaida, p. 73.

60- انظر مثلا:

Clarke, Against All Enemies.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p.103. -61

Conetta, Strange Victory, p. 5. -62

Ibid, pp. 5, 12, 32. -63

George Monbiot, 'Dreamers and idiots', Guardian, 11 November -64 2003.

Singer, The President of Good and Evil, p. 151. -65

Conetta, ibid. -66

Milan Rai (ed.), War Plan Iraq (London: verso, 2002), pp. 37-8. -67

Conetta, ibid. -68

Jihn Feffer, Power Trip, p. 17. -69

Rohan Gunaratna, 'The method, the means and the will: the hall- -70 marks of al-Qaida', Guardian, 29 November 2002.

71- قدم بعض المحللين الحجة، مثلا، على أن المتطرفين المصريين هاجروا إلى أفغانستان لأنهم بالضبط وجدوا في مصر بيئة غير ملائمة للعمل. انظر:

Martin Woolacott, 'Al-Qaida is spending its men and blowing its networks', Guardian, 23 May 2003.

Michael Elliott, 'Why the war on terror will never end', Time, 26 -72 May 2003; Taylor, 'The new al-Qaida', BBC2 TV. First broadcast 25 July 2005.

Andrew Buncombe and Andrew Gumbel, 'Terror cells no longer -73 need approval for fresh attacks', Independent, 31 October 2001.

74- Richard Norton-Taylor, 'Terror crackdown has not reduced al-Qaida threat, warns think tank', Guardian, 14 May 2003, citing International Institute of Strategic Studies report, 'Strategic Survey' by Jonathan Stevenson.

75- بعض المتطرفين الإسلاميين المحليين المتورطين في أعمال إرهابية إندونيسيا تدربوا بالأصل في أفغانستان.

76- Michael Elliott, 'Why the war on terror will never end', Time 26 May 2003, p. 34.

77- Kean and Hamilton, The 9/11 Report, p. 245.

78- Audry Kurth Cronin (Foreign Affairs, Defense and Trade Division), Congressional Research Service, Report for Congress, 23 may 2003.

79- William Dalrymple, 'Murder in Karachi', New York Review of Books, 4 December 2003, pp. 53-6.

80- Burke, al-Qaida, p. 13.

81- Ibid, p.5.

82- Feffer, Power Trip, p. 17, cites Colum Lynch, 'Al Qaida is reviving, UN report says', Washington Post, 18 December 2002.

83- Daniel Cooney, 'Fighting in Afghanistan kills 21', AP, 12 October 2005.

84- وردت الفقرة في:

G. John Ikenberry, 'American's imperial ambition', Foreign Affairs, September-October, 2002, 81(5): 52.

US Department of State, 2002. -85

Woodward, Bush at War, p. 30. -86

Richard Norton-Taylor, ?As the US lowers the nuclear threshold, debate is stifled?, Guardian, October 2005. -87

Woodward, Bush at War, p. 60. -88

BBC, 'Iraq rebellion "could last years"', 27 June 2005, http:// news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/4625215.stm. -89

90- العدالة المطلقة طبعا ليست عدالة على الإطلاق.

91- انظر:

Frum and Perle, An End to Evil, p. 98.

92-Ibid, p. 98.

Ibid, pp. 37-8. -93

Ibid, pp. 95-6. -94

Ibid, pp. 103-4. -95

Ibid, p. 102. -96

Ibid, p. 104. -97

Martin Jacques, 'Cold war, take two', Guardian, 18 June 2005.-98

13 March 2003, Stothard, 30 Days, p. 42. -99

Singer, The President of Good and Evil, p. 181. -100

101- انظر على وجه الخصوص:

Singer, ibid.

ومثلما لاحظت ماري كالدور: في نظر البوشيين «السيادة مشروطة بالنسبة للدول الأخرى وغير مشروطة بالنسبة للولايات المتحدة لأنها تمثل ـ الخيرـ». انظر:

Kaldor, 'American Power', p. 12.

102- انظر على وجه الخصوص:

Singer, ibid, p. 187.

Nick Paton Walsh, 'Putin puts 6m price on rebels' heads', Guardi- -103 an, 9 September 2004.

Singer, ibid, p. 159. -104

Ibid, p. 145. -105

Chomsky, War Plan Iraq, p. 24. -106

Singer, ibid, p. 145. -107

108- انظر:

Richard Norton-Taylor, 'Terror crackdown has not reduced al-Qaida threat, warns think tank', Guardian, 14 May 2003.

109- Johanna McGeary, 'When no one is truly safe', Time, 1 December 2003, p. 55.

110- Mann, Incoherent Empire, p. 188.

يذكر أحد التقارير المرفوعة إلى الكونغرس أن عدد أولئك الذين تدربوا في أفغانستان والسودان يتراوح وفقا للتقديرات بين 20- 60ألف رجل. انظر:

Cronin, Report for Congress, ibid.

111- Joe Cochrane, 'Illusion of security', Newsweek, 18 Augus 2003, p. 21.

112- Michael Elliott, 'Why the war on terror will never end', Time, 26 May 2003, p. 34.

113- Cf Keen, The Benefits of Famine.

114- Simon Hoggard, 'Clowning around with "socialism" in the States', Guardian, 20 April 2002.

115- US Department of State, 2002, 'The National Security Strategy of the United States of America', http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/secstrat.htm.

قارن أيضا عبارة بوش: «مسؤوليتنا أمام التاريخ هي تخليص العالم من الشر».

116- انظر:

Andrew Sparrow and Toby Hardon, 'History will forgive the war on Iraq, Blair tells us' Daily Telegraph, 1 October 2005, www.telegraph.co.uk.

117- Clare Short, 'How Tony used me to offer Gordon a deal', Independent, 22 October 2004.

118- Thomas Friedman, 'Smoking or non-smoking', 14 September 2001, Longitudes and Attitudes, p. 37.

119- CNN.com, 'You are either with us or against us', 6 November 2001, http://archives.cnn.com/2001/US/11/06/ben.attack.on.terror/ .

120- Conetta, Strange Victory, p. 33.

121- Jonathan Steel, 'Do Americans care for any casualties but their own?', Guardian, 20 May 2002.

122- Conetta, ibid, p. 38.

123- Marc Herold, n., d., ?A dossier on civilian victims of United States aerial bombing of Afghanistan?, www.cursor.org/stories/civilian_death.htm.

124- Conetta, ibid, p. 6.

125- نفذت تسعون طلعة جوية في اليوم خلال الأسبوع الثاني من الحملة. انظر:

Conetta, ibid.

126- Romesh Ratnesar, 'The new rules of engagement', Time, 5 November 2001.

127- Mann, Incoherent Empire, p. 132.

128- Turton, David and Peter Marsden, 'Taking refugees for a ride'

The politics of refugee return to Afghanistan', Afghanistan Research and Evaluation Unit (Kabul, December 2002), pp. 1-2.

David Jones, 'Return of the Taliban?, Daily Mail, 8 February -129 2003.

Jon Henley, 'Did we make it better?', Guardian, 29 May 2003. -130

Ratnesar, ibid. -131

Marc Herold, ibid. -132

يعمل هيرولد أستاذا للاقتصاد في جامعة نيو هامبشر.

Bob Graham, 'I just pulled the trigger', Evening Standard, 19 June -133 2003, accessed at http://www .thisislondon. com/news/articles/ 5402105'source=Evening%Standard.

Michael Moore, Will they ever trust us again?, p. 47. -134

انظر أيضا:

Evan Wright, Generation Kill.

Scott Johnson, 'Inside an enemy cell', Newsweek, 18 August -135 2003, p. 17.

Sami Ramadani, 'Falluja's defiance of a new empire', Guardian, -136 10 November 2004.

Human Rights Watch, 'Violence response: the US army in al- -137 Falluja', June 2003.

Jonathan Steel and Dahr Jamail, 'This is our Guernica', Guardian, -138
27 April 2005.

Mark Danner, 'The logic of torture', New York Review of Books, -139
24 June 2004.

Victoria Brittain, 'Why are we welcoming this torture?', Guardi- -140
an, 24 February 2005.

Mark Danner, 'Torture and truth', New York Review of Books, -141
10 June 2004, pp. 46-50, quoting, 'Report of the International Committee of the Red Cross (ICRC) on the Treatment by the Coalition Forces of Prisoners of War and Other Protected Persons by the Geneva Conventions in Iraq During Arrest, Internment and Interrogation', February 2004;

انظر أيضا:

Mark Danner, 'Abu Gharib: the hidden story', New York Review of Books, 7 October 2004.

Mark Danner, 'Abu Gharib: the hidden story', New York Review -142
of Books, 7 October 2004.

'Violations were tantamount to torture', edited extracts of ICRC -143
report into treatment of Iraqi prisoners by coalition forces, Guardian, 8 May 2004.

Mark Danner,ibid. -144

145- Rod Nordland, 'Rough Justice', Newsweek, 18 August 2003, pp. 18-20.

146- Roy McCarthy, 'Fundamental errors of inflexible army', Guardian, 13 April 2004.

147- 'Baghdad Burningburning', 7 May 2004, http:// riverbend.blogspot.com/ .

148- Roy McCarthy, 'We will fight until the end', Guardian, 8 April 2004.

149- Ghaith Abdul-Ahad, 'We don't need al-Qaida', Guardian, 27 October 2005.

150- Scilla Elworthy, 'Tackling terror by winning hearts and minds', 20 July 2005, www.opendemocracy.net.

151- Mark Danner, 'Torture and truth', ibid.

152- British Agencies Afghanistan Group, Afghanistan: Monthly Review, June 2001.

153- Reuters, 'UN says sanctions have killed some 500,000 Iraqis Children', 21 July 2000, http://www. commondreams.org/headlines/ 072100-03.htm .

154- انظر:

Woodward, Bush at war, p. 130.

يبدو أن ودوارد يجد هذه المسألة عادية من الناحية الأخلاقية. يعلق قائلا: «كل من يملك فهما أساسيا بالاستراتيجية العسكرية ربما ابتسم استخفافا حين سمع عن المسألة. فطائرات النقل البطيئة بضجيج محركاتها الصاخب التي تستعمل لإلقاء الأغذية تعتبر أهدافا سهلة إلى أن يتم تدمير الدفاعات الجوية». انظر:

Woodward, ibid, p. 130.

155- 'US food drops "useless" for hungry hordes' Daily Record and Sunday Mail, 16 October 2001, accessed at nucnews.net/nucnews/2001nn/0110nn/011016nn.htm .

156- ولا من الواضح هل كان الطعام هو شكل المعونة الذي يحتاجه الأفغان أكثر من سواه (جونسون).

157- انظر:

Woodward, ibid, p. 273.

158- Ibid, p. 294. citing Wolfowitz.

159- Ibid, p. 279.

القرار المتعلق بالقصف خلال شهر رمضان تجاوزته الأحداث: أي احتلال كابول من قبل التحالف الشمالي وبعض زعماء البشتون. انظر:

Ibid, p. 313.

160- انظر:

John Stremlau, The International Politics of the Nigerian Civil War; Human Rights Watch, Evil Days; Keen, The Benefits of Famine.

161- Woodward, ibid, p. 204.

أقلعت الطائرات الأمريكية المحملة بالأغذية من ألمانيا آنذاك.

162- انظر:

Isabel Hilton, 'Hearts and minds at any costs', Guardian, 13 July 2004; Ewen MacAskill, 'Pentagon forced to withdraw leaflet linking aid to information on Taliban', Guardian, 6 May 2004.

Short, An Honorable Deception? -163

Jacqui Tong, Medecins sans frontiers (MSF), 'Disobedient humanitarianism: violence, politics and aid', talk given at LSE, London, 17 November 2003. -164

British Agencies Afghanistan Group, Afghanistan: Monthly Review, June 2004, p. 2. -165

Ewen MacAskill, 'Aid agencies quit Afghanistan over security fears', Guardian, 29 July 2004. -166

Woodward, Plan of Attack, p. 278. -167

Martin Woolacott, 'Humanitarians must avoid becoming tools of power', Guardian, 2 April 2004. -168

Stothard, 30 Days, p. 139. -169

170- انظر:

Nicholas de Torrente, 'Humanitarian action under attack: reflections on Iraq war', Harvard Human Rights Journal, 17, spring 2004.

171- Mann, Incoherent Empire, p. 164.

172- Conetta, Strange Victory, pp. 28, 69.

173- Mann, ibid, p. 186.

174- Ibid, p. 189.

175- Ibid, p. 116.

176- Bill Powell, 'Struggle for the soul of Islam', Time, 13 September 2004.

177- Conetta, Strange Victory.

178- Fergal Keane, 'Does the West understand how this hated war is altering the Arab World?', Independent, 29 March 2003.

179- Clarke, Against All Enemies, p. 246.

180- هذا ما توصلت إليه دراسة للسير الذاتية لأربعمائة إرهابي أجراها الطبيب الشرعي والنفسي والضابط السابق في وكالة المخابرات المركزية (CIA)، مارك سيجمن. انظر:

'Understanding terror networks', 1 November 2004, Foreign Policy Research Institute, Philadelphia, www.fpri.org .

181- انظر على سبيل المثال:

'My Brother Zac', Abd Samad Moussaoui, Guardian Weekend, 19 April 2003, (http://www.guardian.co.uk/weekend/story/0,3605,938576,00.html); Hugh Roberts, 2003, 'North African Islamism in the blinding light of 9-11',

working paper no. 34, Crisis States Programme, DESTIN, LSE, London, www. crisisstates.com.

Michael Massing, 'The unseen war', New York Review of Books, -182
29 May 2003, nybooks.com

Burke, al-Qaida, p. 69. -183

184-Lewis, the Crisis of Islam, p. xix.

Hugh Roberts, ibid. -185

Lewis, ibid, p. xv. -186

Lisa Beyer, 'Why the hate?', Time, 1 October 2001, p. 60. -187

Jessica Stern, 'Holy avengers', FT Magazine, 12 June 2004, p. 16. -188

Fuad Nahdi, 'What happened? What changed? What now?', tran- -189
script of an openDemocracy/Q-News meeting at Chatham House, 4 August 2005, www. opendemocracy.net .

Hani Shukrallah, 'We are all Iraqis now', Guardian, 27 March -190
2003.

Bill Powell, 'Struggle for the soul of Islam', Time, 13 September -191
2004.

Suzanne Goldenberg, 'Religious revival offers solace amid sanc- -192
tions and resistance to invaders', Guardian, 22 February 2003.

Hani Shukrallah, ibid. -193

194- Jonathan Steele, 'It feels like 1967 all over again', Guardian, 9 April 2003.

195- Powell, ibid, p. 55.

196-Ibid, p. 55.

في إيران، عززت عدوانية التحالف الأصوليين المتشددين بطرائق عديدة. وحتى التهديدات بمزيد من الحروب على الإرهاب يمكن أن تكون مدمرة. على سبيل المثال، إعلان البنتاغون في عام 2003 بأنه سيحاول «زعزعة الاستقرار» في جمهورية إيران الإسلامية ساعد بعض رجال الدين على تصوير خصومهم الليبراليين باعتبارهم خونة. انظر:

Dan De Luce, 'Pentagon adds to despair of Iran's reformers', Guardian, 27 May 2003.

197- جرت مناقشة هذه المسألة في كتاب باربرا اهرنرايك «طقوس الدم»، ص138

198- انظر مثلا:

Millan Rai (ed.), War Plan Iraq (London: Verso, 2002).

199- قصف الولايات المتحدة لليبيا ردا على تفجير النادي الليلي في برلين عام 1986 تبعه هجوم ليبيا عام 1988 على طائرة «بان أمريكان» (رحلة رقم 103) مما أدى إلى مقتل 270 شخصا.

200- انظر أيضا:

Keen, 'Since I am a dog'; Michael Jackson, In Sierra Leone.

201- RUF (Revolutionary United Front), Footpath to Democracy, 1995,

p. 12.

Sierra Leone Broadcasting Services, 18 June 1997. -202

Mark Lawson, 'Terror nostalgia', Guardian, 17 April 2004. -203

Conetta, Strange Victory, p. 33. -204

John Gitting, 'North Korea will talk if it is not labeled evil', Guar- -205
dian, 4 April 2004.

John Feffer, 'The response', in: Feffer, Power Trip, p. 179. -206

Frantz fanon, The Wretched of the Earth, p. 74. -207

Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, 332. -208

Meir statement to the Sunday Times, 15 June 1969, http:// -209
en.wikipedia.org .

Robert Baer, 'The cult of the suicide bomber', Channel 4, broad- -210
cast 4 August 2005.

Jessica Stern, 'Pakistan's Jihad culture', Foreign Affairs, Novem- -211
ber/December 2000, http://ksghome/harvard .edu/~.jstern.CSIA.KSG/
pakistan.htm .

Juergensmeyer, Terror in the Mind of God, p. 187. -212

Ibid, p. 195. -213

Ibid. -214

Arendt, On Violence, p. 65. -215

www.life-peace.org/newroutes . -216

217- في غواتيمالا، أبلغ بعض ضحايا الحملة الوحشية لمحاربة التمرد (من قبائل المايا) العاملين في منظمات حقوق الإنسان الذين شاركوا في ترتيب إجراءات معاقبة المتورطين في أعمال الإبادة الجماعية. إن العملية مهمة بالنسبة لهم لأنها تسبغ عليهم ـ جزئيا ـ اعترافا دوليا ودولتيا وتؤكد أنهم في الحقيقة بشر ويستحقون التمتع بحقوق الإنسان. انظر:

Keen, 'Demobilizing Guatemala'.

'Jonathan Dimbleby', ITV1, broadcast 15 June 2003. -218

Neil MacFarquhar, 'Many Arabs say Bush misreads their history -219 and goals', New York Times, 31 January 2002.

220- على سبيل المثال:

Friedman, Longitude and Attitude.

Bill Powell, 'Struggle for the soul of Islam', Time, 13 September -221 2004, p. 56.

222- انظر مثلا:

Richard Norton-Taylor, 'Don't demonize Bin Laden, cautions MoD officials', Guardian, 8 November 2001.

Eric Hobsbawm, Bandits, p. 58. -223

Brian Whitaker, 'Easy targets are magnet for Islamic militants', -224 Guardian, 20 August 2003.

Abd Samad Moussaoui, 'My Brother Zac', Guardian Weekend, 19 -225 April 2003, (http://www.guardian.co.uk/weekend/story/0,3605,938576,00.html).

ibid. -226

ibid. -227

ibid. -228

John Burns, 'The power, the glory and the grievances', Guardian, -229 18 September 2001.

230- التناقض الشعوري تجاه «الوطن الأم» ربما اتخذ شكلا مشابها في سيراليون. انظر:

Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

231- انظر:

Jonathan Raban, 'My Holy War', The New Yorker, 4. February 2002.

Rohan Gunaratna, 'Womanizer, joker, scuba diver: the other face -232 of a-Qaida?s no 3', Guardian, 3 March 2003.

عاش حمدي عثمان، المشتبه بقيامه بدور في محاولة تفجير بعض المرافق في لندن في 21/7/2005، في إيطاليا واكتسب لقب «روميو»، كما كان مولعا بالرقص وبالثقافة الشعبية الأمريكية. انظر:

John Hooper, 'Suspect was a Roman Romeo in love with US', Guardian, 2 August 2005.

Peter Bergen, 'In the beginning', Guardian, 20 August 2004. -233

Interviewed on 'Inside the mind of the suicide bomber', director -234 Tom Roberts, Channel 4, broadcast November 2003.

Juergensmeyer, Terror in the Mind of God, p. 64. -235

236-ibid, 65.

237-ibid, p. 66.

Maruf Khwaja, 'Muslims in Britain: generations, experiences, fu- -238 tures', 2 August 2005, openDemocracy, http://opendemocracy.net/ conglict-terrorism/identity_272.jsp .

239- انظر الشاهد من طارق رمضان، ف9، هامش 16.

ICG, 'Islamist Terrorism in the Sahel: fact or fiction?/, 31 March -240 2005.

241- انظر على سبيل المثال:

Bill Powell, 'Struggle for the soul of Islam', Time, p. 54.

Hugh Robert, 2003, 'North African Islamism in the blinding light -242 of 9-11', working paper no 34, 2003, Crisis Stats Programme, DES-TIN, LSE, London, www. crisisstates.com.

243- انظر:

Hugh Roberts, personal communication; see also Robers, ibid.

استخدم التعذيب أيضا في مسار تحقيقات الشرطة تحت مظلة القانون المغربي الجديد لمكافحة الإرهاب:

David Pallister, 'Two Britons face terror charges in Morocco', Guardian, 2 August 2003, citing Paris-based International Federation of Human Rights Leagues.

Jason Burke, 'Stronger and more deadly, the terror of the Taliban -244 is back', Observer, 16 November 2003.

Gerges, The Far Enemy. -245

Ibid, p. 271. -246

Putzel, in Buckley and Fawn. -247

Mann, Incoherent Empire, p. 184. -248

Ibid. -249

Putzel, ibid. -250

Mann, ibid, p. 184. -251

Putzel, ibid. -252

Ibid. -253

Naomi Klein, 'A deadly franchise', Guardian, 28 August 2003. -254

255- انظر:

Nick Paton Walsh, 'US looks away as new ally tortures Islamists', Guardian, 26 May 2003;

انظر أيضا:

John MacLeod and Galima Bukharbaeva, 'Neighborhood watch', Guardian, 7 April 2004.

256- Craig Murray [British ambassador to Uzbekistan, 2002-03], 'What drives support for this torturer?' Guardian, 16 May 2005.

257- Roy McCarthy, 'Destiny and devotion', Guardian weekend, 17 May 2003.

258- Roy McCarthy, 'Pressure piles up on reluctant Pakistan', Guardian, 10 March 2003; see also, Conetta, Strange Victory.

259- Isabel Hilton, 'Pakistan is losing the fight against fundamentalism', Guardian, 29 May 2003.

260- Bill Powell, 'Struggle for the soul of Islam', Time, 13 September 2004, p. 63.

261- ولم يقتل أبو مصعب الزرقاوي أو يعتقل في الهجوم على الفلوجة في تشرين الثاني/نوفمبر 2004، حيث اتخذ وجوده في المدينة ذريعة لمهاجمتها. انظر:

Jonathan Steele and Dahr Jamil, 'This is our Guernica', Guardian, 27 April 2005.

262- مارس المخططون في إدارة بوش الضغط على الكونغرس لرفع حظر عمره عقد من السنين على الأبحاث حول ما سمي بـ«القنابل النووية المصغرة». وتسربت وثيقة حول استراتيجية البنتاغون تشير بالتفصيل إلى خطط لإنتاج أسلحة نووية تستخدم ضد الأهداف المخبأة تحت الأرض، بما فيها منشآت الأسلحة الجرثومية أو

الكيماوية(GlobalSecurity.org). وهذا يقتضي ضمنا المبادرة إلى شن «ضربة نووية» استباقية، كما لا يساعد بوش في حث المترددين في الانضمام إلى معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية للتخلي عن الطموحات النووية كلها. انظر مثلا:

'Ban on minibomb', Economist, 17 May 2003, pp. 10-11.

بالنسبة لاستعداد بريطانيا للموافقة على توجيه «الضربة النووية الأولى» إلى العراق، انظر:

Richard Norton-Taylor, 'Weapons no one needs', Guardian, 9 April 2004.

263- انظر مثلا:

Scott McConnell, 'Ground zero', 12 March 2002, anti-war. com.

264- Singer, The President of Good and Evil, p. 199.

265- David Gold, 'Some economic considerations in the U. S war on terrorism', The Quarterly Journal. 3(1), March 2004.

266- Singer, ibid.

267- Ian Traynor, 'The West's truce with Iraq buys time for both sides, but specter of proliferation remains', Guardian, 23 November 2004.

268- Richard Norton-Taylor, 'A blindness that puts us all in danger', Guardian, 23 January 2003.

(يعتمد التقرير على آخر أصدره مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية (في واشنطن) يشير إلى أن دعم الدول أقل إثارة للقلق من حصول الإرهابيين على الأسلحة من السوق المفتوح).

269- انظر:

Vidal, Perpetual War, p. 80, citing Robert Serrano, One of Ours: Timothy McVeigh and the Oklahoma City Bombing.

270- انظر الشهادات في:

Moore, Will They Ever Trust Us Again?

الفصل الثالث: أنظمة الحرب: محليا وعالميا

1- في حين مال بول كولير إلى التشديد على «الأجندات» الاقتصادية للمتمردين، إلا أن غطاء الحرب يمكن أيضا أن يكتسب أهمية بالنسبة للحكومات ومؤيديها.

2- انظر:

Foucault, Power/Knowledge, pp. 135-6.

3- انظر مثلا:

Keen, The Economic Functions of Violence in Civil Wars; Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

4- قارن مع تيم الن، الذي يرى الحرب بمثابة أداة تسبغ المكانة، وأحيانا الشرعية، على العنف:

Tim Allen, 'Perceiving contemporary wars', in The Media of Conflict: War reporting and representations of ethnic violence, New York: St Martin's Press, 1999.

5- Burke, Al-Qaida; Jason Burke, 'Who did it - and what was their motive?', Observer, 10 July 2005.

6- انظر مثلا:

Castells, End of Millennium.

Global Witness, 'For a few dollars more: how al Qaida moved into -7 the diamond trade', London, April 2003, available at www.globalwitness.org .

Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone; Mahmood Mamdani, -8 Citizen and Subject; Bruce Berman, 'Ethnicity' patronage and the African state', pp. 305-41.

9- انظر على وجه الخصوص:

Incoherent Empire; Rpberts, 'North African Islamism in the blinding light of 9-11'.

10- انظر أيضا:

Mann, ibid.

Burke, ibid. -11

Burke, Al-Qaida; Jason Burke, 'Who did it - and what was their -12 motive?', Observer, 10 July 2005.

13- تظهر سيراليون أخطار التركيز على الزعماء بدلا من الأتباع. إذ جرت محاولة لـ«تحييد» زعيم المتمردين (الراحل) فوداي سانكوه عبر تقديم تنازلات في اتفاقية السلام التي وقعت عام 1999 في لومي عاصمة توغو. ولم تتم معالجة ما يشعر به أتباعه من غضب أو ظلم بشكل كاف، وذلك من خلال برامج فعالة لنزع سلاحهم وتسريحهم وإعادة دمجهم. وسرعان ما انهار السلام واشتعلت الحرب مجددا في السنة التالية.

Richard, Fighting for the rainforest; Keen, Conflict and collusion in -14
Sierra Leone.

Rashad Yaqoob, audience member, 'What happened' What -15
changed' What now?', transcript of an openDemocracy / Q-News
meeting at Chatham House, 4 August 2005, www.opendemocracy.net .

Cf Hobsbawm, Bandits. -16

Johanna McGeary, 'When no-one is truly safe', Time, 1 December -17
2003, p. 5.

18- انظر مثلا:

Kim Sengupta, 'The Police's nightmare: home-grown terrorists', Independent, 13 July 2005.

Burke, al-Qaida. -19

Ibid. -20

21- على سبيل المثال:

Frantz Fanon, The Wretched of the Earth (Harmondsworth: Penguin, 1965).

David Stoll, 'Evangelicals, guerrillas and the army: the Ixil Trian- -22
gle under Rios Montt', in Carmack, Harvest of Violence: The Maya Indians and the Guatemalan Crisis, p. 104.

Paul Richards, 'Rebellion in Liberia and Sierra Leone: a crisis of -23
youth?'.

Paul Richards, 1996, 'Violence as cultural creativity' Social exclu- -24
sion and environmental damage in Sierra Leone', mimeo.

25- انظر مثلا:

Keen, The Economic Functions of Violence in Civil Wars.

Stern, Terror in the Name of God, pp. 213-17, cited in David Gold -26
(2004), p. 9.

Cf Clay and Schaffer, Room for Maneuver (1984). -27

Clarke, Against All Enemies, p. 263. -28

29- انظر مثلا:

Ferdinando Imposimato, 'Preface to "The Dirty War" by Habib Souaidia', Algeria-Watch, 15 January 2001, http://www.algeria-watch.org/farticle/sale_guerre/imposimatoengl .htm .

Keen, The Benefits of Famine; Keen, Conflict and Collusion in -30
Sierra Leone.

Keen, The Benefits of Famine. -31

Cf Scott Straus, 'Darfur and the genocide debate', Foreign Affairs, -32
81(4): 123-33, January/February, 2005.

David Stoll, 'Evangelicals, guerrillas and the army'. -33

Francisco Gutierrez Sanin, personal communication. -34

Isabel Hilton, 'Terror as usual', Guardian, 23 September 2003. -35

36- Luis Eduardo Fajardo, 'From the Alliance for Progress to the Plan Colombia', working paper no. 28, Crisis States Research Center, LSE, London, www.crisisstates.com .

37- Francisco Gutierrez Sanin, 2003, 'Criminal rebels' A discussion of war and criminality from the Colombian experience', working paper no. 27, Crisis States Research Center, LSE, London, www.crisisstates.com.

38- Anatol Lieven, Chechnya: Tombstone of Russian Power, p. 361.

39- David Hurst, 'Vladimir's big adventure', Guardian, 9 November 2001, cites Gall and de Waal, Chechnya: A Small Victorious War.

40- Anatol Lieven, Chechnya, p. 356.

41- قتل 129 من الرهائن و41 من المقاتلين الشيشان، معظمهم بالغاز الذي استخدم لتخدير محتجزي الرهائن.

42- Chris McGreal, 'Our strategy helps the terrorists ' army chief warns Sharon', Guardian, 31 October 2003.

43- Karen Armstrong, 'Our role in the terror', Guardian, 18 September 2003.

44- Kevin Toolis, 'You can't make a deal with the dead', Guardian, 10 September 2003.

45- Henry Siegman, 'Sharon and the future of Palestine', New York Review of Books, 2 December 2004.

46- انظر:

Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

في بلدة ريازان (جنوب موسكو)، شوهد عدد من الغرباء في أيلول/سبتمبر 1999 ينقلون أكياسا ثقيلة من المتفجرات إلى قبو، أشارت الأدلة إلى أنهم من الشرطة السرية الروسية. ووقعت عدة انفجارات في شقق سكنية ذلك الشهر نسبت إلى الإرهابيين الشيشان، واستخدمت كذريعة لشن الحرب من جديد على الشيشان. إحدى القنابل التي زرعها "الغرباء" كانت مماثلة في النوع لتلك التي استخدمت قبل ذلك في موسكو واتهم بها الإرهابيون الشيشان.

47- مقابلة شخصية مع:

Samraoui, author of 'Chroniques des Annees de Sang', in: Campbell, 'The French connection', New Zealand Listener, 14-20 February 2004, http://www.algeria-watch.org/fr/article/mil/francalgerie/french_connection.htm

Gordon Campbell, 'The French connection', ibid. -48

Ronan Bennett, contribution to 'What would you do?', Guardian, -49 28 February 2003.

50- انظر مثلا:

Jane Mayer, 'Outsourcing torture', New Yorker, 14 February2005.

Keen, 'Demobilizing Guatemala'; Keen, Conflict and Collusion in -51 Sierra Leone;

حول أوغندا، انظر:

Chris Dolan, Understanding War and its Continuations: The Case of

Northern Uganda, PhD thesis, London School of Economics, 2005.

Naomi Klein, 'Stark message of mutiny', Guardian, 15 August -52 2003.

James Astill, 'Rwandans wage a war of plunder', Observer, 4 Au- -53 gust 2002, www.guardian.co.uk/congo .

James Astill, 'Conflict in Congo has killed 4.7m, charity says' inst -54 All Enemies.

Julian Borger, 'Bush told he is playing into Bin Laden's hands', -58 Guardian Unlimited, 19 Jun 2004.

Clarke, ibid, p. 276; Fallows, ibid, citing Clarke and Michael -59 Scheuer.

Fallows, ibid. -60

Delcan Walsh, 'Most wanted', Guardian, 5 August 2001. -61

Rory McCarthy, 'Inside story of the hunt for Bin Laden', Guardian, -62 23 August 2003.

Delcan Walsh, 'Most wanted', Guardian, 5 August 2001. -63

David Clark, 'The war on terror misfired. Blame it all on neocons', -64 Guardian, 7 April 2004.

James Astill, 'Rwandans wage a war of plunder', Observer, 4 August -65 2002, www.guardian.co.uk/congo .

حول سيراليون، انظر:

Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone;

حول كمبوديا، انظر:

Berdal, Mats and David Keen, 'Violence and economic agendas in civil wars: considerations for policy-makers', Millennium, 26(3), 1997.

66- Naomi Klein, 'Stark Message of mutiny', Guardian, 15 August 2003.

67- Gall and de Waal, Chechnya: A Small Victorious War.

68- Mann, Incoherent Empire, pp. 174-5.

69- Craig Unger, House of Bush, House of Saud: The secret relationship between the world?s two most powerful dynasties.

70- Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 105.

71- Unger, ibid.

72- Clarke, Against All Enemies. p. 282.

73- Ibid, p. 281.

74- Suskind, 'Without a doubt'.

75- Rampton and Stauber, ibid, p. 104; Saudi Arabia to question 12,000 citizens', Guardian, 15 August 2003.

76- كان دونالد رمسفيلد عضوا في مجلس إدارة الشركة الهندسية العملاقة (ABB) (مركزها في زيوريخ)، حين باعت مفاعلين نوويين إلى إحدى دول «محور الشر» كوريا الشمالية عام 2000 انظر:

Randeep Ramesh, 'The two faces of Rumsfeld', Guardian, 9 May 2003.

77- انظر:

Hugh Robert, 'North African Islamism in the blinding light of 9-11', working paper no 34, 2003, Crisis Stats Programme, www.crisisstates.com.

78- Keen, The Benefits of Famine; Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

79- انظر:

Tim Judah, 'Uganda: The secret war', New York Review of Books, 23 September 2004.

80- Report of the Panel of Experts on the Illegal Exploitation of Natural Resources and Other Forms of Wealth in the Democratic Republic of Congo, S/2001/357, April 2001.

81- Ibid.

82- Ibid;

انظر أيضا:

International Crisis Group, 'Storm clouds over sun city'.

83- Report by James Astill, 'Rwandans wage a war of plunder', Observer, 4 August 2002, www.guardian.co.uk/congo.

سحبت رواندا غالبية جنودها من الكونغو في تشرين الأول/أكتوبر 2002، لكنها أبقت خمسة آلاف جندي على الأقل مع عملائها المتمردين (التجمع من أجل

الديمقراطية الكونغولية) واحتفظت بقدر مهم من السيطرة على البلاد. وفي حين زعمت رواندا أن 50 ألفا من ميليشيات «الهوتو» مازالوا في الكونغو (عام 2003)، إلا أن التقديرات المستقلة تشير إلى أن العدد لا يتجاوز 15 ألفا، 80% على الأقل من هؤلاء من الأطفال ومن المستبعد جدا أن يكونوا مسؤولين عن أعمال الإبادة الجماعية. في نيسان/أبريل 2003، كانت الحاميات العسكرية الرواندية والأوغندية المبعثرة (المتحالفة سابقا، لكن المتعادية حاليا) تحتل ثلث مساحة الكونغو تقريبا. وكما لاحظ استيل: «تخلت رواندا، منذ انسحابها الجزئي، عن مهمة نزع سلاح ـ الهوتو ـ إلى الأمم المتحدة، رغم أن لها يدا حتى الآن في العملية. واشتكى ضباط الأمم المتحدة من أنهم كلما اتصلوا بإحدى ميليشيات ـ الهوتو ـ، يهاجمها متمردو ـ التجمع ـ ويشتتونها». انظر:

James Astill, 'Counting the dead', Guardian, 10 April 2003.

84- ICG, 'The Congo's transition is failing', 30 March 2005.

85- Keen, 'Demobilizing Guatemala'.

86- Vidal, Perpetual War for Perpetual Peace, p. 158.

87- William Harding, 'Military-industrial complex revisited', Foreign Affairs in Focus, http://www.fpif.org/papers/micr/inex_body.html .

88- Tim Weiner, 'Lockheed and the future of warfare', New York Times, 28 November 2004.

89- Carl Conetta, 'The Pentagon's new budget, new strategy, and new war' Project on Defense Alternatives, briefing report no. 12, Cambridge, Mass., 25 June 2002.

Kaldor, p. 11. -90

Harding, 'Military-industrial complex revisited'. -91

Julian Borger and David Teather, 'So much for peace dividend: -92 Pentagon is winning the battle for a 400 billion dollars budget', Guardian, 22 May 2003.

93- انظر مثلا:

Simon Tisdall, 'War remains the option of first-resort' not last', Guardian, 27 February 2003.

Frances Fitzgerald, 'How hawks captured the White House', Guar- -94 dian, 24 September 2004.

Michael Klare, 'Resources', in: Feffer, Power Trip. pp. 50, 58-9. -95

Thomas Friedman, 'A memo from Osama', 26 June 2001, in: Fried- -96 man, Longitude and Attitudes, pp. 27-8.

William Harting, 'Military', in: Feffer, ibid. -97

Vikram Dodd, 'US contracts come under scrutiny', Guardian, 23 -98 May 2003; cronyism in CPA (NYRB Galbraith article).

CBS News, cbsnews.com, 'Cheney's Halliburton ties remain', 26 -99 September 2003; Robin Cook, 'The Financial scandals of occupation are worse than errors of judgment,' Independent, 7 November 2003.

David Leigh et al, 'Cheney oil firm faces UK inquiry', Guardian, -100 30 October 2004.

101- Naomi Klein, 'The rise of disaster capitalism', The Nation, 2 May 2005.

102- Klare, 'Resources', in: Feffer, Power Trip, p. 50.

103- Cheney report, in: Klare, 'Resources', ibid, p. 52.

104- Ibid, p. 53.

105- Terry Macalister, Ewen MacAskill, Rory McCarthy and Nick Paton-Walsh, 'A matter of life, death - and oil', Guardian, 23 January 2003.

106- يرى مايكل كلير (ibid, p. 57) الحرب في أفغانستان امتدادا للحرب الخفية في السعودية بين النظام والمتطرفين السعوديين بقيادة أسامة بين لادن.

107- انظر:

Lutz Kleveman, 'The new great game', Guardian, 20 October 2003.

108- John Pilger, 'What good friends left behind', Guardian Weekend, 20 September 2003.

109- US Department of Energy, 'Afghanistan fact sheet', June 2004, http://www.eia.gov/emeu/cabs/afghan.htl .

110- Craig Murray, 'What drives support for this torturer?' Guardian, 16 May 2005.

111- Woodward, Bush at War, p. 49.

انظر أيضا:

Suskind, The Price of Loyalty.

Clarke, Against All Enemies, p. 30. -112

Terry Macalister, Ewen MacAskill, Rory McCarthy and Nick Pa- -113 ton-Walsh, 'A matter of life, death - and oil', ibid.

Christopher Hitchens, 'Machiavelli in Mesopotamia'. Slate, 11 -114 November 2002, http://www. frongpagemag. com/Aticles/ Printable.asp'ID=4514 .

115- انظر:

Seumas Milne, The right to resist', Guardian, 19 June 2003.

مهما كانت الأحلام التي راودت مخططي السياسة الأمريكيين، إلا أنها لم تتحقق في المدى القريب. وأدت أعمال التخريب والسرقة إلى انخفاض إنتاج العراق النفطي بعد الاحتلال إلى مجرد جزء بسيط من معدلاته عندما كان صدام في الحكم. ونتيجة لذلك تعزز نفوذ السعودية، وبقيت أسعار النفط مرتفعة. انظر:

'Bush's oil move backfires', editorial, Guardian, 5 August 2003.

Robin Cook, 'The Financial scandals of occupation are worse than -116 errors of judgment,' Independent, 7 November 2003.

Rampton and Stauber, Banana Republicans (London: Robinson, -117 2004).

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 168. -118

Ibid, p. 174. -119

Ibid, 74. -120

121-Ibid, 49.

economist.com, sent to author, 12 April 2002. -122

Martin Delgado, 'The American didn't let us sleep, blinded us -123 with constant light and made us kneel until we fell unconscious', Mail on Sunday, 5 October 2003.

حتى في عام 1996، أبلغ أحد زعماء الانفصاليين السيخ في الهند الباحث مارك يورغنزماير أن كلمة «إهابي» حلت محل كلمة "ساحرة" كذريعة لاضطهاد المكروهين. انظر:

Juergensmeyer, Terror in the Mind of God, p. 187.

Keen, The Economic Functions of Violence in Civil Wars; Keen, -124 'Demobilizing Guatemala'.

African Rights, Rwanda: Death, Despair and Defiance, London, -125 1994.

Naomi Klein, 'A deadly franchise', Guardian, 28 August 2003. -126

Shelton H. Davis, Introduction: sowing the seeds of violence?. -127

128- في الممارسة العملية، استهدفت «الجماعات الجانحة» في الحقبتين كلتيهما.

129- «حين درس النظام القضائي أوامر الاعتقال بحق الشباب، وجد أسبابا واهية مثل استخدام الوشم أو السلوك المشين في العلن». انظر:

.(US State Department, 2003b, 11/35)

130- انظر على وجه الخصوص:

Thomas Frank, What's the Matter with America?

131- على نحو مشابه تقريبا في شمال شرق البرازيل، أشارت نانسي شيبر - هيوز (في كتابها «موت بلا نواح») إلى أن أعمال الشرطة عشوائية غالبا ومصممة لترهيب جماعات اجتماعية بأكملها.

132- انظر مثلا:

Robert Thomas, Serbia under Milosevic.

133- مقابلة شخصية، بلغراد، 1999.

Bridget Kindall, 'Analysis: Putin?s drastic measures', BBC News -134 Online, 13 September 2004, news.bbc.co.uk.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, pp. 143-4. -135

Sidney Blumenthal, 'Domestic gibberish', Guardian, 10 February -136 2005.

Woodward, Bush at War, pp. 206-7. -137

Ibid, p. 207. -138

Naomi Klein, 'The true purpose of torture', Guardian, 14 May -139 2005.

Kenneth Roth, 'The law of war in the war on terror', Foreign Af- -140 fairs, January/February 2004, http://www. foreignaffairs.org/

20040101facomment83101/kenneth-roth/the-alw-of-the-warterror.html

Al Gore, 'Democracy itself is in grave danger', Common Dreams -141
News Center, http://www.commondreams .org/views04/0624-14.htm.

Rebecca Allison, 'Police can use terror powers on protestors', -142
Guardiani, 1 November 2003.

Helena Kennedy, 'Take no comfort in this warm blanket of securi- -143
ty', Guardian, 15 March 2004.

Ben Russell and Andrew Grice, 'Don't mention the war', Indepen- -144
dent, 29 September 2005.

Naomi Klein, 'A deadly franchise', Guardian, 28 August 2003. -145

Burke, Al-Qaida, p. 17. -146

Frances Fitzgerald, 'How hawks captured the White House', -147
Guardian, 24 September 2004.

Human Rights watch, 'China: Religious repression of Uighur -148
Muslims', 12 April 2005, http://hrw.org/english/docs/2005/04/11/
china10447.htm .

Aidan White, 'Journalism and the war on terrorism: final report on -149
the aftermath of September 11 and the implications for journalism and
civil liberties', International Federation of Journalism, Brussels, 3 Sep-
tember 2002.

150- Simon Tisdall, 'Riding the crest of a terror wave', Guardian, 7 December 2004.

151- Mann, Incoherent Empire, p. 18.

152- Naomi Klein, 'A deadly franchise', Guardian, 28 August 2003.

153- Luis Eduardo Fajardo, 'From the Alliance for Progress to the Plan Colombia', working paper no. 28, Crisis States Research Center, LSE, London, www. crisisstates.com .

154- Human Rights watch, World Report.

155- لربما يكون أحد العوامل وراء ذلك رغبة الولايات المتحدة في إعادة النظر في معاهدة تخفيض عدد الصواريخ البالستية لعام 1972، لأنها تريد بناء نظام دفاعي صاروخي، وهذا يعني أنها بحاجة إلى روسيا. انظر:

Menzies Campbell, ' A wider arms deal', Guardian, 15 November 2001.

156- Mann, Incoherent Empire, p. 174.

157- BBC News Online, 'US to blacklist Chechen groups', http:// news.bbc.co.uk/2/europe/2786725.stm.

158- Nick Paton Walsh, 'US looks away as new ally tortures Islamists', Guardian, 26 May 2003.

159- Nick Paton Walsh and Ewen MacAskill, 'Straw clashes with Uzbek leaders after 500 killed', Guardian, 16 May 2005.

160- Nick Paton Walsh, 'US looks away as new ally tortures Islamists',

Guardian, ibid.

161- Nick Paton Walsh, 'Brutality and poverty fuel wave of unrest' Guardian, 16 May 2005.

162- Ewen MacAskill, 'Scepticism greets Straw's reproof', Guardian, 16 May 2005.

163- Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p 117.

164- Richard Norton-Taylor, 'Guantanamo is Gulag of our time, says Amnesty', Guardian, 26 May 2005.

165- انظر على وجه الخصوص:

Mark Duffield's Global Governance and the New Wars.

166- Human Right Watch, 'Coercive interrogation', Janary 2005 http://hrw.org/wr2k5/darfurandabughraib/3.htm.

167- لاحظ فوكو أن السجون تنتج وتعلم مزيدا من المجرمين، ووصف نظام السجن باعتباره «حلا كريها وشرا لابد منه»، انظر:

Michel Foucault, Discipline and Punish: The birth of the prison, p. 232.

168- Keen, The Benefits of Famine.

169- Rami Khouri, 'Democracy from America' An Arab's advice', 31 March 2005, opendemocracy.net.

170- تصريح في اجتماع لمجلس الأمن القومي في 10/10/2001 انظر:

Woodward, Bush at War, p224.

Woodward, ibid, p. 229. -171

172- انظر مثلا:

Luke Harding, 'Us helicopters in secret mission to spray Afghanistan opium fields', Guardian, 9 June 2003;

انظر أيضا:

Colin Brown and Andrew Clennell, 'Opium trade booms in basket-case Afghanistan', Independent, 28 July 2004.

Declan Walsh, 'Warlords, poppies and slow progress', Guardian, -173 7 December 2004.

174- على سبيل المثال:

Mariam Rawi, 'Rule of the rapists', Guardian, 12 February 2004.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p 130. -175

Mann, Incoherent Empire, p. 137. -176

Suzanne Goldenberg, 'The Stand', Guardian' 5 May 2005. -177

Tim Judah, 'Uganda: the secret war', New York Review of -178 Books, 23 September 2004.

Faludi, Stiffed, pp. 331-2. -179

Duncan Campbell, 'Introducing Al-Qaida', Guardian, 17 July -180 2004.

Simon Jenkins, 'One day kept us from fear. Now our leaders want -181

to frighten us senseless', times, November 2004.

الفصل الرابع: مراوغة الأعداء والحاجة إلى اليقين

1- كتب على إحدى اللافتات في حشد مؤيد لانتخاب بوش خلال حملة عام 2004 «جعلتني أشعر بالأمان». انظر:

Madeleine Bunting, 'Age of anxiety'. Guardian, 25 October 2004.

2- Suskind, The Price of Loyalty, p. 306.

3- يمكن الاطلاع على النص الكامل على موقع:

http://politics.guardian.co.uk/iraq/story/0,12956,916790,00html.

شبه جورج سوروس الثقة الزائفة في «الحرب على الإرهاب» بفقاعة ظنية: ففي كليهما فجوة ضخمة تفصل بين المدركات والواقع. انظر:

Soros, The Bubble of American Supremacy, p. 184.

4- لربما لا يمثل ذلك ارتباطا مباشرا بين السبب والنتيجة، لكنه يظل نذير شؤم اليوم، خصوصا في ضوء تصريح بوش في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001: «بيرل هاربر القرن الحادي والعشرين حدثت اليوم». انظر:

Woodward, Bush at War, p. 37.

5- Michael Duffy and Nancy Gibbs, 'Defender in chief', Time, 5 November 2001.

6- حتى فيما يتعلق بالمجرمين العاديين، ليس من الواضح أن العقاب يمنع الجريمة في المستقبل. ويرى جيمس غيليغان، الطبيب النفساني والناشط في مجال السجون، أن الظروف السيئة في السجن تفاقم الشعور بالعار والإذلال الذي شجع العنف أصلا. انظر:

James Gilligan, Violence: Reflections on our deadliest epidemic.

7- يمكن أن يتم ذلك استراتيجيا: انظر مثلا ما كتبه بيتر تايلور حول «التكفيري»، واعتقاده بأن أفضل من ينفذ الهجمات هو من يندمج في المجتمع المضيف.

Peter Taylor, 'The new al-Qaida', BBC 2 TV, first broadcast 25 July 2005.

8- انظر:

http://www.whitehouse.gov/nsc/nss5.html .

9- Bishop W. Nah Dixon, Great Lessons of Liberian Civil War.

10- Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

11- Woodward, Bush at War, p. 17.

12- Ibid, p. 168.

13- Girard, Violence and Sacred. P. 2.

الإرهابي أيضا قد يختار الأعداء بطريقة عشوائية. في بالي، كان مقهى «ساري» الذي تعرض للتفجير يرتاده الأستراليون أكثر من الأمريكان. كما تعرض العراقيون زمنا طويلا للقصف والجوع بين الحين والآخر، ووجد بعضهم الآن عدوا يمكن تحديده والوصول إليه: جندي الاحتلال.

14- انظر:

Woodward, ibid, p. 43.

يواجه الإرهابيون بالطبع أيضا مشكلة أن أعداءهم الرئيسيين ـ مثل بوش وبلير

كما هو مفترض ـ يتمتعون بحماية قوية، ولذلك فضلوا عموما مهاجمة أهداف يمكن الوصول إليها بصورة أسهل.

Jonathan Steel, 'Fighting the wrong war', Guardian, 11 December –15 2001.

Clarke, Against All Enemies. –16

Bob Graham, 'I just pulled the trigger', Evening Standard, 19 Jun –17 2001, accessed at http://www. thisislondon.com/news/articles/ 5402104'source=evening%Standard .

Michael Hoffman, 'The civilians we killed', Guardian, 2 December –18 2004.

19– العدو أيضا كان عصيا على الفهم. فالقوات الأمريكية أتت إلى العراق مجهزة بكل آلة يمكن تصورها للقتل، والعلاج، والتجسس، والاتصال مع بعضها بعضا، لكن لم يكن لديها سوى قلة قليلة من الأفراد الذين يمتلكون الميل أو القدرة على الاتصال مع العراقيين (ساعدت هذه التوليفة نفسها على إفشال التدخل الأمريكي في الصومال). إذ اعتمدت اعتمادا شديدا على «المترجم الآلي» الذي يستطيع بسهولة ترجمة عبارة «اخرج من السيارة ببطء»، لكن يعجز عن توفير فهم أعمق لحاجات وأولويات العراقيين. انظر:

James Meek, 'Speaking a different language - but we've got Phraseala-tor', Guardian, 31 March 2003.

Bob Graham, ibid –20

Mark Danner, 'Torture and truth'. –21

22- Falludi, Stiffed, p. 330.

23- Ibid.

24- Ibid.

25- Cf Bartov, Morror of Destruction; Arendt, The Origins of Totalitarianism.

26- الحاجة إلى «الفصل» ربما تعاظمت منذ أن بذل بعض الإرهابيين جهدهم للاندماج. من هؤلاء جماعة «التكفير والهجرة» المتحالفة مع «القاعدة». إذ نجح أعضاؤها على ما يبدو في إخفاء أصوليتهم المتزمتة خلف واجهة غربية. انظر:

James Guff, 'Hate club: the European connection', Time, 5 November 2001.

وبعد تفجيرات لندن (7/7/2005)، صدم المعلقون حين اكتشفوا أن أحد المنفذين أتى من عائلة تملك مطعما لبيع «السمك والبطاطا» (الوجبة الإنكليزية الشائعة)، بينما كان آخر عضوا في فريقين محليين للكريكيت وكرة القدم، وعمل الثالث في مجال رعاية الأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة.

27- Deshowitz, Why Terrorism Works, p. 29.

يضيف ديرشوفيتز قائلا: «على الصعيد النظري، يمكن توجيه العقاب أيضا ضد عائلته، لكن مثل هذه الاستراتيجية ستثير أسئلة مفزعة حول الأخلاق والنزاهة والعدالة» (ibid, p. 29).

28- انظر:

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, pp. 114-5.

29- Matthew Engel, 'Pentagon hawk at war with his own side', Guardian, 13 March 2003.

30- Kenneth Adelman, 'A doctrine is born', Fox News, www.foxnews.com/story/o,2933,54469,00.html .

31- Clarke, Against All Enemies.

32- Woodward, Bush at War, p. 333.

يبدو أن المتشككين، مثل كولن باول، قد امتنعوا عن الانتقاد نتيجة الدعوة للعثور على حلفاء للعمل المقترح. وصف وزير الخزانة بول اونيل كيف ركز بوش وأعضاء حلقته الداخلية بسرعة على «كيف» يمكن تغيير النظام العراقي بدلا من «لماذا». انظر:

Suskind, The Price of Loyalty.

33- Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism.

34- Ibid, p. 315.

35- Ibid, p. 356.

يتردد أيضا في رفض النازيين المعلن للنفاق والفساد لصالح النقاء والعنف، أصداء آراء المتطرفين الإسلاميين الآن، انظر مثلا:

Berman, Terror and Liberalism.

36- Arendt, ibid, p. 315.

37- Ibid, p. 381.

38- Juergensmeyer, 'Religious terror and global war'.

39- بالنسبة للعديد من المتمتعين بالامتيازات في ألمانيا وسواها في أوروبا القارية وبريطانيا، أظهرت الثورة الروسية أخطار الحرب الطبقية والحاجة إلى حرف السياسة الطبقية وتحويلها إلى نوع من السياسة الإثنية أو القومية. انظر:

Partov, Mirrors of Destruction.

40- استخدم إغراء الحصول على مكان في الجامعة للخدمة في العراق. وكان المطوعون يتصلون بالشباب في عمر السادسة عشرة، ثم يجند هؤلاء حين يبلغون السابعة عشرة. بعضهم انضم أيضا للحصول على قروض للسكن، وبعض المجندين أبلغوا (كذبا) بأنهم يستطيعون ترك الخدمة متى شاؤوا. انظر:

Michael Moore, Will they ever trust us again', pp. 17-39.

كما مثلت بطاقة الإقامة والعمل (غرين كارد) عامل جذب وإغراء آخر. انظر:
Dan Glaister, 'Crosses in the sand for war's lost', Guardian, 31 May 2004.

41- Singer, The President of Good and Evil, p. 23.

42- Julian Borger, 'Long queue at driven-in soup kitchen', Guardian, 3 November 2003.

43- Kellner, From 9/11 to Terror War, p. 189.

44- Suskind, The Price of Loyalty.

45- Richard Sennett, 'The age of anxiety', Guardian, 23 October 2004.

46- Moore, Dude, Where's My Country', pp. 137-55.

47- Singer, The President of Good and Evil, p. 23.

48- فيلم «فهرنهايت (11/9/2004) كتبه وأخرجه مايكل مور».

49- Moore, ibid, p. 137.

50- مثلما لاحظ سايمون سكاما، فإن الإنترنت ليست مصدرا للتعددية فقط، بل تعتبر أيضا بمثابة حليف مفيد لأولئك الراغبين بتقديم الحجة على أن الارتقاء النشوئي مجرد نظرية، أو أن العراق هو الذين سوى بالبرجين الأرض. انظر:

'Onward Christian Soldiers', Guardian, 5 November 2004.

51- Schama, ibid.

52- Vidal, Perpetual War.

يشير فيدال أيضا إلى وجود علاقة بين الاستيلاء على ملكية الأراضي الزراعية والأصولية المسيحية (ibid, p. 60).

53- على العموم، غمر تراجع النشاط الصناعي أعدادا كبيرة من الطبقتين العاملة والوسطى في الولايات المتحدة ودفعهم إلى قطاع الخدمات بأجوره المتدنية، في وقت كانت فيه أعداد ضخمة من المهاجرين تدخل هذا القطاع أيضا. انظر:

Todd, After the Empire. P. xi.

54- Gary Indiana, 'Kindergarten governor', London Review of books, 6 November 2003.

55- Thomas Frank, What's the Matter with America?

56- أولئك الذين تشـربوا بإيديولوجيـة تجارية وتدربوا في البلدان الفقـيرة ملأهم الغضب أيضا على التعاليم التي تطالبهم بتفسير ظروف الفقر باعتبارها فشلا شخصيا. انظر:

Jeremy Seabrook, 'The making of a fanatic', Guardian, 20 December 2001.

57- انظر على سبيل المثال:

Schama, ibid.

58- Faludi, Stiffed, p. 32.

59- Ibid.

60- Scilla Elworthy, 'Tackling terror by winning hearts and minds', 20 July 2005, www.opendemocracy.net.

الفصل الخامس: الحملات الجديدة لمطاردة الساحرات: العثور على مصدر الشر واستئصاله

1- انظر:

Thomas, Religion and the Decline of Magic, pp. 10-11.

2- Ibid, p. 17.

3- Ibid, p. 639.

4- Ibid, p. 641.

5- انظر على وجه الخصوص:

Evans-Pritchard, Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande.

6- انظر على سبيل المثال:

Caro Baroja, The World of Witches.

7- Allen, 'The Violence of healing'; Behrend, 'War in Northern Uganda'.

8- Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

9- Chabal and Daloz, Africa Works, p. 81.

10- يعرف الكثيرون بعض التنويعات على الدعابة القديمة حول ذلك الرجل الذي كان يلقي مزقا من أوراق ملونة من نافذة القطار في إحدى مدن بريطانيا. وحين سأله المسافر الجالس إلى جانبه لماذا يفعل ذلك، أجاب: «لإبعاد الفيلة». وعندما أشار الآخر إلى عدم وجود فيلة هنا، قال له منتشيا «بالتأكيد!».

11- Joe Klein, 'How Bush misleads himself', Time, 28 July 2003, p. 25.

12- Gary Younge, 'Never mind the truth', Guardian, 31 May 2004.

13- Polly Toynbee, 'Did Blair lie to us?', Guardian, 30 May 2003.

14- Anne Barstow, Witchcraze, p. 153.

15- انظر على وجه الخصوص:

Kean and Hamilton, The 9/11 report.

16- انظر مثلا:

Arthur Miller, The Crucible.

17- أخذ كولبير هذا الإطار إلى حد متطرف حين أشار إلى أن الإصغاء إلى المظالم والشكاوى لا جدوى منه لأن المتمردين سوف يؤكدون دوما على ما لديهم من مظالم لا على ما يخفونه من جشع. انظر مثلا:

'Doing Well out of War'.

18- انظر أيضا:

Richani, Systems of Violence, on Colombia.

19- أدين بالشكر هنا إلى صديقي اديكي اديباجو، الحاصل على الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة أوكسفورد، لإثارة انتباهي حول هذه المسألة.

20- «دراسات الحرب»، التي كانت أحيانا شبه مغرمة بها، ارتبطت ارتباطا وثيقا بالعلاقات الدولية، وكثيرا ما «علقت» في دراسة الحروب العالمية والباردة، التي تمثل إطارا يقوم على الدول (لا الإرهاب الذين لا ينتمي لدولة).

21- انظر:

Mark Duffield, "'Getting savages to fight barbarians': development, security and colonial present', Conflict, Development and Security, 2005, 5(2): 141-60.

22- Thomas, Religion and the Decline of Magic, p. 658; Caro Baroja, The World of Witches.

23- Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, 353.

24- ما إن تبدأ بتعذيب شخص، حتى تتعرض لضغط تجريمه أو الحصول على اعتراف منه. وإلا فأنت تعذب شخصا بريئا.

25- انظر:

Naomi Klein, 'The US has used torture for decades. All that's new is the openness about it', Guardian, 10 December 2005.

26- Blix, Disarming Iraq, p. 269.

27- Ibid, p. 201.

28- استخدمت الأسلحة الكيماوية ضد الكرد العراقيين عام 1988.

29- Blix, ibid, p. 244.

30- Clarke, Against All Enemies.

31- Woodward, Plan of Attack, p. 157.

32- Ibid, p. 292.

33- Ibid, p. 222; p. 234.

34- هذا تصرف أقل ما يقال عنه إنه غير عادي بالتأكيد، خصوصا قبل تفجر صراع كبير.

35- انظر:

'10 questions for Silvio Berlsconi', Time, 28 July 2003, p. 8.

36- Thomas, Religion and the Decline of Magic, p. 658.

37- Richard Norton-Taylor, 'The BBC row has been got up to obscure the ugly truth', Guardian, 28 June 2003.

38- Ibid.

39- حتى في القانون البريطاني هنالك إشارات إلى «التسكع في المكان بقصد إجرامي»، لكنها نادرة.

40- Keen, The Kurds in Iraq; Makiya, Republic of Fear.

41- حول رواندا، انظر خصوصا:

Mamdani, When victims become killers.

42- ناقش ارثر ميلر هذه المسألة في مقدمة مسرحيته «البوتقة».

43- انظر:

Thomas, Religion and the Decline of Magic, p. 658.

44- أدت أساليب صدام العدوانية، خصوصا ضد الكويت، إلى العقوبات الاقتصادية أساسا: ورفض مدة طويلة مقايضة النفط بالغذاء.

45- استشهد بلير بأعداد العراقيين الذين ماتوا نتيجة العقوبات في سياق مناقشة المبررات الإنسانية للحرب في آذار/مارس 2003. انظر:

Stothard, 30 Days, p. 139.

46- Kathryn Hughes, 'In league with the devil', Guardian, 13 November 2004, citing Lyndal Roper's 'Witch craze: terror and fantasy in baroque Germany'.

47- انظر على سبيل المثال:

Bush: 'The terrorists are fighting freedom with all their cunning and cruelty because freedom is their greatest fear', Republican National Convention, New York, 2 September 2004.

Lewis Lapham, Theater of war: In which the republic becomes an -48 empire (New York: New Press, 2003).

Roy, The Ordinary Person's Guide to Empire, p. 105. -49

Allen, 'The violence of healing'. -50

Girard, Violence and Sacred. P. 2. -51

Ibid, p. 16. -52

Robins ad Post, Political Paranoia. -53

Jonathan Steele, 'War crimes charge for Liberian leader', Guardian, -54 5 June 2003.

ICG, 'After Arafat?', New Briefing, 23 December 2004, Amman/ -55 Brussels.

Micklethwait and Wooldridge, The Right Nation, p. 223. -56

Woodward, Bush at War, p. 195. -57

Brian Urquhart, 'A cautionary tale', New York Review of Books, -58 10 June 2004, pp. 8-10.

Conetta, Strange Victory. -59

Ibid, p. 24. -60

Ibid, p. 9. -61

James Fallows, 'Bush's lost year', Atlantic Monthly, October 2004. -62

ومثلما لاحظ روبن كوك، كان الجنود الأمريكيون يفتقرون إلى التدريب والخبرة في عمليات حفظ الأمن والسلام، ويميلون إلى تبني ثقافة القوة العسكرية الكاسحة. انظر:

Robin Cook, 'Deeper into the Iraqi quagmire', Guardian, 22 October 2004.

63- James Astill, 'Plea for security rethink as French aid worker is buried', Guardian, 21 November 2003.

64- Conetta, ibid, p. 32.

65- Clarke, Against All Enemies.

66- Rory McCarthy, 'US soldiers attack mountain hideout in biggest battle for a year', Guardian, 29 January 2003.

67- British Agencies of Afghanistan Group, Afghanistan: Monthly review, April 2003, London, p. 4.

68- Isabel Hilton, 'Now we pay the warlords to tyrannize the Afghan people', Guardian, 31 July 2003.

69- Ibid.

70- British Agencies of Afghanistan Group, Afghanistan: Monthly review, ibid, p. 3.

71- Amnesty, 'Afghanistan: Report 2003'.

72- Eric Schmitt, 'Training an Afghan army, slowly', International Herald Tribune, 25 September 2005.

73- Amnesty, 'Afghanistan: Report 2003', covering 2002; James Lobe, 'Army peacekeeping institute sent packing', tompaine.com, 17 June 2002.

74- Isabel Hilton, 'Now we pay the warlords to tyrannize the Afghan people', ibid.

75- Nicholas de Terrente, 'Humanitarian action under attack: reflection on Iraq war', Harvard Human Rights Journal, 17, spring 204: 18.

76- Giles Foden, 'The good, the bad and the hypocritical', Guardian Weekend, 14 June 2003.

77- Jonathan Steele, 'Why didn't Blair prepare for post-Saddam Iraq?', Guardian, 29 August 2003.

78- Mark Danner, 'Delusions in Baghdad', New York Review of Books, 18 December 2003, p. 97.

لربما غذى الإخفاق في فهم أنساق «من القاعدة إلى القمة» لدى الأعداء ما يدعوه غوف «قصر نظر الطبقة الحاكمة» في إدارة بوش: «فهي عاجزة بنيويا على فهم التاريخ كنسق يشمل الجماهير»، حسبما يشير. انظر:

Full Spectrum Disorder, p. 112.

79- انظر مثلا:

Jon Lee Anderson, 'Out on the street', New Yorker, 15 November 2004.

80- Rory McCarthy, 'UN chief warns of anti-American backlash in Iraq', Guardian, 27 May 2003.

81- انظر مثلا:

Sidney Blumenthal, 'Katrina comes home to roost', Guardian, 2 September 2005.

82- ICG, 'Iraq Shiites under occupation', 9 September 2003, p. 3.

83- Naomi Klein, 'An Iraqi intifada', Guardian, 12 April 2004.

84- Ed Vulliamy and Kamal Ahmad, 'When the shooting stops', Observer, 6 April 2003.

85- David Teather, 'Pentagon was warned of Iraq chaos after war', Guardian, 20 October 2003.

مسؤول الأمم المتحدة لوبيز دي سيلفا شكك أيضا في جدوى خطة اجتثاث البعث التي وضعتها الإدارة الأمريكية في العراق. انظر:

Rory McCarthy, 'UN chief warns of anti-American backlash in Iraq', Guardian, 27 May 2003.

86- كانت هناك تحذيرات على أرض الواقع أيضا: حين لم يدفع للجنود المسرحين مبلغ الخمسين دولارا الذي وعدوا به، تدفق المئات منهم نحو بوابات السلطات الخاضعة للقيادة الأمريكية: وقتل اثنان من العراقيين حين فتح الجنود الأمريكيون النار. انظر:

Rory McCarthy, 'Just another day in Baghdad', Guardian, 19 June 2003.

87- Jon Lee Anderson, 'Out on the street', New Yorker, 15 November 2004, pp. 73-4.

88- In: Moore, Will They Ever Trust us Again?, p. 43, 27 August 2004.

89- Zaki Chelabi, 'Inside the resistance', Guardian, 13 October 2003.

90- انظر:

Short, An Honorable Deception?

91- Barry, 'How things have changed', in: Feffer (ed.) Power Trip, p. 29.

92- Ed Vulliamy and Kamal Ahmad, 'When the shooting stops', Observer, 6 April 2003.

93- Rory McCarthy, 'UN chief warns of anti-American backlash in Iraq', Guardian, 27 May 2003.

94- Julian Borger, 'Pentagon was warned over policing Iraq', Guardian, 28 May 2003.

95- Suzanne Goldenberg, 'Iraq gets fraction of US aid Billions', Guardian, 5 July 2004.

96- Office of the Special Inspector General for Iraq Reconstruction, 'SIGIR report to Congress', 30 January 2005, globalsecurity.org .

97- In: Moore, Will They Ever Trust us Again?, p. 35.

98- Ibid, p. 35.

99- Peter Galbraith, 'Iraq: the bungled transition', New York Review of Books, 23 September 2004, p. 71.

100- Paul Krugman, 'The Price of ideology and cronyism', Guardian, 6 September 2005.

101- بعض التقديرات الأخرى تشير إلى نسبة أعلى.

102- Peter Galbraith, 'Iraq: the bungled transition', ibid.

103- حول أفغانستان، انظر:

Duncan Campbell and Suzanne Goldenberg, 'Inside America's secret Afghan gulag', Guardian, 23 June 2004.

صور الانتهاكات في «أبو غريب» ذاتها توحي بدرجة معينة من الموافقة الرسمية: شعور بعدم وجود الكثير لإخفائه.

104- انظر مثلا:

Rober Barr, 'World view: calls for Rumsfeld's resignation amid outrage over photos', Association Press, http://www. southcoasttoday.com/daily/05-05/05-08-04/a02wn042.htm .

105- Mark Danner, 'Abu Gharib: the hidden story', New York Review of Books, 7 October 2004.

106- Anthony Lewis, 'The election and America's future', New York Review of Books, 4 November 2004.

107- Mark Danner, 'Abu Gharib: the hidden story', ibid, p. 48;

قارن رواية جورج اورويل «1984» حيث يستغل المحققون خوف (بطل الرواية) ونستون سميث الرهابي من الجرذان.

108- انظر:

Sidney Blumenthal, 'Bush takes refuge in history', Guardian, 3 June 2004.

الفصل السادس: التراجع عن التفكير القائم على البينة والدليل

1- انظر:

'Je ne regrette rien', leader, Economist, 28 August 1004, p. p.

2- حتى التركيز على العراق كان بحد ذاته بنية في الاستعداد للحرب. لاحظ بريان اينو تركيز وسائل الإعلام على العراق وأسلحة الدمار الشامل، وعلق بالقول: «لم يعد الأمر مجرد دعاية، بل دعم أجندة. ولا كان سيطرة على فكرنا فقط، بل على ما نفكر فيه أيضا». انظر:

Eno, 'Lessons on how to lie about Iraq', tompaine.co, 15 August 2003.

3- انعكس ذلك إلى حد ما في بعض المقاربات اليمينية لنظرية النشوء. شعر بعض المراقبين بأن الدافع الجديد وراء تسليط الضوء على النشوء (في المدارس مثلا) ربما كان جزءا من هجوم خفي على الكيان الكلي للفكر العلمي. انظر مثلا:

Suzanne Goldenberg, 'Religious right fights science for the heart of America', Guardian, 7 February 2005.

4- انظر:

G. John Ikenberry, 'America's imperial ambition', Foreign Affairs, 81 (5), September-October 2002, p. 51.

5- Barry and Lobe, 'The people', in: Feffer, Power Trip, p. 39.

6- انظر:

Singer, The President of Good and Evil, p. 188.

7- Suskind, The Price of Loyalty.

8- Singer, ibid, p. 189.

9- Barry and Lobe, ibid, pp. 39-40.

10- Ibid, pp. 42-3.

11- Suskind, ibid, p. 75.

12- Ibid, p. 76.

13- أقرب شيء إلى «السبب» (لماذا؟)، كما يشير، ربما يكون رغبة في إرسال رسالة إلى البلدان الأخرى التي تفكر بتطوير أسلحة دمار شامل. انظر:

Ibid, p. 86.

14- انظر:

Seymour Hersh, 'Selective intelligence', New Yorker, 12 May 2003, available at www.newyorker.com .

15- انظر:

Julian Borger and Ian Traynor, 'Now US ponders attack on Iran', Guardian, 18 January 2005.

16- Nei Mackay, 'Revealed: the secret cabal with spun for Blair', Sunday Herald, 8 June 2003.

17- Hersh, ibid.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 49, citing -18 Wolfowitz interview with the San Francisco Chronicles, transcript, US Department of Defence, 23 February 2002, http://www.defencelink.mil/news/feb2002/t02272002 _t0223sf.html .

Rampton and Stauber, ibid, p. 93. -19

20- انظر:

Woodward, Plan of Attack, p. 290; Clarke, Against All Enemies, p. 232.

يصف اندرو موراي ذلك بأنه «منطق مألوف لأي أب حاول الحفاظ على اعتقاد طفله بحقيقة وجود ـ بابا نويل» انظر:

Andrew Murray, 'Don't mention the war', Guardian, 27 September 2003.

Richard Perle, 'Why the West must strike first against Saddam -21 Hussein', Daily Telegraph, 9 August 2002, in: Dunn, 'Myths, motivations and 'misunderestimations?', p. 295.

22- ورد الشاهد في:

Stanford, The Devil, p. 162.

23- انظر:

Suskind, The Price of Loyalty, 314.

Woodward, Plan of Attack, p. 202. -24

Woodward, Bush at War, p. 83. -25

26- انظر:

Gary Younge, 'Wish you weren't here', Guardian Weekly, 17-23 July 2003.

Singer, The President of Good and Evil, p. 222; Hitchens, Regime –27 Change, p. 17.

Seymour Hersh, 'Selective intelligence', New Yorker, 12 May –28 2003, available at www.newyorker.com/fact/content/'030512fa_fact .

Hersh, ibid. –29

30- انظر:

Leo Strauss, in: Singer, ibid, p. 221.

Leo Strauss, Thoughts on Machiavelli (Chicago: University of Chi- –31 cago Press, 1958), pp. 227-31.

'The power of nightmares', BBC2 TV, broadcast October 2004. –32

Suskind, 'Without a doubt', New York Times Magazine, 17 Octo- –33 ber 2004, accessed via LexisNexis.

34- انظر:

Mark Danner, 'The Logic of Torture', New York Review of Books, 24 June 2004, p. 72.

Helena Smith, 'Blix: I was smeared by the Pentagon', Guardian, 11 –35 June 2003.

36- Michael Smith, 'Blair planned Iraq war from start', Sunday Times, 1 May 2005, citing service paper prepared for 23 July 2002 Downing Street meeting.

37- انظر:

Robert Dreyfuss, 'The Pentagon muzzles the CIA', American Prospect, 13(22), 16 December 2002, http://www.prospect.org/print/V13/22/dreyfuss-r.html .

38- جرى توثيق الفشل في إعاقة التخطيط والتنفيذ لهجمات الحادي عشر من سبتمبر في:

Keen and Hamilton, The 9/11 Report.

39- Goodman, 'Intelligence,' in: Feffer, Power Trip, pp. 97-100.

40- Goodman, ibid, p. 99.

يلاحظ بليكس افتقار الولايات المتحدة إلى عملاء الاستخبارات داخل العراق عند نهاية الحرب الباردة. انظر:

Blix, Disarming Iraq, p. 261.

41- Kampfner, Blair's Wars, p. 210.

42- Robert Dreyfuss, 'The Pentagon muzzles the CIA', American Prospect, 13(22), 16 December 2002, http://www. prospect.org/print-friendly/print/V13/22/dreyfuss-r. html.

43- Seymour Hersh, 'Selective intelligence', New Yorker, 12 May 2003, available at www.newyorker.com/fact/content/'030512fa_fact .

Hersh, ibid. -44

أبلغ حسين كامل، أحد كبار المسؤولين العراقيين الذي فر من العراق (ثم عاد بعد ذلك)، ضباط الاستخبارات الأمريكيين والبريطانيين ومفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة، بأن العراق دمر جميع أسلحته البيولوجية والكيماوية والصواريخ التي تحملها. انظر:

John Barry, 'The defector's secrets', Newsweek, 3 March 2003.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, pp. 86-7. -45

Ibid, p. 87. -46

Ibid, 88. -47

Ibid, p. 87. -48

49- انظر:

Ewen MacAskill and Richard Norton-Taylor, '10 ways to sex up a dossier', Guardian, 27 September 2003.

Singer, The President of Good and Evil, pp. 164-5. -50

Woodward, Plan of Attack, p. 190. -51

52- انظر:

Rampton and Stauber, ibid, p. 97.

ضم الملف ورقة البحث كاملة، بأخطائها المطبعية (حيث وردت كلمة «بعث» بتهجئات مختلفة، اعتمادا على المصادر التي نقلت عنها). انظر:

'Leaked report rejects Iraqi Al-Qaida Link', BBC, 6 February 2003, http://news.bbc.co.uk/2/hi/uk_news/2727471.stm .

انظر أيضا:

Raymond Whitaker, 'MI6 and CIA: the enemy within', New Zealand Herald, 9 February 2003,

http://www.nzherald.co.nz/storydisplay/cfm?storyID=3100174.

53- 'The decision to go to war', Foreign Affair Committee Report, extracts in: Guardian, 8 July 2003.

54- انظر:

Donald Rumsfeld, 'Transforming the military', Foreign Affairs, 81(20), 2002, pp. 20-32.

55- Kenneth Adelman, 'A Doctrine is born', Fox News,

www.foxnews.com/story/0,2933,544469,00.html .

استراتيجية الأمن القومي المعبر عنها آنذاك ذكرت: «سوف تتصرف أميركا ضد التهديدات البازغة قبل أن تتشكل بصورة كاملة». انظر:

US Department of State, 'The national security strategy of the United States of America', September 2002,

http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/secstrat.htm.

56- Brian Massumi, 'Perception attack: pre-emptive power and the image', Security Bytes conference, Lancaster University, 17-19 July 2004.

57- Clarke, Against All Enemies, p. 266.

58- G. John Ikenberry, 'American's imperial ambition', Foreign Af-

fairs, 81(5), September-October 2002, p. 50.

59- Woodward, Bush at War, p. 320.

60- Helen Kennedy, 'Take no comfort in this warm blanket of security', Guardian, 15 March 2004.

61- Suskind, 'Without a doubt', New York Times, 17 October 2004.

62- Hendrik Hertzberg, 'Comment', New Yorker, 15 November 2004.

63- Woodward, Bush at War, p. 342; Suskind, pp. 165-6; Naughtie, The Accidental American.

64- Woodward, ibid, p. 342.

وضع أحد أفراد طاقم دبابة أمريكية كانت تقف أمام فندق فلسطين في بغداد شعارا على خوذته يقول: «فعلت ما أمرتني به الأصوات داخل رأسي» (صورة التقطها سايمون نورفولك). انظر:

Guardian Weekend, 24 May 2003.

65- Sidney Blumenthal, 'Bush and Blair: the betrayal', Guardian, 14 November 2003.

66- توني بلير: «الآن يجب أن نبتدئ حقبة سياسية جديدة من العدالة» (خطاب أمام مؤتمر لحزب العمال). انظر:

Guardian, 1 October 2003.

67- Stothard, 30 Days, p. 207.

68- Ibid, p. 92.

69- انظر:

Claire Short, 'How Tony Blair misled Britain in the run-up to war in Iraq', Independent, 23 October 2004.

70- Short, An Honorable Deception?

71- Robin Cook, 'Tony knows best', Newsweek, 26 July 2004, p. 22.

72- David Clark, 'The sofa of total power', Guardian, 13 December 2004.

73- Stothard, ibid, p. 93.

74- انظر:

Kampfner, Blair's Wars, pp. 248, 385.

75- Stothard, ibid, p. 40.

76- يعلق كامبفنر قائلا: «كانت الحرب على العراق ثمنا يستحق الدفع لإظهار مؤهلاته وأوراقه الثبوتية أمام البيض الأبيض». انظر:

Kampfner, ibid, p. 169.

77- Frank Bruni, Ambling into History: The unlikely odyssey of George W. Bush (New York: Perennial, 2002), p. 6.

78- Stothard, ibid, p. 40.

79- انظر:

Suskind, 'Without a doubt', New York Times, 17 October 2004, accessed via LexisNexis.

80- قال بلير للصحفي بيتر ستوثارد: «أنا مستعد للقاء ربي» والإجابة عن «أولئك الذين ماتوا أو تشوهوا نتيجة القرارات التي اتخذتها». ومن الواضح أن ستوثارد تأثر جدا فعلق قائلا: «.. إذا سئلت هل يشعر رئيس الوزراء بأسوأ نتائج الحرب على المستوى الفردي، إضافة إلى المخاطرة السياسية، بشكل قوي وشخصي، فلسوف أجيب نعم». انظر:

Stothard, ibid, pp. 189-90.

81- Woodward, Bush at War, p. 256, p. 259; Clarke, p. 243.

82- Kampfner, Blair?s Wars, p. 246.

83- Woodward, Bush at War, p. 261.

84- Suskind, 'Without a doubt'.

85- Suskind, The Price of Loyalty, p. 280.

86- Ibid, 292.

87- Richard Norton-Taylor, 'Both the military and the spooks are opposed to war', Guardian, 24 February, 2003.

88- انظر:

James Fenton, 'Blair in trouble', New York Review of Books, 23 October 2004, p. 47, citing Report of the Intelligence and Security Committee set by Blair to look at the security agencies.

89- Woodward, Bush at War, p. 321.

90- Ibid, p. 332.

Woodward, Plan of Attack, p. 278. -91

Sidney Blumenthal, 'Happy talk', Guardian, 14 January 2005. -92

Suskind, 'Without a doubt', New York Times, 17 October 2004. -93

Friedman, Longitude and Attitude, p. 123. -94

قال الجنرال الإسرائيلي موشي دايان ذات مرة: «يجب أن تكون إسرائيل كالكلب المسعور، من الخطر جدا إزعاجه». انظر:

David Hirst, 'The war game', Observer, 21 September 2003.

في موزمبيق، يعرف هؤلاء الذين ينسقون أعمال العنف التي يرتكبها متمردو «رينامو» أن العنف، لكي يكون عشوائيا، يجب أن يكون عصيا على الفهم. انظر:

Ken Wilson, 'Cult of violence and counter-violence in Mozambique'.

95- انظر مثلا:

Makiya, Republic of Fear.

David Hare, 'Don't look for reason', Guardian, 12 April, 2003. -96

97- انظر:

Robert Dreyfuss, 'The Pentagon muzzles the CIA', American Prospect, 13(22), 16 December 2002, http://www.prospect.org/print/V13/22/deyfuss-r.html .

98- بالنسبة للنص، انظر:

Reuel Marc Gerecht, 'Crushing al-Qaida is only a start', 1 February 2002, American Enterprise Institute for Policy Research, www.aei.org/publications/pubID.13538,filter./pub_detail.asp .

Cohen, States of Denial, p. 19. -99

100- وردت في:

Caro Baroja, The World of Witches, p. 212.

الفصل السابع: الفعل كدعاية

1- انظر:

Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, 363.

Ibid, p. 352. -2

Ibid. -3

4- انظر:

Cohen, States of Denial, p. 16, citing Marvin Lerner, The Belief in a Just World (Plenum Press, 1980).

5- انظر:

Arendt, ibid, p. 446.

يشير بارتوف إلى البحث، في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، عن «عدو.. يخدم اضطهاده هدف إظهار قوة وشرعية المضطهد». انظر:

Mirrors of Destruction, p. 99.

6- انظر:

Cohen, ibid, p. 96.

7- قالت الأخصائية في معالجة النطق، اغني يتس (التي أرادت التصويت لجون كيري) إن الرؤساء لا يستخفون بإرسال الشباب إلى الحرب، ولابد أن بوش قد تصرف حتما بنية طيبة. انظر:

Joseph Lelyveld, 'The view from the heartland', New York Review of Books, 4 November 2004.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, pp. 78-9, citing -8 poll by the Pew Research Center for the people and the press.

Seymour Hersh, 'Selective intelligence', New Yorker, 12 May 2003. -9

Woodward, Bush at War, p. 338. -10

11- خطاب أمام قادة أركان القوات المسلحة الألمانية، 22آب/أغسطس 1939.
http://www.union.edu/PUBLIC/HSTDEPT/walker/OLDNSC hronology/3686Walker02.html .

أدين بالفضل هنا إلى ادوارد بالك لجذب انتباهي إلى هذا الخطاب.

Dunn, 'Myths,motivations and 'misunderestimations?', p. 294, -12 cites Johanna McGeary, '6 reasons why so many allies want Bush to slow down', Time, 3 February 2003.

Woodward, ibid, p. 341. -13

Woodward, Plan of Attack, p. 296. -14

George Monbiot,'Our fake patriots',Guardian,8 July 2003. -15

16- انظر:

Rampton and Stauber, ibid, p. 169.

Phillip Knightly, 'The disinformation campaign', Guardian, 4 October 2001. -17

18- انظر:

Singer, The President of Good and Evil, p.162.

19- Nicholas Lemann, 'How it came to war', New Yorker, 31 March 2003, citing Richard Haas, then director of the policy-planning at the State Department.

20- Mary Wiltenburg, 'After the genocide, redemption', Christian Science Monitor,
http://www.csmonitor.com/2004/0407/p01s03-woaf.html .

21- انظر:

Isabel Hilton, 'Need to build a case for war? Step forward Mr. Chalabi', Guardian, 6 March 2004.

22- Kampfner, Blair's Wars, p. 168.

23- انظر:

Michael Smith, 'Blair planned Iraq war from the start', Sunday Times, 1 May 2005, citing civil service paper prepared for 23 July 2002 Downing Street meeting.

24- «كان الأمر واضحا في ذهنه عند عودته من كروفورد [بولاية تكساس] إلى حد أنه طلب من وزير الخزانة غوردون براون إعادة ترتيب حساباته المالية من أجل الميزانية التي سيقدمها في شهر نيسان/أبريل لاحقا. وعلى الفور اشتغل مسؤولون من وزارة الخزانة ورئاسة الحكومة في السر على ـ الأرقام ـ أي حجم المبالغ الإضافية المطلوبة لتغطية نفقات الاستعدادات للحرب». انظر:

Kampfner, ibid, p. 169.

Kampfner, ibid, p. 168. -25

يذكر ستوثارد أيضا أن بلير ومساعديه اعتقدوا بأن جورج بوش سيذهب إلى الحرب على العراق مهما قاله أو فعله الآخرون (وهو رأي اشتركوا فيه، بالصدفة، مع معظم منتقدي الحرب).

26- انظر:

'Full text: Tony Blair's speech' ,Guardian Unlimited, 18 March 2003, http://politics.guardian.co.uk/iraq/story/0,12956,916790,00.html .

27- انظر:

Stothard, 30 Days, p. 85.

Robin Cook, 'Not even in his worst nightmares, Guardian, 25 -28 March 2005.

بعد تفجيرات لندن (تموز/يوليو 2005)، قدم بلير الحجة على أن تغيير السياسة سيهدي للإرهابيين نصرا.

29- انظر:

Kampfner, ibid, p. 387.

30- انظر:

Beatrix Campbell, 'An infantile disorder', Guardian, 26 July 2004.

Frum and Perle, An End to Evil, pp. 271-2. -31

32- انظر:

Richard Perle, The Spectator, 22 March 2003, www.benadorassociates.com/article/287.

33- انظر على سبيل المثال:

Mark Curtis, The Great Deception.

Suzanne Goldenberg, 'Bush's America loses hearts and minds', -34 Guardian, 4 June 2003, citing Pew Global Attitude Project.

35- انظر:

Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, p. 269.

قال هتلر نفسه في «كفاحي» (الفصل السادس): «حين تقاتل الأمم على هذا الكوكب من أجل الوجود.. تتهاوى آنئذ الاعتبارات الإنسانية والجمالية كلها وتفقد أهميتها.. وتصبح غير ذات صلة كلية بأي شكل من أشكال الكفاح حالما تبرز حالة يمكن أن تتعرض فيها غريزة البقاء لدى أمة مناضلة إلى الشلل».

Accessed at http://www.hitler.org/writings/Mein_Kampf/mkv1ch06.html .

Rpbert Kaplan, 'Five days in Fallujah', Atlantic Monthly, July/ -36 August 2004, p. 118.

Ibid. -37

38- انظر:

Mailer, Why Are We at War?, p. 105.

Arendt, ibid, p. 352. -39

40- حين نشعر بالقلق (بسبب قرض مالي أخذناه، أو على صحة وسلامة أنفسنا وأسرتنا)، نجد أن من الصعب علينا التفكير بوضوح، كما يصعب علينا التفكير بشكل مستقل. ولفترة وجيزة على الأقل، يمكن للتلفزيون أن يكبت مشاعر القلق، ويبث تعريفات الآخرين لما نفتقده، وما يجب أن يقلقنا، ومن

ينبغي أن نكره. ولربما تكون أفضل الطرق لكبت مشاعر القلق الحالية إثارة مشاعر قلق جديدة.

Arendt, ibid.

41- Arendt, ibid, p. 333.

42- انظر:

'President swore-in to second term',

The White House, http://www.whitehouse.gov/news/release/2005/01/2005120-1.html.

من اللافت أن بوش نأى بنفسه أيضا عن جزء من خطابه البلاغي. إذ إن «الانتصار النهائي للحرية» لم يحدث «لأن التاريخ يسير على عجلات الحتمية: بل لأن الخيارات الإنسانية هي التي تحرك الأحداث. وليس لأننا نعتبر أنفسنا أمة مختارة: بل الله يحرك ويختار كما يشاء». ثم يختتم بعبارة «بارك الله فيكم، وليحرس الولايات المتحدة الأمريكية».

43- ملاحظات أدلى بها الرئيس بوش أمام غرفة التجارة الأمريكية في 6/11/2003.

http://www.whitehouse.gov/news/releasee/2003/11/print/2003 1106-1html .

44- انظر:

Max Rodenbeck, New York Review of Books, 11 August 2005, citing Jonathan Randal, Osama: The making of a terrorist (Knopf).

45- قدم توماس بين الحجة على أن العمل الثوري ضد التاج البريطاني يمكن

أن يتغلب على مشاعر القلق المتعلقة بكلية القدرة الإلهية وقضاء الله وقدره: «فإذا سقط الملك، فمن الواضح أن سقوطه يمثل إرادة الله ومشيئته». انظر:

Tom Pain, Common Sense, first published 1776.

46- انظر:

James Langton, 'Iraq is at the center of terror war, says Bush', Evening Standard, 8 September 2003.

47- في معرض تعليقه على الرواية التبشيرية التي حققت أعلى المبيعات «ظهور مجيد» (حيث يعود يسوع إلى الأرض ليمحو جميع الذين لا يدينون بالنصرانية من على ظهرها)، يلاحظ نيكولاس كريستوف أن ذلك لا يساعد بالتأكيد فيما يتعلق بالانتهاكات التي ارتكبت بحق المسلمين في «أبو غريب» وغيره. «فمن الصعب التعاطف مع الناس الذين نعتبرهم كفارا ونتوقع من يسوع المسيح أن يكتم أفواههم ويغمض عيونهم في أي وقت الآن». انظر:

Nicolas Kristof, 'Jesus and Jihad', New York Times, 17 July 2004,www.nytimes.cim .

يعتقد الكثير من المسيحيين الإنجيليين أن «العودة الثانية» سوف تتم في إسرائيل، وأن وجود اليهود هناك شرط ضروري لتحقيق النبوءة الإنجيلية/التوراتية. انظر مثلا:

Micklewait and Wooldridge, The Right Nation; Karen Armstrong, 'Root out this sinister cultural flaw', Guardian, 6 April 2005.

48- انظر:

'Blair calls new law to tackle rogue states', Time Online, 5 March 2004, www.timesonline.co.uk/aticle/0,,1-1027157,00html .

49- Mann, Incoherent Empire.

50- Gary Younge, 'God has a plan. Bush will hold back the evil', Guardian, 9 October 2004.

51- انظر:

Michael Ignatieff, 'Who are Americans to think that freedom is theirs to spread?', New York Times, 26 June 2005, accessed at http://www.ksg.harvard.edu/ksgnews/Features/opeds/062605_ ignatieff.html.

52- Frank, What's the Matter with America?, p. 229.

53- Jonathan Feedland, 'Faith against reason', Guardian, 20 October 2004.

54- Woodward, Plan of Attack, pp. 270-1.

55- Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism, 269.

56- Jason Burke, 'Theatre of terror', Guardian, 21 November 2004.

علق الزعيم الشيشاني شامل باسييف في أوائل عام 2005 قائلا إن مقاتيه سوف ينفذون مزيدا من الهجمات كتلك التي شنت على مدرسة بيسلان في روسيا: «لكي نكشف للعالم مرة تلو الأخرى الوجه الحقيقي للنظام الروسي»، ربما من خلال ردة فعله الوحشية.

Channel 4 News Special Report, Jonathan Miller, 'Another Beslan?', 3 February 2005, www.channel4.com .

57- Mark Juergensmeyer, 'Religious terror and global war, Global and International Studies Program, University of California, Santa Barbara,

2002.

Roberts, 'North African Islamism in the blinding light of 9-11'; -58

Mann, Incoherent Empire.

59- أول مناظرة سبقت انتخابات عام 2004. من الجدير بالذكر أن معظم الانتحاريين أتوا من السعودية. انظر:

Robert Scheer, 'US is its own worst enemy in Iraq, Los Angeles Times, 17 May 2005, accessed at:

www.globalpolicy.org.

60- انظر:

Michael Massing, 'The unseen war', New York Review of Books, 29 May 2003, nybooks.com .

61- من الواضح أن هجمات المتمردين العراقيين على المدنيين لا يمكن تبريرها، لكن ممارسة اختلاق «آخر» اكتسبت بعدا آخر حين أدين هؤلاء المتمردون الذين يواجهون قدرة عسكرية متفوقة بوصفهم مخادعين وجبناء. لاحظ الروائي والناشط الهندي ارونداتي روي بسخرية أن «الخداع تقليد قديم طبق على السكان الأصليين». انظر:

Arundhati Roy, 'A strong kind of freedom', Guardian, 2 April 2003, p. 2.

62- انظر:

Jonathan Steel and Dahr Jamail, 'This is our Guernica', Guardian, 27 April 2005.

'Blind to the truth', leader, Guardian, 18 June 2004. -63

Jason Burke, 'Ghost of al-Qaida left out of story', Observer, 27 -64 July 2003.

Andrew Green, 'Why Syria is America's new target', Guardian, 17 -65 April 2003.

Ghaith Abdul-Ahad, 'From here to eternity', Guardian, 8 June -66 2005.

Richard Norton-Taylor, 'Al-Qaida will retreat to Africa, says gen- -67 eral', Guardian, 25 August 2005.

Julian Borger, 'Bush threatens Syria over Iraq policy', Guardian, 14 -68 Septe-mber 2005.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, pp. 169-70, -69 citing 'GE, Microsoft Bring Bigotry to Life', FAIR Action Alert, 12 February 2002,http://www.fair. org/activism/msnbc-savage.html;cf also, Omer Bartov, Hitler's Army.

Mark Danner, 'Abu Gharib: the hidden story', New York Review -70 of Books, 7 October 2004, p. 49, citing 'AR 15-6 Investigation of Abu Gharib Detention Facility and 205th Military Intelligence Brigade'.

71- انظر:

Jonathan Glover, Humanity: A Moral History of the 20th Century (London: Jonathan Cape, 1999).

Tina Branigan, 'Sister fears Guantanamo detainee may 'confess?', -72 Guardian, 17 June 2004.

73- في سيراليون على سبيل المثال، قد يشير النصر الانتخابي في دلالته إلى أن زعيما توصل إلى قوى خفية تؤيده، أما الهزيمة فتعني أنها تخلت عنه. انظر:

William P. Murphy, 'The sublime dance of Mende politics: an African aesthetic of charismatic power', American Ethnologist, November 1998, 25 (4): 563-82.

الفصل الثامن: درء عار العجز

1- انظر:

Gilligan, Violence: Reflections on Our Deadliest Epidemic.

كثيرا ما نتخيل أن الخشية من العار سوف يحسن السلوك، لكن ذلك لا يحدث بالضرورة. فقد أشار جون وفاليري بريثويت إلى أن الشعور العار لا يمكن أن يحسن السلوك إلا إذا توضحت إدانة بعض الأفعال المعينة بدلا من الشخص الذي يرتكبها. انظر:

Eliza Ahmed, Nathan Harris, John Braithwaite, Valerie Braithwaite, Shame and Management through Reintegration (Cambridge University Press, 2001).

2- Hobsbawm, Bandits, p. 65.

قارن مع:

Arendt, On Violence, and Michael Jackson, In Sierra Leone, pp. 37-8.

حتى على مستوى الاستشساد على الأطفال، يمكننا رؤية كيف يغذي الإذلال السلوك العدواني. لاحظت كاميلا بتمانغيليدج، مؤسسة جمعية خيرية للأطفال المحرومين في ساوثوارك (لندن)، أنه «إذا أخطأ الطفل، حاول ألا تجعله يشعر بأن

كل شيء قد ضاع. وركز على الجانب الإيجابي، كان تقول مثلا: ـ أنت طفل ودود ولطيف، ولا أفهم لماذا اعتديت على صديقك بالضرب ـ عندئذ يمكنك التحاور معه. ولا تحاول أبدا تأنيب طفل أمام الآخرين ـ فهذا يجعله يشعر بالعجز والخجل. ويضطر لاستعادة قوته بتوجيه الإهانة إليك بالمقابل». انظر:

'This is much I know', Observer Magazine, 10 August 2003.

3- انظر على سبيل المثال:

Ellis, The Mask of Anarchy.

4- Hobsbawm, Bandits.

5- انظر مثلا:

Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone; Richards, Fighting for the Rainforest.

6- انظر أيضا:

Jackson, Inside Sierra Leone.

7- Diana Lary, 'Warlord Soldiers': Chinese common soldiers 1911-1937 (Cambridge University Press, 1985).

8- تروي لاري أيضا أن الصينيين في أوائل القرن العشرين كثيرا ما استنكروا الحروب باعتبارها نتيجة «لعقول الجنود الصغيرة والشريرة»: وفي هذا تذكرة، عرضية، بأن اللجوء إلى «الشر» لتفسير الفظائع المرتكبة ليس أمراً جديداً.

9- Woodward, ibid, p. 211.

10- شعر رمسفيلد نفسه باهتزاز المبنى. انظر:

Woodward, Bush at War, p. 24.

Mark Danner, 'Abu Gharib: the hidden story', New York Review -11 of Books, 7 October 2004.

بالنسبة لنقص الموارد، انظر أيضا:

John and Fay.

Gerges, The Far Enemy. -12

13- انظر مثلا:

Ahmed Rashed, 'The rise of Bin Laden', New York Review of Books, 27 May 2004, reviewing Steve Coll's Ghost Wars.

Amanda Ripley, 'The rules of interrogation', Time, 17 May 2004. -14

Human Rights Watch, 'Coercive interrogation', January 2005,http:/ -15 /hrw.org/wr2k5/darfurandabugharib/3.htm.

Mark Danner, 'The logic of torture', New York Review of Books, -16 24 June 2004, http://www.markdanner.com/nyreview/062404_Road_to_Torture.htm.

Barstow, Witchcraze, p. 132. -17

Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone. -18

Mark Danner, 'The logic of torture'. -19

Ibid. -20

Woodward, Bush at War, p. 352. -21

Bob Graham, 'I just pulled the trigger', Evening Standard, 19 June -22

2003, accessed at http://www.thisislondon. com/news/articles/ 5402105'source=Evening%Standard.

23- David Leigh, 'UK forces taught torture methods', Guardian, 8 May 2004.

24- Adam Sweeting, "'Will I be deported"', Guardian, 22 May 2003.

25- Melanie Klein and Joan Riviere, Love, Hate and Reparation (New York: W.W.Norton, 1964).

26- Joan Riviere, 'Hate, greed and aggression', in: Klein and Riviere, ibid, p. 9.

27- Stephen Mulhall, 'Decay prone', London Review of Books, 22 July 2004, citing Martha Nussbaum,'Hiding from humanity: disgust, shame and the law'.

28- Ehrenreich, 'Preface'.

29- كثيرا ما يتبدى التفكير السحري لدى الأطفال، حيث تعكس خيالاتهم لتغيير العالم من خلال قوة الرغبة والتعلل بالأماني نوعا من العجز على الأرجح. انظر مثلا:

Kemberg, 'Sanctioned social violence', p. 689.

30- انظر مثلا:

Elizabeth Drew, 'Hung up in Washington', New York Review of Books, 12 February 2004.

Gold, 'Some economic considerations in the U. S. war on terror', p. 4. -31

Bob Herbert, 'Shrinking America?s problems', International Herald -32 Tribune, 3 August 2004.

Justin Cartwright, 'Rise of the new infantilism'2, Guardian, 5 July -33 2003.

Edward Said, A window on the world', Guardian, [G2], 2 August -34 2003, http://books.guardian.co.uk/review/story/0,12084,1010417,00.html.

Ibid. -35

36- ثمة فشل في فهم هؤلاء حقيقة أن العراق بلد له كرامته وطنية ويتمتع بتعاطف وطني، مثل بلدهم تماما. ظهر على أحد المواقع الإلكترونية (لامرأة عراقية في العشرينيات من العمر) ما يلي: «لماذا يظن الأمريكان أن العراقيين في بغداد أو الجنوب أو الشمال لن يهتموا بما يجري في الفلوجة، أو الرمادي، أو الناصرية، أو النجف؟ هل يتجاهل الأمريكيون في نيويورك أي تفجيرات وأعمال قتل تحدث في كاليفورنيا مثلا؟».

('Baghdad burning', 7 April 2004, http://riverbend. blogspot.com.)

Woodward, Bush at War, p. 175. -37

Woodward, Plan of Attack, p 311. -38

39- أشارت الطبيبة الشهير المتخصصة في الطب النفسي للطفل جين بياجيت، وباربرا انهيلدر إلى فكرة السببية التي تدعى «الظواهراتية ـ السحرية»: وهي فكرة يتشبث بها الولدان الذين يعزون الأحداث إلى أفكارهم وتصرفاتهم

الخاصة، بدلا من العلاقات بين الأشياء الخارجية أو الأشخاص الآخرين. أما استيعاب المعطيات الجديدة حول العلاقات في العالم الخارجي فيعتمد على البنى الذهنية/العقلية الموجودة، التي تتعدل وتتعزز بدورها حين يتكيف سلوك الشخص مع متطلبات الواقع الحقيقي.

40- Transcript at http://www.whitehouse.gov/news/releases /2005/06/ 20050628-7.html .

41- انظر:

Emmanuel Todd, After the Empire: The breakdown of American order; James Putzel, 'The 'new' US imperialism and possibilities for co-existence', Crisis States Research Center, paper for annual workshop, 30 August-1 September 2005; David Harvey, in conversation with Harry Kreisler, 2004, UC Berkeley, http://globetrotter/berkeley.edu/people4/Harvey/harvey.con0.html.

42- Putzel, ibid.

43- Ibid.

44- Putzel, ibid; cf Arendt, The Human Condition,

حول العنف الناجم عن الضعف بدلا من القوة، انظر:

Gerges, The Far Enemy.

45- Woodward, Bush at War, p. 229.

46- Feffer, 'Introduction', p 15.

47- 'The power of nightmare', BBC2, broadcast October 2004.

48- ورد التشديد في الأصل.

49- كتبت جيسيكا شتيرن تقول: «العديد من المقاتلين الذين حاربوا في أفغانستان انتقلوا الآن للقتال في كشمير ومن المرجح أن يستمروا في البحث عن «جهاد» جديد - حتى ضد باكستان ذاتها. ونقلت عن رجل يدعى خليل، المجاهد منذ تسعة عشر عاما، الذي لم يعد يتخيل إمكانية الحياة بدون جهاد، قوله: - المدمن على الهيروين يمكن أن يتوقف عن تعاطيه إذا حاول فعلا، لكن المجاهد لا يمكن أن يترك الجهاد. روحي مدمنة على الجهاد». انظر:

'Pakistan jihad culture', Foreign Affairs, November/December 2000.

50- أدين بالفضل هنا إلى دومينيك جاكين - بيردال: الفكرة أيضا تناولها مايكل اغناتييف في مقالته «الدم والانتماء».

51- Karen Armstrong, 'Our role in the terror', Guardian, 18 September 2003.

52- بعض التأثيرات التي مارستها الولايات المتحدة خفية ومراوغة: عبر «القوة اللينة/الناعمة». بعض المغنين البريطانيين المشهورين مازالوا يغنون باللهجة الأمريكية. وعلى سبيل المثال، يقول البريطانيون عادة: «تعرض البرجان التوأمان للهجوم في 2003 /11/9»، أو في 11/9 اختصاراً. لكن لم يجد أحد في تبني الصيغة الأمريكية 9/11 أمراً شاذاً.

53- مثلما علقت هوميرا خان، العاملة في مجال الخدمة الاجتماعية في بريطانيا: «نحن نتعامل مع أناس يعيشون حقبة نهاية إمبراطورياتهم. فالمسلمون لم يتأقلموا بعد مع حقيقة أنهم لم يعودوا القوة المهيمنة على العالم». انظر:

'What happened? What changed? What now?', transcript of an openDe-

mocracy/Q-News meeting at Chatham House, 4 August 2005, www.opendemocracy.net .

انظر أيضا:

Bernard Lewis, 'The roots of Muslim rage', Policy, 17(4), summer 2001-02.

54- Kampfner, Blair's Wars, p. 3.

55- Christopher Meyer, 'Tony Blair and the wooing of America', Guardian, 7 November 2005.

56- George Monbiot, 'Our fake patriots', Guardian, 8 July 2003.

57- حتى الستير كامبل قال مازحا إن على بلير أن يبدأ خطابه على التلفزيون بريطاني بالقول: «إخواني وأخواتي الأمريكان!»، لكن بلير لم يضحك.

Stothard, 30 Days, p. 106.

58- المثال على الاهتمام بالتقديم والعرض تجسد حين أدانت كلير شورت السياسة تجاه العراق بوصفها «متهورة، متهورة، متهورة»، وكان بلير على وشك الظهور على شاشة التلفزيون، فقال لمستشاريه: «هل أنا محبط بسبب أفعال كلير شورت أم مشتت الذهن؟».

Stothard, 30 Days, p. 10.

59- خطاب أمام مؤتمر حزب العمال. انظر:

Guarduian, 1 October 2003.

60- George Monbiot, 'Our fake patriots', Guardian, 8 July 2003.

الفصل التاسع: العار والنقاء والعنف

1- انظر:

Tim Allen, 'Understanding health'.

2- قدم الزعماء الدينيون المرتبطون بالدفاع المدني في سيراليون نوعا من الحصانة للمجندين طالما امتنعوا عن الاتصال الجنسي وممارسة الانتهاكات ضد المدنيين. انظر:

Patrick Muana, 'The Kamajoi militia', pp. 77-100; Keen, Conflict and Collusion in Sierra Leone.

حول موزمبيق انظر:

Ken Wilson, 'Cult of violence and counter-violence in Mozambique'.

حول أوغندا، انظر:

Tim Allen, 'From the Holy Spirit Movement to International Criminal Court'.

3- إخراج النساء من أماكن العمل كان جزءا من هذا المشروع.

4- يرجع لوم اليهود على الكوارث إلى قرون مضت، بما في ذلك اتهامهم بـ«تسميم الآبار» خلال جائحة الطاعون.

5- انظر:

Bartov, Mirror of Destruction, pp. 60-1.

6- انظر مثلا:

Philip Short, Pol Pot; Ben Kiernan, 'The Pol Pot regime'.

7- انظر مثلا:

Mamdani, When victims become killers.

Thomas Friedman, 'Smoking or non-smoking', 14 September 2000, -8
in: Friedman, Longitude and Attitude, p. 37.

بعد أسبوعين، أضاف فريدمان: «كلما زاد رعب أعدائنا اليوم، قل عدد من سنقاتلهم غداً.. حل الآن موسم مطاردة واصطياد أولئك الذين يريدون تدمير بلادنا.. وعلى كل دولة أن تعلم أن إيواء الإرهابيين المعادين للولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر سيكون مهلكا».

'Talk later', 28 September, in: Friedman, ibid, pp. 44-5.

9- انظر:

Woodward, Bush at War, p. 215.

Ibid, p. 38. -10

Ibid, p. 38-39; cf also Theweleit, Male Fantasies. -11

Transcript at http://www.whitehouse.gov/news/releases /2005/06/ -12
20050628-7.html .

'The power of nightmares', BBC2 TV, broadcast October 2004. -13

المثال على الخوف من الاحتجاجات «المناهضة للحرب» قدمه ديفيد هوروفيتز في كتابه «حلف غير مقدس».

14- انظر مثلا:

Oliver Burkman, 'Religious right relishes chance to push agenda', Guardian, 5 November 2004.

15- Norman Mailer, 'The election and American future', New York Review of Books, 4 November 2004, p. 13.

16- مقابلة مع طارق رمضان في:

Paul Vallely, 'We Muslims need to get out of our intellectual and social ghettos', Independent, 25 July 2005.

17- انظر:

Robert Fisk, 'Something happened between'I love you' and the click of the phone: Palestine, Afghanistan and Iraq turn in incendiary', counterpunch.org, 23-24 July 2005.

18- CNSNews.com, Informatiom Services, 'President Bush's remarks to national prayer breakfast', 7 February 2002, http://www.cnsnews.com/Culture/archive/200202/CUL20020207b.html.

19- Hilton, The Age of Atonement.

20- حول فيروس عوز المناعة المكتسبة/الإيدز، انظر:

De Waal, 'A disease with no name', pp. 238-67.

21- Clifford Longley, Chosen People, p. 279.

22- قد تبدو حجتي ضمن هذا النطاق، لكن آمل أنني قدمت الدليل لدعمها!

23- Otto F. Kernberg, 'Sanctioned social violence', pp. 683-98.

لربما أضاف التقارب الغريب في التفسيرات الدينية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر حماسا وحدة إلى وسم واتهام «الإرهاب الإسلامي» بالجنون الكامل وتحميل المسؤولية بشكل قاطع لـ«الآخر».

24- «أؤمن فعلا بأن الوثنيين، ودعاة السماح بالإجهاض، والحركات النسوية، والمثليين، والمثليات، الذين يحاولون جعل ذلك بديلا مقبولا لأسلوب الحياة، واتحاد الحريات الأمريكية المدنية، والشعب من أجل الطريقة الأمريكية، وجميع الذين حاولوا علمنة أمريكا، أشير بإصبع الاتهام نحوهم وأقول: لقد ساعدتم على حدوث هذا».

'Falwell apologizes to gays, feminists, lesbians', http://archive.cnn.com/2001/US/09/14/Falwell.apology/

25 - Alan Coopeman, 'Some say natural catastrophe was "divine judgment"', Washington Post, 3 September 2005.

يبدو أن سمعة نيواورليانز في مناطق الجنوب والغرب الأوسط الأمريكي (حيث تسود الأصولية البروتستانتية) بوصفها واحة "للخطيئة" قد شجعت ذلك.

26- انظر:

Douglas Kellner, From 9/11 to Terror War.

27- Bartov, Mirrors of Destruction, p. 61.

28- Richard Hofstadter, The Paranoid Style in American Politics, pp. 32-3.

29- Max Weber, The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, 2nd edn (London: George Allen and Unwin, 1976).

30- Singer, The President of Good and Evil, p. 135.

31- Clifford Longley, Chosen People, p. 276.

Woodward, Bush at War, p. 145. -32

Woodward, Plan of Attack, p. 178. -33

Ibid, 241. -34

David Hare, 'Don't look for reason', Guardian, 12 April 2003. -35

36- في اجتماع للجمهوريين عام 2004، جرى توزيع شريط طبي لاصق (يستخدم عادة لتضميد الخدوش) عليه صورة وسام «القلب الأرجواني» للسخرية من الجراح التي أصيب بها كيري في فيتنام. انظر:

Joe Klein: 'Tearing Kerry down', Time, 13 September 2004, p. 29.

Norman Mailer, 'The election and American future', p. 13. -37

David Halberstam, 'War in a time of peace', quoted in Stephan -38 Holmes, 'Looking away', London Review of Books, 14 November 2002.http://www.lrb.co.uk/v24/n22/print/holm01_.html.

Timothy Garton Ash, 'Anti-Europeanism in America', Hoover Di- -39 gest, http://www.hoover.Stanford.edu/publications/digest/032/ash2.html, earlier version in: New York Review of Books, 13 February 2003.

Robert Kagan, 'Power and weakness', Carnegie Endowment for In- -40 ternational Peace, June 2002, http://www.ceip.org/files/print/2002-06-02-policyreview.htm .

Timothy Garton Ash, ibid. -41

42- Ibid.

43- Gary Aldrich, 'Death by liberal', WorldNetDaily.com, 2001, http:// www.freerepublic.com/focus/f-news/526269/posts .

44- ورد الشاهد في:

Frank, What's the Matter with America? p. 278.

45- Woodward, Bush at War, pp. 47, 208.

46- Stothard, 30 Days, p. 40.

47- Ibid, p. 25.

48- Woodward, Bush at War, p. 245; Woodward, Plan of Attack, p. 249.

49- Stothard, ibid, pp. 146-7.

50- MSNBC News, 'The Mohamed Atta files', 13 October 2005.

51- انظر مثلا:

Evan Wright, Generation Kill.

52- Allen Feldman, 'Abu Gharib: ceremonies of nostalgia', 18 October 2004, opendemocracy.net; Adrian Levy and Cathy Scott-Clark, 'One huge US jail', Guardian Weekend, 19 March 2005.

53- James Strucke, and agencies, 'US soldiers 'desecrated Taliban bodies?', Guardian, 20 October 2005.

54- Cf also Faludi, Stiffed.

55- تيموثي مكفي الذي أعدم بسبب دوره في تفجيرات اوكلاهوما، كان يحمل نسخا من «يوميات تيرنر» معه، ويبيعها بسعر مخفض. أما سجل اتصالاته الهاتفية فيشير إلى أنه تحدث عدة مرات مع المؤلف قبيل الهجوم على اوكلاهوما. انظر:

Juergensmeyer, Terror in the Mind of God, pp. 31, 248-9.

أما «المذكرات» فتصف هجوما على مبنى اتحادي باستخدام شاحنة وكمية مشابهة من سماد نيترات الأمونيوم والوقود لتلك التي استخدمت في التفجير.

Ibid, p. 32.

56- The Turner Diaries, p. 42, in: Juergensmeyer, ibid, p. 205.

57- Juergensmeyer, ibid, p. 205.

الخطاب الكولونيالي البريطاني أشار بشكل متكرر إلى الهنود بتعابير التأنيث، وردت الحركة الوطنية الهندية على لغة الخصاء هذه. على سبيل المثال، حين أجرت الهند تجاربها النووية في عهد حكومة حزب بهاراتيا جاناتا الهندوسي عام 1998، قال الزعيم الهندوسي الشوفيني ورئيس حزب «شيفا سينا»، إن تجارب عام 1998 أثبتت أن الهنود ليسوا «خصيان» (ibid).

58- Ibid, p. 34.

59- Barry and Lobe, 'The people', in: Feffer, Power Trip, p. 41.

حول تأثير هذه المؤسسات الاستشارية، انظر على وجه الخصوص:

Micklethwait and Wooldridge, The Right Nation.

60- Stothard, 30 Days, p. 2.

61- Rory McCarthy, Patrick Wintour and Richard Norton-Taylor, 'Bomb critics are emotional says Short as war intensifies', Guardian, 19 October 2001.

62- Polly Toynbee, 'Limp liberals fail to protect their most profound values', Guardian, 10 October 2001.

63- Gilligan, Violence.

64- انظر مثلا:

Zur, Violent Memories; Summerfield, 'The social experience of war'.

هذا أمر واجه بانتظام الأخصائيين بمعالجة حالات الحزن والصدمة. في غواتيمالا، سأل ضحايا حملات محاربة التمرد الوحشية المدعومة من قبل الولايات المتحدة في أوائل الثمانينيات، عما فعلوه، كأفراد أو كمجوعات من القرويين، لكي يتعرضوا لمثل ذلك العنف. ومثلما أخبرني أحد الباحثين في مجال حقوق الإنسان: «لم يفهم الناس الأمر. واكتفوا بالقول: ـ لا بد أننا ارتكبنا خطيئة لا تغتفر، لكن أي خطيئة هذه؟». أما الشعور بالذنب الذي تملك ضحايا العنف فقد لقي تشجيع فعالا من حكومة غواتيمالا: كما استخدمت أسلوب العصا والجزرة لدفع الأهالي إلى المشاركة في العنف ضد بعضهم بعضا؛ ووضعت قيودا صارمة على تدفق المعلومات بحيث يسأل سكان القرى المعزولة لماذا اختيروا وحدهم لينالوا العقاب. انظر:

Keen, 'Demobilizing Guatemala'.

65- Mann, Incoherent Empire.

66- Barbara Kingsolver, Los Angeles Times, 23 September 2001, cited in: David Held, 'Violence, law and justice in a global age', 1, www.polity.co.uk/global/sept11.htm .

67- يقول ديفيد هيلد (ibid) إنه شعر بالغضب في البداية بسبب الرسالة، ثم وجدها مفيدة عند ربطها بميوله الكوزموبوليتانية (المتحررة من المشاعر الوطنية الضيقة).

68- www.washingtonpost.com./1c2/wo-dyn/a55511-2002 Aug23.

انظر أيضا:

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 151.

69- Horowitz, Unholy Alliance, p. 123.

70- Ibid, p. 165.

71- Ibid, p. 229.

72- Rampton and Stauber, Banana Republicans, p. 3.

73- Ibid, p. 15.

74- Stanford, The Devil: A biography, p. 91.

75- مسرحية ميللر «البوتقة» تكشف دور الإسقاط في الاضطهاد: أفكارك العنيفة يمكن أن تسقط على الآخرين.

76- Karen Armstrong, 'Our role in the terror', Guardian, 18 September 2003; Dan De Luce, 'The specter of Operation Ajax, Guardian, 20 August 2003.

77- Noam Chomsky, 'One man's just war is global terror', Sunday Independent [South Africa], 13 July 2003.

78- انظر مثلا:

Mahmoud Mamdani, 'Good Muslim, bad Muslim', www.ssrc/org/sep11/essays/mamdani.htm .

79- Federation of American Sciences, 'Fast facts: US arms exports', Washington, 2005, http://www.fas.org/asmp/fash_facts.htm .

80- Kepel, Jihad.

81- Kepel, ibid, p. 315.

بحلول عام 1982، كان الجهاد الأفغاني يتلقى 600 مليون دولار في السنة من المعونات الأمريكية (Kepel, ibid, p. (143

82- Kepel, Jihad.

83- Felicity Lawrence, 'Aid against terror', Guardian, 28 September 2001.

84- Kepel, ibid, p. 298; Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 19.

85- Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 19.

86- Norman Dixon, 'How the US armed Saddam Hussein with chemical weapons', Green Left Weekly, 28 August 2002, www.greenleft.org

87- Michael Dobbs, 'US had key role in Iraq buildup', Washington post, 30 December 2002, cited in Rampton and Stauber, ibid, pp. 19-20.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 21. -88

Nick Cohen, 'A time for friends', Observer, 6 April 2003. -89

Kenneth Timmerman, The Death Lobby. -90

Human Rights Watch, 'Genocide in Iraq: the Anfal Campaign -91 against the Kurds', 1993, http://hrw.org/reports/1993/iraqanfal/ ANFALINT.htm.

92- انظر على سبيل المثال:

Keen, The Kurds in Iraq.

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, pp 76-7. -93

'Barbarit is the inevitable consequence of foreign rule', Guardian, -94 27 January 2005.

95- ورد الشاهد في:

Jonathan Steel's 'Shaper of a nation's conscience', Guardian, 8 March 2003.

Nicholas Pye, 'Schools ignore it - but is it time for the empire to -96 strike back', Guardian, 5 July 2003.

Richard Drayton, 'An ethical blank cheque', Guardian, 10 May -97 2005.

Jonathan Raban, 'The greatest Gulf', Guardian, 19 April 2003. -98

Jonathan Glancey, 'Our last occupation', Guardian, 19 April 2003. -99

100- ورد الشاهد في:

Mark Danner, 'The logic of torture', New York Review of Books, 24 June 2004.

101- Philip Knightley, The First Causality: From the Crimea to Vietnam: The war correspondent as hero, propagandist and myth maker (London: Pan, 1989).

102- Massing, 'Now they tell us', New York Review of Books, 26 February 2004, p. 45.

103- Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 185.

104- Ibid, p. 192.

105- المساهمة العسكرية الرئيسة في غزو العراق عام 2003 أتت بشكل ساحق من الولايات المتحدة وبريطانيا (مع مساهمات أخرى لا تستحق الذكر من أستراليا وبولندا والدنمرك وكوريا الجنوبية). وبحلول الوقت التي بدأت فيه الحرب، كانت مع الولايات المتحدة ثلاثون دولة على استعداد للمساهمة في الحرب ودعمها علنا، إضافة إلى خمس عشرة زعم أنها أيدتها سرا. مثلت هذه الأخيرة شكلا غريبا من «الدعم» وأطلق عليها بسرعة اسم «تحالف الدول غير الراغبة بأن تسمى». واستخدم المسؤولون الأمريكيون والبريطانيون داخل مجلس الأمن الدولي أسلوب العصا والجزرة للحصول على موافقة تسعة من الأعضاء الخمسة عشر على مهاجمة العراق: لأن إصدار قرار جديد سيتطلب موافقة هؤلاء. وأغري العضوان الدائمان، روسيا وفرنسا، بالعقود النفطية والتعويضات المالية. وجرى استرضاء روسيا بوضع مجموعات المتمردين الشيشان على اللائحة السوداء. أما بقية الأعضاء فتعرضوا لمختلف

أنواع المغـريات والتـهـديدات. لكن لم تتـمكن الولايات المتـحـدة أبدا مـن تـأمين الأصوات الضـرورية للحصـول على تفويض من مجلس الأمـن بشن الحـرب على العراق. انظـر:

Rampton and Stauber, ibid.

106- من المقتضيـات الضـمنية المراوغة والمربكة لحجة جيمس غـيليغان (التي لم يعرضـها بشكل كامل) أن أشـد أفعالنـا بعـدا عن الأخلاق قد تنبثق بالضبط من دوافعنا الأخـلاقية، لأننا ما كنا سنـشعر لولاها بالخجل والعـار أصلا. وفي هذا السيـاق، نتوقع من إحساس بوش وبلير العـميق بمبـادئهـما الأخلاقيـة على مـا يبـدو أن يسـتحـضـر تهـديدا داهـمـا بالعـار، وردا عـدوانيـا غيـر مـألوف على الانتقاد، من النوع الذي رأيناه.

107- انظـر:

Suskind, The Price of Loyalty.

108- رقى بوش كوندوليزا رايس إلى منصب وزير الخارجية بدلا باول. واحتفظ رمـسـفيلد بمنصبـه. وأصبح ولفـوفيتـز رئيـسـا للبنك الدولي. أمـا البـيـرتو غـونزاليس، الذي أجـاز إصـدار المذكرات التي تبـرر التـعـذيب، فـأصبح وزيرا للعدل. انظـر:

Setmour Hersh, 'The unknown unknowns of Abu Gharib scandal', Guardian, 21 May 2005.

109- Faludi, Stiffed, p. 334.

110- في كتابهـا «ايخمـان في القـدس»، تظهـر هـانا ارندت كيف يمكن لمعارضـة المشـروع النـازي القـائم على الطرد والإبادة أن تكون مؤثرة وفعـالة بشكل لافت، كمـا فـي حـالة المسـؤولين الـدنمركيـين الذين تواطـئوا مع الاحتـلال النـازي. لقـد

شعر النازيون (بمن فيهم ايخمان نفسه) بالجرأة والجسارة دوما نتيجة غياب المعارضة لنظرتهم إلى العالم، لكنهم لم يتمتعوا بقوة كلية.

111- انظر:

Timothy Garton Ash, 'No more jeeves', Guardian, 30 September 2004;

انظر أيضا:

Short, An Honorable Deception?, p. 159; Christopher Meyer, 'How Britain failed in the run up to war', Guardian, 7 November 2005.

112- Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 118.

113- انظر أيضا:

Short, ibid.

114- Kampfner, Blair's Wars, p. 195.

115-Kernberg, 'Sanctioned social violence', p. 693.

116- المثال الآخر (وقلة أخذت هذا النسق إلى حده الدموي المتطرف) هو معاقبة أعداء الداخل من قبل الخمير الحمر ضمن سياسة الثورة الدائمة التي تبنوها.

117- لا يحظى الحزب الجمهوري إلا بتأييد قليل ومتقلص من الناخبين السود.

118- American-Arab Anti-Discrimination Committee Research Institute, 2003. 'Report on hate crimes and discrimination against Arab Americans, September 11 2001 to October 11 2002', Washington D.C.

119- Nigel Morris, 'Muslims made to feel like an enemy within by Islamophobic attitudes, report concludes', Independent, 3 June 2004.

120- Hugh Muir, 'British Council official sacked over anti-Islam article', Guardian, 2 September 2004.

121- Anthony Browne, 'The triumph of the East', Guardian, 27 January 2005, frontpagemab.com .

122- ثلاثة من المنفذين الأربعة ولدوا في بريطانيا.

123- William Bennett, Open letter, New York Times, 10 March 2002, quoted in: Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, p. 150.

124- Elizabeth Drew, 'Hung up in Washington', New York Review of Books, 12 February 2004.

125- Michael Massing, 'Now they tell us', New York Review of Books, 26 February 2004, p. 45.

بالمقابل، شجع نوع من الذهنية المغالية مزيدا من الانتقادات الانفعالية لبوش حالما انتهى الهجوم الرئيس على العراق.

Missing, ibid.

126- William Kristol, 'The axis of appeasement', Weekly Standard, 26 August-2 September 2002.

127- Barry and Lobe, in Feffer, Power Trip, p. 46.

انظر مثلا:

Michelle Goldberg, 'Osama university?' 6 November 2003, www.salon.com .

128- انظر مثلا:

Paul Harris, 'Besieged Bush faces attacks from friends as well as foes', Observer, 30 October 2005.

Andrew Sparrow, 'New law to stop flow of volunteers to terror -129 camps', News Telegraph, 16 July 2005,http://www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml'xml=/news/2005/07/16/ncleric16.xml .

Simon Jenkins, 'This an act of censorship worthy of Joseph Goeb- -130 bels', Guardian, 23 September 2005.

Joan Didion, 2003, 'Fixed ideas: America since 9.11, New York', -131 New York Review of Books, p. 14.

Antonius Robben, 'The fear of indifference'. -132

133- مقتطفات من رسالة إلى الستير كامبل. انظر:

Guardian, 28 June 2003.

Ewen MacAskill, "'It was a slip of tongue"', Guardian, 18 Sep- -134 tember 2003.

Ramani Ghelliah, letter to the Guardian, 28 June 2003. -135

Matt Wells, 'Study deals a blow to claims of anti-war bias in BBC -136 news', Guardian, 4 July 2003.

137- انظر مثلا:

Sidney Blumenthal, 'Bush's other war', Guardian, 1 November 2003.

138- Timothy Garton Ash, 'Anti-Europeanism in America', Hoover Digest, www.hoover.Stanford.edu/publications/digest/032/ash2.html, earlier version in New York Review of Books, 13 February 2003.

139- Steve Dunleavy, 'How dare the French forget', New York Post, 10 February 2003.

140- Thomas Friedman, 'Take France off the Security Council', New York Times, in: Guardian, 11 February 2003.

141- Stothard, 30 Days.

142- Thomas Friedman, 'Take France off the Security Council'.

143- Joe Klein: 'Tearing Kerry down', Time, 13 September 2004, p. 29.

144- بحث أجراه المؤلف:

www.crisistates.co .

145- Faludi, Stiffed.

146- Ewen MacAskill, 'What happened now inside Iraq/', Guardian, 15 December 2003.

147- Paul Rogers, 'Iraq's end to optimism', 28 April 2005, opnedemocracy.net.

148- Roy McCarthy, 'Just another day in Baghdad', Guardian, 19 June 2003.

149- انظر مثلا:

Wright, Generation Kill.

Mark Franchetti, 'Slaughter at the bridge of death: US Marines -150 fire on civilians', CounterPunch, 31 March 2003, www.counterpunch.org/franchetti03312003.

Scott Johnson, 'Inside an enemy cell', Newsweek, 18 August -151 2003, p. 17.

Julian Borger, contribution to 'Iraqis wait for US troops to leave.. -152 as wives clamor for their return', Guardian, 5 July 2003.

Ibid. -153

154- انظر مثلا:

Naomi Klein, 'Die, then vote. This is Falluja', Guardian, 13 November 2004.

155- انظر مثلا:

CNN, 'US forces raid al-Sader home in Najaf', 12 August 2004,http:// www.cnn.com/2004/WORLD/meast/08/12/iraq.main/.

Seumas Milne, 'The right to resist', Guardian, 19 June 2003. -156

157- الغضب على كبار الضباط كان واضحا أيضا، كما ذكر بوب غراهام من بغداد. ويقول المتخصص انتوني كاستيلو: «نحن أشد غضبا على الجنرالات الذين يتخذون هذه القرارات ولم تطأ أقدامهم الأرض، ولا

يتـعـرضـون لإطلاق الـرصـاص، أو يجـبـرون على النظر إلى هـذه الجـثث المخضبة بالدماء والمحروقة». انظر:

Bob Graham, 'I just pulled the trigger'.

انظر أيضا:

Michael Moore, Will They Ever Trust Us Again?, as well as Institute for Policy Studies and Foreign Policy in Focus, 2004, 'A failed transition', www.globalpolicy.org .

158- بالنسبة إلى هذه التوترات، انظر:

Wright, Generation Kill.

159- Naomi Wolf, 'We Americans are like recovering addicts after a four-year bender', Guardian, 7 November 2005.

160- Kampfner, Blair's Wars.

161- Michael Quiland, 'Blair had taken us towards an elective dictatorship', Guardian, 22 October 2004.

162- Richard Norton-Taylor, 'Low key tactics under review', Guardian, 25 June 2003.

163- Cohen, States of Denial, e.g., p. 103.

الفصل العاشر: الثقافة والسحر

1- انظر على سبيل المثال:

Sidney Blumenthal, 'The Bush nemesis', Guardian, 20 October 2005.

2- Micklethwait and Woodridge, The Right Nation.

3- Thomas Paine, Common Sense (1776),
http://gppsk.ab.ca-regilson/courses/ss23/t_paine-commonsense .html .

4- Owen Harries, 'Understanding America', CIS Lectures, Center for Independent Studies, 222.cis.org.au/Wvents/CISlectures/2002/ Harris030402.htm .

5- Godfrey Hodgson, 'Bush vs Kerry: what sort of people do we want to be?', 27 October 2004, opendemocracy.net.

6- 'The Power of nightmares', BBC2 TV, broadcast 27 October 2004.

(بالطبع، لو كان العالم بهذه الصورة، لكنا أكثر أمانا؛ لكن كيف تصل إلى هناك من هنا؟).

7- الجزء الذي لم يستشهد به بلير من توماس بين هو: «حتى برغم أن المسافات البعيدة التي فصل بها الله إنكلترا عن أمريكا تعتبر دليلا طبيعيا قويا، إلا أن سلطة إحداهما على الأخرى لم تكن أبدا خطة إلهية».

Thomas Paine, ibid.

8- فصل المغني ومؤلف الأغاني ستيف ايرل هذه النقطة بأسلوب بليغ. انظر:
'Pop and politics: Steve Earle', BBC2 TV, broadcast 11 April 205.

9- انظر مثلا:

Zinn, A People's History of the United States; Stannard, American Holocaust.

من المحتمل على ما يبدو أن ذلك غذى التعاطف مع إسرائيل، وهي مجتمع «حدودي» آخر اعتبر بعض أفراده أنهم يجلبون الخصب إلى الصحراء ويتوسعون على حساب شعب منحط.

Hofstadter, The Paranoid Style in American Politics. -10

Singer, The President of Good and Evil, p. 208. -11

12- ذكر معاصرو بوش في جامعة ييل أنه يشبه جون بيلوشي في فيلم «بيت الحيوانات» (1978)، وكان هذا سكيرا باحثا عن المتعة. فهو «معاد بشدة (مثل أبيه) للمثقفين والمفكرين من تلك الأنماط السائدة في الساحل الشرقي (الذين ما زالت مظاهر طلاب المدارس بادية عليهم»). انظر:

Oliver James, 'So George, how do you feel about your mom and dad?', Guardian, [G2], 2 September 2003, p. 6.

Ron Suskind, 'Without a doubt', New York Times, 17 October -13 2004.

Frank, What's the Matter with America?', p. 191. -14

Ibid, p. 17. -15

Frank, 'What's the Matter with liberals?', New York Review of -16 Books, 12 May 2005.

Frank, What's the Matter with America?', p. 119. -17

18- مثلما قالت الشخصية التي مثلها جوني ديب عند نهاية فيلم «قراصنة الكاريبي»: «أحيانا يضطر القرصان للقبض على قرصان».

19- هناك أفلام أخرى تقدم صورة مختلفة ـ على سبيل المثال: «الأرق» من بطولة آل باتشينو (الفيلم إعادة جديدة لنسخة قديمة من إنتاج نرويجي)، حيث يستغل المجرم شرطيا معذب وصاحي الضمير لفق دليلا ضد شخص «يعرف» (لكن لا يستطيع إثبات) أنه قتل طفلا. في نهاية المشهد، يحذر الشرطي محققة شابة من الثمن الذي ستدفعه إذا بالغت في الافتراض بأنها تعرف أكثر من القانون.

20- انظر أيضا:

Denzel Washington in Man on Fire (Alex Cox, 'Column', Guardian, 6 August 2004).

التعذيب برز أيضا في المسلسل التلفزيوني الشعبي «Lost».

21- Mailer, Why Are at War?, p. 54.

22- Mann, Incoherent Empire.

23- Woodward, Plan of Attack, p. 172.

24- Tony Thrupkaew, 'Culture', in: Feffer, Power Trip, p. 109.

25- Adekeye Adebajo, 'Time to stand up to the Wild West' Sowetan, 14 October 2002; Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception.

26- Rampton and Stauber, ibid, p. 25.

27- Adolf Hitler, Mein Kampf (chapter 6), accessed at:http:// www.hitler.org/writings/Mein_Kampf/mkv1ch06.html .

28- Ibid.

29- Arendt, The Origins of Totalitarianism, p. 362.

30- Al Gore, 'Democracy itself is in grave danger', Common Dreams News Center,http://www.commondreams.org/views 04/0624-15.htm .

31- Woodward, Plan of Attack, p. 94.

32- Ibid, p. 102.

33- يشير مارك دوفيلد إلى «الطبيعة السحرية» للاعتقاد بأن تقليص حجم المعونات نسبيا (في وقت اختفت فيه معونات التنمية إلى المجتمعات التي مزقتها الحروب) يمكن أن يمارس تأثيرا قويا في السلام والحكم الناجح. انظر:

Duffield, Global Governance and the New Wars, p. 98.

34- على سبيل المثال: «لينور»، «فوكسفاغن»، «تويكس». كلما أصبح الناس أقل جدارة وموثوقية في عالم متقلب ومادي، تعاظمت معقولية وقبول هذا النوع من الإقناع.

35- James Fallows, 'Bush's lost year', Atlantic Monthly, October 2004.

36- Robert Scheer, 'Fiddling while crucial programs starve', Los Angeles Times, www.latimes.com .

37- Washington Post, editorial, 4 August 2003, in: Guardian, 'The editor', 5 August 2003.

أدى العراق ـ جزئيا ـ إلى نسيان أفغانستان، حيث «لم يكن الهدف أبدا القبض على ابن لادن» (الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان، نيسان/أبريل 2002).

وعلق رمسفيلد آملا: «[ابن لادن] إما حي أو ميت. وهو موجود في أفغانستان أو غيرها».

Brendan O'Neill, 'War against what?', tompaine.com, 10 July 2002.

38- Blix, Disarming Iraq, p. 274.

39- Scheer, ibid.

40- Mathew Engel, 'Pentagon hawk at war with his own side', Guardian, 13 March 2003.

خطط البنتاغون الداخلية حددت عدد قوة الاحتلال بحوالي ثلاثين ألفا فقط.

Clarke, Against All Enemies, p. 270.

41- حول هذه النقطة، انظر:

Dan Plesch, 'Shock, awe - and tanks', Guardian, 18 April 2003.

42- Jonathan Steele, 'Fighting the wrong war', Guardian, 11 December 2001.

حجة مشابهة قدمها كونيتا، انظر:

Conetta, Strange Victory.

43- Richard Doyle, 'Minding the globe or making a mesh of it', 17-19 July 2004, Security Bytes conference, Lancaster University.

44- علقت الكاتبة الأمريكية نعومي وولف بعد إعصار كاترينا: «مثل المدمنين الذين تعافوا بعد اتباع خطوة واحدة في برنامج من اثنتي عشرة، نحن على استعداد أخيرا لسماع كيف سببنا الأذى للآخرين ـ ومحاولة التعويض».
انظر:

Naomi Wolf, 'We Americans are like recovering addicts after a four-year bender', Guardian, 7 November 2005.

Mann, Incoherent Empire, p. 139. -45

Rampton and Stauber, Weapons of Mass Deception, pp. 175-6. -46

Ibid, p. 180. -47

Franken, Lies and the Lying Liars Who Tell Them, p. 347. -48

Rampton and Stauber, ibid, p. 175. -49

Natasha Walter, 'In pursuit of spotless minds', Guardian, 26 April -50 2004.

Michael Duffy and Nancy Gibbs, 'Defender in chief', Time, 5 No- -51 vember 2001.

Woodward, Bush at War, p. 295. -52

Baudrillard, The Gulf War Did Not Take Place. -53

Paul Rogers, 'A jewel for al-Qaida's crown', 11 August 2005, -54 opendemocracy.net.

Max Rodenbeck, New York Review of Books, 11 August 2005. -55

Woodward, ibid, p. 137. -56

Rampton and Stauber, ibid, p. 142. -57

Ron Fournier, 'Bush heads for Asian summit, says world behind -58 U.S.', Tulsa World, 18 October 2001.

59- بعد وقت قصير من اعتلاء بوش الرئاسة، رفض السكرتير الصحفي للبيت الأبيض اري فليتشر الدعوات للسائقين لتخفيض استهلاك الوقود، قائلا: «يعتقد الرئيس أن هذا هو أسلوب الحياة الأمريكية.. أسلوب الحياة الأمريكية مبارك» انظر:

Singer, The President of Good and Evil, p. 135.

60- انظر على سبيل المثال:

Hanif Kureishi, 'The arduous conversation will continue', Guardian, 19 July 2005.

CNN, 'Bush makes historic speech aboard warship', 1 May –61 2003,www.cnn.com/2003/US/05/01/bush.treanscript/ ; Geoff, Full Spectrum Disorder, p. 104.

Time, index, 26 May 2003, p. 3. –62

63- انظر:

Robert Cooper, 'The new liberal imperialism', Observer Worldview Extra, 7April 2002,http://observer.guardian.co.uk/worldview/story/0,11581,680095,00.html ; 'Why we still need empires', The Observer, 7 April 2002,http://observer.guardian.co.uk/worldview/story/0,11581,680095,00.html .

من المؤكد أن كوبر أصاب حين أشار إلى منافع قبول انضمام دول البلقان وتركيا إلى الاتحاد الأوروبي، لكن الصلة مع العراق وأفغانستان ملتبسة.

64- انظر مثلا:

Moore, Will They Ever Trust Us Again?

Julian Borger, contribution to 'Iraqis wait for US troops to leaveì as -65
wives clamor for their return', Guardian, 5 July 2003.

Blix, Disarming Iraq. -66

Dershowitz, Why Terrorism Works, p. 24. -67

Ibid, p. 2 -68

Ibid, p. 25. -69

Noam Chomsky, 'Reasons to fear U.S.', Toronto star, 7 September -70
2003,http://www.chomsky.info/articles/2003 0907.htm .

Robert Cooper, 'Why we still need empires', Observer, 7 April -71
2002,http://observer.guardian.co.uk/worldview/story/
0,11581,68117,00.html .

Robert Kagan, 'The healer', Guardian, 3 March 2003. -72

Robert Kagan, 'Power and weakness', Carnegie Endowment for In- -73
ternational Peace, June 2002,http://www.ceip.org/files/print/2002-06-02-policyreview.htm ,p. 16.

Ibid. -74

Cooper, The Breaking of Nations, p. 64. -75

Ibid, p. 64. -76

Ibid, p. 65. -77

Thomas Friedman, 'Take France out off the Security Council', -78
New York Times, in: Guardian, 11 February 2003.

قارن أيضا فكرة «دار الإسلام» و«دار الحرب»، التي استحضرت لتبرير الرق في السودان. انظر:

Keen, The Benefits of Famine.

هنالك تنويع على تقسيم فريدمان للعالم يمثله التمييز في الديانة المانوية بين «الأخيار» و«الأشرار». وفي واحدة من أكثر المقالات الصحفية تعقيدا في الولايات المتحدة على الأرجح، كتب فريدمان يقول: «إذا كنا نريد التجول في أرجاء العالم لتدمير الخلايا الإرهابية من كابول إلى مانيلا، فمن الأفضل أن نتأكد أننا أفضل بلد، وأفضل مواطنين على ظهر الأرض، يمكننا ذلك.. وهذا يعني ألا نكتفي بتوجيه لكمة إلى جوه أشرار العالم، بل مد اليد إلى الأخيار أيضا». انظر:

'Ask not what', New York Times, 9 December 2001, in: Friedman, Longitudes and Attitudes, p. 87.

Barry Buzan, 'Who may we bomb', in Ken Booth and Tim Dunne -79
(eds), Worlds in Collision (Palgrave, New York and London, 2002).

Vikram Dodd and Richard Norton-Taylor, 'Video of 7/7 ringleader -80
says policy was to blame', Guardian, 2 September 2005.

Michael Ignatieff, 'Could we lose the war on terror' Lesser evils', -81
New York Times Magazine, 2 May 2004.

Ibid. -82

Ibid. -83

84- Huntington, Clash of Civilizations.

85- Edward Said, 'The clash of ignorance', Media Monitors? Network, 2001, http://www.mediamonitors.net/edward40.html .

86- قارن رأي عالم الأنثربولوجيا البريطاني ديفيد تورتون كما أوجزناها في الفصل الثاني «الاثنية.. ربما تكون نتيجة للصراع مثلما هي سبب له».

87- Berman, Terror and Liberalism.

88- من الجدير بالملاحظة أن الهجمات الإرهابية كثيراً ما تركزت على الأهداف «اللينة» في أماكن التقاء العالمين الإسلامي والغربي (تفجيرات بالي عام 2002 مثلا). وكما رأينا، نجح النازيون في إعادة تعريف الاندماج بوصفه تلوثا، والنتيجة الضمنية المستخلصة وجوب القضاء على العامل الملوث أو المعدي.

89- ذكر هنتنغتون فيما بعد أن الثقافة الإنكليزية ـ البروتستانتية في أمريكا تمثل «التيار الرئيس الغالب» و«الجوهر»، وهناك عدد من «الثقافات الفرعية» التي تشترك أيضا في هذه الثقافة الغالبة.

90- Dershowitz, Why Terrorism Works, p. 3.

91- Ibid.

92- Ibid, pp. 131-36.

93- CNN, 'Dershowitz: torture could be justified', 4 March 2003,http:// edition.cnn.com/2003/LAW/03/03/cnna.Dershowitz/ .

94- من المهم في دلالته أن ديرشوفيتز يرى أن الإرهاب ظاهرة مقلوبة رأسا

على عقب حيث الزعماء أهم من الأتباع الذين دفعتهم مكافحة الإرهاب إلى التطرف.

Dershowitz, ibid, p. 33.

Jason Burke, 'Al-Qaida is now an idea, not an organization', Guar- –95
dian, 4 August 2005.

Pratap Chatterjee and Deepa Fernandes, 'Returning to life' Alter- –96
net, 18 July 2005, www.globalpolicy.org .

97-Ignatieff, The Lesser Evil, p. 19.

Ibid, p. 8. –98

Ibid. –99

Ibid. –100

Michael Ignatieff, 'Could we lose the war on terror' Lesser evils', –101
New York Times Magazine, 2 May 2004.

Foucault, Discipline and Punishment. –102

Ibid. –103

Michael Ignatieff, 'Could we lose the war on terror? Lesser evils', –104
New York Times Magazine, 2 May 2004.

أيد اغناتييف الحرب على العراق عام 2003. انظر:

Paul Berman, Terror and Liberalism.

Stephen Holmes, 'Looking away', London Review of Books, 14 -105
November 2002,http://www.lrb.co.uk/v24/n22/print/holm01_html .

Ben Rawlence, 'Tony Blair is the original neocon', Guardian, 23 -106
October 2004.

اعتقاد بلير بأن «القيم والمصالح تندمج في النهاية» سيلقى تأييدا قويا من المحافظين الجدد. أما الصيغة السحرية التي تبنتها الحكومة البريطانية فهي: أفضل ما يشجع الأمن «نشر قيمنا».

Kampfner, Blair?s Wars, p. 77. -107

Ibid, p. 386. -108

الفصل الحادي عشر: خاتمة

1- انظر:

Henry Jenkins, 'A war of words over Iraq video games', Guardian, 15
November 2003.

Cf Keen, The Economic Functions of Violence in Civil Wars. -2

Fables de la Fontaine, Jean de la Varenda and Felix Lorioux (eds) -3
(Nantes: Beuchet and Vanden Brugge, 1949), translated for the author
by Paddy Keen.

4- انظر مثلا:

Chris Mooney, 'Interior design', American Prospect Online, 8 October
2005,http://www.prospect.org/web/printfriendly-view.ww'id=10084

5- انظر:

Gluckman, Custom and Conflict in Africa (Oxford: Basil Blackwell, 1956).

6- انظر مثلا:

Caro Baroja, The World of the Witches.

David Held, 'Violence, law and justice in a global age, -7 n.d.,www.polity.co.uk/global/sep11.htm .

8- انظر مثلا:

Jennifer Schirmer, 1999, 'The Guatemalan politico-military project: legacy for a violence peace?' Latin American Project, March, 26(2): 92-107; Keen, 'Demobilizing Guatemala'.

9- على سبيل المثال:

Woodward, Bush at War.

Jason Burke, 'The Arab backlash the militants didn't expect' Ob- -10 server, 20 June 2004.

Mann, Incoherent Empire, p. 189. -11

Savante Cornell, ?Crime without borders?, Axes Magazine, -12 2004,http://www.axess.se/english/archive/2004/nr6/currentissue .

Michael Elliot, 'Why the war on terror will never end', time, 26 -13 May 2003, p. 34.

لكن انظر أيضا:

Global Witness, 'For a few dollars more'.

James Fallows, 'Bush?s lost year', Atlantic Monthly, October 2004. -14

Michael Duffy, 'One expert's verdict: the CIA caved under pres- -15 sure', Time, 14 June 2004.

Julian Borger, 'FBI fails to cope with huge backlog of terror tapes', -16 Guardian, 29 September 2004.

Human Rights Watch, 'Violence response: the US army in al- -17 Falluja', June 2003.

Nick Cohen, 'Come on, you liberals', Observer, 4 November 2001. -18

Jeremy Seabrook, 'The making of a fanatic', Guardian, 20 Decem- -19 ber 2001; Maruf Khwaja, 'Terrorism, Islam, reform: thinking the unthinkable', 28 July 2005, opendemocracy.net.

20- انظر مثلا:

Gold, 'Some economic considerations in the U.S. war on terror'.

George Monbiot, 'The victims of the tsunami pay the price of war -21 on Iraq', Guardian, 4 January 2005.

Grace Livingstone and Owen Boycott, 'Aid cash diverted to Iraq', -22 Guardian, 23 October 2003.

Talk by Ben Wisner, 'Terrorism and development', workshop, De- -23 velopment Studies Institute, LSE, London, 17 October 2005.

24- Michael Pugh and Neil Cooper, War Economies in a Regional Context: Challenges of Transformation (Boulder, Colo.: Lynne Rienner), p. 111.

25- انظر على وجه الخصوص:

Jo Beall, 'Cities, terrorism and development', Journal of International Development, 2006, 8(1).

26- حول هذه الأخطار، انظر على وجه الخصوص:

Isabel Hilton, 'Hearts and minds at any cost', Guardian, 13 July 2004.

27- Madeleine Albright and Robin cook, ?We must cut our nuclear arsenals?, Guardian, 9 June 2004.

28- Ibid.

29- Moore, Dude, Where's My Country?, p. 24.

30- 'What happened? What changed? What now?', transcript of an openDemocracy/Q-News meeting at Chatham House, 4 August 2005, www.opendemocracy.net.

31- رائد المدرسة السلوكية هو بيرهوس سكينر، الذي أظهر كيف يمكن تغيير سلوك الفئران عبر تغيير الثواب والعقاب. الحوافز والعقوبات يمكن بالطبع أن تحدث فارقا في السلوك البشري. لكن تنبثق مشكلة عند تطبيق أفكار المدرسة السلوكية على البشر هي أنهم يدركون غالبا محاولات التأثير فيهم وتوجيههم، وهذا الإدراك في حد ذاته يرجح أن يؤثر في استجابتهم. على سبيل المثال، اعترض العديد من المواطنين في صربيا على محاولات التأثير في سلوكهم وتوجيهه من خلال العقوبات. وكما قالت لي امرأة صربية تعمل

في إحدى المنظمات الأهلية: «لا تحدد لي ما يجب أن أفكر فيه وأفعله». وأضافت معلقة على قصف حلف الناتو عام 1999: «القصف كان مفيدا لميلوسيفيتش، وحين تكون معاديا له فأنت مؤيد لحلف الناتو».

32- Peter Burnell, 'Democracy promotion: the elusive quest for grand strategies', Internationale Politik und Gesellschaft (2004), 204(3): 100-16.

33- انظر على سبيل المثال:

Thandika Mkandawire, 'Thinking about developmental states in Africa', Cambridge Journal of Economics (2001), 25.

34- Ronan Bennett, contribution to 'What would you do?' Guardian, 28 February 2003.

35- Jonathan Steele, 'It feels like 1967 all over again', Guardian, 9 April 2003.

36- David Held, 'Violence, law and justice in a global age', n.d., 1,www.polity.co.uk/global/sep11.htm.

37- Edward Said, 'A widow on the world', Guardian, [G2], 2 August 2003.

38- Ibid.

39- Ibid

40- Keen, The Benefits of Famine.

41- Manji, The Trouble with Islam Today, pp. 13-14.

42- Said, ibid.

مراجع

African Rights, *Rwanda: Death, despair and defiance* (London, 1994).

Allen, Tim. 'The Violence of Healing', *Sociologus*, 1997, **47**(2).

Allen, Tim. 'Understanding Health: Biomedicine and local knowledge in northern Uganda', in: R. Edmondson and C. Kelleher (eds), *Health Promotion: New discipline or multi-discipline?* (Dublin: Irish Academic Press, 2000).

Allen, Tim. 'From the Holy Spirit Movement to the International Criminal Court', Crisis States Research Center, paper presented in New Delhi (December 2004).

Amnesty. 'Afghanistan: Report 2003', http://web.amnesty.org/report2003/afg-summary-eng.

Arendt, Hannah. *The Origins of Totalitarianism* (New York: Harcourt, 1951).

Arendt, Hannah. *The Human Condition* (Chicago: University of Chicago Press, 1958).

Arendt, Hannah. *On Violence* (Orlando, Fla: Harcourt Brace, 1969).

Arendt., Hannah. *Eichmann in Jerusalem: A report on the banality of evil* (London: Penguin, 1994).

Barry, Tom. 'How Things Have Changed', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).

Barry, Tom and Jim Lobe. 'The People', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).

Barstow, Anne. *Witchcraze: A new history of the European witch hunts* (London: Pandora, 1994).

Bartov, Omer. *Mirrors of Destruction: War, genocide, and modern identity* (Oxford: Oxford University Press, 2000).

Baudrillard, Jean. *The Gulf War Did Not Take Place*, trans. Paul Patton (Bloomington: Indiana University Press, 1995).

Beck, Sara and Malcom Downing (eds). *The Battle for Iraq: BBC news correspondents on the war against Saddam and a new world agenda* (London: BBC Worldwide, 2003).

Behrend, Heike. 'War in Northern Uganda', in: Christopher Clapham (ed.), *Africa Guerrillas* (Oxford: James Currey; Kampala: Fountain; Bloomington and Indianopolis: Indiana University Press, 1998).

Berdal, Mats and David Keen, 'Violence and Economic Agendas in Civil Wars: Considerations for policymakers', *Millennium*, (1997), **26**(3).

Berman, Bruce. 'Ethnicity, Patronage and the African State: The politics of uncivil nationalism', *African Affairs* (1998), **97**(388): 305–41.

Berman, Paul. *Terror and Liberalism* (New York/London: W. W. Norton, 2003)

Beyani, Chaloka. 'International Law and the "War on Terror"', in Joanna Macrae and Adele Harmer, 'Humanitarian Action and the "Global War on Terror"', HPG Report 14, Overseas Development Institute, London

Blix, Hans. *Disarming Iraq: The search for weapons of mass destruction* (London: Bloomsbury, 2004).
Bruni, Frank. *Ambling into History: The unlikely odyssey of George W. Bush* (New York: Perennial, 2002).
Burke, Jason. *Al-Qaeda: Casting a shadow of terror* (London and New York: I. B. Tauris, 2003).
Caro Baroja, Julio. *The World of the Witches*, translated from Spanish by Nigel Glendinning (London: Phoenix Press, 2001; orig. pub. 1961).
Castells, Manuel. *End of Millennium* (Oxford and Malden, Mass.: Blackwell, 1998).
Chabal, Patrick and Jean-Pascal Daloz. *Africa Works: Disorder as political instrument* (Oxford: James Currey and Bloomington: Indiana University Press).
Chomsky, Noam. 'Terror and Just Response', in: Milan Rai (ed.), *War Plan Iraq* (London: Verso, 2002).
Clarke, Richard A., *Against All Enemies: Inside America's war on terror* (London: Free Press, 2004).
Clay, Edward and Bernard Schaffer. *Room for Manoeuvre: An exploration of public policy in agriculture and rural development* (London: Heinemann Educational, 1984).
Cock, Jackie. 'Gun Violence and Masculinity in Contemporary South Africa', in: Robert Morrell (ed.), *Changing Men in South Africa* (London: Zed, 2001).
Cohen, Stanley. *States of Denial: Knowing about atrocities and suffering* (Cambridge: Polity, 2001).
Collier, Paul. 'Doing Well out of War', in: Mats Berdal and David Malone (eds), Greed and Grievance (Boulder and London: Lynne Rienner, 2000).
Conetta, Carl. 'Strange Victory: A critical appraisal of Operation Enduring Freedom and the Afghanistan war', Project on Defense Alternatives (Cambridge, Mass., 12 February 2002).
Cooper, Robert. *The Breaking of Nations: Order and chaos in the twenty-first century* (London: Atlantic Books, 2004).
Curtis, Mark. *The Great Deception: Anglo-American power and world order* (London: Pluto, 1998).
Daizaburo, Yui. 'Between Pearl Harbor and Hiroshima/Nagasaki: A psychological vicious circle', *Bulletin of Concerned Asian Scholars* (April–June 1995), 27(2).
Davis, Shelton H. 'Introduction: Sowing the seeds of violence', in: Robert M. Carmack (ed.), *Harvest of Violence: The Maya Indians and the Guatemalan crisis*, reprint edn (Norman and London: University of Oklahoma Press, 1992; first published 1988).
de Torrente, Nicolas. 'Humanitarian Action under Attack: Reflections on Iraq war', *Harvard Human Rights Journal* (spring 2004), 17.
de Waal, Alex. 'A Disaster With No Name: The HIV/AIDS pandemic and the limits of governance', in: G. Ellison, M. Parker and C. Campbell (eds), *Learning from HIV and AIDS* (Cambridge: Cambridge University Press, 2003).

Dershowitz, Alan M. *Why Terrorism Works* (New Haven and London: Yale University Press, 2002).
Dixon, Bishop W. Nah. *Great Lessons of the Liberian Civil War, and What Did We Learn? A personal view* (Monrovia: Feed My People, 1992).
Duffield, Mark. *Global Governance and the New Wars: The merging of development and security* (London: Zed, 2001).
Duffield, Mark . 'Getting Savages to Fight Barbarians: Development, security and the colonial present', *Conflict, Development and Security*, (2005) 5(2).
Dunn, David Hastings. 'Myths, Motivations and "Misunderestimations": The Bush administration and Iraq', *International Affairs* (2003), 79(2).
Ehrenreich, Barbara. *Blood Rites: Origins and history of the passions of war* (New York: Metropolitan Books/Henry Holt, 1997).
Ehrenreich, Barbara. 'Preface', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Ellis, Stephen, *The Mask of Anarchy: The destruction of Liberia and the religious dimension of an African civil war* (London: Hurst, 1999).
Evans-Pritchard, Edward. *Witchcraft, Oracles and Magic among the Azande* (London: Faber and Faber, 1937).
Faludi, Susan. *Stiffed: The betrayal of the modern man* (London: Chatto & Windus, 1999).
Fanon, Frantz. *The Wretched of the Earth* (Penguin: Harmondsworth, 1965).
Feffer, John. 'Introduction', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Feffer, John. 'Response', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Feffer, John (ed.) *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Foucault, Michel. *Discipline and Punish: The birth of the prison* (Harmondsworth, Peregrine, 1979).
Foucault, Michel. *Power/Knowledge: Selected interviews and other writings, 1972–1977*, ed. C. Gordon (Brighton: Harvester, 1988).
Fouda, Yosri and Nick Fielding. *Masterminds of Terror: The truth behind the most devastating terrorist attack the world has ever seen* (Edinburgh: Mainstream, 2003).
Frank, Thomas. *What's the Matter with America? The resistible rise of the American right* (London: Secker and Warburg, 2004; pub. in the USA as *What's the matter with Kansas?*).
Franken, Al. *Lies and the Lying Liars who Tell Them*, 2nd edn (London: Penguin, 2004).
Friedman, Thomas. 'Smoking or Non-Smoking', *New York Times*, 14 September 2001.
Friedman, Thomas. *Longitudes and Attitudes: Exploring the world before and after September 11* (London: Penguin, 2003; first pub. 2002).
Frum, David and Richard Perle. *An End to Evil: How to win the war on terror* (New York: Random House, 2003).

Gall, Carlotta and Thomas de Waal. *Chechnya: A small victorious war* (London: Pan Original, 1997).
Gerges, Fawaz. *The Far Enemy: Why jihad went global* (Cambridge and New York: Cambridge University Press, 2005).
Gilligan, James. *Violence: Reflections on our deadliest epidemic* (London: Jessica Kingsley, 2000).
Girard, Rene. *Violence and the Sacred*, trans. Patrick Gregory, 2nd edn (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1977; orig. pub. 1972).
Global Witness. 'For a Few Dollars More: How al Qaeda moved into the diamond trade' (London, April 2003, www.globalwitness.org).
Glover, Jonathan, *Humanity: A moral history of the 20th century* (London: Jonathan Cape, 1999).
Gluckman, Max. *Custom and Conflict in Africa* (Oxford: Basil Blackwell, 1956).
Goff, Stan. *Full Spectrum Disorder: The military in the new American century* (Brooklyn, New York: Soft Skull, 2004).
Gold, David. 'Some Economic Considerations in the U.S. War on Terrorism', *Quarterly Journal* (March 2004), 3(1).
Goodman, Mel. 2003. 'Intelligence', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Gooptu, Nandini. *The Politics of the Urban Poor in Early Twentieth Century India* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).
Halliday, Fred. *Two Hours that Shook the World, September 11, 2001: Causes and consequences* (London: Saqi, 2002).
Hare, David. 'Don't Look For a Reason', *Guardian*, 12 April 2003.
Hartung, William D. 'Military-Industrial Complex Resisted: How weapons makers are shaping U.S. foreign and military policies', *Foreign Policy in Focus* (1999), www.fpif.org/papers/micr/introduction_body.html.
Hartung, William D. 'Military', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Harvey, D. 2004. In conversation with Harry Kreisler. UC Berkeley, http://globetrotter.berkeley.edu/people4/Harvey/harvey-con0.html.
Held, David. 'Violence, law and justice in a global age', n.d. (www.polity.co.uk/global/sept11.htm).
Hersh, Seymour M. *Chain of Command* (London: Penguin, 2005).
Hilton, Boyd. *The Age of Atonement: The influence of evangelicalism on social and economic thought, 1795–1865* (Oxford: Clarendon Press, 1991).
Hitchens, Christopher. *Regime Change* (London: Penguin, 2003).
Hobsbawm, Eric. *Bandits* (Harmondsworth: Penguin, 1972; first pub. 1969).
Hofstadter, Richard. *The Paranoid Style in American Politics and Other Essays* (New York: Alfred A. Knopf, 1965).
Honey, Martha. 'Africa', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Horowitz, David. *Unholy Alliance: Radical Islam and the American left* (Washington, D.C.: Regnery, 2004).

Human Rights Watch. 'Needless deaths in the Gulf War: Civilian casualties during the air campaign and violations of the laws of war' (New York, www.hrw.org/reports/1991/gulfwar/INTRO.htm, pub. c. 1991).

Human Rights Watch. *Evil Days: 30 years of war and famine in Ethiopia* (New York, Washington, Los Angeles, London, 1991).

Human Rights Watch. *World Report 2005: Events of 2004* (New York, 2005)..

Huntington, Samuel P. *The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order* (London: Touchstone/Simon & Schuster, 1998).

Huntington, Samuel. *Who are We? America's great debate*, 2nd edn (London: Simon and Schuster, 2005).

Ignatieff, Michael. *Blood and Belonging: Journeys into the new nationalism* (London: BBC Books/Chatto & Windus, 1993).

Ignatieff, Michael. *The Lesser Evil: Political ethics in an age of terror* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2004).

Jackson, Michael. *In Sierra Leone* (Durham and London: Duke University Press, 2004).

Johnson, Chris. 'Afghanistan and the "War on Terror"', in: Joanna Macrae and Adele Harmer (eds), *Humanitarian Action and the 'Global War on Terror': A review of trends and issues*. HPR Report 14, Overseas Development Institute (London, July 2003).

Jones, Anthony and George Fay. Investigation of Intelligence Activities at Abu Ghraib, Combined Joint Task Force Seven (US government, 2004).

Juergensmeyer, Mark. *Terror in the Mind of God: The global rise of religious violence* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2001; first pub. 2000).

Juergensmeyer, Mark. 'Religious Terror and Global War', *Global & International Studies Program* (University of California, Santa Barbara, 5 April 2002, http://repositories.cdlib.org/gis/2).

Kagan, Robert. *Paradise and Power: America and Europe in the new world order* (London: Atlantic, 2003).

Kaldor, Mary. 'American Power: From "compellance" to cosmopolitanism', *International Affairs* (January 2003), **79**(1).

Kampfner, John. *Blair's Wars* (London: Free Press, 2003; 2nd edn 2004).

Kean, Thomas and Lee Hamilton. 'The 9/11 Report', National Commission on Terrorist Attacks Upon the United States (New York: St Martin's Press, 2004).

Keen, David. *The Kurds in Iraq: How safe is their haven now?* (London, Save the Children, 1993).

Keen, David. *The Benefits of Famine: A political economy of famine and relief in southwestern Sudan, 1983–1989* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994).

Keen, David. *The Economic Functions of Violence in Civil Wars*, Adelphi paper no. 319 (Oxford: Oxford University Press/International Institute for Strategic Studies, 1998).

Keen, David. '"Since I Am A Dog, Beware My Fangs": Beyond a "rational violence" framework in the Sierra Leonean war', Crisis States

Programme working paper no. 14 (London: Crisis States Programme, August 2002, www.crisisstates.com).
Keen, David. 'Demobilising Guatemala', Crisis States Programme working paper no. 37 (London: Crisis States Programme, November 2003; crisis-states.com/download/wp/wp37.pdf).
Keen, David. *Conflict and Collusion in Sierra Leone* (Oxford: James Currey, 2005).
Kellner, Douglas. *From 9/11 to Terror War: The dangers of the Bush legacy* (Boulder, Colo.: Rowman and Littlefield, 2003).
Kepel, Gilles. *Jihad: The trail of political Islam* (London and New York: I. B. Tauris, 2002).
Kerbel, Matthew. *If it Bleeds it Leads: An anatomy of television news* (Boulder, Colo./Oxford: Westview, 2000).
Kernberg, Otto F. 'Sanctioned Social Violence: A psychoanalytic view', *International Journal of Psychoanalysis* (June 2003), **84**(3).
Kiernan, Ben. *The Pol Pot Regime: Race, power, and genocide in Cambodia under the Khmer Rouge, 1975–79* (New Haven, Conn./London: Yale University Press, 1998).
Klare, Michael T. 'Resources', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).
Klein, Melanie and Joan Riviere, *Love, Hate and Reparation* (New York: W. W. Norton, 1964)
Lapham, Lewis. *Theater of War: In which the republic becomes an empire* (New York: New Press, 2003).
Lary, Diana. *Warlord Soldiers: Chinese common soldiers 1911–1937*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1985).
Lewis, Bernard. *The Crisis of Islam: Holy war and unholy terror* (London: Phoenix, 2003).
Lieven, Anatol, *Chechnya: Tombstone of Russian power* (New Haven and London: Yale University Press, 1999).
Longley, Clifford. *Chosen People: The big idea that shaped England and America*, 2nd edn (London: Hodder and Stoughton, 2003).
Macfarlane, Alan. *Witchcraft in Tutor and Stuart England: A regional and comparative study* (London: Routledge and Kegan Paul, 1970).
Mailer, Norman. *Why Are We at War?* (New York: Random House, 2003).
Makiya, Kanan. *Republic of Fear: The politics of modern Iraq* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1998).
Mamdani, Mahmood. *Citizen and Subject: Contemporary Africa and the legacy of late colonialism* (Kampala: Fontana; Cape Town: David Philip; London: James Currey, 1996).
Mamdani, Mahmood. *When Victims Become Killers: Colonialism, nativism, and the genocide in Rwanda* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2001), pp. 185–233.
Manji, Irshad. *The Trouble with Islam Today: A wake-up call for honesty and change*, 2nd edn (Edinburgh and London: Mainstream, 2005).
Mann, Michael. *Incoherent Empire* (London, New York: Verso, 2003).

Marwick, Max G. *Sorcery in its Social Setting: A study of the Northern Rhodesian Cewa* (Manchester: Manchester University Press, 1965).

Micklethwait, John and Adrian Wooldridge. *The Right Nation: Why America is different*, 2nd edn (London: Penguin, 2005).

Miller, David. (ed.) *Tell Me Lies: Propaganda and media distortion in the attack on Iraq* (London: Pluto, 2004).

Moore, Michael. *Stupid White Men* (New York: HarperCollins, 2001).

Moore, Michael. *Dude, Where's My Country?* (London: Allen Lane, 2003).

Moore, Michael. *Will They Ever Trust Us Again? Letters from the war zone* (London: Allen Lane, 2004).

Muana, Patrick. 'The Kamajoi Militia: Civil war, internal displacement and the politics of counter-insurgency', *African Development* (1997), 22(3 & 4).

Naughtie, James. *The Accidental American: Tony Blair and the presidency* (London: Macmillan, 2004).

Northcott, Michael. *An Angel Directs the Storm: Apocalyptic religion and American empire* (London and New York: I. B. Tauris, 2004).

Nye, Joseph. *Soft Power: The means to success in world politics* (New York: Public Affairs, 2004).

Paine, Thomas. 'Common Sense', first published 1776, accessed at http://www.gppsd.ab.ca/rgilson/courses/ss23/t_paine_common sense.html

Pemberton, Miriam and John Feffer. 'How Things Should Change', in J. Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).

Piaget, Jean and Barbel Inhelder. *The Psychology of the Child* (New York: Basic Books, 1969).

Prunier, Gerard. *Darfur: The ambiguous genocide* (London: Hurst, 2005).

Putzel, James. 'The Philippine–US Alliance in post-September 11 Southeast Asia', in: Mary Buckley and Rick Fawn (eds), *Global Responses to Terrorism: 9/11, Afghanistan and beyond* (London: Routledge, 2003).

Putzel, James 'Cracks in the US Empire: Multilateralism, unilateralism and the "war on terror"', *Journal of International Development*, 2006, 8(4).

Rampton, Sheldon and John Stauber. *Weapons of Mass Deception: The uses of propaganda in Bush's war on Iraq* (London: Robinson, 2003).

Rampton, Sheldon and John Stauber. *Banana Republicans: How the right wing is turning America into a one-party state* (London: Robinson, 2004).

Rashid, Ahmed. *Taliban: Islam, oil and the new great game in Central Asia* (London and New York: I. B. Tauris, 2000).

Richani, Mazih. *Systems of Violence: The political economy of war and peace in Colombia* (Albany: State University of New York Press, 2002).

Richards, Paul. 'Rebellion in Liberia and Sierra Leone: A crisis of youth?', in: Oliver Furley (ed.), *Conflict in Africa* (London: Tauris Academic Studies, 1995).

Richards, Paul. *Fighting for the Rain Forest: War, youth and resources in Sierra Leone* (Oxford: James Currey, 1996).

Riviere, Joan. 'Hate, Greed and Aggression', in: Melanie Klein and Joan Riviere (eds), *Love, Hate and Reparation* (New York: W. W. Norton, 1964).
Robben, Antonius 'The Fear of Indifference: Combatants' anxieties about the political identity of civilians during Argentina's Dirty War', in: Kees Koonings and Dirk Kruigt (eds), *Societies of Fear* (London: Zed Books, 1999).
Roberts, Hugh. 'North African Islamism in the Blinding Light of 9-11', working paper no. 34 (October 2003), Crisis States Programme, DESTIN, LSE, www.crisisstates.com.
Robins, Robert and Jerrold Post. *Political Paranoia: The psychopolitics of hatred* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1997).
Roy, Arundhati. *The Ordinary Person's Guide to Empire* (London: Harper Perennial, 2004).
Rumsfeld, Donald. 'Transforming the Military', *Foreign Affairs* (May/June, 2002), **81**(20).
Ruthven, Malise. *A Fury for God: The Islamist attack on America* (London: Granta, 2002).
Said, Edward. 'The Clash of Ignorance', Media Monitors' Network, 2001, http://www.mediamonitors.net/edward40.html.
Scheff, Thomas J. *Bloody Revenge: Emotions, nationalism, and war* (Boulder, Colo.: Westview Press, 1994).
Scheper-Hughes, Nancy. *Death Without Weeping: The violence of everyday life in Brazil* (Berkeley: University of California Press, 1992).
Short, Clare. *An Honourable Deception? New Labour, Iraq and the misuse of power* (London: Simon and Schuster, 2004).
Short, Philip. *Pol Pot: The history of a nightmare* (London: John Murray, 2005; hardback 2004).
Singer, Peter. *The President of Good and Evil: Taking George W. Bush seriously* (London: Granta Books, 2004).
Solzhenitzyn, Alexander. *The Gulag Archipelago* (New York: Harper and Row, 1975).
Soros, George. *The Bubble of American Supremacy* (London: Weidenfeld & Nicolson, 2004).
Stanford, Peter. *The Devil: A biography* (London: Arrow, 1998).
Stannard, D. 1992. *American Holocaust: Columbus and the conquest of the New World* (New York and Oxford: Oxford University Press).
Stoll, David. 'Evangelicals, Guerrillas and the Army: The Ixil triangle under Rios Montt', in: Robert M. Carmack (ed.), *Harvest of Violence: The Maya Indians and the Guatemalan crisis* (Norman and London: University of Oklahoma Press, 1992; first edn pub. 1998).
Stothard, Peter. *30 Days: A month at the heart of Blair's war* (London: Harper Collins, 2003).
Strauss, Scott. 'Darfur and the Genocide Debate', *Foreign Affairs* (January/February, 2005), **81**(4).
Strauss, Leo. *Thoughts on Machiavelli* (Chicaco: University of Chicago Press, 1958).

Stremlau, John. *The International Politics of the Nigerian Civil War, 1967–1970* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1977).

Summerfield, Derek. 'The Social Experience of War and some Issues for the Humanitarian Field', in: Patrick Bracken and Celia Petty (eds), *Rethinking the Trauma of War* (London: Save the Children/Free Association Books, 1998).

Suskind, Ron. *The Price of Loyalty* (London: Free Press and Simon & Schuster, 2004).

Suskind, Ron. 'Without a Doubt', *New York Times Magazine*, 17 October 2004, accessed via LexisNexis.

Theweleit, Klaus. *Male Fantasies* (Cambridge: Polity, 1987).

Thomas, Keith. *Religion and the Decline of Magic* (London: Penguin, 1978).

Thomas, Robert. *Serbia under Milosevic: Politics in the 1990s* (London: Hurst, 1999).

Thrupkaew, Noy. 'Culture', in: John Feffer (ed.), *Power Trip: US unilateralism and global strategy after September 11* (New York: Seven Stories, 2003).

Timmerman, Kenneth. *The Death Lobby: How the West armed Iraq* (London: Bantam, 1992).

Todd, Emmanuel. *After the Empire: The breakdown of the American order*, trans. C. Jon Delogu (London: Constable and Robinson, 2004).

Turton, David and Peter Marsden. 'Taking Refugees for a Ride? The politics of refugee return to Afghanistan', Afghanistan Research and Evaluation Unit (Kabul, December 2002).

US Department of State, 'The National Security Strategy of the United States of America', September 2002, http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/secstrat.htm.

Vidal, Gore. *Perpetual War for Perpetual Peace: How we got to be so hated – causes of conflict in the last empire* (Forest Row: Clairview, 2002).

Wilson, Ken. 'Cults of Violence and Counter-Violence in Mozambique', *Journal of Southern Africa Studies* (1992), **18**(3): 527–82.

Woodward, Bob. *Bush at War* (London: Simon and Schuster, 2002).

Woodward, Bob. *Plan of Attack* (London: Simon and Schuster, 2004).

Wright, Evan. *Generation Kill* (London: Corgi, 2004).

Zinn, Howard. *A People's History of the United States, 1492–Present* (New York: Perennial Classics, 2003).

Zur, Judith N. *Violent Memories: Mayan war widows in Guatemala* (Boulder, Colo.: Westview Press, 1998).